مواقف وبطولات سودانية

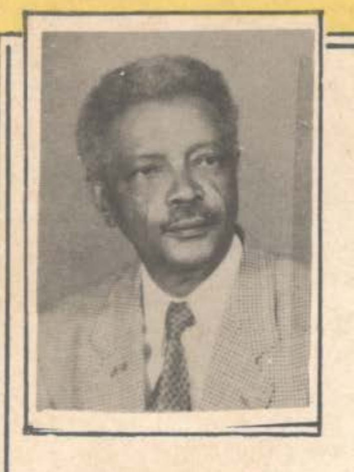
فى الحرب العالمية الثانية

محمد خير البدوى





S · D · F



محمد خير البدوى :

* من مواليد قرية القليعة بدار الرباطاب .
* تلقى تعليمه بامدرمان فى مدرسة الأحفاد ثم كلية غردون التذكارية .
* كان عضواً فى اللجنة التنفيذية لحزب الاتحاديين وإنتدبه المركز العام لمؤتمر الخريجين لتنظيم مقاطعة الجمعية التشريعية فى أتبرا فى عام ١٩٤٧م وحوكم من جراء ذلك بالسجن لمدة عامين ونصف وهذا أطول حكم فى تاريخ الحركة الوطنية أصدرته الادارة البريطانية منذ نشأة مؤتمر الخريجين .
* شارك فى تأسيس الحزب الجمهورى الاشتراكي (التشكيل السياسى لزعماء العشائر والادارة الأهلية) وكان من مندوبى الحزب فى المفاوضات مع مصر وبريطانيا وهى المفاوضات التى توجت باستقلال السودان .
* من الملمين بقضايا جنوب السودان ومشاكله وقد عمل هناك عدة سنوات وكان رئيساً للجنة القومية لتحرير فلسطين فى جوبا عام ١٩٤٧ . وأسهم فى إدخال الحركة النقابية الى الجنوب وتنظيم أول أضراب عمالى هناك . وكان أميناً عاماً لنقابة مستخدمى مشروع الزاندى .
* فى مجال الاعلام عمل محرراً ورئيساً للتحرير فى الصحافة السودانية ووكالة رويتر ومراسلاً للصحافة الأجنبية . وعندما أجبرته حكومة عبود على مغادرة البلاد التحق بهيئة الاذاعة البريطانية (لندن) وبقى فيها الى أن استقال منها فى عام ١٩٨٥ احتجاجاً على سياساتها الصهيونية وعدائها للعروبة والإسلام .

يحيى محمد عبد القادر





مسطورات
MUSTORAT
INTERNET ARCHIVE

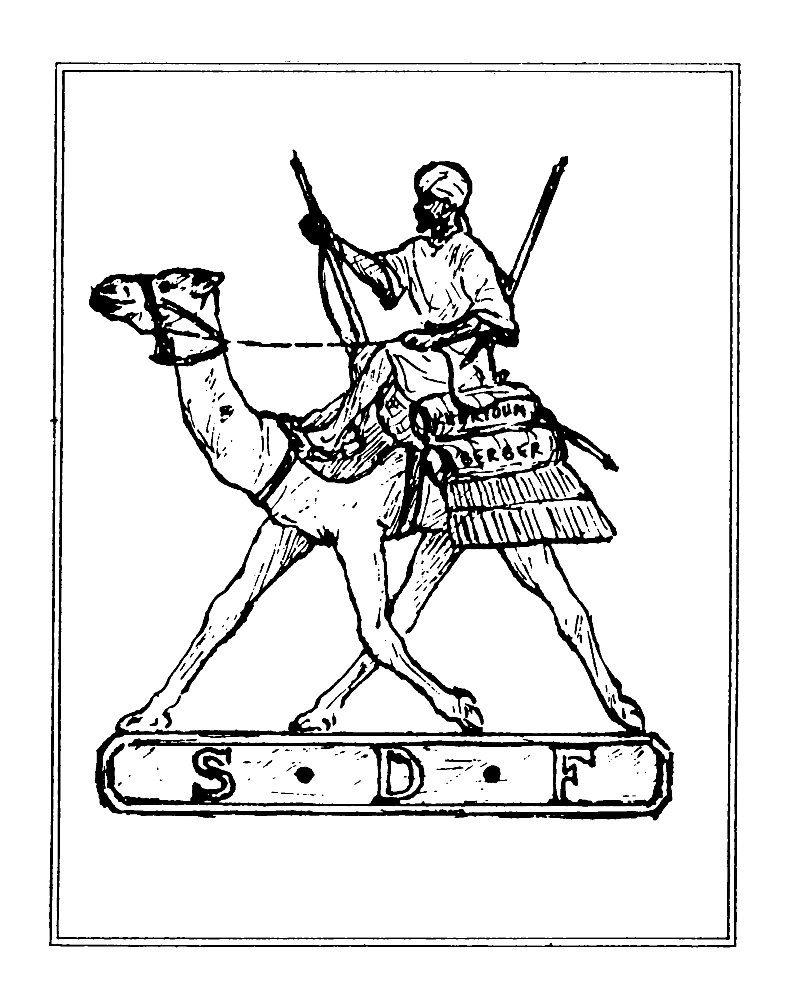
مواقف وبطولات سودانية

في الحرب العالمية الثانية

بقلم محمد خير البدوي

---

52 MONKFRITH WAY
LONDON N. 14 5ND
UNITED KINGDOM



التصميم : حامد حلوف آدم

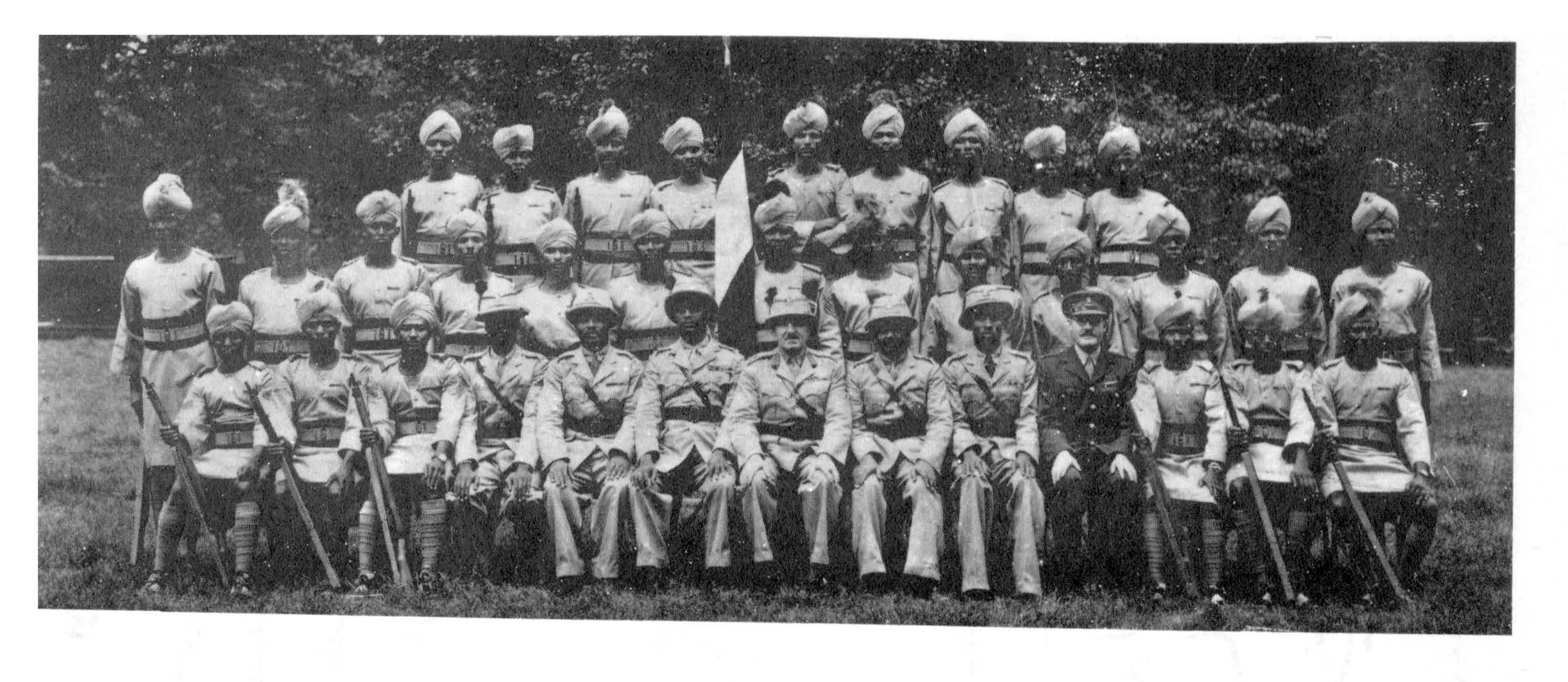
الطابعون : مطبعة جامعة الخرطوم

الأهـــداء

إلى القـائـد الأعلى والقـائـد العام للقوات السودانية المسلحة والضباط والصف والجنود فى الماضى والحاضر والمستقبل أهدى هذه الصفحات من أمجادنا التي كان المقاتل السوداني واسطة العقد فيها .

محمد خير البدوى

أيها السودانى ارفع رأسك عاليًا
وقل للعالم نحن أنقذناكم
من النازية و الفاشية



قوة الدفاع السودانية فى لندن

صورة تذكارية للوحدة السودانية التى أشتركت فى موكب السلام فى لندن بمناسبة إنتهاء الحرب العالمية الثانية فى اليوم الثامن من يونية ١٩٤٦ :

فى الصورة :
باشجاويش كوة أبو راس ، الجاويش بشير محمد عمر ، وكيل أونباشى محمد إبراهيم حمد ، أونباشى أحمد محمد أحمد ، الجاويش حسين أبكر ، الجاويش رجب عبد الرحيم ، باشجاويش آدم محمد ، قائمقام برايس بك ، الصول بابكر أفندى محمد طاهر ، وكيل أونباشى كورى حمودة ، يوزباشى حمد النيل أفندى ضيف الله ، الجاويش خضر حسن ، النفر جبارة قسم الله ، البكباشى عبد الرزاق أفندى على طه ، وكيل أونباشى مختار محمد ، الجاويش آدم بخيت ، الجاويش مصطفى سليمان ، اللواء جيفورد باشا ، الباشجاويش أزرق نايل ، نفر إدريس صالح ، قائمقام حسن بك الزين ، الجاويش دفع الله الطريفى ، الجاويش إدريس محمد إدريس ، الصاغ أحمد أفندى عبد الله حامد ، أونباشى عبد الله السيد ، الجاويش جمعة عبد الله ، ملازم عبد الحميد أفندى خير السيد ، أونباشى الأمين عشيب ، الجاويش النور بشير ، الباشجاويش عبد الله محمد ، الجاويش آدم إبراهيم ، الجاويش عبد المجيد عباس ، أونباشى الساكن أحمد ، أونباشى شمين محمد صالح ، الباشجاويش إبراهيم عبد الفضيل .

تقـديـم

بقلم : البروفيسور يوسف بـدرى

من العسير على شخص غير جندى أن يستوعب قيم وفلسفة الجندية لكى يتفاعل مع سفر كهذا الذى جمعه الأستاذ محمد خير البدوى . غير أن الطريقة المبتكرة التى انتهجها فى كتابة التاريخ العسكرى تشد القارئ وتجعله يواصل القراءة فى السفر دون ملل رغم تكرار بعض الأحداث كما أن خيال الكاتب وحسه الوطنى يجعلان القارئ يتجاوز ملل التكرار حيث يتجدد السيناريو فى صورة حسية ملموسة تزيد من رونقها جزالة الأسلوب ومعالجة الوقائع باسلوب قصصى يمزج بين الجد والفكاهة . ولا أعلم مدنياً كتب من قبل عن تاريخنا العسكرى باستثناء الأمير عمر طوسون وهكذا يعتبر هذا السفر الذى بين يدى القارئ تجربة سودانية رائدة .

أن تكوين قوة دفاع السودان فى حد ذاته حدث تاريخى هام باعتباره اللبنة الأولى لفصل مصر والسودان عن بعضهما ادارياً وعسكرياً وترتب على ذلك انهيار وحدة وادى النيل التى كانت حلماً يراود جميع أهل الوادى .

ولعل الكاتب بحسه التاريخى وخلفيته السياسية والوطنية المعروفة لدى معاصريه قد استهوته بسالة وبطولات الجنود السودانيين ولما يمض على نشأة قوة الدفاع أكثر من ١٥ عاماً وهذه حقبة قصيرة فى تاريخ الجيوش . ومع ذلك اقتحم رجال قوة الدفاع ساحات الوغى جنباً إلى جنب مع قوات حليفه مرت على نشأتها مئات السنين وخاضوا معارك ضد جيوش شرسة غازية مما الهب حمية الشعراء والمغنين فسارت الركبان مرددة الانتصارات الباهرة التى حققتها القوات السودانية الفتية فى كرن واغوردات وامبالاجى حيث جبال اثيوبيا الوعرة وفى صحارى ليبيا الملتهبة .

لقد شارك جيل الشباب السودانى منذ الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات قوة الدفاع فى حلاوة ولذاذات النصر والذود عن حياض الوطن واصبحت قوة الدفاع رمز منعة للمواطن السودانى من أقل نفر إلى أعلى رتبة . وجاد المواطنون السودانيون لها بمال الفداء وضريبة الدفاع ولعل هذا من أقوى الدوافع التى حفزت الكاتب لإصدار هذا الكتاب . ويكفى القول بأنه يؤدى بذلك ديناً لقضية أخذت آثارها ومآثرها تتوارى وراء سحائب النسيان .

لقد اثبتت قوة دفاع السودان انها متطورة وجسورة حيث حملت راية الدفاع بصدق وعزيمة حتى اسلمتها لجيش السودان الذى عُرف بأسم القوات المسلحة ثم قوات الشعب المسلحة .

يوسف بـدرى

الوحدة السودانية مع القوات الحليفة في الاستعراض الذي أقيم في لندن ١٩٤٥ بمناسبة عيد النصر



المنصة: الملك جورج السادس وعقيلته الملكة اليزابيث — ● من اليمين: الصف الأمامي: أميرالاي هيفورد بك
بكباشي عبد الرزاق أفندي علي طه — قائمقام حسن بك محمد زين (كبير الضباط الوطنيين) ● الصف الخلفي: ملازم أول
عبد الحميد أفندي نهر السيد — الصاغ أحمد أفندي عبد الله حامد — يوزباشي محمد النيل أفندي ضيف الله — ثم صف الضباط
والجنود الذين يمثلون مختلف الأسلحة السودانية.

المقـــدمـــة :-

أتى على السودان حين من الدهر لا يعرف العالم الخارجى فيه شيئاً عنه غير أنه بقعة معزولة يقطنها أقوام أشرار متوحشون يحتسون القار ويزفرون النار . وكان الاعتقاد الشائع أن أولئك الأقوام سدنة منابع النيل المقدسة فى قلب القارة المظلمة عند جبال القمر التى فيها أسرار السماء . وبقى السودان على حاله لغزاً غامضاً وسراً حين أقبل الجغرافيون على تغطية مواقع واصقاع فارغة فى خرائطهم برسومات يصورون فيها من نسج الخيال العمالقة والسعالى ومخلوقات خرافية نصفها رجل والنصف الآخر على هيئة الفرس أو نساءً دون رؤوس يتلمسن الطريق وسط جبال يتصاعد الدخان منها وأغوار سحيقة لا قرار لها . وأخذ السودان يقترب من بهرة الأضواء فى النصف الثانى من القرن الماضى عندما أصبح بفضل الثورة المهدية أول قطر عربى يشق عصا الطاعة على الخلافة العثمانية ويتحرر من ربقتها واقترن ذلك بانبثاق دعوة الاصلاح الاسلامية على يد جمال الدين الأفغانى وحواريه ومنهم الامام محمد عبده . ومع ذلك ظل السودان بقعة نائية مجهولة الى حد كبير بين كثير من الناس الى أن حلت الحقبة التى يتناولها هذا الكتاب (١٩٣٩ - ١٩٤٥) وكان يعرف آنذاك باسم السودان المصرى الانجليزى وتهيمن على شئونه ومقدراته حكومة السودان نيابة عن مصر وبريطانيا بمقتضى معاهدة الحكم الثنائى المبرمة بينهما بعد سقوط دولة المهدية . وحددت تلك المعاهدة طبيعة دور حكومة السودان كوصية على سكان السودان هدفها الأول تحقيق الرفاهية لهم .

وسلكت الحكومة منذ البداية سياسات لتحقيق الرفاهية شملت استعادة الاستقرار والأمن العام والمحافظة عليهما وتوفير وسائل النقل والمواصلات والخدمات الطبية للوقاية من الأوبئة والأمراض وتشجيع التجارة والاستعانة بالأساليب العلمية الحديثة على تطوير الزراعة والثروة الحيوانية . وشملت تلك السياسات أيضاً نشر التعليم والعمل على انتقال السلطات الادارية الى أهل البلاد من خلال جهاز للخدمة المدنية ذى صبغة وطنية محايدة . وكان أمام حكومة السودان فى سنواتها الأولى مزايا ومسالب البدء من الصفر لأن فترة الثلاثة عشر عاماً التى أمضاها السودان تحت حكم المهدية قضت قضاء مبرماً على كل أثر للنظم الادارية فى العهود السابقة وأضعفت أو دمرت - مع استثناءات معينة - الولاءات والوحدات القبلية . ويؤخذ من التقديرات أن عدد سكان السودان تدهور خلال حكم المهدية من نحو ثمانية ملايين الى أقل من ٣ مليون نسمة بسبب الحروب والأوبئة والمجاعات . وليس من السهل بطبيعة الحال الاعتماد على الاحصائيات فى السودان كغيره من البلاد المتخلفة ولكن ربما نجد بصيصاً من النور يكشف عن أبعاد التطور الذى شهده السودان فى ظل الحكم الثنائى عندما نشير الى أن الاحصائيات الرسمية قدرت عدد سكان السودان قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية بأكثر من ستة ملايين نسمة . ومهما يكن من أمر فان الثورات - كالثورتين المهدية والفرنسية - تفقد بريقها

ورونقها اذا نظر اليها بمقاييس ومعايير العصور التالية لها وما من شك فى أن للثورة المهدية مآثرها ومآخذها وحسناتها ومسالبها ولكنها لا تزال فى حاجة الى تقييم تأريخى علمى محايد لأن ما كتب عنها حتى اليوم اما باقلام متعاطفة أو حاقدة ولابد من ضياع الحقيقة بين جموح المتعاطفين والحاقدين سـواء بسـواء .

ويختلف دور السودان فى الحرب العالمية الثانية عن ما جرى فى عهد الثورة المهدية والحركات الأخرى التى وقعت فى السودان خلال عهد الحكم الثنائى اختلافاً كبيراً لأن ذلك الدور يعتبر مصدر فخر واعتزاز للسودانيين بوجه خاص ويمثل وجهاً حضارياً يمكن التعبير عنه بأسلوب مقبول لدى الجميع فى اطار المفاهيم المعاصرة والقائمة .

ولكى نتقصى مغزى وأبعاد دور السودان فى الحرب العالمية الثانية ينبغى أن نبدأ من أنها آخر الحروب الكونية وهذه حقيقة أثبتها واقع السلوك الدولى منذ عام ١٩٤٥ ولا سبيل لانكارها حتى الآن على الأقل وأنها حققت كرامة الانسان بفضل ما تمخضت عنه من ايجابيات حددت مصير البشرية لأجيال قادمة وتتمثل تلك الايجابيات بصفة أساسية فى تأمين حق تقرير المصير وممارسته لسائر شعوب الأرض واقامة نظام دولى مفعم بدواعى التفاؤل والاستبشار تحت مظلة هيئة الأمم المتحدة بميثاقها ووكالاتها المتعددة التى يتصدرها مجلس الأمن والتى عملت ولا تزال من أجل تحرير للانسان فى مشارق الأرض ومغاربها من أعدائه التقليديين – الخوف والفقر والمرض والجهل . وربما تبدو مساهمة السودان فى المجهود الحربى بالأرواح والمال ضئيلة ولكنها اذا قيست بعدد سكانه وبامكانياته المحدودة ودخله القومى فانها تفوق حتماً أضعاف ما قدمته معظم الدول الحليفة .

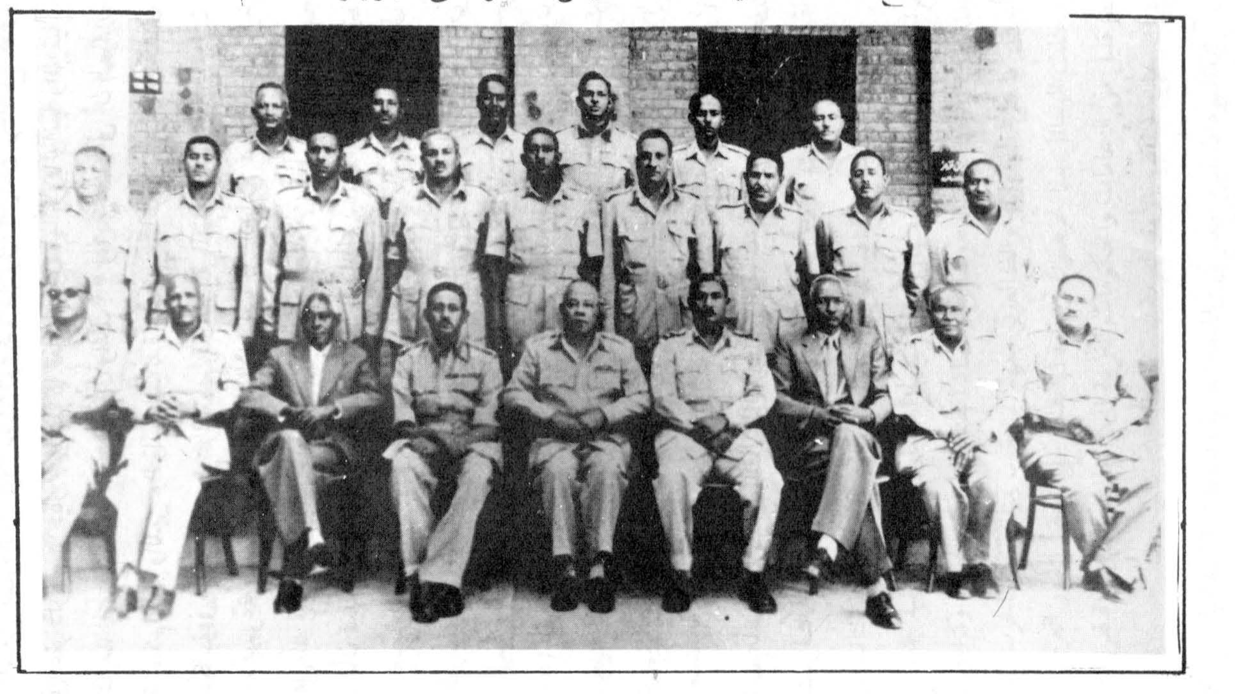
وحين أضع هذا الكتاب عن دور السودان فى الحرب العالمية الثانية بين يدى القارئ العربى أرى لزاماً علىّ الاشارة الى انه يمثل أيضاً الوجه الحضارى للأمة العربية جمعاء التى ما فتئ أعداؤها يسعون جاهدين لدمغها بكل ما هو شائن ومضاد لقضايا الحرية والعدالة وكرامة الانسان وحقوقه . ومن ناحية أخرى ما فتئ الصهاينة والضالعون معهم يروجون منذ انتهاء الحرب لدورهم ويقومون بتضخيمه بمختلف الوسائل بينما يحرصون فى الوقت نفسه على تحجيم الدور العربى وتسليط الأضواء على انحياز نفر قليل من الزعامات والحكومات العربية الى جانب المحور . وقبض الصهاينة وما زالوا يقبضون ثمن ذلك على حساب الأمة العربية .

أن السودان اليوم عضو فى الجامعة العربية والمنظمات الاسلامية على اختلافها وقد اشترك فى الحرب العالمية الثانية اشتراكاً فعالاً وتحققت على يدية أولى انتصارات الحلفاء . ولم يأت اشتراكه اعتباطاً أو يصدر عن فراغ وانما نجم عن ايمانه العميق بالقضية التى يحارب الحلفاء من أجلها وأيمانه أيضاً عن وعى وادراك بأن عليه مناصرة الحلفاء فى الحرب لكى يتحرر من ربقة الاستعمار البريطانى ويحتل مكاناً

لائقاً بين الأمم . وكان من الممكن للسودانيين لولا ذلك الوقوف مكتوفى الأيدى والاقتناع بدور المتفرج على الحرب الدائرة فى عقر دارهم أو ديار جيرانهم كما فعل آخرون فى أوروبا وآسيا وافريقيا . أليس من سخرية القدر أن يحارب المرء مع عدوه وضده فى آن واحد ؟ ؟ وما من شك فى أن السودان لا يمكنه الانتماء لغير العروبة بحكم اللغة والدين والتقاليد السائدة وبحكم مشاعره القومية . وتكشف نظرة عاجلة على التركيبة السكانية فى السودان عن عراقة أصوله العربية المنحدرة من قبائل جهينة وربيعة فى شبه الجزيرة بل ان مجموعة قبائل الجعليين تدعى الانتساب الى العباس عم الرسول عليه السلام بينما يتفق المؤرخون على أن قبيلة الكبابيش التى تقطن غرب كردفان من نسل القائد العربى عقبة بن نافع شأنها فى ذلك شأن قبيلة أولاد على فى مصر . وهنالك قبائل عربية فى السودان تنتسب لبنى هلال غير أن جهينة هى العنصر الغالب . وينتهى نسب نصف القبائل العربية السودانية تقريباً الى عبد الله الجهينى . وقد أخذ العرب يتدفقون بأعداد هائلة على السودان منذ فتح مصر على يد عمرو بن العاص عن طريق الصحراء الليبية وافريقيا الغربية وعن طريق النيل من مصر ذاتها . وأنشأت عناصر أموية منهم فى حوالى عام ١٥٠٠ الميلادى دولة السلطنة الزرقاء على غرار الدولة التى أنشأها الأمويون فى الأندلس وظلت دولة السلطنة الزرقاء تحكم السودان من عاصمتها سنار زهاء ثلاثة قرون وكانت أول دولة عربية اسلامية جنوبى الصحراء . ولا ينكر أحد أن فى السودان عناصر غير عربية الا أنها أصبحت مستعربة أو شبه مستعربة الى حد توارت فيه هوياتها السابقة .

وبعد ، هذا جهد متواضع أضعه بين يدى القارئ العربى راجياً أن يجد فيه تذكيراً بالماضى وتنويراً عن الحاضر واستشرافاً للمستقبل .

اجتماع قادة القيادات للجيش السوداني فبراير ١٩٥٨م



« الجالسين »

- الاميرالاى أحمد بك رضا فريد — قائد الغربية
- الاميرالاى الأمين بك حميده — الأسلحة
- السيد طه أفندى عبدالسيد — المصروفات والسجلات
- اللواء طلعت باشا فريد — الجنوبيه
- الفريق ابراهيم باشا عبود — القائد العام
- اللواء أحمدباشا عبدالوهاب — نائب القائد العام
- السيد الدرديرى ابونقد — المخازن والمهمات
- الاميرالاى عبدالرحمن بك الفكى — القضاء العسكرى
- الاميرالاى أحمد بك عبدالله — قائد الهجانه

« الوسط »

- القائمقام الزين بك حسن — قائد قوات حلايب
- الاميرالاى محمد بك عروه — مدير الادارة
- الاميرالاى عثمان بك ابوعكر — السلاح الطبى
- الاميرالاى الخواض بك محمد أحمد — مدرسة المشاه
- الاميرالاى حسن بك بشير — رئيس هيئة الاركان
- الاميرالاى محمد بك التجانى — سلاح الخدمة
- الاميرالاى محى الدين بك أحمد — الشرقية
- الاميرالاى أحمد مجذوب البحارى — المدفعية
- الاميرالاى محمد بك نصر عثمان — العمليات

« الأخير »

- القائمقام الطاهر بك عبدالرحمن — الشمالية
- الصاغ فتحى افندى حسن كاشف — سكرتير الاجتماع
- القائمقام عوض بك عبدالرحمن — قائد سلاح المهندسين
- البكباشى عمر أفندى حاج موسى — الاشارة
- قائمقام عمر بك محمد ابراهيم — حامية الخرطوم
- قائمقام محمود بك ابوسمره — مدير الامداد

السوداني المقاتل
بقلم الجنرال سير وليام بلات
القائد العام لقوة الدفاع السودانية
١٩٣٨ - ١٩٤١

في الرابع من يوليو ١٩٤٠ عبرت وحدات من المشاة والمدفعية والدبابات الايطالية الحدود الاريترية في هجوم مركز على كسلا وهي مدينة تجارية صغيرة عند حدود السودان الشرقية وكانت تلك القوات المهاجمة التي لا يقل عددها عن عشرة آلاف تحت أمرة جنرال ايطالي ولم يكن لدينا لمقاومة هذا الهجوم سوى ثلاث سرايا من البلوكات السريعة وسرية من البيادة الراكبة وكلها تابعة لقوة الدفاع السودانية وأقوى ما تمتلكه من الأسلحة الثقيلة يقتصر على مدافع الفايكرز الرشاشة ومدافع مضادة للدبابات يرجع تاريخ صنعها إلى عام ١٩٣٨ . وتقود تلك السرايا الأربع حفنة من الضباط البريطانيين ولا يزيد عدد جنودها على ستمائة مقاتل .

وظلت المقاتلات والقاذفات الايطالية تساند القوة المهاجمة منذ الفجر وحتى الغسق دون انقطاع بينما كانت أقرب الطائرات البريطانية إلى أرض المعركة في نواحي البحر الأحمر ولم تحلق أية طائرة منها في سماء كسلا خلال ذلك اليوم لتسعد قلوب الجنود المدافعين الذين يتصببون عرقاً في الصحراء .

ولم يكف جنود السرايا السودانيون عن الحركة باستمرار وأخذوا ينقضون على العدو ويلسعونه وكأنهم أسراب بعوض ذات أجنحة ميكانيكية ثم يتسللون بعيداً قبل أن يتمكن الايطاليون من شن عملية مضادة فعالة . ويعود الجنود إلى الانقضاض مرة أخرى على العدو المهاجم بسرعة خاطفة فى مكان آخر ربما بعد دقائق أو ساعات . لقد أظهر الجنود السودانيون في ذلك اليوم حذقاً ومهارة في تطبيق ما تلقوه خلال التدريب .

وأخذت أنباء المعركة تتسرب في شذرات عبر أجهزة اللاسلكي أو خط البرق التابع للخطوط الحديدية لتصل إلى الايدى المتلهفة في الرئاسة في الخرطوم التى تفصلها مائتان وخمسون ميلا من القفار الجرداء المنبسطة على مد البصر. ومعظم تلك الأنباء المتقطعة تصل إلى الخرطوم بعد فوات الأوان . وتتابعت النداءات لارسال الطائرات للوقوف على حقيقة الأمر وقد كانت هناك أربع منها فقط رهن الاشارة من طراز فينسينت خرجت من المصانع في عام ١٩٢٨ تقريباً وتبلغ سرعة الواحدة منها مائة ميل في الساعة تتقلص إلى ٨٠ ميلا اذا أسعدها الحظ في حالة الطيران في اتجاه مضاد لمهب الرياح . وكان من الممكن أن تخرج تلك الطائرات في اليوم التالي على امل أن تعود واحدة منها بالخبر اليقين

ولا مكان للتضحية في ذلك اليوم وعلينا أن نركن إلى التأمل والتخمين . هل سيقدم الايطاليون بعد أن قضموا القشرة عى حملة استراتيجية عاتيةلتحقيق حلمهم بامتلاك شمال افريقيا وشرقها من طرابلس إلى المحيط الهندى ؟؟ أم أنهم سيقنعون بالسيطرة على أميال قليلة من القفار ؟؟؟ أتراهم اذا واتتهم الشجاعة سيتجهون غربا للاستيلاء على الخرطوم العاصمة أم إلى الشمال الغربي صوب أتبرا قلب شبكة الخطوط الحديدية أم لعلهم سيزحفون شمالا للسيطرة على بورتسودان ميناء السودان الوحيد ؟؟؟

ويوجد على طول الحدود البالغة ألف ميل التي اجتاحها الايطاليون عند كسلا والقلابات وهددوا مواقع أخرى تهديداً خطيراً -يوجد صف هزيل للغاية من الجنود السودانيين بينما عهد إلى رجال الشرطة السودانيين تحت قيادة مفتشي المراكز البريطانيين بتغطية الثغرات ولا سلاح لهم سوى بنادق استجدوها أو استعاروها من أصحابها . وتوجد وراء هذه القلة من الجنود ورجال الشرطة السودانيين ثلاث كتائب بريطانية من يوركشير وورسيستر شير واسكس . وظل السودان لمدة تربو على الشهرين وإلى أن بدأت التعزيزات تصل إليه خلال شهرى أغسطس وسبتمبر تحت حماية قوة قوامها ستة آلاف من السودانيين وألفان من البريطانيين ليست لديها دبابة واحدة أو مدفع واحد ولا تملك سوى عدد ضئيل من الاسلحة الأوتوماتيكية .

هل امتحنت أية قوة عسكرية في التأريخ امتحاناً أشد قسوة مما أمتحن به هؤلاء الجنود السودانيون ؟؟ أنهم لم يتصدوا منذ معركة أم درمان لقوة مهاجمة وتتمثل أكبر تجاربهم في قمع الاضطرابات الداخلية والثورات القبلية التي تنشب بين حين وآخر ولم يروا حربا معاصرة أو يقاسوا من كروبها وويلاتها . وهم كما يدل اسمهم مجرد قوة للدفاع .

لقد كان الغزو الايطالي محكا لاختبار هذه القوة الدفاعية وهذه هي الحقبة التي يتناولها (كتاب* السوداني المقاتل) وهي ليست حدثاً معزولاً وانما نموذجاً يحتذى شكلاً وأسلوباً لما ينبغى أن يكون عليه الصبر والاقدام متى وأين تعالت نداءات المعركة واداء الواجب كان هذا موقف أولئك الرجال على ساحل البحر الأحمر وبين الصخور والأحراش في سفوح كرن وشيلغا ومستنقعات بارو وفي الجبال والأدغال شبه الاستوائية وبين السهول والمرتفعات القريبة من السودان .

لقد اجتاز السودانيون الاختبار وعلت أكاليل النصر هاماتهم وساق الاعجاب والانصاف المستر اتش سي جاكسون إلى وصفهم بالسوداني المقاتل وهذا هو الاسم الذى نالوه عن جدارة واستحقاق .

وليام بلات

غرازمير - نوفمبر ١٩٥٣

---

* كتاب السوداني المقاتل صدر في عام ١٩٥٤ عن دار ماكيلان للنشر . ومؤلفه المستر اتش . سي جاكسون كان حاكماً لمديريتي بربر وحلفا .

الفصل الأول

مع الحلفاء في معركة افريقيا

« ما أعظم مشاعر الأخـاء حين تربط بين جميع الشجعان على وجـه الإرض »



كيف أصبح السودان طرفاً فى الحرب العالمية الثانية ؟؟

عند نشوب الحرب فى أوروبا فى عام ١٩٣٩ كان السودان قد أمضى زهاء أربعين عاماً فى ظل الحكم الثنائي الذى فرض عليه بموجب معاهدة أبرمت فى عام ١٨٩٩ بين مصر وبريطانيا بعد سقوط دولة المهدية . ومن الممكن وصف ذلك الحكم الفريد فى نوعه بأنه شراكة بين طرفين غير متكافئين أحدهما سيد والآخر مسود اذ كانت مصر ذاتها فى ذلك العهد خاضعة للاحتلال البريطانى وحكومتها دمية يلهو بها لورد كرومر القنصل البريطانى العام كيف شاء فهو الحاكم بأمره فى مصر وكلمته النافذة فى سائر الأحوال وهو الذى وقع على المعاهدة نيابة عن الحكومة البريطانية بينما وقعها نيابة عن مصر المستضعفة بطرس باشا رئيس الوزراء الذى أغتيل فى ما بعد بسبب تعاونه مع البريطانيين آنذاك وتفريطه فى حقوق مصر والسودان على السواء . لقد أخذت المعاهدة من مصر باليمين ما أعطته لها بالشمال وهيأت لبريطانيا الانفراد بحكم السودان وادارته . واتسمت المعاهدة المذكورة بغموض مقصود اذ أشارت فى مقدمتها اشارة مقتضبة الى ما أسمته بحقوق الفتح التى آلت لبريطانيا بينما وصفت السودان كاقليم تمرد على الخديوى وشق عصا الطاعة عليه . وخولت بنود المعاهدة سلطات واسعة ومطلقة للحاكم العام الذى لا يمكن أن يكون غير بريطانى لحماً ودماً بسبب اجراءات تعيينه وعزله التى نصت عليها المعاهدة .

وما يهمنا الآن من الحكم الثنائى والمعاهدة التى فرضته على السودان يتمثل فى الجوانب والملابسات المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بدوره فى الحرب العالمية الثانية وسوف نقتصر على ذلك خوفاً من الانجراف وراء موضوع شائك ومعقد يستحق كتاباً قائماً بذاته .

لقد شهدت الفترة التى أبرمت فيها معاهدة الحكم الثنائى فى عام ١٨٩٩ ذروة تكالب الأوربيين على اقتسام القارة الافريقية وكان السودان واحداً من الأطباق الشهية التى على المائدة ويسيل له لعاب المتهافتين المتكالبين بل أن بعض الدول الأوربية شرعت فى قضم أطرافه فقبل ذلك التاريخ بخمس سنوات تقريباً احتل الكولونيل باراتيرى كسلا واقتطعها من دولة المهدية لتصبح جزء من الامبرطورية الايطالية . كما احتلت فرنسا وبلجيكا فى الوقت نفسه بعض المناطق فى جنوب السودان . وغنى عن البيان أن تمسك بريطانيا بالبقاء فى مصر آنذاك أضفى على السودان أهمية بالغة بالنسبة للمصالح البريطانية فهناك وادى النيل بامكانياته الواعدة الى جانب البحر الأحمر الذى لابد من تأمينه لضمان سلامة الملاحة عبر القناة . وقد وصف اللورد كرومر الحكم الثنائى بأنه « سليل الانتهازية » ومن المؤكد أنه يقصد بذلك أن ذلك الحكم الذى يعد تجربة لا مثيل لها قد أملته – خلافاً للسياسات المعلنة آنذاك – ظروف التكالب الأوربى على اقتسام القارة الافريقية .

وبحلول عام ١٨٩٥ اشتد تضييق الخناق على الايطاليين فى اريتريا وكسلا من قبل النجاشى منليك

والخليفة عبد الله الذي تولى الحكم فى السودان بعد وفاة الامام المهدى كما اتسع من ناحية اخرى نطاق التغلغل الفرنسى والبلجيكى على حدود السودان الجنوبية وازاء كل ذلك قررت بريطانيا الزحف من مصر الى السودان ووجدت فى ذلك تعضيداً من ألمانيا زعيمة التحالف الثلاثى الذى كان يضم بالاضافة اليها كلا من النمسا وايطاليا . وكانت ألمانيا بدورها قلقة كبريطانيا من التغلغل الفرنسى والبلجيكى فى افريقيا وحريصة فى الوقت نفسه على تأمين وجود حليفتها ايطاليا فى اريتريا .

وفى العام التالى (١٨٩٦) احتل لورد كتشنر بقواته المصرية والبريطانية دنقلا ثم واصل زحفه جنوباً الى أن التقى فى موقعة كررى شمالى أم درمان بجيش الخليفة عبد الله . وكان الجيش الغازى مدججاً بالمدافع الرشاشة والبعيدة المرمى وغيرها من الأسلحة الحديثة ويعززه اسطول من البوارج النهرية بينما خرج الخليفة عبد الله الى أرض المعركة على جواد شاهراً سيفاً تيوتونيا عتيقاً من مخلفات الحروب الصليبية عليه شعار شارلس الخامس ولا يزيد سلاح رجاله على السيوف والرماح وبنادق عفا عليها الزمن ومع ذلك كان لهم من الشجاعة وصدق العقيدة معين لا ينضب ولكن ما نفع ذلك أمام جبروت الحضارة وحصادها من أدوات الهلاك والدمار . وعندما يتناطح الحاضر والمستقبل مع الأمس وما قبل الأمس لا محالة من انتصار الحاضر والمستقبل . والعقيدة مهما بلغت من الصدق وقوة العزم تكون لها الغلبة طالما ظلت حليفة الغد أما اذا وقفت بمعزل عن الغد فانها لن تحقق شيئاً ذا بال . وهكذا انقشعت المعركة عند كررى عن هزيمة المدافعين وانهارت بذلك دولة المهدية التى ظلت تحكم السودان زهاء ١٥ عاماً . وما أن هدأت نيران المعركة – وقبل استتباب الأمر للغزاة الفاتحين – نشبت أزمة فشودة بين فرنسا وبريطانيا وأوشكت أن تؤدى الى حرب بينهما فى أوروبا .

اندلعت الأزمة باحتلال الكابتن الفرنسى المغامر (مارشان) لبلدة فشودة المعروفة حالياً باسم كدوك وهى عاصمة قبائل الشلك وتقع على النيل الأبيض بين كوستى وملاكال . ورفع الكابتن المغامر العلم الفرنسى على فشودة باعتبارها تابعة لفرنسا . وكان قد وصل الى المنطقة قادماً من افريقيا الغربية على رأس قوة صغيرة . واستعانت بريطانيا على ابعاد الفرنسيين من فشودة بالتهديد باستخدام القوة وبحجة أن المنطقة من ممتلكات خديوى مصر وهى نفس الحجة التى تذرعت بها لابعاد البلجيكيين من الأراضى السودانية التى احتلوها ولاسترجاع كسلا من الايطاليين التى احتلوها فى أواخر عهد دولة المهدية . وقد ظلت مصر من ناحيتها تعتبر السودان جزءاً منها خاضعاً لسيادتها وتدعم حجتها بأنها انسحبت من السودان أبان الثورة المهدية بتوجيه من بريطانيا ونتيجة لضغطها وأنها – أى مصر – شاركت فى استرجاع السودان بمعظم جيشها وتكفلت خزانتها بنفقات الحملة التى قادها لورد كتشنر بوصفه قائداً عاماً (سردار) للجيش المصرى . غير أن بريطانيا لم تكن جادة فى بسط السيادة المصرية على السودان لاعتبارات كثيرة بينها أن ذلك سوف يعنى بالضرورة وتلقائياً اخضاع السودان للامتيازات الأجنبية التى تتمتع بها الدول الأوربية فى مصر والتى تشكلت بموجبها المحاكم المختلطة للنظر فى سائر

القضايا المدنية بين الأوربيين والمصريين. وهكذا نصت معاهدة ١٨٩٩ على عدم امتداد تلك الامتيازات ومحاكمها المختلطة الى السودان. وحدث أول اختبار فى هذا المجال فى عام ١٩١٠ عندما رفعت شركة بنسيني الفرنسية قضية أمام المحاكم المختلطة فى القاهرة ضد حكومتى مصر والسودان. وكانت الشركة المذكورة قد دخلت فى تعاقد مع حكومة السودان ولكنها ضمت مصر الى دعواها بحجة أن السودان تابع لها. ودافعت مصر بأن حكومة السودان تشكل بموجب معاهدة الحكم الثنائى كياناً مستقلاً وأن الحكومة المصرية ليست مسئولة بأية حال من الأحوال عن التزامات حكومة السودان التعاقدية. ودافعت حكومة السودان بأنها غير خاضعة لسلطان المحاكم المختلطة. وأخذت المحكمة المختلطة بأقوال المدَّعَى عليهما باعتبار أن السودان أصبح منذ معاهدة الحكم الثنائى قطراً مستقلاً عـن مصر.

ونخلص مما ذكرنا عن خلفيات الحكم الثنائى وحرص بريطانيا على سد الباب أمام النفوذ الأجنبى حتى لا يتسلل الى السودان الى أن ذيول التكالب الاوربى على افريقيا هى التى جعلت السودان طرفاً فى الحرب العالمية الثانية ولا يعنى ذلك بكل تأكيد أن دوره فيها كان ضد ارادة شعبه فالسودانيون الذين فقدوا حريتهم فى ظل الحكم الثنائى كانوا يدركون آنذاك أنه لو قدر لبلادهم الوقوع فريسة فى قبضة المحور فانهم سيفقدون فى هذه المرة روحهم لا محالة. ان الحرية قد تسترد عاجلاً أو آجلاً أما الروح فلا أمل فى استرجاعها اذا طواها القدر. وفى الواقع أن أطماع دولتى المحور فى افريقيا ليست سوى امتداد للتكالب الأوربى الذى ظل محتدماً منذ القرن التاسع عشر فالمسرحية لم تتبدل ولم يسدل الستار عليها ولكن تغيرت مواقع الممثلين وأدوارهم خلال الحرب العالمية الثانية وظلت بريطانيا كدأبها دائماً محتفظة بدور البطولة. وعلى أية حال لم يطرأ تغيير كبير على وضع السودان بعد تعديل معاهدة الحكم الثنائى فى عام ١٩٣٦ فى عهد الحكومة الوفدية برئاسة مصطفى باشا النحاس وبقيت للحاكم العام سلطاته الواسعة المطلقة وبينها سلطاته كقائد أعلى لقوة الدفاع السودانية والقوات المصرية والبريطانية المرابطة داخل الأراضى السودانية. وأسهمت معاهدة ١٩٣٦ فى تزايد مخاوف الحكام البريطانيين – التى ظلت تساورهم منذ أحداث سنة ١٩٢٤ – من انعكاسات ما يجرى فى مصر على السودان فقد انطوت المعاهدة على ثغرات ومنافذ يمكن أن يتسرب النفوذ المصرى ونداءات الوطنية المصرية من خلالها الى السودان. غير أن تلك المخاوف لم تتحقق وتبخرت منذ اليوم الأول لاندلاع الحرب فى سبتمبر ١٩٣٩ بين بريطانيا وألمانيا النازية فقد عبرت الزعامات القبلية والطائفية والدينية فى السودان تلقائياً وبمختلف الوسائل عن وقوفها الى جانب بريطانيا وحليفاتها. وهذا امر متوقع لأن تلك الزعامات معروفة بولائها التقليدى للحكام البريطانيين ولكن ما أثلج صدور أولئك الحكام حقاً كان الرسالة التى سلمها السيد اسماعيل الأزهرى سكرتير مؤتمر الخريجين الى سير ستيورات سايمز حاكم السودان العام معرباً فيها عن اعترافه بسعى الحكومة الجاد من أجل مصلحة السودان وأهله وعن ثقته

فى قدراتها على الدفاع عن البلاد وأهلها . وأبدى الأزهرى فى رسالته استعداد المؤتمر لتقديم كل ما يطلب منه من خدمات . وكان قد مضى على تأسيس المؤتمر آنذاك نحو عام واحد فقط الا أن الرسالة كشفت عن أنه ولد باسنانه وأنه يتميز بمستوى عال من النضج السياسى وادراكه لمسئولياته الوطنية بل إن الرسالة فى حد ذاتها عبرت ضمنياً عن التصور الوطنى لما ورد فى معاهدة ١٩٣٦ بشأن رفاهية السودان التى التزم بها الطرفان المتعاقدان فالمؤتمر لم يحدد موقفه من ألمانيا باعتبار أن السودان تابع لبريطانيا وخاضع لسياساتها وانما فعل ذلك انطلاقاً من ايمانه بالمبادئ السامية والقيم الانسانية التى ينبغى أن تحكم العلاقات بين شعوب العالم والتى تتمثل فى الديمقراطية والعدالة والمساواة بين البشر . ومتى سادت تلك القيم والمبادئ التى يود هتلر القضاء عليها يصبح لا مكان للاستعمار أو تسلط شعب على آخر .

لقد أراد المؤتمر يومذاك أن يقول لبريطانيا وللعالم أجمع أن موقفه ضد ألمانيا الهتلرية نابع من مناهضة المؤتمر للاستعمار بكل أشكاله وألوانه ومن رفضه لاستعلاء شعب على آخر أو استعباده وهكذا أرسى مؤتمر الخريجين - رائد الحركة الوطنية فى السودان - منطلقات ومرتكزات الحركة الوطنية التى توجت نضالها فى نهاية المطاف بالاستقلال .

وغاية القول ان المؤتمر حدد موقفه من ألمانيا النازية لا حباً فى عيون الانجليز الزرقاء وانما لرفضه الوجود الاستعمارى فى السودان وايماناً منه بحق شعبه كسائر شعوب الأرض فى الحياة الحرة الكريمة تحت نفس المبادئ والشعارات التى رفعتها بريطانيا وحليفاتها آنذاك . واتخاذ مؤتمر الخريجين فى قضية مصيرية كهذه قراراً مغايراً لموقف مصر احدى طرفى الحكم الثنائى يعنى تلقائياً ودون مواربة تمسك السودان بسيادته كاملة غير منقوصة وبحقه فى تقرير المصير ككيان مستقل غير مقيد بالتبعية أو الوصاية . لقد وجد السودان نفسه فى حالة حرب بحكم الواقع لا القانون وبسبب ذيول التكالب الأوربى على القارة الافريقية وكان من ناحية أخرى فى وضع شاذ بفضل خضوعه للحكم الثنائى اذ ان مصر اكتفت باعلان حالة الطوارئ تنفيذاً للمعاهدة المصرية البريطانية بدلاً من دخول الحرب ضد ألمانيا . وماذا يفعل الصبى عندما يعلن أحد أبويه (دولتى الحكم الثنائى) الحرب بينما لا يتبعه الآخر فى ذلك قانعاً بدور المتفرج ؟ ؟ ؟

وفى الواقع أن الحاكم العام تسلم رسالة الأزهرى قبل يومين من نشوب الحرب بين بريطانيا وألمانيا وهى باللغة الانجليزية وتحمل توقيع السيد اسماعيل الأزهرى بوصفه سكرتيراً لمؤتمر الخريجين ونورد فى ما يلى ترجمة لها :

« فى هذه المرحلة الحاسمة ونظراً للوضع الدولى المتأزم حيث أخذت تهتز أعمدة السلام نعرب عن تقديرنا للخطوات الكاملة التى اتخذتها وتتخذها حكومتنا اليقظة نيابة عن الشعب لكى تؤمن بكل

السبل الممكنة مصالحه الحبوية . لقد تطوع العديد من أعضاء المؤتمر عن طريق الاندية والمكاتب الحكومية للمساهمة فى أعمال الوقاية من الغارات الجوية كما أن المؤتمر نفسه مستعد ومهيأ لتقديم أية خدمات تطلب منه راجياً من الله أن تنقشع السحابة السوداء الراهنة وتتكلل بالنجاح مساعى السلام » .

ورد الحاكم على هذه الرسالة معرباً عن ارتياحه لموقف المؤتمر ومؤكداً مبادئ العدالة والقيم الانسانية التى تخوض بريطانيا وحليفاتها الحرب دفاعاً عنها .

ولدى نشوب الحرب فى أوروبا بين بريطانيا وألمانيا الهتلرية فى اليوم الثالث من سبتمبر ١٩٣٩ أصبح السودان فى حالة حرب مع ألمانيا وقام بقطع علاقاته معها وقد ظلت ادارة السودان منذ فرض الحكم الثنائى عليه تابعة لوزارة الخارجية البريطانية بدلاً من وزارة المستعمرات التى تخضع لها سائر أقطار الامبراطوية البريطانية . ولابد من الاشارة هنا الى أن بريطانيا كانت تعلم أن تحويل السودان الى مستعمرة بريطانية سوف يثير حفيظة الدول الأوروبية ولن يقابل بالارتياح بين العناصر الوطنية فى وادى النيل .

وبين وزارتى الخارجية والحربية فى بريطانيا ود مفقود وجفاء تقليدى ومن المألوف أن يتخذ ذلك فى زمان الحرب طابع الصراع فتزداد حدة الاشتباكات والاحتكاكات بين خاقانات الوزارتين وهذا أمر متوقع يفرضه الاختلاف بين عقليات الطرفين . فالجنرالات يصرون على أن تكون كلمتهم هى النافذة لأنهم أدرى بشئون الحرب وفنونها بينما يحتج خاقانات الخارجية بأن الرأى قبل شجاعة الشجعان ولابد من خضوع البندقية وتسليمها الأمر للدبلوماسية . وعند نشوب الحرب ضد ألمانيا النازية فى عام ١٩٣٩ ألفت الحكومة السودانية نفسها فى موقف حرج للغاية من جراء التناقض بين وجهات النظر فى وزارتى الخارجية والحربية فوزارة الخارجية وهى المسئولة مباشرة عن ادارة السودان كانت تخشى قيام السلطات السودانية بأى تحرك فيه استفزاز لايطاليا يمكن أن يدفعها للدخول فى الحرب الى جانب ألمانيا . وكان نيفيل تشمبرلين رئيس الوزراء ووزير خارجيته لورد هاليفاكس قد قاما فى أول العام بزيارة الدوتشى فى روما على أمل استرضائه وخلق علاقات شخصية معه . ولم يخف الدوتشى استخفافه بالزائرين وقال عنهما فى ختام الزيارة أنهما من أبناء الذوات لا من طينة فرنسيس دريك وأمثاله من المغامرين العظام الذين بنوا الامبراطوية البريطانية . وقبل نشوب الحرب بين ألمانيا وبريطانيا بثلاثة أسابيع فقط أرسل لورد هاليفاكس برقية الى القنصل البريطانى فى أديس أبابا يحذره فيها من اجراء أية اتصالات مباشرة أو غير مباشرة مع الرأس سيوم وغيره من قادة المقاومة الاثيوبية وأبلغه بأن القيام بأية خطوة معادية للايطاليين فى اثيوبيا أمر مخالف للسياسة البريطانية ما لم تنشب حرب بين ايطاليا وبريطانيا . كما جاء فى الرسالة التى وجهها السكرتير الادارى الى حكام المديريات

بتاريخ ١٩٣٩/١٠/٤ ما يلى « لقد تلقينا مراراً وتكراراً توجيهات من حكومة صاحب الجلالة لتجنب استفزاز ايطاليا » .

وفى اطار سياسة وزارة الخارجية البريطانية الرامية لاسترضاء الدوتشى موسولينى رفض الحاكم العام اقتراحاً من القيادة العسكرية البريطانية فى الشرق الأوسط تدعوه فيه الى ايفاد بعثة من الاداريين البريطانيين الذين تحت امرته الى اثيوبيا تحت ستار أنهم سواح أمريكيون لكى يستوثقوا من مدى صحة المعلومات العسكرية التى تلقتها القيادة من مصادر مختلفة وخاصة من المخابرات الفرنسية . وقال الحاكم العام فى رده ان على الجنرال ويفل قائد منطقة الشرق الأوسط أن يتولى وحده هذه المهمة ان كان فى حاجة لها وأن يديرها من مقر قيادته فى القاهرة . وفى مناسبة أخرى اعترف الحاكم العام فى رسالة الى السفير البريطانى فى القاهرة بضعف قدرات السودان العسكرية أمام الايطاليين . وليس من المستغرب أن يتخذ الحاكم العام موقفاً متشدداً ازاء وزارة الحربية وممثليها فى القاهرة لأن ادارة السودان كما اسلفنا تابعة لغريمتها وزارة الخارجية وعلى صاحب القيثارة أن يعزف اللحن المفضل لدى من يدفع له الثمن ويتحمل تكاليف السهرة . ويبدو من مراجعة رسائل السكرتير الادارى الى حكام المديريات فى تلك الفترة أن السلطات السودانية وصلت فى استسلامها لسياسات الخارجية البريطانية الى قناعة بأن الحكومة الايطالية بصدد التحول الى موقف موال للحلفاء وذلك بانتهاج سياسة ايطالية خالصة لا تغلب عليها صبغة الفاشية والتعطش للعدوان . ويعلل السكرتير الادارى ذلك بأن ثمة مؤشرات متزايدة تكشف عن اشمئزاز الشعب الايطالى من المحور وتحبيذه لعدم الاشتراك فى الحرب وتكشف أيضاً عن تضاؤل نفوذ ذوى القمصان السوداء (الفاشست) وارتفاع أسهم الملك والكنيسة . ومن ناحية أخرى كانت السلطات السودانية تستبعد دخول ايطاليا الحرب لأنها ستصبح مع مستعمراتها فريسة سهلة للقوات البريطانية والفرنسية ولكن قبل استسلامها قد تلحق أضراراً بمصر والسودان . ومن رأى سير دوغلاس نيوبولد – السكرتير الادارى وهو فى مقام رئيس وزراء السودان – أن من الغباء أن تقدم ايطاليا على دخول الحرب ضد بريطانيا لأن اثيوبيا لم تهدأ بعد وتعانى من أوضاع اقتصادية مريعة . وكان نيوبولد يعلق آمالاً كبيرة على حكمة دوق أوستا نائب الملك فى أديس أبابا المعروف بحرصه على ابتعاد ايطاليا عن ساحة الحرب وهو شديد الاعجاب فى الوقت نفسه بالسودان وأهله وحكامه وقد قابله سير دوغلاس فى حلفا قبل خمسة أيام من اعلان الحرب بين بريطانيا وألمانيا وكان الدوق فى طريقه بالطائرة من روما الى أديس أبابا وأعرب فى المقابلة عن اعجابه بسياسة بريطانيا ازاء مستعمراتها وتأثره بمشاهير حكام تلك المستعمرات من أمثال لوغارد فى غرب افريقيا . وقال انه يعتقد أن سير برنارد بورديلون من المتأثرين بلوغارد ونظرياته فى حكم المستعمرات . وكان سير برنارد بورديلون قد اختير فى تلك الأيام لملئ منصب الحاكم العام فى السودان ولكن أرجئ تعيينه الى حين ثم ألغى بسبب نشوب الحرب .

وواضح أن وزارة الخارجية البريطانية لم تستفد في تعاملها مع الدوتشي من تجربتها الفاشلة في مهزلة ميونيخ اذ ظلت حتى آخر لحظة مقيدة بمعاهدة فويسينغ التى وعدت ايطاليا فيها بالامتناع عن تجنيد جيش من سكان مستعمراتها في شرق افريقيا يمكن أن يشكل خطراً على المستعمرات البريطانية كما وعدت ايطاليا بعدم مشاركة هتلر في مخططاته العدوانية ضد دول آوربا الوسطى ومقابل ذلك أطلقت المعاهدة يد الدوتشي في اثيوبيا واسبانيا .

أما وزارة الحربية البريطانية فأنها كانت – على عكس غريمتها وزارة الخارجية – تحبذ في ما يتعلق بالوجود الايطالي في شرق افريقيا القيام بعمليات مكثفة داخل الأراضي الاثيوبية لتجميع المعلومات والبيانات العسكرية وللدعاية المعادية ضد الايطاليين وتحبذ في الوقت نفسه مساندة المقاومة الاثيوبية بالمال والسلاح وقامت بالفعل بتعيين اللفتنانت كولونيل ساند فورد مستشاراً للشئون الاثيوبية في قيادة الشرق الأوسط وقد وصل إلى القاهرة في أول سبتمبر ١٩٣٩ لمباشرة مهامه وهو من البريطانيين القلائل الذين يعرفون اثيوبيا معرفة جيدة وذلك من خلال اقامته فيها لمدة طويلة وتربطه فوق ذلك صداقة وطيدة مع الامبرطور هيلاسلاسي ومن أشد الناس حماسة في سبيل عودته إلى عرشه في أديس أبابا . وكان ساند فورد في تلك الأيام على اتصال وثيق باللاجئين الاثيوبيين في السودان والقاهرة وكينيا وفلسطين وقام بعد شهر واحد من وصوله إلى القاهرة بزيارة الخرطوم إلا أن السلطات فيها قابلته بفتور تجاوباً مع سياسات وزارة الخارجية . بل أن الجنرال بلات القائد العام لقوة الدفاع السودانية أبدى لساند فورد شكوكه في قيمة الامبراطور هيلاسلاسي وجدواه وقال أنه غير مقتنع بما يقوله ساند فورد عن نفوذ الامبراطور وعن استناده لقاعدة عريضة من المؤيدين والأتباع داخل الأراضي الاثيوبية . وهنالك معلومات تكشف عن مدى ضآلة شعبية الامبراطور حتى بين عشيرته الأمهرا .

وازاء هذا التناقض الصارخ بين سياسات وزارتي الخارجية والحربية في بريطانيا أصبحت السلطات في الخرطوم بين شقي الرحى منذ نشوب الحرب في أوربا ولكن لم يمض وقت طويل حتى أخذ الحاكم العام وأعوانه من الاداريين والعسكريين فى الاقتناع تدريجياً بدخول ايطاليا الحرب إلى جانب حليفتها المانيا عاجلاً أوآجلاً وبأن الجيش الايطالي لن يتردد في اقتحام حدود السودان الشرقية . ومع انتقال المانيا من نصر إلى نصر في أوربا ازدادت السلطات في الخرطوم يقيناً وتعاظمت مخاوفها وقد عثر بالفعل بعد هزيمة الايطاليين على وثائق تثبت أنهم كانوا يضمرون رغم تعهداتهم المعلنة غزو السودان عسكرياً ووضعوا خطة لتحقيق ذلك تستهدف احتلال القضارف والخط الحديدى الذى يمر بها إلى الخرطوم وبور تسودان وكذلك تخريب قنوات الرى في الجزيرة عن طريق الغارات الجوية لاغراق حقول القطن التي تعتبر العمود الفقرى للاقتصاد ثم احتلال الخرطوم ذاتها .
وفي النهاية قررت السلطات في الخرطوم أن تتحرك فأوعز الحاكم العام إلى الجنرال بلات بتوجيه

رسالة إلى وزارة الحربية في لندن بتأريخ ١٣ آبريل ١٩٣٩ أعرب فيها للوزارة عن اقتناعه باتخاذ الاستعدادات منذ الآن للقاء العدو الايطالى الذى سينقض على البلاد لا محالة . وذكر الجنرال بلات في رسالته أن من غير المعقول مجابهة عدو متفوق براً وجواً ومن حيث العدد والعتاد بقوة صغيرة سلاحها البنادق وعدد محدود للغاية من المدافع الرشاشة وجاء في الرسالة أيضاً أن في السودان في تلك المرحلة سرباً واحداً من القاذفات طراز فينسينت تابعة للسلاح الجوى البريطانى بالإضافة لسرب آخر في نايروبي يمكن الاستنجاد به وليس ثمة أمل في توفير طائرات مقاتلة .

ومن ناحية أخرى كانت الأوضاع داخل اثيوبيا منذ احتلال الايطاليين لها أشبه بكتاب مغلق أمام السلطات السودانية فالمعلومات التي لديها عن ما يجرى هناك وفي اريتريا قاصرة على تقارير المخابرات العسكرية الشحيحة وعلى ما تجود به المصادر الايطالية من أجل التضليل والدعاية . وكانت ادارة الأمن العام في السودان تحت اشراف المستر بني وتضم قسم المخابرات المدنية إلى جانب قسم للمخابرات العسكرية يديره الكابتن فابين ومقره رئاسة قوة الدفاع السودانية . وقد شرعت ادارة الأمن العام منذ عام ١٩٣٨ في جمع وتدوين المعلومات عن الأوضاع داخل اثيوبيا واريتريا من أجل الاستفادة منها في المستقبل إلا أن نشاطها كان مقيداً بسياسات وزارة الخارجية البريطانية فلم يتجاوز لهذا السبب مجرد المعلومات ذات الصبغة العسكرية البحتة كما أن ادارة الأمن العام فقدت مصدراً مهماً لاستقاء المعلومات بسبب اغلاق القنصليات البريطانية داخل اثيوبيا وتخفيض عدد العاملين في السفارة البريطانية في أديس أبابا وهكذا لم يبق لها من مصدر سوى التقاط ما يدور من همس وحكايات في المقاهي والأسواق وبين سائقي الشاحنات . وبعد أخذ ورد بين لندن والخرطوم لمدة طويلة سمح لادارة الأمن العام في الخرطوم بفتح فرع خاص بأثيوبيا أسندت ادارته إلى ميجر شيسمان الذى وصل إلى الخرطوم في الثلاثين من مارس ١٩٤٠ ولكن من جهة أخرى لم يكن الباب مفتوحاً للاستفادة من اللاجئين الاثيوبيين داخل السودان أو التعاون مع أنصار المقاومة الاثيوبية في داخل اثيوبيا ذاتها فقد قضت السياسة البريطانية بتجريد اللاجئين الاثيوبيين من سلاحهم فور وصولهم إلى السودان وتحديد مواقع لاقامتهم بعيداً من الحدود لأن وجودهم بالقرب منها يمكن أن يصبح في نظر الدوتشى موسوليني عملاً عدائياً .

وقد تلقى المستر بلاكلي مفتش مركز القضارف آنذاك رسالة من ماسفين ردا وهو من قادة المقاومة الأشداء في الاقليم المتاخم للقضارف ذكر فيها أن الايطاليين عرضوا عليه المصالحة مقابل اعطائه مالاً وسلاحاً ولكنه فضل مواصلة النضال ويأمل أن تعينه الحكومة السودانية على ذلك وحول المستر بلاكلي الرسالة إلى المسئولين في الخرطوم وبعد مداولات مطولة بين الخرطوم والقاهرة ولندن أصدرت وزارة الخارجية البريطانية تعليماتها بتجاهل الرسالة وعدم الرد عليها . ولما نفد صبر ماسفين في انتظار الرد أغار على موقع بالقرب من مدينة القلابات واستولى على مائة رأس من الأبقار عاد بها

إلى معقله داخل اثيوبيا . وكان الأب كيركوس من الذين تمكنوا من الهروب إلى السودان في عام ١٩٣٧ ومكث في الخرطوم فترة خلق خلالها صلات بين اللاجئين الاثيوبيين وزعماء المقاومة في منطقة أرما شاهو القريبة من القلابات . ثم عاد الأب كيركوس إلى ديره لمواصلة النضال ضد الايطاليين وألقت السلطات في ناحية القضارف القبض في تلك الأيام على مجموعة من أعوانه وبحوزتهم ٥١٠ دولار واعترفوا بأنهم مكلفون من قبل الأب كيركوس بشراء بعض الحاجيات الضرورية للدير . وأخلت السلطات سبيلهم ولكن بعد مصادرتها لما في حوزتهم من دولارات وممتلكات أخرى . ومن جهة أخرى أفلح الكولونيل ساند فورد رغم تحفظ السلطات السودانية وانصياعها لسياسات الخارجية البريطانية في تشكيل تنظيم للمقاومة الأثيوبية في السودان بزعامة دابا بيرو الاثيوبي الذى كان قبل الغزو الايطالي ممثلاً تجارياً للامبراطور . ثم ظهر تنظيم منافس آخر بزعامة ولدى جورجيش الذى ادعى أن لديه تفويضاً من الامبراطور المقيم في بريطانيا . وسرعان ما نشب الصراع بين التنظيمين وتعددت الاشتباكات بين أتباعهما في شوارع الخرطوم وأسواقها مما أقلق مضجع المسئولين وأثار مخاوفهم لا سيما بعد اعتداء جورجيش بنفسه على غريمه بيرو بالضرب في مكان عام وألحق به أذى جسيماً . وألقت السلطات في الخرطوم القبض على الجاني الذى ادعى أنه كان في حالة دفاع عن النفس بينما اتهمه المجنى عليه أثناء التحقيق بأنه عميل للمخابرات الايطالية . ولما باءت مساعى ادارة المخابرات بالفشل في التوفيق بين جورجيش وبيرو قام المستر بني باستدعائهما إلى مكتبه وأبلغهما بأن تصرفاتهما سببت احراجاً للسلطات وتتعارض مع مقتضيات الضيافة وأنه في حالة أى بلاغ عن شجار بينهما في المستقبل فان السلطات لن تتردد في ايداعهم السجن لفترة طويلة . وقد أجدى هذا التهديد فلم تقع أية اعتداءات بينهما بعد ذلك .

وفي بريطانيا ذاتها لم يقابل الامبراطور هيلاسلاسي بارتياح عند وصوله إليها وقيل أن الحكومة البريطانية نصحته بالانتقال إلى أمريكا وظل طيلة اقامته في بريطانيا مقيداً في تحركاته ومحظوراً عليه القيام بأية تصرفات يمكن اعتبارها عملاً معادياً للايطاليين الذين احتلوا بلاده وخلعوه عن العرش . وما من شك في أن موقف الحكومة البريطانية من الامبراطور آنذاك قد أملته عليها سياساتها الرامية إلى استرضاء الدوتشى وعدم استفزازه حتى لا ينحاز إلى المانيا الهتلرية ولكن لا بد من أن يعاد إلى الأذهان أن بريطانيا اعترضت في عام ١٩٢٣ على انضمام اثيوبيا إلى عصبة الأمم وبررت ذلك بأن طبيعة الحكم في اثيوبيا وما يتسم به من وحشية وطغيان وحروب قبلية بالإضافة إلى انتشار تجارة الرقيق فيها كلها أمور لا تؤهل اثيوبيا لعضوية المنظمة الدولية . ومن المفارقات الساخرة أن ايطاليا هي التي تبنت مشروع انضمام اثيوبيا آنذاك إلى عصبة الأمم ثم قامت بغزوها واحتلالها في عام ١٩٣٥ وعلى اثر ذلك اتخذت عصبة الأمم قرارها بمقاطعة ايطاليا بأغلبية خمسين صوتاً مقابل صوت واحد هو صوت بريطانيا !! .

ومنذ وصول الامبرطور هيلاسلاسى هارباً إلى بريطانيا أخذت تتردد في الأوساط الحاكمة تلميحات إلى أن الامبرطور ليس له أتباع صادقون حتى عندما كان في الحكم وأن الأمهرا والشوا وحدهم هم الذين يتطلعون لعودته أما القبائل الاثيوبية الأخرى مثل الغالا والتيغرى فانها لم تنس ما عانته من قهر وظلم على يد الامبرطور وأعوانه . وجاء في مذكرة من مدير كسلا بتأريخ ١٠ اكتوبر ١٩٣٩ إلى المسئولين في الخرطوم أنه تلقى معلومات من داخل اثيوبيا تفيد بأن الامبرطور سوف يذبح كالشاة في غضون اسبوع واحد من عودته . وقد برزت في تلك الأيام أسماء شخصيات اثيوبية كبديل للامبرطور بينها الرأس أميرو المحتجز في ايطاليا وافيتوارى الذى كان وزيراً للحربية في عهد الامبرطور والتجأ بعد الغزو الايطالي إلى فلسطين والرأس ليج ياسو الذى ادعى الانتساب إلى الاسرة الاثيوبية المالكة ولكن اكتشف في ما بعد أنه ادعاء كاذب وأن ياسو لا رأس ولا يحزنون .

وفي الواقع أن أوربا – رغم تحفظ بريطانيا – بدأت تفقد الثقة في ايطاليا منذ عام ١٩٣٨ ولكن بعد نشوب الحرب ضد المانيا في العام التالي لم يعد أمام بريطانيا خيار غير تبني سياسات وزارة خارجيتها من أجل ابقاء ايطاليا بعيدة عن المعركة لا سيما انها أعلنت عن التزامها بالحياد . وفي دخول ايطاليا الحرب إلى جانب المانيا الهتلرية في تلك الفترة توزيع لامكانيات الحلفاء القتالية وتهديد مباشر لحدود فرنسا الجنوبية وكانت بريطانيا تدرك فوق ذلك أن في وجود الايطاليين في ليبيا واريتريا والصومال واثيوبيا خطراً مباشراً على قناة السويس التي تمر عبرها الامدادات من استراليا والشرقين الأقصى والأدنى وعلى الملاحة في البحر الابيض المتوسط ومصالح الامبراطورية البريطانية بوجه عام في القارة الافريقية . كما أن اشتراك ايطاليا في الحرب ضد الحلفاء يمكن أن يغرى صنيعتها الجنرال فرانكو بالاستيلاء على ممر جبل طارق وهو على قيد باع من الأراضي الاسبانية وكان من المعروف أن لدى ايطاليا في اسبانيا في تلك المرحلة خمس فرق من الجيش الايطالي أرسلها الدوتشي موسوليني إلى هناك تحت ستار أنها من مقاتلين متطوعين . كل هذه المخاوف كانت دائرة في أذهان الحكومة البريطانية وهي تبذل كل ما في وسعها لتجنب استعداء ايطاليا ودفعها إلى الخروج عن حيادها . ولكن كان معروفاً من ناحية أخرى أن حياد ايطاليا سياسة مؤقتة ربما باتفاق مع المانيا أو انتظاراً للحظة المناسبة التي تضمن فيها ايطاليا لنفسها في حالة انتصار ألمانيا الحد الأقصى من المكاسب لان المانيا ستكون رغم انتصارها منهوكة بينما تكون ايطاليا في مركز أقوى لفرض ارادتها . وقد عبر عن ذلك تاجر بولندى في افريقيا الشرقية الايطالية حين قال أن الشعور السائد بين الايطاليين هو أنهم ولأول مرة سيجنون مكاسب طائلة من وراء حروب الآخرين . وسواء أكان انتهاج ايطاليا لسياسة الحياد تواطؤاً مع برلين أو انتظاراً للحظة المناسبة فان خوضها الحرب في كلتا الحالين مسألة وقت لا أكثر أو أقل . ويقول ونستون تشرشل في كتابه عن الحرب العالمية الثانية أن الدوتشي موسوليني كان يدرك رغم تبجحه أكثر من أى شخص آخر مدى ضعف ايطاليا سياسياً وعسكرياً في

الفترة التي سبقت اندلاع الحرب في أوربا وربما لا يمانع في الاشتراك في حرب عام ١٩٤٢ اذا زودته المانيا بالسلاح والذخيرة أما أن تصبح ايطاليا طرفاً في حرب في عام ١٩٣٩ فهذا أمر يحرص الدوتشي على تجنبه . وفي الوقت نفسه لم يخف الدوتشي في سياق تبجحه وتهويشه استخفافه ببريطانيا وطالما وصفها في مناسبات عديدة بأنها «عجوز رخوة وجبانة ولا تملك لدى الملمات سوى الولولة والعويل» ويستشهد على تهيبها من الحروب بقرار طلبة جامعة أوكسفورد فى عام ١٩٣٣ الذى عبروا فيه عن رفضهم القتال دفاعاً عن الملك والوطن .

وبحلول نوفمبر عام ١٩٣٩ أخذ يتكشف للحكومة البريطانية عقم سياسة الاسترضاء والسلام بأى ثمن لا سيما أن ايطاليا قامت في أبريل من العام نفسه باحتلال ألبانيا تمهيداً للانقضاض على يوغسلافيا واليونان . وازدادت الحكومة البريطانية يقيناً بأن ايطاليا في طريقها لنبذ سياسة الحياد وأنها شرعت من أجل ذلك في حشد قواتها وتعزيز امكانياتها العسكرية في شمال وشرق افريقيا . كما أخذت السلطات السودانية تتلقى معلومات وثيقة عن قيام الايطاليين بتشييد المطارات والمستودعات في اثيوبيا واريتريا ومد طرق مسفلتة من هناك إلى حدود السودان الشرقية . وجاء في تقرير أعدته المخابرات السودانية في تلك الفترة أن القوات الايطالية في شرق افريقيا تتفوق على القوات التي في السودان من حيث العدد بمعدل عشرين مقابل واحد زيادة على تفوقها الصارخ في الجو ومن ناحية الاسلحة والمعدات وورد فى التقرير انه ليس من المنتظر أن تقوم قوة الدفاع السودانية المحدودة الامكانيات بأكثر من تأخير تقدم العدو في زحفه على الأراضي السودانية . وبلغت مخاوف السلطات السودانية حداً جعلها تضع خطة لاخلاء كسلا والمواقع الحدودية الأخرى بل والخرطوم ذاتها من مكاتب الحكومة ومرافقها الحيوية . وازاء هذا الموقف ونظراً لالحاح المسئولين في الخرطوم وافقت الحكومة البريطانية في ديسمبر ١٩٣٩ على تجنيد قوة عسكرية من السودانيين مؤلفة من خمس سرايا على أن يجرى تجنيدها وتدريبها في سرية تامة . واكتمل انشاء هذه القوة الجديدة فى مايو ١٩٤٠ أى قبل شهر واحد تقريباً من أعلان ايطاليا الحرب ضد الحلفاء وهذه هى القوة التي عرفت في ما بعد باسم سلاح الحدود . وقد أشرف على تشكيلها الكولونيل باوستيد (سير هيو باوستيد) وتولى قيادتها واختير لها ضباط بريطانيون وسودانيون محترفون وآخرون من موظفي الحكومة والشركات البريطانية . ومن ناحية أخرى دخلت السلطات السودانية في اتصالات مكثفة مع اللاجئين الاثيوبيين وزعماء العشائر وقادة المقاومة داخل اثيوبيا واريتريا ولكنها ظلت ملتزمة بالحذر لان سياسات الاسترضاء وعدم الاستعداء لا تزال قائمة رغم تلبد الجو بالغيوم وتواتر المؤشرات التي لا تدعو للاطمئنان .

وكان المستر بلاكلى مفتش مركز القضارف أكثر احساساً بالخطر المرتقب بحكم موقعه القريب من الحدود الاثيوبية ولهذا السبب اقترح في مايو ١٩٤٠ – قبل شهر تقريباً من دخول ايطاليا الحرب توجيه رسالة خطية إلى أحد عشر من زعماء المقاومة الاثيوبيين لضمان تعاونهم في المستقبل ضد العدو

الايطالي المشترك وجاءه الرد من الخرطوم بالرفض وقيل له أن ايطاليا لم تعلن الحرب حتى ذلك الحين ووقوع رسالة من هذا القبيل في أيدى الايطاليين سوف يثير حفيظتهم ويجلب عدواتهم . وفي النهاية وبعد مداولات بين لندن والقاهرة والخرطوم تمت الموافقة على توجيه الرسالة المقترحة بتوقيع الجنرال بلات القائد العام لقوة الدفاع السودانية . وقامت مصلحة المساحة في الخرطوم بطبع الرسالة باللغة الأمهرية على قماش وأرسلت باليد وفي سرية تامة وتحت حراسة مشددة إلى المستر بلاكلي في القضارف وطلب منه الاحتفاظ بها داخل خزينته إلى أن تأتيه التعليمات بارسالها إلى قادة المقاومة الاثيوبية المعنيين . وفي أسفل الرسالة دائرتان في أحداهما عبارة «القائد العام» ويتوسط الدائرة الثانية توقيع الجنرال بلات . وقد وصلت نسخ الرسالة إلى المستر بلاكلي قبل اسبوعين فقط من اعلان ايطاليا الحرب .

لقد جرى كل ذلك من وراء ظهر الخارجية البريطانية أو أنها تعمدت اغضاء الطرف عنه على الأقل وليتها اتعظت بتجربتها الفاشلة في مهزلة ميونيخ عندما عاد نيفيل تشمبرلين رئيس الوزراء إلى لندن حاملاً معه وثيقة لا تساوى ما استنفدته من حبر وورق . وقد دفعت بريطانيا ثمن ذلك غالياً . ولم تكن معاهدة فويسينغ مع الدوتشي موسوليني سوى صورة مكررة لما حدث في ميونيخ ولم يكن تظاهر ايطاليا بالحياد سوى ذر للرماد في العيون وكان من الممكن أن يضيع السودان من جراء ذلك ويقع لقمة سائغة في يد المحور وأن يتبع ذلك حتماً انهيار الامبرطورية البريطانية في افريقيا والشرق الأوسط وفي هذه المرة لن تدفع بريطانيا الثمن وحدها وانما سيدفعه أيضاً العالم الحر بأسره .

وكان من المحتوم أن يقع كل ذلك لولا وقفة شعب السودان صامداً إلى جانب الحلفاء وتصدى قوة دفاعه لجحافل العدو الزاحفة من اريتريا واثيوبيا . وقد خاض الجنود السودانيون معارك طاحنة في ساحات القتال وبينها معارك فاصلة ذاق الحلفاء فيها لأول مرة منذ نشوب الحرب حلاوة الانتصار بعد هزائمهم المتلاحقة في جبهات القتال الأخرى . وفي الواقع انها معارك حاسمة غيرت مسار الحرب وكانت أول مسمار دق في نعش المحور . ومن حق السودان أن يفاخر بأنه سجل أول سطر في شهادة وفاة عصبة المحور بفضل أبنائه الصابرين الذين سقوا بعرقهم ودمائهم شجرة الحرية حتى ارتوت في منابتها الوعرة بين الشعاب وفوق قنن الجبال في اثيوبيا واريتريا .

وعلى أية حال أثبت الدوتشي بنيتو موسوليني أنه والفوهرر من طينة واحدة ففي صباح العاشر من يونيو استهلت اذاعة روما برامجها بنداء دعت فيه الشعب الايطالي إلى التوجه لقصر البندقية (بلازو فينيزيا) وهو المقر الرئيسي للدوتشي للاستماع إلى أنباء ذات أهمية بالغة . وظلت الاذاعة تردد النداء طيلة النهار كما احتل مكان الصدارة في الصحف الايطالية . وفي المساء توجهت جماهير غفيرة إلى ساحة القصر وأطل عليهم الدوتشي من الشرفة التقليدية التي طالما اتخذها منذ

استيلائه على الحكم منبراً لإلهاب مشاعر الشعب وحماسته . وكان الدوتشي في ذلك اليوم مرتدياً بزته العسكرية وما يتبعها من أوشحة مزركشة وأوسمة وشارات بوصفه القائد الأول (جنراليزمو) للقوات الايطالية البرية والبحرية والجوية . وأعلن الدوتشي من الشرفة أن وزير خارجيته سلم بالفعل قرار اعلان الحرب لسفيرى فرنسا وبريطانيا وصاح بلهجته الخطابية الاستعراضية قائلاً «أن الساعة التي حددها القدر تدق الآن في سماء ايطاليا وهي ساعة القرارات التي لا رجعة فيها وأن ايطاليا سوف تنتصر ويتحقق بانتصارها عهد السلام والعدالة لأوروبا والعالم أجمع» .

وتعالت هتافات الجماهير متجاوبة مع الدوتشي وقد كان خطيباً مفوهاً حاذقاً في امتلاك القلوب ودغدغة ما يجيش في كوامنها من عواطف ومشاعر . وكانت تلك اللحظات بالفعل مرحلة مصيرية لدى قطاع كبير من الايطاليين الذين أسكرتهم أحلام الفاشية بل كانت «الفرصة التي لا تتاح إلا مرة واحدة كل ألف عام» كما قال كونت شيانو وزير الخارجية الايطالية آنذاك . فالمانيا تنتقل من نصر إلى نصر وكادت أن تفرض سيادتها على أوروبا الوسطى بأسرها ولكي تحصل ايطاليا علي نصيبها الأوفى من الغنائم فان عليها تقديم دليل واضح على ولائها للمحور قبل أن ينقشع غبار الحرب ويتبدد دخانها . ولكن فات على الايطاليين وهم في غمرة الحماسة ادراك مغزى المثل الايطالي الذى يقول «من يأخذ الشيطان معه في سفينته عليه أن يصطحبه حتى نهاية الرحلة» .

وبإعلان الدوتشي الحرب على بريطانيا أسدل الستار على الصداقة الحميمة التي توطدت بين الشعبين الايطالي والبريطاني منذ عهد غريبالدى وكافور اللذين قامت على أكتافهما ايطاليا الموحدة المعاصرة في القرن التاسع عشر وقد بادر التيار الليبرالى البريطاني آنذاك بتوفير الدعم المعنوى والمادى لكل مراحل تحرير شمال ايطاليا من سيطرة النمسا . واحتل توحيد ايطاليا في ظل الاستقلال مكان الصدارة بين القضايا التي شغلت مشاعر البريطانيين ووجدانهم . وبفضل تلك الصداقة الوطيدة أسهم النفوذ البريطاني مساهمة فعالة في تحول ايطاليا إلى قضية الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى ولم تتأثر أواصر الصداقة والمودة بين الشعبين البريطاني والايطالي بصعود موسوليني إلى الحكم بل أن قطاعاً كبيراً من الرأى العام البريطاني له وزنه رأى في النظام الفاشي ترياقاً مضاداً للشيوعية . غير أن السياسة التي انتهجتها الحكومة البريطانية ازاء استيلاء موسوليني على الحبشة لم تكن حاسمة في تحجيمه وتقليم أظفاره واقتصرت نتائجها على استعداء الدوتشي ودفعه تدريجياً إلى أحضان ألمانيا الهتلرية . وحاول تشمبرلين ووزير خارجيته لورد هاليفاكس عن طريق سياسة الاسترضاء انقاذ الموقف واعادة المياه إلى مجاريها بين روما ولندن ولكن محاولاتهما باءت بالفشل . وقد ظهر في ما بعد أن الدوتشي أبلغ وزير خارجيته في أوائل مايو ١٩٤٠ بأنه سوف يعلن الحرب ضد بريطانيا وفرنسا في التاسع والعشرين من الشهر نفسه ثم عدل عن ذلك وأجل الموعد إلى العاشر من يونيو نزولاً على رغبة هتلر ومهما يكن من أمر فان الدوتشي كان قد وصل منذ شهر مارس من العام نفسه إلى قناعة بأن نجم

بريطانيا في طريقه إلى الأفول وأن الفرصة سانحة أمامه بمساعدة حليفه الفوهرر لإعادة بناء أمبراطورية روما على أنقاض الامبراطورية البريطانية .

ومن ناحية أخرى قابل دوق أوستا نائب أمبرطور إيطاليا فى أديس أبابا أعلان بلاده الحرب ضد الحلفاء بعدم إرتياح ويرجع ذلك الى تقديره للصداقة بين الشعبين البريطانى والايطالى ولعله يرجع أيضاً الى أن أم الدوق وزوجه فرنسيتان وأن له على الصعيد الشخصى أصدقاء كثيرين فى بريطانيا وخاصة فى محيط الأسر النبيلة . وقد ظل دوق أوستا منذ نشوب الحرب فى عام ١٩٣٩ محبذاً لسياسة الحياد خوفاً من أن تصبح الامبرطورية – التى كلفت إيطاليا أرواحاً وأموالاً طائلة – فى مهب الريح وقد ذهب بنفسه فى أبريل من عام ١٩٤٠ الى روما وحث الدوتشى على الاستمرار فى سياسة الحياد وحذره من الانجراف وراء هتلر ومخططاته العدوانية وقال له ان السكان المحليين وخاصة فى أثيوبيا سوف يرفعون رايات الثورة حالما يشعرون بأن إيطاليا أصبحت فى موقف عصيب . وأمضى الدوق أوستا فى طريق عودته من روما أياماً فى القاهرة والخرطوم . ويذكر الذين يعرفونه أنه كان يمثل فى تلك الفترة تياراً لا يرى غضاضة فى مقامرة إيطاليا على حرب قصيرة الأمد لا حرب تمتد لسنوات يمكن أن تجد إيطاليا نفسها خلالها فى موقف لا تحسد عليه بسبب افتقارها الى المواد الخام خاصة أنها ظلت منذ عام ١٩٣٥ فى حالة حرب استنزفت مواردها وأضعفت قدراتها المالية والاقتصادية .

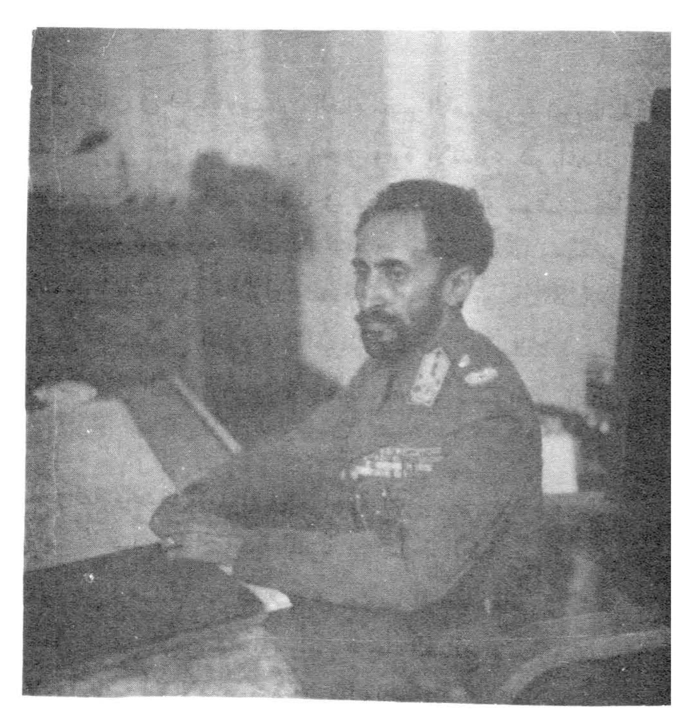
وجاء اعلان إيطاليا الحرب ضد فرنسا وبريطانيا بعد ستة أيام فقط من انسحاقها فى واقعة دانكيرك الشهيرة وقد جثت فرنسا حينذاك على ركبتيها مستكينة لمصيرها المحتوم واعتبرت بريطانيا اخلاء قواتها عبر دانكيرك انسحاباً فنياً الا أن ذلك فى الواقع كان نكبة ساحقة عليها فهى وان أفلحت فى إنقاذ ٢٠٠ ألف جندى واعادتهم الى البر البريطانى الا أنه بقى لها فى الجبهة الفرنسية حوالى خمسين ألفاً من خيرة جنودها ومعهم كميات هائلة من الأسلحة بينها مائة وأربعون مدفعاً – أى ثلث ما تملكه من مدافع فى تلك المرحلة من الحرب . ولم تخرج فرنسا من الحرب فحسب أثر هزيمتها وانما صارت – كما توقع تشرشل – طرفاً فيها ضد بريطانيا فى ظل حكومة فيشى بقيادة الجنرال بيتان التى جرت معها معظم المستعمرات الفرنسية فى آسيا وأفريقيا . ولاذ البريطانيون المندحرون بجزيرتهم يلعقون جراحهم فى انتظار الضربة القاضية وساد الاعتقاد يومذاك بأن الألمان سيعبرون بحر المانش قريباً للاستيلاء على بريطانيا . وكان من رأى هيئة الأركان البريطانية أن القوات البرية لن تقوى على صد مثل هذا الغزو اذا فشل الاسطولان البحرى والجوى فى منع الألمان من اقامة جسر لهم على الساحل البريطانى . ولم يبق أمام تشرشل يومذاك ما يقدمه للشعب البريطانى المهزوم « سوى الدماء والعناء والعرق والدموع » وأعلن أمام البرلمان أن سياسة حكومته هى « شن الحرب بحراً وجواً وبراً بكل قدراتنا ضد طغيان بشع لا مثيل له فى تاريخ جرائم الانسان وسيظل النصر هدفنا مهما كلفنا من ثمن ومهما كان الطريق اليه شاقاً

وطويلاً . وبدون النصر لا أمل للشعب البريطانى فى الحياة وسيكون الفناء مصير الامبرطورية البريطانية بكل ما تمثله وتقف من أجله وستفقد البشرية على مر العصور الحافز وقوة الاندفاع نحو أهدافها وغاياتها » وفى مناسبة أخرى قال تشرشل أمام البرلمان « لقد سقطت فى قبضة النازى أو سوف تسقط مساحات شاسعة من أوروبا ومعها دول عريقة كثيرة ومع ذلك لن نترحزح أو تفتر عزائمنا وسنمضى حتى النهاية فى الدفاع عن جزيرتنا ونقاتل أعداءنا فى الحقول والطرقات والجبال ورمال الساحل والمطارات . واذا سقطت هذه الجزيرة أو هلكت من الجوع فان امبرطوريتنا ستواصل القتال تحت حماية الأسطول البريطانى » وخرج تشرشل من القاعة وهو يترنم بأغنيته المفضلة « سنواصل القتال مهما حدث أو تساقط الآخرون » .

كانت بريطانيا فى محنة عظيمة حقاً واقفة وحدها يومذاك فى مواجهة المحور وهى عزلاء مهيضة الجناح وقد تقاعست عن نصرتها حتى أمريكا صديقتها التقليدية المقربة إذ اشترط الكونغرس فى ظل سياسته الانعزالية تنازل الحكومة البريطانية عن أرصدتها من الذهب فى جنوب أفريقيا مقابل تزويدها بالأسلحة والمؤن الأمريكية وأبحرت بالفعل السفن الأمريكية الى رأس الرجاء الصالح لاستلام تلك الأرصدة . وتراءى للدوتشى ساعة أعلانه الحرب أن الامبرطورية الايطالية العظمى التى يحلم بها منذ زمان طويل أصبحت فى المتناول وماعليه الا أن يفتح ذراعيه لاحتضان امبرطورية مترامية الأطراف مساحتها أربعة مليون ميل مربع وسكانها يقاربون خمسين مليون نسمة من العرب والافريقيين وتمتد من ليبيا وتونس على البحر الأبيض المتوسط الى تانزانيا (تنجانيقا) على المحيط الهندى مروراً بمصر حيث قناة السويس ثم السّودان ويوغندا وأثيوبيا حيث منابع النيل بالأضافة لكينيا والصومال وربما تتفضل عليه حليفته الكبرى ألمانيا باقطار أخرى فى أوروبا أو من أسلاب الامبرطوريتين الفرنسية والبريطانية وهكذا تستعيد روما أمجادها السالفة .

ولم يكن موقف بريطانيا المسحوقة فى الجبهة الأوروبية أحسن حالاً فى الشرق الأوسط ففى القاهرة نشطت المغازلات المكشوفة بين الملك فاروق وبرلين واجتاحت مصر موجة جارفة معادية للحلفاء بزعامة على باشا ماهر والفريق عزيز المصرى الضابط السابق فى الجيش العثمانى الذى تردد آنذاك أنه الرجل الأول لمعسكر المحور فى مصر وأنه مكلف حسب تخطيطات برلين بضرب بريطانيا من الخلف داخل الأراضى المصرية . وقد أفرزت حركة عزيز المصرى فى ما بعد شخصيات مثيرة قامت بدور بارز فى حياة مصر السياسية مثل محمد أنور السادات وحسين ذو الفقار صبرى والأستاذ أحمد حسين زعيم حركة مصر الفتاة المتطرفة التى أغتال أحد أعضائها رمياً بالرصاص أحمد باشا ماهر رئيس الوزراء المصرى عندما أعلن عن دخول مصر الحرب ضد المحور فى أوائل عام ١٩٤٥ .

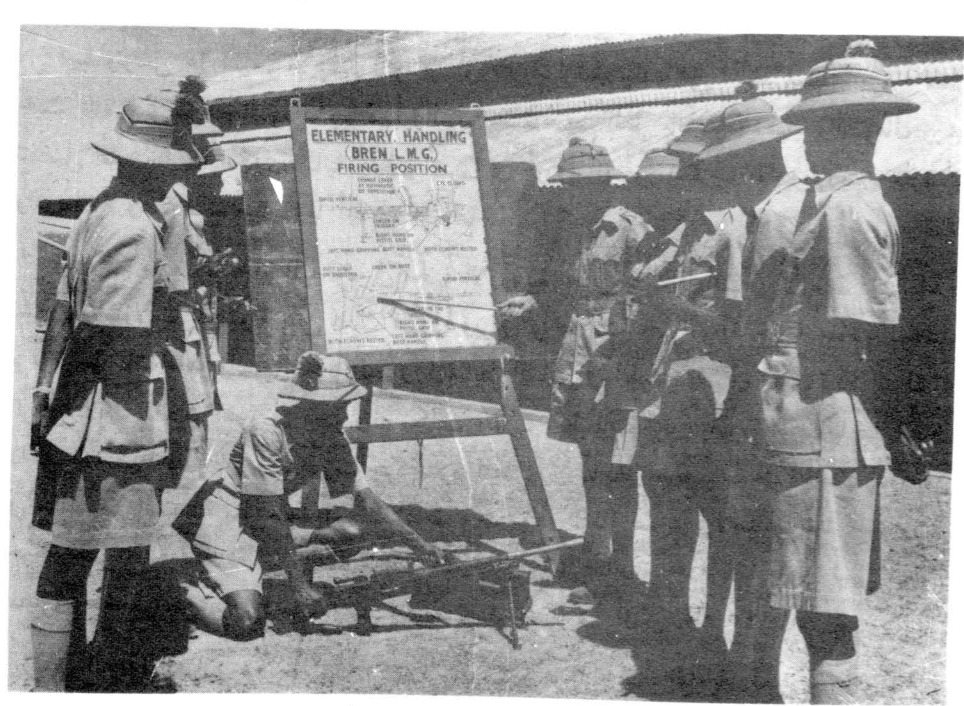
وفى العراق أعلنت حكومة نورى السعيد الحرب ضد المانيا منذ البداية ولكن سرعان ما اشتد



الأمبرطور هيلاسلاسى فى مكتبه فى قصر الزعفران – الخرطوم



الملازم أحمد محمد نور الهدى



الطلبة الحربيون (براءة الحاكم العام) فى تدريب
على مدفع البرن فى أم درمان

ساعد العناصر المناهضة لبريطانيا مما أدى الى نشوب ثورة رشيد عالى الكيلانى الذى استولى على الحكم فى بغداد معلناً انحيازه لألمانيا كما انحازت عناصر فلسطينية بزعامة الحاج أمين الحسينى الى جانب المحور معلنة الجهاد تحت راية موسولينى الذى صورته أجهزة الدعاية الايطالية بانه حامى الاسلام . وقد أسهمت تلك العناصر الفلسطينية فى ثورة الكيلانى مساهمة فعالة وبعد القضاء على الثورة هرب الحاج أمين الى برلين عن طريق ايران . أما فى ايران ذاتها حيث آبار البترول الحيوية بالنسبة للحلفاء فان الشاه رضا بهلوى لم يخف تعاطفه مع ألمانيا الهتلرية مما أفضى فى النهاية الى عزله ونفيه الى جنوب أفريقيا وخلفه ابنه الشاه محمد على عرش الطاؤوس .

ومن ناحية أخرى انتقلت السيطرة على سوريا ولبنان والمغرب العربـى الى حكومة فيشى الموالية لبرلين بزعامة الجنرال بيتان واتجه عدد كبير من زعماء الحركات الوطنية فى المغرب العربـى الى روما وبرلين وبينهم الحبيب بورقيبه الذى أعرب فى مناسبات عديدة من خلال أجهزة الدعاية المحورية عن تقديره للمسئولين فى دولتى المحور ومشاعرهم الطيبة نحوه ونحو رفقائه . وخلاصة القول أن الحكومات العربية الرئيسية (مصر والسعودية والعراق وسوريا ولبنان) لم تعلن - باستثناء العراق - الحرب ضد المحور الا فى عام ١٩٤٥ عقب الزيارة التى قام بها لمنطقة الشرق الأوسط آنذاك الرئيس روزفلت والمستر ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطانى واجتمعا خلالها بالملك عبد العزيز بن سعود والملك فاروق والرئيس شكرى القوتلى . وأتاح دخول تلك الحكومات العربية - وكان المحور فى رمقه الأخير - أتاح لها الفرصة للمشاركة فى مؤتمر سان فرنسيسكو فى العام نفسه وهو المؤتمر الذى أصدر ميثاق الأمم المتحدة بعد أن وقعته الحكومات المشتركة فيه التى عرفت فى ما بعد باسم « الأمم المتحدة » ولم يكن عددها آنذاك أكثر من خمسين .

وقد أصبح السودان بدخول ايطاليا الحرب فى العاشر من يونيو ١٩٤٠ فى خطر مباشر باعتباره من مناطق النفوذ البريطانية التى يتطلع الدوتشى لضمها الى امبرطوريته التى ظل يحلم ويبشر بها منذ سنوات طويلة . ومهما كانت مآخذ السودانيين على حكامهم البريطانيين فان من غير المعقول استبدال سلطة استعمارية بأخرى مماثلة أو قبول الانتقال من سيد الى سيد آخر وسيان أن يكون على باب السجن شيطان رجيم أو ملك كريم . وهكذا لابد من حماية السودان من المصير الدامى الذى حاق بالحبشة (أثيوبيا) على يد ايطاليا الفاشية التى استهانت بجميع المواثيق والمعاهدات وضربت بها عرض الحائط عندما اجتاحت جيوشها الجرارة تلك البلاد فى وحشية بالغة مستعينة بجميع أسلحة الدمار والابادة . ووصل الايطاليون فى استهتارهم وصلفهم فى الحبشة حدا لم يتورعوا فيه عن تدمير معسكرات منظمة الصليب الأحمر الدولية لأن المنظمة كشفت يومذاك عن استخدامهم الغازات السامة ضد العسكريين والمدنيين الأحباش وهى المحرمة دولياً منذ عام ١٩٢٦ بموجب بروتوكول جنيف . وقد جرت بعد

استيلاء الايطاليين على الحبشة محاولة لأغتيال الجنرال جرازياني الحاكم الايطالي الذى أمر فوراً باعدام ٣٠٠ من الوطنيين وتلت ذلك مجزرة رهيبة راح ضحيتها حوالى خمسين ألفاً من سكان اريتريا والحبشة . وظلت كل هذه الأنباء الرهيبة تصل الى أسماع السودانيين تباعاً بالأضافة الى أنباء متصلة تتحدث عن اضطهاد الايطاليين للأهالى واغتصابهم لأراضيهم وممتلكاتهم ونسائهم . وقابل السودانيون بسخرية واستخفاف ادعاءات الدوتشى الجوفاء بأنه حامى الاسلام فى الوقت الذى لم يحتمل فيه وجود االكنيسة القبطية فى الحبشة وعمل – وهو المسيحى – فى وحشية بالغة على اقتلاع تلك الكنيسة من جذورها واستبدالها بالكنيسة الكاثوليكية (الفاتيكان) . وتحقيقاً لهذا الهدف قام موسولينى وأعوانه بنصب المشانق التى راح ضحيتها مئات من القساوسة والرهبان الأحباش .

وازاء هذه الصورة القاتمة لسلوك الايطاليين فى الحبشة المجاورة وقبل ذلك فى ليبيا اجتمعت كلمة السودانيين على أن دورهم فى الحرب ليس مجرد تعاطف مع بريطانيا وانما لابد من أن يصبحوا طرفاً فيها خوفاً من أن يلقى السودان نفس المصير الذى منيت به الحبشة والمستعمرات الايطالية الأخرى وليس السودانيون بطبعهم وتقاليدهم فى حاجة الى من يثير حماستهم ويشعل مشاعر الغيرة فى صدورهم للدفاع عن الأرض والعرض والاسلام .

وهذا ما عبر عنه الزعماء الدينيون وقادة الرأى فى الاجتماع الذى عقده الحاكم العام فى قصره ظهر اليوم التالى لدخول ايطاليا الحرب وقد دعا اليه واحداً وعشرين شخصاً بينهم الزعماء الطائفيون الثلاثة (على الميرغنى وعبد الرحمن المهدى ويوسف الهندى) والشيخ أبو شامة عبد المحمود مفتى الديار السودانية وممثلو العلماء والتجار ومؤتمر الخريجين ونفر من الضباط المتقاعدين . ولم يشترك فى هذا الاجتماع رئيس القضاء الشرعى الشيخ نعمان الجارم لأنه مصرى وموظف منتدب من الحكومة المصرية وكانت مصر قد اكتفت منذ اعلان الحرب ضد ألمانيا باعلانها حالة الطوارئ تنفيذاً لبنود المعاهدة المصرية البريطانية . وتلا الحاكم العام أمام المدعوين بيانه الى شعب السودان الذى تضمن دخول السودان الحرب وكان البيان قصيراً وقرأ ترجمته العربية الشيخ أحمد عثمان القاضى كما قرأ الترجمة العربية أيضاً لخطاب مطول من الحاكم العام . ثم نهض بعد ذلك السادة المهدى والميرغنى والهندى ومفتى الديار السودانية وألقى كل منهم كلمة قصيرة أعرب فيها عن الولاء لبريطانيا العظمى وثقتهم بأنتصارها على الأعداء . وكان الشريف الهندى كعادته متحرقاً للمزاودة مع الميرغنى والمهدى فى كل ما يتعلق بالولاء لبريطانيا وفى هذه المرة وصف الشريف الهندى الدوتشى موسولينى بأنه « إبن كلب » وناكر لجميل الحكومة البريطانية التى أعانته عن طريق السودان فى حربه فى أثيوبيا وأعاد بعض المتحدثين الى الأذهان اجتماعاً مماثلاً فى عام ١٩١٤ عقده سير ريجنالد ونجت حاكم السودان العام آنذاك غداة اندلاع الحرب العالمية الأولى . والتقى السيد ميرغنى حمزة رئيس مؤتمر الخريجين بعد الاجتماع مع سير دوغلاس نيوبولد السكرتير الادارى وأكد له حرص الخريجين على

التعاون باخلاص مع الحكومة وأبلغه أيضاً انهم سيكفون عن انتقاد الحكومة وسيئدون خلافاتهم من أجل الحاق الهزيمة بالايطاليين . أما السيد محمد صالح الشنقيطى الذى التقى بالسكرتير الادارى أيضا بعد الاجتماع فى قصر الحاكم العام فقد قال له ان الشباب المثقفين - بغض النظر عن رأى الحكومة فى المؤتمر - يعتبرون الحرب ضد النازية والفاشية حربهم بقدر ما هى حرب البريطانيين . ويروى السيد اسماعيل الأزهرى الذى اشترك فى الاجتماع نيابة عن المؤتمر فى مذكراته بعض وقائع ذلك الاجتماع على النحو التالى :

« أجلسونا فى أحد الصالونات (فى قصر الحاكم العام) وكان الوقت ظهراً . ولما انتظم العقد أقبل الحاكم العام مرتدياً زياً عسكرياً وفوق رأسه قبعة عالية وكان حازماً صارم الوجه تبدو على محياه آيات القلق والاضطراب . وحيا الحاكم العام المجتمعين ثم تلا بياناً قصيراً فى كلمات محدودة أعلن فيه دخول السودان الحرب . ثم نهض الشيخ أحمد عثمان القاضى الموظف بمكتب السكرتير الادارى (ادارة الأمن العام) وتلا ترجمة البيان بالعربية ولما فرغ من ذلك ألقى الزعماء الدينيون الثلاثة كلمات أعربوا فيها عن استعدادهم واستعداد أهل السودان لنصرة الحلفاء والذود عن البلاد » .

وهكذا وقف السودان يومذاك بالاجماع - كما أكد زعماؤه الدينيون وقادة الرأى - لنصرة الحلفاء والذود عن وطنهم السودان وكان مصدر الاحراج الوحيد للمسئولين البريطانيين هو اقتناع السودانيين بتفوق بريطانيا على أعدائها وانتظارهم أن تتصرف من هذا المنطلق بالهجوم على الايطاليين فى اثيوبيا واريتريا بدلاً من اتخاذها موقف الدفاع . وقد عبر عن هذا الشيخ أحمد جعفر عمدة كسلا عندما خاطب أحد الاداريين البريطانيين بقوله « اننا نخوض الحرب معكم وندين بالولاء للحكومة ولا نرغب فى انتقادها ولكن يسوؤنا أن يقال لنا ان السودان فى حالة دفاع عن نفسه بدلاً من أن نداهم الأعداء فى عقر دارهم ونحن نعلم أنهم منهزمون لا محالة » .

وقد تناول سير دوغلاس نيوبولد فى رسالته الشهرية الى حكام المديريات التأييد الذى أبداه السودانيون فى اجتماع القصر وخلافه وهى الرسالة التى بعثها اليهم بعد شهر من دخول ايطاليا الحرب ووصف فيها ذلك التأييد بأنه صادق ولكنه تساءل فى الوقت نفسه عن امكانية صمود ذلك القدر الكبير من الحماسة أمام ضغوط النكسات العسكرية فى ميادين القتال واهتزاز الآمال وفترات التعتيم خلال الغارات الجوية والاشاعات المثيرة للمخاوف والبطاقات التموينية وغير ذلك من المضايقات وويلات الحروب . وقال سير دوغلاس فى رسالته انه أبلغ المثقفين - أو الأفندية على حد تعبيره - بأنه يجب عليهم ألا يستهينوا بقوة الايطاليين وأن يكونوا على استعداد لتلقى ضربات موجعة براً وجواً وعليهم فى الوقت نفسه أن يسهموا فى محاربة الاشاعات الضارة .

ومن الواضح أن الحكومة استهدفت من وراء دعوتها ثلاثة من قادة المؤتمر الى اجتماع القصر دعم

علاقاتها الطيبة مع المؤتمر غير أن رفضها الاعتراف به كهيئة تمثل الشعب السودانى بأسره قد خلق فى نفوس قادة المؤتمر شعوراً بالامتعاض ونشب بالفعل خلاف بين الطرفين حول محطة الاذاعة المقترحة . واستقالت لجنة المؤتمر المؤلفة من خمسة عشر عضواً وخلفتها لجنة جديدة جرى انتخابها على أساس طائفى تنافس فيه أتباع الطائفتين الرئيسيتين الختمية والأنصار . وأصدرت اللجنة الجديدة قراراً بمقاطعة المحطة الاذاعية وأشفعت ذلك بمنع أعضاء المؤتمر من التعاون معها . وفى الوقت نفسه احتل مكان الصدارة فى صحيفة النيل مقال صارخ نادى فيه المحرر بضرورة توسيع قاعدة المؤتمر بحيث يسمح للتجار والمزارعين بالانضمام اليه بدلاً من بقائه قاصراً على الخريجين . وتضمن المقال أيضاً مطالبة المؤتمر باتخاذ قرار يحظر على أعضائه التطوع للخدمة العسكرية الا بعد موافقة لجنته التنفيذية . غير أن هذه الأزمة انقشعت فى آخر المطاف خلال مقابلة جرت بين السكرتير الادارى والسيد اسماعيل الأزهرى الذى أكد فى المقابلة التزامه بدستور المؤتمر نصاً وروحاً وحرصه على استمرار التفاهم بين الحكومة وقيادة المؤتمر . ووعد الأزهرى ببذل كل ما فى وسعه للابقاء على عطف الحكومة وتأييدها . وعلى أية حال كانت أزمة عابرة لم تحدث شرخاً دائماً أو ذا بال فى صرح التأييد الشامل لقضية الحلفاء ومناصرتهم فى ميادين القتال .

وقد نقلت اذاعة لندن (بي بي سي) يومذاك ما دار فى اجتماع القصر الذى دعا اليه الحاكم العام ولكنها أوردت فى سياق ذلك ما فهم منه أن الزعماء والقادة السودانيين لم يلقوا كلمات ولاء وتأييد فى الاجتماع باستثناء السيد عبد الرحمن المهدى نجل الامام المهدى وزعيم طائفة الانصار وخلق ذلك موجة من الامتعاض فى النفوس وزاد الطين بلة أن اذاعة لندن تجاهلت فى نشراتها قوة الدفاع السودانية التى يرابط جنودها على الحدود مع اريتريا وظلت الاذاعة تصفهم بأنهم قوات بريطانية لا سودانية وانهالت احتجاجات الأوساط الوطنية على المسئولين فى الخرطوم استنكاراً لمسلك اذاعة لندن وما فيه من تضليل وتشويه للحقائق واغفال لدور السودان وجنوده البواسل الذين هبوا لمجابهة العدو المتربص عبر الحدود الشرقية . وازاء ذلك قامت السلطات فى الخرطوم بتوجيه مذكرة الى اذاعة لندن عن طريق وزارة الخارجية البريطانية لافتة نظرها لما وقعت فيه من أخطاء ومع المذكرة قائمة بالقبائل والقيادات الوطنية التى أعربت فى حماسة بالغة عن ولائها وتأييدها لبريطانيا وتبرعت كذلك بالمال والرجال لدعم المجهود الحربى .

ونخلص مما أسلفنا الى أن السودان بادر بدخول الحرب ضد المحور ايماناً منه بقضية الحلفاء وانطلاقاً من مبادئه الرافضة للاستعمار بكل أشكاله وألوانه وقد كان فى امكانه رغم وقوعه تحت النفوذ البريطانى الوقوف بمنأى عن الحرب مكتفياً بدور المتفرج مثلما فعلت بلاد أخرى لم تكن فى عداد مستعمرات الحلفاء التى دخلت الحرب تلقائياً ولكنها كانت خاضعة مثل السودان لنفوذ بريطانيا أو حليفاتها .

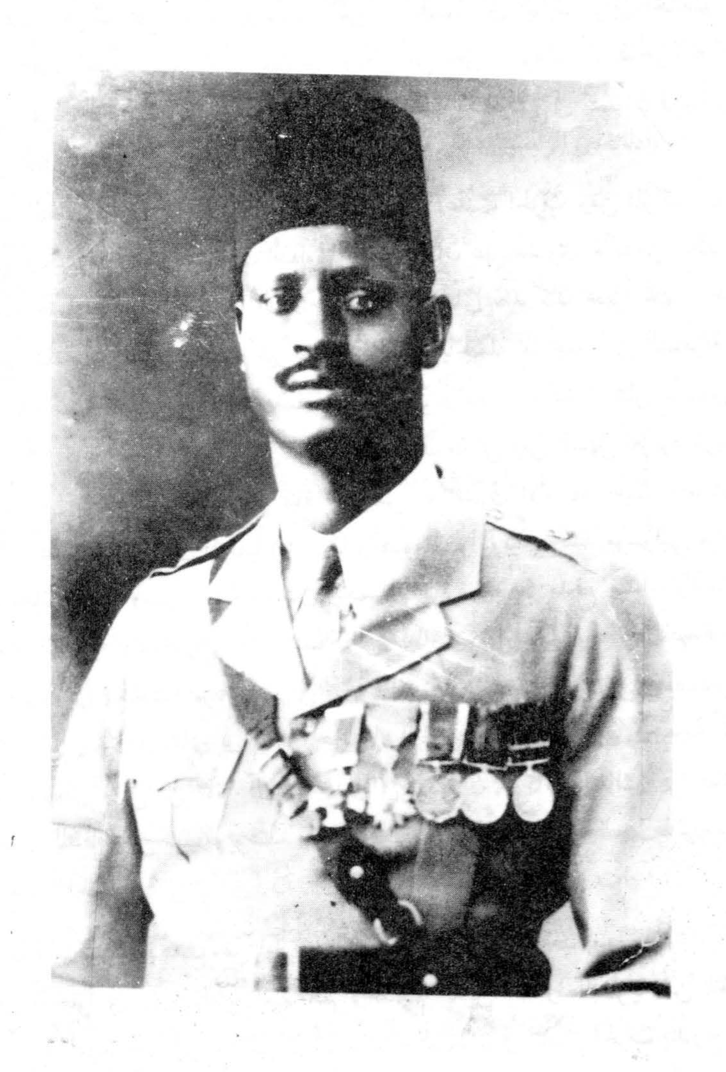
وعندما شارفت الحرب على نهايتها ووصلت القوات الحليفة الى أبواب برلين أخذت دول عديدة تتسابق على اعلان الحرب ضد المحور المتداعى ولكن من حق السودان أن يفاخر بأنه كان أول بلد عربى أعلن الحرب على المحور منذ البداية وعندما كان هتلر والدوتشى فى عنفوان قوتهما وجبروتهما بل أنه سبق فى ذلك حتى أمريكا والاتحاد السوفيتى .

وتتفاوت التقديرات بشأن قوة ايطاليا عسكرياً عندما أعلنت الحرب ومن المؤكد أنها لم تكن على مستوى المانيا ولكن من المتفق عليه أن اسطولها البحرى كان على مستوى عال من الكفاءة نسبياً وان كانت تنقصه حاملات الطائرات أما السلاح الجوى الايطالى فقد كان مجهزاً تجهيزاً جيداً بطائرات ذات تصميم متقدم ولكن يعيبها أنها غير صالحة للانتاج بالجملة مما يجعل من الصعوبة بمكان صنع طائرات جديدة بسرعة لتحل مكان ما يصاب منها بتلف أو دمار . وعندما أعلن موسولينى الحرب فى ١٠ يونية ١٩٤٠ كان لديه فى ليبيا جيش قوامه ربع مليون مقاتل ومن السهل تعزيزه بمزيد من الرجال والامدادات من ايطاليا للاستيلاء على قناة السويس ثم الشرق الأوسط حيث مصادر الوقود التى تعتمد عليها بريطانيا . وفى شرق افريقيا (اريتريا والصومال واثيوبيا) حشد موسولينى قوات تتألف من ربع مليون مقاتل أيضاً وستين دبابة ومائتين وخمسين طائرة و٤٠٠ مدفع ميدان وكميات وفيرة من الوقود والمواد الغذائية والذخيرة . وأقام شبكة من المطارات والجسور والطرق المعبدة وبينها الطريق الرئيسى (هاى واى) الممتد عبر اريتريا الى حدود السودان الشرقية . ويقابل هذه القوات الايطالية الجبارة ٣٦ ألف جندى بريطانى فى مصر وحوالى ١٠ الآف جندى فى كينيا وخمسة آلاف فى عدن والصومال البريطانى وأقل من ثمانية آلاف جندى فى السودان . وكانت هناك ١٠٠ طائرة فقط تابعة للسلاح الجوى للدفاع عن كينيا ويوغندا والسودان وعدن والصومال ومعظمها طائرات عتيقة مكانها اللائق ساحات الخردة .

وعلى كثرة ما كتب ويكتب عن الحرب العالمية الثانية لم يحفل أحد بدور السودان فيها لأن اليهود والأوروبيين أدخلوا فى روع العالم أنهم هم وحدهم الذين أنقذوا البشرية من الخراب والدمار ويسوؤهم أن يقاسمهم أحد شرف ذلك كما أن ما بذله السودان فى مضمار الحرب يندرج ضمن مساهمة الامبرطوية البريطانية باعتبار السودان شبه مستعمرة بريطانية .

على أن بريطانيا الرسمية لا تجحد السودان حقه وتعترف بدوره الحاسم فى انتصار الحلفاء وقد جاء فى التقرير الرسمى البريطانى عن تأريخ الحرب العالمية الثانية :

« لو سقط السودان الانجليزى المصرى لضاعت بسقوطه خطوط امداداتنا عبر البحر الأحمر وكذلك عبر القارة الافريقية من تاكورادى (غرب افريقيا)الى الخرطوم ولاستحال الدفاع عن مصر ولما قامت فى الواقع جبهة للقتال فى الشرق الاوسط . ولو سقط السودان لتمزق خصر الامبرطورية



الأميرالاى حسن بك محمد زين
حامل نيشان الخدمة الممتازة البريطانى (دى. إس. أو)
حامل نيشان الأمبرطورية البريطانية درجة ضابط (أوبىإى)
حامل نيشان النيل المصرى من الدرجة الخامسة

البريطانية على أيدى جيوش جرازيانى الزاحفة من ليبيا والقوات الايطالية الزاحفة من شرق افريقيا »
ويتحدث التقرير عن اعتقال الايطاليين المقيمين فى السودان وكيف أنهم كانوا يجاهرون بأن السودان
سيصبح فى غضون أسابيع قليلة ملكاً لهم فتنعكس الآية ليصبح المسجونون سجانين . ثم ينتقل التقرير
الى دور قوة الدفاع السودانية فيعترف بأنها قوة قليلة العدد « ولكن رجالها ممتازون وأن قائدهم الميجر
جنرال بلات يتمتع بقدر عظيم من الكفاءة وهدوء الأعصاب وقد استطاع مع رجاله تضليل
الايطاليين وايهامهم بان قواتنا أقوى مما هى عليه بالفعل وهذه مهمة حيوية وعسيرة حملت عبأها
بصفة رئيسية السرايا الميكانيكية المسلحة بالمدافع الخفيفة (البلوكات السريعة) وهى سرايا سودانية
صرفة تضم كل واحدة منها ضابطين بريطانيين وتستحق بفضل دورها فى معركة افريقيا نفس آيات
التقدير والثناء التى خص بها رئيس الوزراء (ونستون تشرشل) رجال السلاح الجوى البريطانى فى
معركة بريطانيا عندما قال – إن من النادر أن يدين أناس فى مثل هذه الكثرة (الشعب البريطانى)
بالفضل لمثل هذه القلة من الأبطال » وهكذا وضع التقرير الرسمى البريطانى عن تأريخ الحرب العالمية
الثانية أبطال قوة الدفاع السودانية على قدم المساواة مع نسور الجو البريطانيين وهم الصفوة وموضع
التقديس والاجلال فى سجل البطولات خلال الحروب التى خاضتها بريطانيا على مر العصور ولولا
أولئك النسور لتغير مسار الحرب ولولا تصديهم للآرتال المتتالية كالجراد من القاذفات الألمانية التى
دكت المدن البريطانية وأحالتها الى ركام وأتون مشتعل ليل نهار لانهارت معنويات الشعب البريطانى
وأجبر على الاستسلام . و فقدت بريطانيا خلال معركة بريطانيا فى صيف عام ١٩٤٠ ألف طائرة
تقريباً وأكثر من أربعمائة طيار لاقوا حتفهم فى المعارك الجوية ضد الطائرات الألمانية المغيرة .

وقد بدأت محاولات انكار دور السودان فى الحرب العالمية الثانية أو الاستهانة به قبل انتهاء الحرب
نفسها ولا يصعب على المرء أن يدرك الدوافع وراء تلك المحاولات متى علم مصدرها . ففى عام
١٩٤٣ – ولما تزل الحرب فى عنفوانها – ذكر الجنرال غلوب باشا قائد الجيش الأردنى آنذاك فى
محاضرة له « أن شرق الأردن هى الدولة الوحيدة فى الشرق الأوسط التى حارب جيشها جنباً الى
جنب مع البريطانيين فى الحرب الراهنة » . وتصدى للرد على ادعاءات الجنرال يومذاك سير دوغلاس
نيوبولد السكرتير الادارى لحكومة السودان والذى كان فى مقام رئيس الوزراء . وكان الجنرال غلوب
قد أرسل نص محاضرته الى نيوبولد الذى رد عليه فى رسالة بتأريخ ٢٧ يونيو ١٩٤٣ ذكر فى مستهلها
أن مستقبل أقطار الشرق الأوسط – أو العراق وسوريا وفلسطين ومصر وشرق الأردن على الأقل – أمر
يهم السودان ثم انتقل لتفنيد ادعاء الجنرال غلوب باشا فقال أن السودان ينتمى إلى مجموعة بلاد
الشرق الأوسط لاعتبارات عسكرية واقتصادية وأن الحاكم العام عضو فى مجلس الحرب البريطانى فى
القاهرة . ويضاف الى ذلك أن السودان قدم للحلفاء جيشاً مقاتلاً – أكبر مما قدمه أى قطر فى الشرق

الأوسط – خاض المعارك فى اريتريا واثيوبيا وبرقة وطرابلس . ويمضى نيوبولد فى رسالته قائلاً ان ثلاثة أرباع ذلك الجيش (قوة الدفاع السودانية) من العرب ويضم ٣٠٠ ضابط عربى وقد ظل فى خضم العمليات العسكرية منذ يونيو ١٩٤٠ حتى آخر معركة خاضها عند مصراته بالقرب من مدينة طرابلس فى فبراير ١٩٤٣ . وانطوت تلك العمليات على مجابهة قوات أوروبية متفوقة وكان أداء المقاتل السودانى ممتازاً وأنزل بالعدو خسائر كبيرة فى الأرواح ووقع فى يده أسرى كثيرون . وكان الجنود السودانيون هدفاً لغارات جوية عنيفة خلال عام ١٩٤٠ ثم فى عام ١٩٤٢ خلال هجومهم على جالو (الصحراء الغربية) ولكن المدفعية السودانية أسقطت ست أو ثمان طائرات ألمانية وايطالية . وذكر نيوبولد أن لديه بيجاما أثيرة مصنوعة من براشوت قائد احدى الطائرات التى أسقطتها المدفعية السودانية . ثم تحدث فى رسالته عن دور السودان فى تلك الأيام فقال « ان لدينا الآن حاميات فى ليبيا واريتريا مؤلفة من كتائب وسرايا من سلاحى المدفعية والخدمة ويبلغ تعدادها حوالى ١٠ آلاف رجل » ثم مضى قائلاً « ان السودان ليس بالطبع دولة وربما يقول بعض الناس انه لا ينتمى حقيقة للشرق الأوسط بيد أن فيه حوالى أربعة ملايين عربى يتحدثون اللغة العربية ويدينون بالاسلام وذلك من مجموع سكان السودان البالغ عددهم ستة ملايين نسمة . وهم يعتزون بالاسلام وبلغة الضاد وبانتمائهم عرقياً للعروبة» وقال نيوبولد عن المثقفين السودانيين ان بينهم كثيرين من القوميين العرب الصادقين وقد زار عدد منهم انجلترا كما زار كثيرون منهم مصر وفلسطين وسوريا . هذا ملخص ما جاء فى رسالة سير دوغلاس نيوبولد الى الجنرال غلوب باشا رداً على ادعائه المغرض بأن جيش شرق الأردن هو الجيش الوحيد فى منطقة الشرق الأوسط الذى وقف الى جانب بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية . ويقتضينا الانصاف أن نشيد بحرص نيوبولد وتشديده فى رسالته على هوية السودان العربية الاسلامية وانتمائه لما أصبح يعرف بمنطقة الشرق الأوسط . ومن الحقائق الثابتة أن السودان ظل يعامل طيلة الحرب العالمية الثانية لاعتبارات استراتيجية عسكرية واقتصادية كجزء من بلاد الشرق الأوسط أسوة بمجموعة الأقطار العربية الاسلامية – مصر وليبيا وفلسطين وسوريا والعراق والمملكة العربية السعودية وبقية شبه الجزيرة العربية غير أن هذا الوضع الذى فرضته الاعتبارات الاستراتيجية العسكرية والاقتصادية يدعمه واقع التركيبة السكانية فى السودان اذ أن عدد العرب المسلمين فيه خلال حقبة الأربعينات – ربما حتى الآن – أكثر مما فى سوريا وفلسطين مجتمعتين . ورغم ذلك لا يجد المرء ذكراً للسودان كواحد من الأقطار العربية أو الشرق أوسطية فى ما صدر فى تلك الفترة وما بعدها من الكتب والمقالات والمذكرات مما أثار بوجه خاص امتعاض المثقفين السودانيين الذين يعتزون بانتمائهم للعروبة والاسلام وارتباطهم بهما فى الماضى والحاضر والمستقبل .

وقبل أن تجرفنا أحداث الحرب المثيرة فى اريتريا واثيوبيا وعلى حدود السودان الشرقية ثم فى

الصحراء الغربية يجدر بنا أن نروى قصة نشأة قوة الدفاع السودانية التى بهرت العالم بانجازاتها الخارقة فى ميادين القتال والتى تربع رجالها الشجعان فوق عرش البطولات مع نسور الجو الذين خاضوا معركة بريطانيا وأنقذوا بلادهم والعالم أجمع من الركوع تحت أقدام الطغمة النازية .

الفصل الثانى

قوة دفاع السودان نشأتها وتطورها

« الشباب يقتلون فى الحروب ويحمل الشيوخ نعوشهم الى القبور
وفى أزمنة السلام يموت الشيوخ ويصبح الشباب حملة النعوش »



فى ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ وفى شارع بمدينة القاهرة جلجلت رصاصة كانت هى أول سطر فى شهادة ميلاد قوة الدفاع السودانية التى سجلت بدورها بعد خمسة عشر عاماً من ذلك التاريخ أول سطر فى شهادة وفاة عصابة المحور. الرصاصة أطلقها شاب مصرى يدعى عنايت على الميجر جنرال سير لى ستاك حاكم عام السودان وسردار (القائد العام) الجيش المصرى وقد فاضت روحه فى الطريق الى المستشفى. وعلى أثر ذلك توجه المندوب السامى البريطانى على رأس كتيبة بريطانية من سلاح الفرسان الى مقر مجلس الوزراء المصرى وسلم سعد باشا زغلول مذكرة شديدة اللهجة يطلب فيها باسم الحكومة البريطانية سحب وحدات الجيش المصرى من السودان وتشكيل جيش سودانى باسم قوة الدفاع ودفع غرامة باهظة من الخزانة المصرية وزيادة الرقعة المخصصة لزراعة القطن فى مشروع الجزيرة. واستقال زغلول باشا رافضاً تلك المطالب وفى غضون ساعات قليلة قامت وزارة جديدة برئاسة زيور باشا رضخت للمطالب البريطانية. وبدا يومذاك وكأن حادث الاغتيال وما تلاه خطوة بريطانية مبيتة. ومهما يكن من أمر فان من المعروف أن الحاكم العام القتيل وسكرتيره القضائى مستر ستيرى وزميله جورج شوستر السكرتير المالى أخذوا منذ اشتعال الثورة المصرية فى عام ١٩١٩ يعدون مشروعاً لاخلاء السودان من المصريين باركه المسئولون البريطانيون فى القاهرة ولندن. وتهيأت الفرصة الذهبية باغتيال سيرستاك لتنفيذ المشروع وهذا ما حدث بالفعل. وتولى هدلستون باشا نائب السردار منصب الحاكم العام بالنيابة وأوكلت الحكومة البريطانية اليه مهمة اخلاء السودان من الجيش المصرى الذى يضم خليطاً من الضباط والجنود المصريين والسودانيين. وتمكن هدلستون من تنفيذ ما كلف به خلال الفترة الباقية من عام ١٩٢٤ ولكن اقترن ذلك بالأحداث الدامية المعروفة باسم ثورة ١٩٢٤ فى السودان بزعامة عناصر وطنية من المدنيين والعسكريين.

بدأت الأحداث بمظاهرات فى مدن السودان المختلفة اشترك فيها طلبة الكلية الحربية فى الخرطوم احتجاجاً على رحيل الجيش المصرى الذى امتنعت بعض وحداته من الانصياع لأوامر هدلستون باشا وأعلنت تمردها بحجة أنها أوامر غير صادرة من ملك مصر الذى أقسمت بالولاء له. واستخدمت السلطات البريطانية القوة فى اجبار الوحدات المصرية المتمردة على الانتقال الى مصر عن طريق البحر الأحمر أو القطارات. ففى أتبرا تولى سلاح السوارى (الخيالة) اخماد تمرد الوحدات المصرية المرابطة هناك. بينما تصدت قوة بريطانية فى بورتسودان للوحدة المصرية المتمردة. وفى مدنى تمرد جنود الوحدة المصرية لدى وصولهم الى المحطة لاستقلال القطار الى مصر ورفضوا الصعود اليه فأمر المدير البريطانى القطار بالتحرك. وأخذ القطار يتحرك بطيئاً ليكشف عن قوة بريطانية كان القطار واقفاً بينها وبين الجنود المتمردين. وكانت تلك القوة البريطانية فى حالة استعداد لاطلاق النار على الجنود المتمردين. وازاء هذا الموقف المفاجئ هرع المتمردون الى داخل القطار الذى حملهم الى مصر.

غير أن الأحداث اتخذت طابعاً دموياً عنيفاً فى الخرطوم حيث دارت اشتباكات ضارية فى السابع والعشرين من نوفمبر بين القوات البريطانية ومجموعات من الجنود والضباط السودانيين التابعين للجيش المصرى الذين قاتلوا قتال من يرى الموت وهو واقف على قدميه أشرف من أن يحيا جاثياً على ركبتيه فى ذلة وامتهان . وجرت أعنف الاصطدامات وأشدها شراسة فى المستشفى العسكرى المطل على النيل الأزرق شرقى قصر الحاكم العام حيث احتمى الأبطال السودانيون بمبنى المستشفى وثبتوا هناك أمام القوة البريطانية التى حاصرتهم . واستمر الاشتباك بين الجانبين سبع ساعات تكبد البريطانيون خلالها خسائر فادحة فى الأرواح ولم يجدوا فى النهاية مفراً سوى الاستعانة بمدفع هاوتزر أطلقوا منه على الأبطال الصامدين مائة وسبعين قذيفة قبل أن يستشهد آخر واحد منهم .

وفى موقع آخر اندس بطل جريح برتبة نفر داخل أنبوب مجرى لتصريف مياه الأمطار بالقرب من المستشفى وراح يصطاد ببندقيته البريطانيين واحداً اثر آخر وكان البطل حاذقاً فى الرماية وقد بقى فى مكانه رافضاً الاستسلام الى أن لقى مصرعه ولحق برفاقه الشهداء . وكان شعار القائمين بالثورة وحدة وادى النيل التى رفضها السودانيون فى ما بعد عندما خيروا بينها وبين الاستقلال . غير أن هذا لا ينقص من قدر ثورة ١٩٢٤ ويكفى أنها حركة معادية للبريطانيين كما أن السودانيين بطبعهم يقدسون البطولة والأبطال وهم فى هذا التقديس لا يتساءلون لماذا ؟ ولا يعنيهم مرمىً الأبطال وما يدعون له . وهكذا لا يزال السودانيون حتى اليوم يتغنون بأبطال ثورة ١٩٢٤ وقبلها الثورة المهدية رغم ما بينهما من تناقض ظاهر فى الأهداف فالأولى كانت من أجل الوحدة مع مصر تحت تاج الملك فؤاد الأول بينما كانت الثانية ثورة ضد مصر ! !

وقد تحول كثيرون من ثوار ١٩٢٤ مع مرور الزمن الى معسكر الاستقلاليين ومنهم على سبيل المثال الأميرالاى عبد الله بك خليل والقائم مقام زين العابدين عبد التام ومن المدنيين محمد صالح الشنقيطى وابراهيم بدرى وصالح عبد القادر شاعر الثورة المفلق . ويثبت هذا رأى القائلين بأن الدعوة لوحدة وادى النيل كانت تستهدف فى باطنها الاستقلال التام عن دولتى الحكم الثنائى . ويذكر البكباشى همفرس الذى كان من موظفى مصلحة الزراعة ثم التحق بسلاح المدفعية أن شاباً من أسرة أبوسن يدعى (على أبو سن) كان من طلبة الكلية الحربية الذين اشتركوا فى ثورة ١٩٢٤ ولما اعتقل مع زملائه جاء عمه الشيخ عوض الكريم زعيم قبيلة الشكرية – « الذى كان موالياً للبريطانيين خلال المهدية » – الى المسئولين فى الخرطوم لكى يشفع للشاب الثائر وقال لهم « لا تعاقبوا الولد بل أرسلوه الىّ » وعندما سئل عما سيفعل به فى بادية البطانة موطن القبيلة رد عليهم الشيخ عوض الكريم بأسلوبه الساخر الذى اشتهر به قائلاً « سوف أجعله يرعى الأبل لمدة ٦ أشهر كاملة » . وعفا المسئولون عن الشاب الثائر وعينوه فى مشروع الكتياب التابع لمصلحة الزراعة بالقرب من مدينة شندى حيث التقى هناك مع

همفرس الذى كان آنذاك مسئولاً عن المشروعات الزراعية فى المنطقة . ويتحدث عنه همفرس قائلاً «كانت أسنانه شاقة (بارزة) ومتفرقة كأسنان معظم آل أبو سن وهو رجل ودود دمث الأخلاق وقد ساعدنى فى العمل بكل ما فى وسعه وكنت الى جانبه عندما احتسب طفله البكر الذى دفن فى فناء الدار التى يسكنها والده فى قرية الكتياب » وقال على ابو سن فى ما رواه عنه البكباشى همفرس – عن دور طلبة الكلية الحربية فى الثورة « ليس بين الطلبة مذنب واحد فى الحقيقة وانما كانوا ضحية لتضليل المصريين لهم » .

ومعذرة عن هذا الاستطراد فالحديث – كما يقولون – ذو شجون . وعلى أية حال وفى ظل تلك الأحداث الدامية التى بدأت باغتيال سيرلى استاك فى القاهرة ولدت قوة الدفاع السودانية وكان ضمن نواتها الأولى ضباط وجنود سودانيون ممن آثروا البقاء فى وطنهم أما ضباطها البريطانيون فقد جرى تعيينهم فى الخفاء ومن بينهم هيو باوستيد الذى يعد من ألمع الضباط البريطانيين فى قوة الدفاع خلال الحرب العالمية الثانية . ويذكر باوستيد أنه تلقى فى نوفمبر ١٩٢٤ امراً بالتوجه الى مقر قيادة الجيش المصرى فى القاهرة فذهب الى هناك مرتدياً زيه العسكرى الاسكوتلندى . وقيل له فى مكتب الكولونيل هامرسلى أحد أعوان السردار ان من غير المرغوب فيه أن يأتى الى مقر القيادة مرتدياً زياً عسكرياً لأن ثمة مساعياً للحصول على ضباط بريطانيين للعمل فى قوة الدفاع السودانية تحت ستار أنهم موظفون مدنيون وان ظهوره فى هذه المرحلة بمثل هذا الزى العسكرى الاسكوتلندى المميز سوف يفسد خطتهم ويكشف عن نواياهم . وجرى تشكيل القوة الجديدة على أساس الوحدات العسكرية التى كانت قائمة قبل طرد الجيش المصرى . وبحلول منتصف عام ١٩٢٥ اكتمل هيكل قوة الدفاع السودانية على النحو التالى :

— فرقة الهجانة ومقرها الرئيسى فى مدينة الأبيض عاصمة كردفان وتتألف من سريتى مشاة فى جبال النوبة وأخريين من البيادة الراكبة فى الأبيض تعتمدان فى تحركاتهما على الخيل والجمال والبغال بالاضافة الى سرية فى بارا .

— فرقة العرب الغربية ومقرها الرئيسى فى مدينة الفاشر عاصمة دارفور وتضم أربع سرايا من المشاة والبيادة الراكبة ووحدة من السيارات المسلحة .

— فرقة العرب الشرقية ومقرها فى مدينة القضارف فى شرق السودان ومهمتها المحافظة على الأمن فى مديرية كسلا وينطوى ذلك على حراسة الحدود المتاخمة لاثيوبيا واريتريا وقد رؤى جعل مدينة القضارف مقراً رئيسياً لفرقة العرب الشرقية بدلاً من مدينة كسلا عاصمة المديرية خوفاً من وقوع احتكاك بين العسكريين والاداريين المدنيين . وتتألف هذه الفرقة من سريتين من المشاة وسرية من الهجانة وتعتمد فى تحركاتها بصفة رئيسية على الجمال والبغال . ومعظم جنود هذه الفرقة كانوا ممن

عملوا مع الجيش الايطالى خلال فترة إحتلاله لمدينة كسلا فى فترة دولة المهدية .

— سلاح السوارى (الخيالة) فى مدينة شندى الواقعة على مسافة ١٥٠ ميلاً شمالى الخرطوم وهو بمثابة القوة الضاربة فى حالة وقوع اضطرابات فى أية جهة داخل السودان ولهذا السبب أصبحت مدينة شندى مقراً رئيسياً لها لأنها تحتل موقعاً استراتيجياً يجعل من السهل انتقال « الحملات » منها على القطارات الى شمال البلاد وشرقها وغربها أو الى كوستى ومنها الى جنوب السودان على البواخر النيلية . ويتألف سلاح السوارى من ثلاث سرايا .

— الفرقة الاستوائية المؤلفة من خمس سرايا وكان مقرها الرئيسى فى مدينة منجلا شمالى جوبا ثم انتقلت فى ما بعد الى توريت . وجنود هذه الفرقة من القبائل الجنوبية أما ضباطها فمن البريطانيين وقلة من الشماليين .

هكذا كانت قوة الدفاع السودانية عند نشأتها فى أعقاب ثورة ١٩٢٤ وأضيفت اليها خلال السنوات اللاحقة وحدات أخرى بينها —

— سلاح المهندسين فى أم درمان ويضم ٣ سرايا احداها من الصبيان المجندين الذين يجرى تدريبهم على الحرف والأعمال العسكرية .

— مركز التعليم ومقره فى أم درمان أيضاً ومهمته تدريب الجنود بوجه عام ولكنه فى الوقت نفسه بمثابة معهد لتدريب الضباط الوطنيين على شئون الادارة والفنون العسكرية بالاضافة لتدريب ضباط الصف على استخدام الأسلحة المختلفة .

— مصلحة النقل الميكانيكى ومهمتها تدريب السائقين والميكانيكيين على قيادة وصيانة السيارات التابعة لقوة الدفاع .

— الحملة والتعيينات ومهمتها توفير الامدادات والدواب للجنود بالتعاون مع مصلحة المخازن والمهمات التى تقوم بتوفير الملابس والأدوات والمعدات لقوة الدفاع والمرافق الحكومية الأخرى أما عن طريق استيرادها من الخارج أو انتاجها محلياً فى الورش القائمة فى الخرطوم بحرى .

وعين الجنرال هدلستون — الذى صار فى ما بعد حاكماً عاماً للسودان — قائداً عاماً لقوة الدفاع . وكان هدلستون قد قدم الى السودان منذ عام ١٩١٠ كضابط منتدب للجيش المصرى برتبة بكباشى وبعد ستة أعوام من ذلك التاريخ قاد الحملة التى أعادت الى السودان سلطنة دارفور بعد هزيمة السلطان على دينار وهروبه الى جبل مرة حيث لحق به هدلستون هناك وقضى عليه .

واشتهر هدلستون بين السودانيين بلقب (الـمرفَعِين أبو حجل) لأنه كان كالذئب يسرى ليلاً ويقطع بجيشه مسافات طويلة لمباغتة عدوه ويرتدى دائماً طوقاً أبيض اللون حول كاحليه لوقايتها من

وخز الأشواك . ويقول عنه صديقه هيوباوستيد انه وضع لقوة الدفاع سياسة ثبت أنها من أعظم العوامل فى الانجازات المذهلة التى حققتها قوة الدفاع خلال الحرب العالمية الثانية ويرجع ذلك إلى إدراكه من خلال خبرته الواسعة بالسودان مميزات الجندى السودانى وخصائصه التى تعد جزءاً من حياته وهى مميزات وخصائص لم يلجأ هدلستون فى سياسته الى اعتصارها بالأفراط فى التدريبات والتمرينات العسكرية البدنية أو بتدليل الجندى واعطائه ملابس ومعدات هو فى غنى عنها . وفى الواقع أن السياسة التى وضعها هدلستون لقوة الدفاع السودانية منذ مولدها انطوت على ميزة فريدة أصبحت بمثابة حجر الزاوية فى تكييف حياة الجندية التى تقبلها الجندى السودانى دون عناء أو ردود فعل غير محمودة لأنها أحدثت أدنى قدر من التشويش والاضطراب فى ايقاع حياته وتناغمها ووطدت فى نفسه مشاعر السعادة والاستمتاع بحياة الجندية داخل المعسكر أو خلال الحملات التى تخرج لتأديب العصاة ومثيرى الفتن أو الاستعراضات التى تجرى بين حين وآخر لاظهار سلطة الحكومة فى المواقع النائية .

وجرى التجنيد لقوة الدفاع السودانية الوليدة دون قهر أو ارغام من بين الأعداد الكبيرة من الرجال الذين احتشدوا أمام مراكز التجنيد من مختلف الأعمار وكلهم حريص على ألا يفوته شرف الانضمام الى القوة السودانية الجديدة لأن « العسكرية » فى نظرهم مهنة شريفة كما أن حمل السلاح دفاعاً عن العزة والكرامة أمنية كل واحد منهم . واستقبل أحد مراكز التجنيد يومذاك شيخاً طاعناً فى السن جاء متوكئاً على عصاه وقد أنضته السنون حتى صار هيكلاً من عظام يكسوه أهاب يابس كجلد ثعبان ملقى فى دروب الصحراء . وطلب الشيخ تعيينه وسأله الضابط البريطانى المشرف على التعيين .

– كــم عمرك ؟؟
– سبعة عشر عاماً كما قال لى الباشا .
– هل شهدت فى حياتك أكثر من ١٧ خريفاً ؟
– لقد شهدت (ياجنابك) من مواسم الخريف مايفوق شعر الرأس عدداً .
– إذن عد الينا لما تبلغ الثامنة عشر لأن هذا هو العمر المطلوب .

واستدار الشيخ عائداً أدراجه مكسور الخاطر رغم أن ثلاثة من احفاده اختيروا فى ذلك اليوم للالتحاق بقوة الدفاع . واتضح أن الباشا الذى استشهد به الشيخ هو الجنرال غوردون الذى قتله جيش المهدية فى الخرطوم عام ١٨٨٥ وكان الشيخ يعمل سايساً عنده . وكانت ذكريات المهدية عالقة بالأذهان ولم تتوار بعد مشاعر الحنين اليها ومع ذلك تسابق رجال القبائل فى معاقل الثورة المهدية فى حماسة طاغية على الانخراط فى قوة الدفاع كقبيلة الجوامعة فى سهول كردفان ومنها صفوة المقاتلين الذين خاضوا معركة كررى ضد اللورد كتشنر وقبل ذلك كانوا وقود الثورة التى قادها المهدى وفرسانها . وقد انخرطت أعداد كبيرة منهم فى وحدات الهجانة وفى عام ١٩٤١ تصدت سرية منهم فى أثيوبيا لكتيبة



اللواء حامد باشا صالح الملك
كبير الضباط الوطنيين عند
نشوب الحرب العالمية الثانية

كاملة من الايطاليين وميليشياتهم بقيادة الكولونيل توريللى وارتدت الكتيبة على أعقابها ولكن السرية ظلت تطاردها وفرضت عليها فى النهاية حصاراً استمر أشهراً طويلة لم تستطع الكتيبة النفاذ منه فقد كان العدو أمامها ومن ورائها بحيرة تانا منبع النيل الأزرق .

وعند انشاء قوة الدفاع كان الجندى برتبة نفر يتقاضى فى الشهر جنيهين وعشرة قروش مقابل عقد لمدة تسع سنوات قابلة للتجديد لفترة أخرى مماثلة فى حالة ترقيته الى رتبة أونباشى فما فوق وقد يحالفه التوفيق فيصبح ضابطاً قبل بلوغه سن التقاعد . ولا ينتقص من قدر قوة الدفاع السودانية أنها حسب المقاييس المعاصرة قوة غير نظامية فقد أتت خلال الحرب العالمية الثانية بما عجزت وتعجز عنه أرق الجيوش نظاماً وسلاحاً كما أن وصفها بأنها غير نظامية لا يعنى بالضرورة أنها تشكيل عسكرى سائب لا يحكمه نظام ويفتقد مقتضيات الضبط والربط . فالحقيقة عكس ذلك إذ كان رجال قوة الدفاع على اختلاف رتبهم يخضعون لنظام صارم قائم على أساس المواءمة بين التقاليد والعادات وغيرها من الموروثات الاجتماعية من جهة واحتياجات الخدمة العسكرية من جهة أخرى كما أن الانتماء الى المؤسسة العسكرية يعد مصدر اعتزاز بين كثير من القبائل التى أقبل رجالها على الانخراط فى القوة الدفاعية الجديدة ولعل أكبر فاجعة أو عار يمكن أن يحل بالجندى فى قوة الدفاع هو فصله عن الخدمة بسبب إرتكابه مخالفة فى نظر النظم والقوانين العسكرية . ويقول هيو باوستيد ان المحاكم العسكرية لم يلجأ اليها مطلقاً فى فرقة الهجانة خلال السنوات العشر التى أمضاها مع الفرقة المذكورة . ويعيش رجال قوة الدفاع فى العادة مع أسرهم أو فى حالة غير المتزوجين منهم مع أقاربهم فى قرية المعسكر وهى عبارة عن مجموعة من الأكواخ المبنية من القش على غرار الأكواخ فى القرى التى جاء الجنود منها . ويمتلك معظم الجنود مزارع فى مواطنهم القروية يشرف عليها فى العادة آباؤهم أو أخوانهم .

وكان على رأس كل فرقة أو سلاح أو مرفق تابع لقوة الدفاع عند نشأتها ضابط بريطانى برتبة أميرالاى فى أغلب الأحيان بينما يتولى قيادة السرايا ضباط بريطانيون برتبة البكباشى (بمباشى) ومع كل ضابط منهم فى السرية ضابط سودانى أقل منه رتبة وربما ضابطان فى بعض الأحيان . وقد استدعت المحافظة آنذاك على هيبة الحكام البريطانيين أمام المحكومين أن تكون رتبة البكباشى أدنى رتبة يعين الضابط البريطانى فيها فور التحاقه بقوة الدفاع مع أن رتبته فى الأصل ملازم فى الجيش البريطانى ولا يتعدى عمره الخامسة والعشرين والمطلوب منه فور التحاقه الالمام على مستوى متواضع باللغة العامية السودانية . وكان الجنرال هدلستون شديد الاهتمام بهذا الامر وقد كلف الميجر بيز قومندان الشرطة فى واد مدنى بوضع كتاب مبسط لتعليم الضباط البريطانيين الجدد مبادئ قواعد العامية السودانية ولكن الميجر اعتذر فى بادئ الأمر قائلاً أن معرفته بها محدودة للغاية وانه آخر من يكلف بوضع كتاب من هذا القبيل فرد الجنرال هدلستون عليه قائلاً « انني أريد غبياً ليضع كتاباً لأغبياء

مثله » وامتثل الميجر للأمر ووضع الكتاب المطلوب . ويعترف الضباط البريطانيون الذين تولوا قيادة السرايا آبان نشأة قوة الدفاع بفضل الضباط السودانيين عليهم فى استيعاب أسرار المهنة فى وقت قصير والالمام بخصائص الجندى السودانى من ناحية العادات والتقاليد وأساليب الحياة . وفى هذا الصدد يقول واحد منهم « اننا مدينون بفضل كبير للضباط السودانيين وسنظل نذكر دائماً علاقاتنا الطيبة معهم .

ولما كانت مهمة قوة الدفاع منذ نشأتها وحتى اندلاع الحرب العالمية الثانية قاصرة على صيانة الأمن واخماد حركات التمرد والعصيان فقد رؤى أن يقتصر اعتمادها على الأسلحة الخفيفة كما لم يكن لها سلاح طبى فقد استعيض عنه بالمستشفيات والمستوصفات المدنية المتواجدة فى الأماكن التى تتمركز فيها الوحدات وكلها عواصم اقليمية أو مدن وقرى كبيرة . وفى حالة غياب الجنود عن قواعدهم فى مأموريات قد تستغرق شهراً على الأقل فانهم يكتفون بما يحملون معهم من لوازم الاسعافات الأولية والعقاقير الشائعة لعلاج الحميات والاضطرابات المعوية والصدرية كما أن فى صيدلية الطب البلدى متسعاً للجميع بما فى ذلك الضباط البريطانيون الذين منهم من يضع الكجور (الطبيب البلدى) فى مقام عباقرة الطب فى شارع هارلى ستريت الذائع الصيت فى العاصمة البريطانية . وقد لدغ ثعبان فى أحدى المرات بكباشياً بريطانياً فى موقع ناء يبعد عن المستشفى مسيرة ٥ أيام على الأقل ولم يجد البكباشى بدا من الاستسلام للكجور لانقاذ حياته من موت محقق فى غضون يوم أو يومين . وهكذا تعاطى البكباشى كل وصفة قدمت له وكان مجموعها ١٤ وصفة بين سائلة ومسحوقة أو رطبة ويابسة وبعضها لا طعم له والبعض الآخر مُر أو حلو المذاق . وفى النهاية كتب للبكباشى البريطانى الشفاء ولكنه ظل حائراً لا يدرى أى الوصفات الأربعة عشر كانت سبب شفائه ! ! . ومن يدرى ربما كان السبب تفاعل ذلك الخليط العجيب بعضاً مع بعض .

وأثبتت قوة الدفاع كفاءتها وفعاليتها في أخماد حركات التمرد والعصيان التي نشبت في جهات مختلفة من السودان مثل المديريات الجنوبية والفونج وجبال النوبة . وقال أحد الضباط البريطانيين الذين عملوا سنوات طويلة في قوة الدفاع «أن السودانيين من أعظم الجنود في العالم من حيث العول والاعتماد ولهم قدرات قيادية وعزيمة لا يجاريهم فيها أحد» وبحلول عام ١٩٣٥ أخذت ارهاصات الحرب بين الحلفاء والمحور في الظهور وكان من المسلم به آنذاك أن قوة الدفاع التي نشأت في الأصل للقيام بمهام الأمن الداخلي معتمدة في تنقلاتها على الجمال والخيل والبغال ليست ندا – أو ما يقارب ذلك – للجيش الايطالي الجرار المحتشد وراء حدود السودان الشرقية ولو أنها تتفوق على ذلك الجيش ببون شاسع من ناحية لياقة رجالها بدنياً ونفسياً وذهنياً ومن ناحية اتقانهم لاستخدام الأسلحة الخفيفة التي لديهم . ولكن ذلك ليس كافياً لمجابهة عدوان ايطالي اذا قرر الدوتشي

موسوليني خوض الحرب إلى جانب حليفته ألمانيا النازية واقتحم الحدود الشرقية بجيشه المدجج بأسلحة معاصرة ولديه من وسائل النقل والمركبات العسكرية ما يضمن له سرعة الحركة التي تعتبر عنصراً حيوياً في اكتساب المعارك . وهكذا أصبح لزاماً تطوير قوة الدفاع لتصبح في مستوى يمكنها من مواجهة الأخطار المتوقعة .

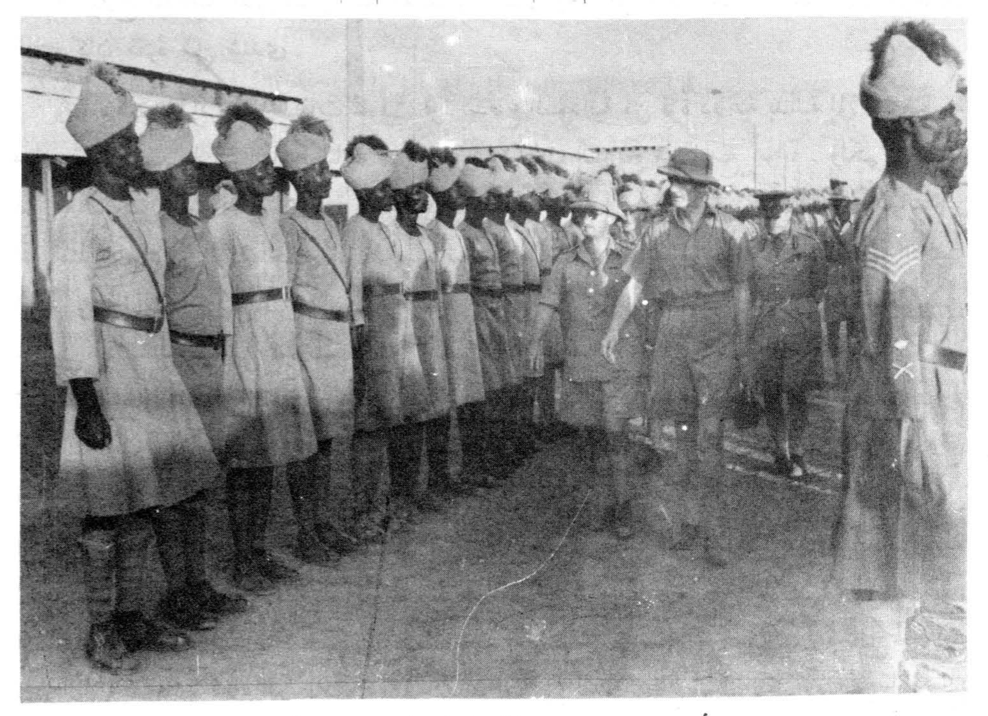
وبادر المسئولون آنذاك من أجل توفير سرعة الحركة بالتحول تدريجياً إلى الاعتماد على وسائل النقل الميكانيكية بدلاً من الوسائل البدائية المتمثلة في الجمال والخيل والبغال والحمالين الذين يتقاضى الواحد منهم في تلك الأيام خمس مليمات في اليوم ويحمل في العادة على رأسه ما زنته أربعون رطلاً لمسافة تتراوح بين عشرين وثلاثين ميلاً . ووضع الجنرال فرانكلين القائد العام في اطار السياسة الجديدة برنامجاً لتشكيل السرايا الميكانيكية التي اشتهرت خلال سنوات الحرب بأسم البلوكات السريعة . واقتضى كل ذلك قيام سلاح الخدمة (الحملة الميكانيكية) الذى اتخذ مقره الرئيسي في الخرطوم بحرى بالقرب من جسر النيل الأزرق وله فروع في كل من الأبيض والفاشر وجوبا وأصبح هذا السلاح الجديد مرفقاً لتجنيد وتدريب السائقين والفنيين الميكانيكيين . وكان يضم عند نشأته ثلاثة ضباط بريطانيين وضابطين سودانيين (أحمد محمد الجعلي وإبراهيم عبود) وثلاثة صولات بريطانيين وموظفاً بريطانياً مدنياً مسئولاً عن المخازن . وكانت بين مقتنيات سلاح الخدمة عند أنشائه سيارتان مصفحتان طراز رولز رويس من مخلفات الحرب العالمية الأولى اشتراهما في الأصل دوق وستمنستر للفرقة التي تحمل اسمه . وأوحت السيارتان للأميرالاى غوردون ستيوارت بك قائد السلاح آنذاك بتصميم سيارة مصفحة لقوة الدفاع وقام الفنيون في ورش سلاح الخدمة في الخرطوم بحرى على ضوْ ذلك بصنع السيارة المطلوبة قاعدتها شاسيه شاحنة عادية (٣ طن) ومسلحة بمدفع فيكرز ومدفع بويس مضاد للدبابات مثبت على برج دوار وقد تم بعد اختبارها واجراء تعديلات عليها انتاج حوالى ٥٠ سيارة منها استخدمت في القتال ضد الايطاليين في اريتريا . ولم تقتصر مساهمة سلاح الخدمة (الحملة الميكانيكية) على انتاج تلك السيارات المصفحة وانما قام أيضاً بتصميم وانتاج سيارات الفان الخفيفة المزودة بمدافع البرن وهي سيارات ذات إطارات عريضة منخفضة الضغط لضمان عدم غوص السيارة في الوحل والرمال وقد انتجت الورش في الخرطوم بحرى ما يكفي منها للبلوكات السريعة التي أقضت مضاجع الايطاليين خلال الشهور الأولى من الحرب . وكان لدى قوة الدفاع عند نشوب الحرب في أوروبا في سبتمبر ١٩٣٩ خمس سرايا من البلوكات السريعة موزعة بين كسلا وأم درمان والأبيض وبارا والفاشر وقد اختير جنودها بصفة رئيسية من فرق العرب الغربية والهجانة وسلاح المهندسين وأضيفت إليها في ما بعد سرية سادسة عرفت باسم آلاى السودان ومعظم جنودها من سلاح المدفعية . وقد وزعت سرايا البلوكات السريعة إلى مجموعتين أحداهما بقيادة الأميرالاى أور والثانية بقيادة الأميرالاى فوسديك (الخرتيت) . وتتألف المجموعتان من حوالى ألف

مقاتل بينهم خمسون ضابطاً بريطانياً والباقون سودانيون ضباطاً وجنوداً وتعتبر البلوكات السريعة أعظم انجاز في برنامج تطوير قوة الدفاع السودانية الذى أملته ظروف الحرب العالمية الثانية وهي التي نهضت باعباء القتال بصورة رئيسية كما جاء في التقرير الرسمي البريطاني عن تأريخ الحرب العالمية الثانية .

ولكي تتوفر لقوة الدفاع وسائل النقل والاتصال قام الجنرال فرانكلين إلى جانب سلاح الخدمة بانشاء سلاح الاشارة كما شمل برنامج التطوير أيضاً ادخال مدافع الهاوتزر والهاون بالإضافة إلى مدافع البرن التي سبق ذكرها والتي كانت في أول عهدها بل أنها حتي ذلك التأريخ لم تضم إلى ترسانة الجيش البريطاني . وفي الواقع أن قوة الدفاع السودانية أول قوة عسكرية في العالم بأسره تستخدم مدفع البرن وتجلت عبقرية الجندى السوداني في ما أبداه من براعة ومهارة في استخدام هذا المدفع حتي قيل أن الجندى السوداني خلق لمدفع البرن الذى خلق بدوره للجندى السوداني . ومن المتفق عليه بين الخبراء العسكريين أن المدفع المذكور كان في مقدمة الأسلحة التي أكسبت الحلفاء الحرب . ويتألف أسم مدفع «برن» من الحرفين الاولين من اسم كل من مدينة برنو التشيكية التي ابتكر فيها ومدينة انفيلد البريطانية التي جرى فيها تطويره من أجل استخدامه في الجيش البريطاني . ولكن قبل إضافته إلى الترسانة البريطانية قام مركز التعليم في أم درمان بتجربته واختباره تحت إشراف فنيين بريطانيين وضباط سودانيين بينهم الأمير الاى عبد الله بك خليل ضابط الأركان وقد كان آنذاك برتبة الصاغ وهو الذى تولى ترجمة مرشد التدريب على استخدام مدفع البرن إلى اللغة العربية . واكتنفت التجارب والإختبارات هنات وإنتكاسات قبل أن تتكلل بالنجاح في النهاية . وحدث أن دعى القائد العام لمشاهدة أول تجربة على المدفع بالذخيرة الحية ويبدو أن القائد كان مفرطاً في حماسته وواثقاً من نجاح التجربة فأحضر معه الحاكم العام سير ستيوارت سايمز ليقف بنفسه على هذا الإنجاز الفريد . وأخذ المسئولون في قيادة مركز التعليم على حين غرة من جراء وصول الحاكم العام وحاشيته دون سابق انذار . وعندما انتظم عقد الضيوف العظام قام صولان بريطانيان في ثقة واعتداد بنصب المدفع على مسافة ثلاثين متراً من المنصة التى أعدت خصيصاً لذلك اليوم المشهود . ولكن المدفع عند إطلاقه اكتفى بإحداث حشرجة أشبه بسعال مصدور في رمقه الأخير ثم لاذ بالصمت . وتكررت التجربة ثلاث مرات لم يتفضل المدفع السقيم فيها ولو برصاصة واحدة من الذخيرة التي في جوفه بينما وقف القائد العام حائراً كالعريس الذى اختطف المأذون عروسته ليلة الزفاف . وتربع شبح الخيبة على هامة الهدف وهو يمد لسانه ساخراً من سعادة الحاكم العام الذى إنتابه في تلك اللحظات شعور جارف بالندم على الأموال الطائلة التي تكبدتها خزانة السودان ذى الموارد المحدودة لشراء مائة مدفع برن لا رجاء فيها . ونكس ضباط مركز التعليم رؤوسهم وعلت وجوههم حمرة الخجل وهم يودعون ضيوفهم المكسوفين .



انتونى إيدن (وزير الحربية البريطانى) والجنرال ويفل (قيادة الشرق الأوسط) يتابعان تدريب الطلبة الحربيين (براءة الحاكم العام) فى مركز تعليم بأم‌درمان



أنتونى إيدن (وزير الحربية البريطانى) يستعرض قوته من رجال الهجانة

وتبين بعد التشخيص والمراجعة أن بعض الأجزاء المعدنية في المدفع تتمدد بفعل الحرارة وهذا سر فشل التجربة وكانت الحرارة في ذلك اليوم بالذات تربو على ١٣٠ درجة فرنهايت ولم يسبق إستخدام مدفع البرن بالذخيرة الحية في مثل تلك المعدلات من درجات الحرارة . وعكف الفنيون في الخرطوم بحرى على إدخال التعديلات اللازمة لمعالجة ما أغفله الفنيون فى تشيكوسلوفاكيا وبريطانيا ونتيجة لتلك التعديلات أصبح مدفع البرن صالحاً للاستخدام في كل الأجواء . ولعل الإنصاف يقضي بإضافة الحرفين الأولين من (خرطوم) إلى أسم المدفع المذكور ليصبح (برنخر) بدلاً من برن اعترافاً بدور الخرطوم في تطويره وهو دور لا يقل بأية حال من الأحوال عن ما سجلته برونو وانفيلد في هذا المضمار.

ومع اقتراب شبح الحرب أضيفت إلى قوة الدفاع السودانية وحدات جديدة بينها وحدتان رئيسيتان هما :-

– سلاح الحدود الذى أشرف علي تجنيده وقيادته الكولونيل هيو باوستيد الذى أمضى آخر سني حياته في ضيافة صديقه الشيخ زايد آل نهيان في أبوظبي . ووقعت على هذا السلاح مهمة ارجاع الامبراطور هيلاسلاسي إلى عرشه في أديس أبابا.

– سلاح المدفعية الذى أشتهر بأسم مدفعجية شندى وقد حل مكان سلاح السوارى (الفرسان) الذى كان مقره في شندى .

وبهذه التجديدات والإضافات تحولت قوة الدفاع السودانية من قوة دفاعية بدائية إلى قوة ضاربة معاصرة خاضت الحرب العالمية الثانية في افريقيا ودخلت التاريخ من أوسع أبوابه . ولكي تكتمل صورة التشكيل الذى خاضت به قوة الدفاع السودانية تلك الحرب لا بد من الاشارة إلى أن التفكير اتجه منذ عام ١٩٣٥ إلى إختيار ضباط سودانيين من الصف أو المتعلمين لتغطية إحتياجات التطوير المزمع ومتطلبات الحرب المتوقعة ولسد النقص الناجم عن تقاعد الضباط السودانيين القدامي من خريجي الكلية الحربية في الخرطوم والتي أغلقت أثر أحداث ١٩٢٤ وكانت آخر دفعة تخرجت منها تضم بابكر صالح سوار الذهب وحسن تلب ويوسف حمد النيل وميرغني بابكر سوار الذهب . ولم تمل السلطات في الخرطوم إلى إعادة فتح الكلية الحربية لتوفير ضباط سودانيين خوفاً من تكرار ما وقع في عام ١٩٢٤ واختارت بدلاً من ذلك توزيع الذين يقع الأختيار عليهم من الصف أو المتعلمين على الوحدات المختلفة لتدريبهم على أيدى الضباط والصولات البريطانيين وفقاً لما كان معروفاً آنذاك ببراءة الحاكم العام وبذلك تضمن السلطات عدم تجمع المجندين في مكان واحد مثلما كان الحال في عهد الكلية الحربية . وتستغرق فترة التدريب عاماً واحداً يعين المتخرج بعدها في رتبة ملازم ثاني ويؤدى قسم الولاء للحاكم العام البريطاني بوصفه القائد الأعلي لقوة الدفاع السودانية . وقد تخرجت تسع

دفعات من الضباط وفقاً لنظام البراءة المذكور واشتركت الدفعات الخمس الاولى اشتراكاً فعلياً في القتال خلال الحرب وخاصة مع البلوكات السريعة الشديدة المراس والتي سبقت الاشارة إليها . ومن ضباط هذه الدفعات الخمس من قضى نحبه ومنهم من لا يزال على قيد الحياة ويجدر بنا أن نورد في ما يلي سجلاً بأسمائهم أعترافاً ببطولاتهم وما قدموه للسودان والعالم أجمع من البذل والعطاء :-

الدفعة الأولى - أحمد عبد الوهاب - أحمد أبو بكر - طلعت فريد - أحمد عبد الله حامد - أحمد رضا فريد - حسن بشير نصر - عمر إبراهيم العوض - عمر محمد إبراهيم - محمد نمر نصر .

الدفعة الثانية - أحمد مجذوب البحارى - محمد نصر عثمان - الخواض محمد أحمد - عبد الله إسماعيل الأمير - محيي الدين أحمد عبد الله - محمد أحمد التجاني .

الدفعة الثالثة - محمود أبو بكر - عبد الله محمد مصطفى - أحمد بشير طمبل - محمد أحمد عروة - مصطفى أحمد الكمالي - على صالح سوار الذهب .

الدفعة الرابعة - محمود أبو سمرة - الطاهر عبد الرحمن - حمد النيل ضيف الله - عوض عبد الرحمن صغير - على مجذوب عابدون .

الدفعة الخامسة - عبد الرحيم شنان - عثمان حسين عثمان - محمد المهدى حامد - الزين حسن الطيب هاشم - على حماد المكي .

وجاء في منشور سرى للغاية من القائد العام إلى الضباط البريطانيين العاملين في قوة الدفاع بأن البراءة البريطانية التي لديهم لا تعطيهم أسبقية أو سلطات خاصة وأن وضعهم في قوة الدفاع مستمد مثل الضباط السودانيين من براءة الحاكم العام وحدها لا غير وهي لا تفرق بين الاثنين فكلهم في الحقوق والواجبات سواء بسواء . وينصح القائد العام ضباطه البريطانيين بأنه لا سبيل أمامهم لضمان مكانتهم والمحافظة على هيبتهم إلا من خلال قوة الشخصية والحكمة واللباقة والتزام جانب العدل والإنصاف في كل الأحوال .

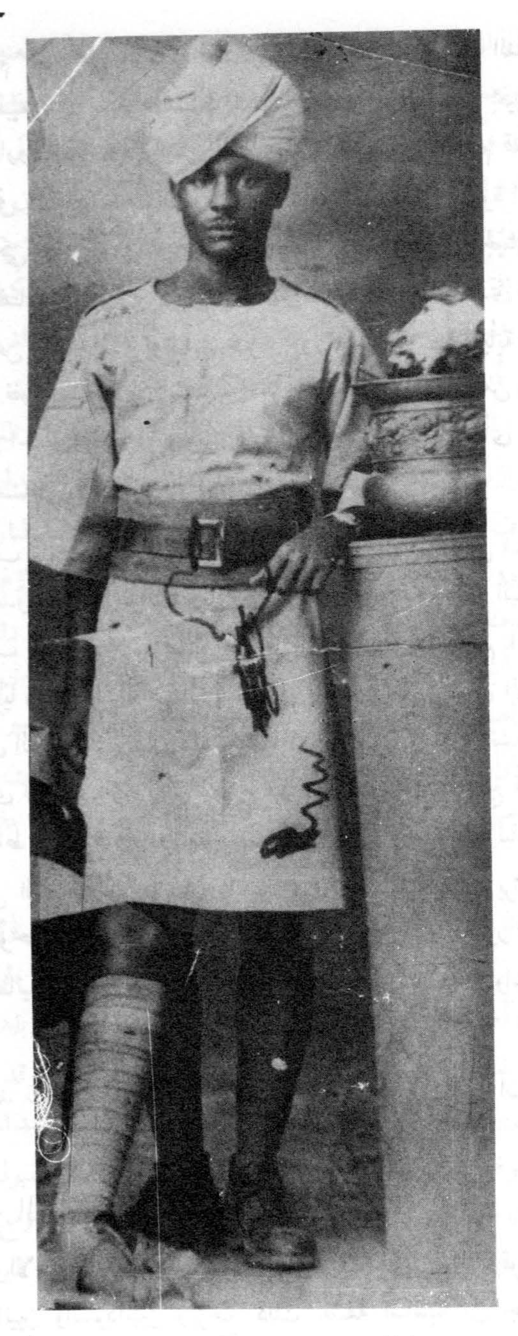
ويعترف القائد العام في منشوره بأن مشكلة الضباط السودانيين مع الضباط البريطانيين الذين يحملون رتباً مماثلة في قوة الدفاع وخاصة في ما يتعلق بالأقدمية والتعاون في القيادة قد اثيرت مراراً وتكراراً على مستويات القيادة المحلية في الخرطوم والمسئولين في وزارتي الخارجية والحربية في لندن ولكن ذلك لم يسفر عن حلول مقنعة أو عن قواعد محددة . وجاء في المنشور الصادر بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩٤٢ «أن مهمة كل واحد منا في الوقت الحاضر هي الانتصار في الحرب وعلينا إلا نشغل السلطات على اختلاف مستوياتها عن هذه المهمة بمطالبتها بحل مشكلة لها ردود فعل سياسة واسعة النطاق رغم أن أثرها المباشر ذو طابع محلى وعلينا أن نمضى فى طريقنا على أساس النوايا الطيبة

وتأتي في المقام الأول لتحقيق ذلك الحكمة واللباقة » ويعترف القائد العام أيضاً بحقيقة مهمة اذ جاء في المنشور المذكور «أن هنالك وعياً وطنياً متنامياً بين السودانيين بوجه عام ولا بد من أن تتولد عنه في نفوس الضباط السودانيين رغبة قد تتحول فى النهاية إلى المطالبة بمساواتهم مع الضباط البريطانيين في الفرص والمسئوليات» .

وكان التقليد المتبع فى قوة الدفاع منذ نشأتها يقضى باسناد مناصب القيادة على مستوى السرايا وما فوقها الى ضباط بريطانيين مع اسناد منصب أركانحرب فى كل وحدة الى ضابط سودانى مهمته تنوير قائد الوحدة البريطانى ومساعدته على الالمام بالقضايا المحلية ومشاعر الجنود وبمظالمهم واحتياجاتهم وتقديم النصح له فى كل ما يتعلق بالعادات والتقاليد . وكان معظم الضباط البريطانيين وخاصة الذين قضوا سنوات طويلة فى الخدمة يدركون قيمة ضابط الأركان السودانى ودوره ويحرصون على استغلال هذا الوضع استغلالاً كاملاً باستشارته على الدوام واشعاره بأنه موضع ثقتهم ويعملون بنصائحه كلما كان ذلك ممكناً . وهكذا أصبح ضابط الأركان السودانى بمثابة ضابط للاتصال والعلاقات العامة . وهنالك أشياء تبدو تافهة فى نظر الآخرين ذات وزن كبير فى نظر المواطن السودانى وخاصة اشارات المجاملة العابرة مع تجنب ما يجرح كرامته وكبرياءه . ولم تفت هذه الحقيقة على الضباط البريطانيين فى تعاملهم مع الضباط الوطنيين فكان كل منهم يبادر الضابط الوطنى بتحية الصباح مشفوعة برتبته العسكرية ويسأله النصح ويطلعه على المعلومات المسموح بها عن الحرب بوجه عام وعن قوة الدفاع والوحدة التابع لها بوجه خاص . ونعود مرة أخرى الى منشور القائد العام الى ضباطه البريطانيين ونقتطف منه الفقرة التالية عن الضباط الوطنيين «أن الضباط الوطنيين كطبقة حساسون بصورة خاصة ازاء أى شئ يشتم فيه التوبيخ والأساءة أمام الملأ وهكذا يتعين على الضابط البريطانى أن يتجنب بصفة خاصة توبيخ الضابط السودانى على مرأى ومسمع ممن هم مثله أو دونه رتبة ولا يجوز على الاطلاق لضابط بريطانى دون رتبة كابتن أن يؤنب أو يوبخ بكباشياً سودانياً وعليه آن يحيل الأمر الى ضابط بريطانى أعلى منه رتبة » .

ويقول ضابط بريطانى عمل مع قوة الدفاع والجيش الهندى ان الجندى الهندى حريص على « عزته » والصينى على « ماء وجهه » أما الجندى السودانى فانه يعتز بشرفه وكبريائه ولابد من احترام ذلك فى كل الأحوال عند التعامل مع الضباط السودانيين .

وهناك حقيقة مهمة لم يغفلها الضباط البريطانيون وهى أن كبار الضباط السودانيين سناً أو رتبة قد قبلوا بمحض اختيارهم الانتقال من الجيش المصرى الى قوة الدفاع السودانية فى عام ١٩٢٤ بعد أن أعطتهم السلطات البريطانية وعداً باهتاً باحترام حقوقهم فى الترقى وغير ذلك من الامتيازات . ولكن السلطات البريطانية لم توف بوعدها بينما وجد الضباط السودانيون الذين بقوا فى خدمة الجيش المصرى



الطالب الحربى (البراءة) رقم ٧٨٥٥٤
أونباشى محمد المهدى حامد الذى تدرج
إلى أن أصبح قائداً لسلاح المدفعية

الباب مفتوحاً أمامهم الى أعلى الرتب العسكرية التى ظلت فى قوة الدفاع وقفاً على الضباط البريطانيين . ومن الطبيعى أن يشعر الضباط السودانيون فى قوة الدفاع بخيبة أمل كبيرة وهم يرون رصفاءهم الذين اختاروا البقاء فى الجيش المصرى وبينهم بعض أقاربهم قد بلغوا مثل تلك الرتب الكبيرة بينما بقوا هم فى ادنى درجات السلم . ان الضابط السودانى فى قوة الدفاع يحتاج للعمل مدة ٢٦ عاماً علي الأقل لكي يصل الى رتبة بكباشى بينما يصل رصفاؤهم فى الجيش المصرى الى تلك الرتبة فى مدة أقل بكثير . يضاف الى ذلك أن الضابط البريطانى يمنح تلقائياً لدى التحاقه بقوة الدفاع رتبة بكباشى بغض النظر عن مدة خدمته أو سابق خبرته . ولا يمكن الاستهانة بأية حال من الأحوال بردود الفعل التى تعتمل فى نفوس الضباط السودانيين من جراء هذا الغبن . ومن هنا كان حرص الضباط البريطانيين على التزام الحذر فى تعاملهم مع الضباط السودانيين وتجنب أى تصرف قد يجرح شرفهم وكبرياءهم ويلهب مشاعر الامتعاض فى نفوسهم .

ومع نشوب الحرب وامتدادها الى افريقيا رأت السلطات البريطانية فى الخرطوم أن الموقف يتطلب منها اظهار اعترافها بقدرات وكفاءة السودانيين فى قوة الدفاع وذلك بفتح الباب أمامهم للترقى وتحمل المسئوليات وهو الباب الذى كان موصداً من قبل . ونتيجة لذلك تم اختيار عدد من الضباط السودانيين قادة للسرايا ولكن السلطات البريطانية فى الخرطوم حرصت فى الوقت نفسه على ألا يعمل أى ضابط بريطانى فى السرايا التى يتولى قيادتها ضباط سودانيون كما جرى تشكيل مجالس فى الوحدات العسكرية على مستوى الكتائب وما دونها تطرح فيها المظالم وتناقش برامج التدريب والعمليات ويتم فيها أيضاً تنوير الضباط والجنود فى ما يتعلق بسير الحرب والأوضاع الدولية بوجه عام . ويشترك فى عضوية هذه المجالس الضباط البريطانيون والسودانيون وضباط الصف برتبة الباشجاويش أو برتبة الاونباشى فى حالة الوحدات الصغيرة . ويورد القائد العام فى ختام المنشور الذى سبقت الاشارة اليه توجيها لضباطه البريطانيين يتألف من بندين لضمان تعاملهم مع الضباط والجنود السودانيين بالطريقة المثلى هما —

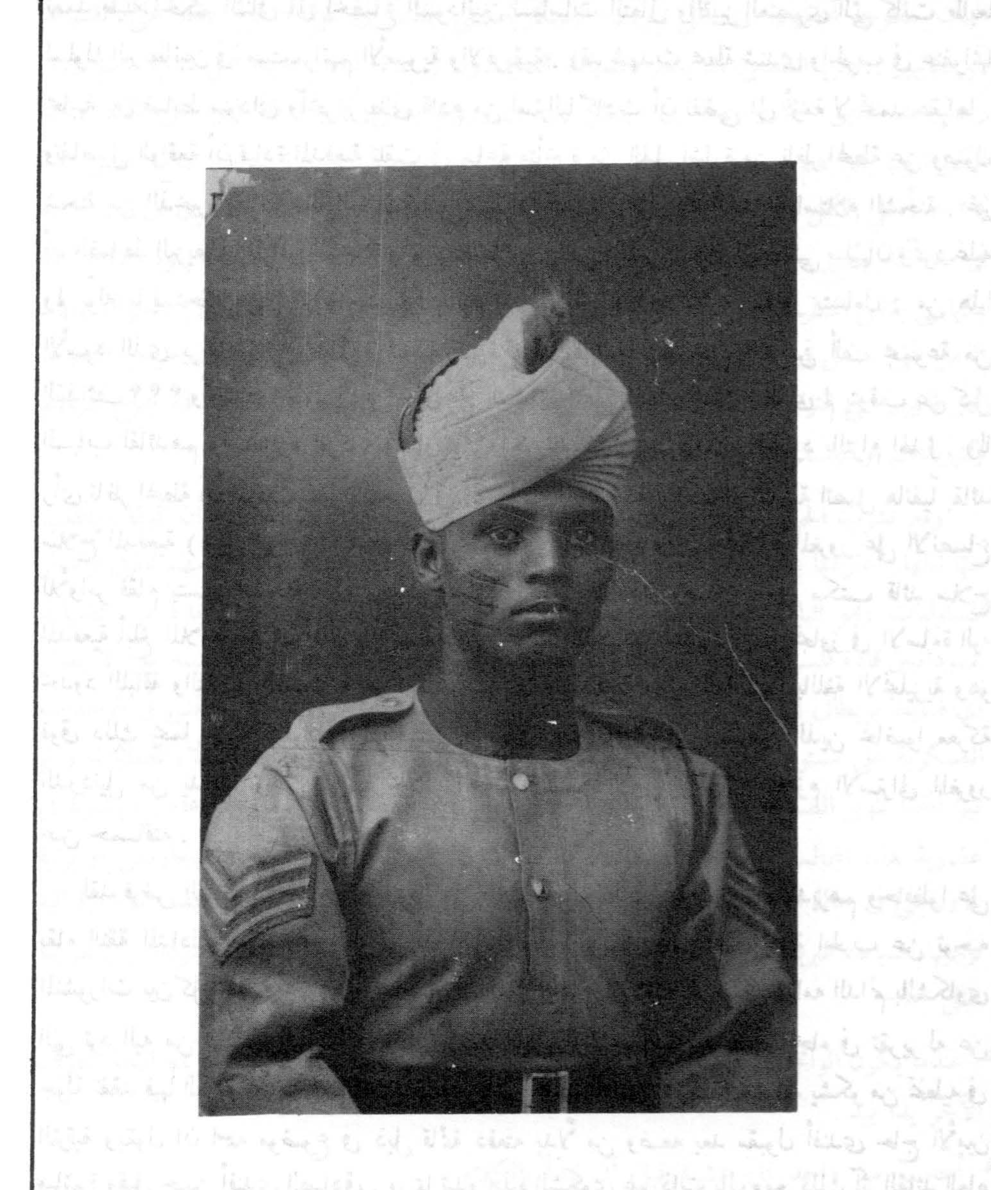
* عندما يكون الواحد منكم فى حيرة ازاء موقف لم يعهده من قبل عليه أن يسارع بمصافحة الطرف الآخر يداً بيد .

* أحسب من واحد الى عشرة قبل أن تبدأ بالكلام .

غير أن كل هذه الاحتياطات والتوجيهات والتحذيرات لم تحل دون وقوع احتكاكات هنا وهناك بين الضباط البريطانيين والسودانيين ويرجع ذلك بصفة أساسية الى جهل الضباط والصولات البريطانيين — وخاصة الجدد الذين لم تتح ظروف الحرب الفرصة لانتقائهم — باخلاق السودانيين ونفسيتهم وتقاليدهم ومدى اعتزازهم بشرفهم وكبريائهم يضاف الى ذلك أن السلطات البريطانية لم

تعمد طيلة الحكم الثنائى الى اخضاع السودانيين لسياسات التعالى والتميز العنصرى التى كانت طابعاً لسلوك البريطانيين فى مستعمراتهم الأسيوية والافريقية . وقد شهدت محطة شندى والحرب فى عنفوانها مجابهة بين ضابط سودانى وآخر بريطانى قادم من استراليا كادت أن تفضى الى أزمة لا تحمد عقباها . وتفاصيل الواقعة أن قيادة المدفعية تلقت فى ساعة متأخرة من الليل اشارة من ناظر المحطة عن وصول شحنة من الذخيرة وكلفت القيادة البكباشى سليمان عيسى أركانحرب السلاح باستلام الشحنة . غير أن الضابط البريطانى المرافق للشحنة وهو برتبة ملازم رفض تسليم الشحنة للبكباشى سليمان وتمرد عليه ولم يوله ما يستحقه من احترام حسب التقاليد العسكرية . وراح الملازم المغرور يتساءل : من هذا الأسود الذى يريد منى أن أسلمه شحنة كبيرة كهذه فيها ما يزيد على عشرين ألف مجموعة من القذائف ؟ ؟ ؟ وأوشك الجنود الذين جاؤا مع البكباشى على الفتك بالملازم الذى لم يتوقف عن كيل السباب لقائدهم واستفزازه بحركاته وعباراته . ولكن البكباشى سليمان أمر الجنود بالتزام الهدؤ . ولما رأى ناظر المحطة أن الموقف ينذر بالتحول فى أي لحظة الى معركة بالأسلحة النارية اتصل هاتفياً بقائد سلاح المدفعية (ويلى نيوول) الذى انتقل على الفور الى المحطة وأجبر الملازم المغرور على الانصياع للأوامر فقام بتسليم الشحنة الى البكباشى سليمان عيسى فى ذلة وصغار . وفى مكتب قائد سلاح المدفعية أبلغ الملازم بعد أن أفاق من صلفه وغروره بأن البكباشى سليمان الذى تجاوز فى الاساءة اليه حدود اللباقة والتقاليد العسكرية هو أركانحرب سلاح المدفعية وملم الماماً كبيراً باللغة الانجليزية وهو فوق ذلك يحمل رتبة كولونيل فى الجيش البريطانى ومن المحاربين المخضرمين الذين خاضوا معركة الدردنيل من بدايتها وحتى نهايتها خلال الحرب العالمية الأولى واعتذر الملازم الاسترالى المغرور عن حماقته .

لقد فرض السودانيون ضباطاً وجنوداً على الضباط البريطانيين احترامهم وتقديرهم وحافظوا على بقاء الثقة المتبادلة معهم . وفى الواقع أن القائد العام البريطانى لم ينقطع طيلة الحرب عن توجيه المنشورات بين كل حين وآخر محذراً وناصحاً . واشتهر الجنرال بلات بالذات باهتمامه الدائم بالشكاوى التى ترد اليه من ضباطه السودانيين وكان شديد العناية والاعجاب بهم . وقد جاء فى تقرير له عن جولة تفقد فيها الفرقة الغربية فى الفاشر أن اليوزباشى محمد أفندى ادريس عبدالله يشكو من تخطيه فى الترقية ويقول ان اسمه موضوع فى ذيل قائمة دفعته بدلاً من وضعه بعد مقبول أفندى حاج الأمين مباشرة وقبل حسن أفندى الصادق . وربما تبدو هذه الشكوى غير ذات بال ومع ذلك آثر القائد العام أن يتولى معالجتها بنفسه بدلاً من تحويلها الى من هم دونه من أعوانه البريطانيين .



الضابط أحمد بشير طمبل عندما كان طالباً حربياً (البراءة)

الفصل الثالث

كسلا على خط المواجهة

« ليس عيباً أن يسقط الفارس لأن المعارك تخسر بنفس الروح التى تحقق الانتصار »



تقع مديرية كسلا (الأقليم الشرقي حالياً) على امتداد حدود السودان الشرقية المتاخمة لاثيوبيا واريتريا وقد ظلت العلاقات ودية بين المسئولين على جانبي الحدود خلال الأشهر الثمانية التي تلت نشوب الحرب العالمية الثانية بين بريطانيا وألمانيا النازية وكانوا يتبادلون الزيارات وتوطدت علاقات الصداقة بين بعض أولئك المسئولين إلى حد جعل عدداً من المسئولين البريطانيين عسكريين ومدنيين في القضارف وكسلا يقضون عطلة أعياد الميلاد في آخر عام ١٩٣٩ في أسمرا مع رصفائهم الايطاليين.

ولكن تتابع المؤشرات المتزايدة منذرة باقتراب دخول ايطاليا الحرب جعل من الضروري اتخاذ استعدادات معينة شملت احياء شبكات المخابرات السابقة وانشاء قاعدة في القضارف لحركة المقاومة الاثيوبية ومراقبة ساحل البحر الأحمر بالإضافة إلي اعداد الخطط اللازمة لإخلاء المدن في حالة وقوع الهجوم الايطالي المنتظر. وكان الكولونيل بلاكلي قد أنشأ أثناء عمله مفتشاً لمركز كسلا في عام ١٩٣٥ شبكة للمخابرات وعندما نقل لمركز القضارف أنشأ فيها شبكة مماثلة ولكنها أوسع نطاقاً لتغطية الحدود المشتركة مع اثيوبيا ولقى المسئولون مساعدات فعالة في مجالات المخابرات من الشيخ أحمد جعفر عمدة كسلا وأعضاء مجلس المدينة والسيدين محمد عثمان والحسن نجلى شقيق السيد على الميرغني زعيم طائفة الختمية. ومن ناحية أخرى أتخذت إجراءات مماثلة لدعم أجهزة المخابرات في ساحل وتلال البحر الأحمر. وتتباين خطط العمل من مركز إلى آخر داخل المديرية في حالة وقوع الهجوم المنتظر. وتقرر في ما يتعلق بمركز القضارف سحب الحامية الصغيرة المرابطة في مدينة القلابات إلى خور أو تروب الواقع على مسافة اثني عشر ميلاً غربي القلابات لكي تنضم إلى الحامية هناك قوتان غير نظاميتين هما ميليشيا ديميسي الاثيوبية التي تضم مائة وخمسين مقاتلاً وميليشيا بكر المؤلفة من مائتي مقاتل معظمهم جنود سابقون وقد قام بتجنيد هذه الميليشيا البكباشي عبد الله بكر وهو من زعماء العشائر في المنطقة وكان قبل ذلك ضابطاً في قوة الدفاع.

وإلى الشمال من مدينة القضارف أتخذت المجموعة الثانية من البلوكات السريعة مقراً رئيسياً لها عند جسر البطانة على نهر أتبرا بينما أقامت الشرطة نقاطاً للمراقبة على طول ضفتي النهر الذى يلتقي مع نهر النيل بالقرب من مدينة أتبرا.

أما مدينة كسلا نفسها فقد أعتبرت مدينة مفتوحة وقامت السلطات فيها عقب دخول ايطاليا الحرب مباشرة بترحيل معظم الموظفين فيها وأسرهم إلى مدينة أروما. وكان حاكم المديرية قد أنتقل منذشهر ابريل كعادته كل عام من مدينة كسلا مع كبار أعوانه إلى سنكات العاصمة الصيفية. وفي الواقع أن السلطات وضعت قبل دخول ايطاليا الحرب خطة لإخلاء مدينة كسلا في حالة وقوع هجوم عليها وهي الخطة التي شرعت سلطات المدينة في تنفيذها في أحدى المرات لإلتباس في

فك رموز برقية بالشفرة تلقتها من الخرطوم وكان ذلك قبل الحرب ببضعة شهور . وتوقفت عمليات الإخلاء بعد أكتشاف الإلتباس .

أما في بورتسودان ميناء السودان الوحيدة فقد أتخذت التدبيرات اللازمة ضد الغارات الجوية والبحرية فوضعت القيادة العسكرية في الطرف الجنوبي منها مدفعان عيار ٦ بوصات لتعزيز عمليات المراقبة البحرية . ولم تكن هنالك مدافع مضادة للطائرات . وفي الواقع أن الإمكانيات الدفاعية عن منطقة البحر الأحمر آنذاك كانت قاصرة على وحدة بريطانية موزعة بين بورتسودان وسواكن وسرية من البلوكات السريعة السودانية . وإلى الجنوب من سواكن يقع مركز طوكر المتاخم لاريتريا وهو واحد من المواقع التي كان يخشى من هجوم الايطاليين عليها في طريقهم لاحتلال بورتسودان . غير أن منطقة طوكر وفيها مشروع خور بركة لزراعة القطن معروفة بزوابعها الرملية الكثيفة خلال الفترة بين يونيو وسبتمبر وتعلقت الآمال بأن تشكل تلك الزوابع عقبة كأداء في طريق أى زحف عسكرى إيطالى خلال الموسم بالإضافة لطبيعة الأرض القاسية حيث الجبال والخيران المنحدرة من هضاب اريتريا . ومن أجل تعزيز الإمكانيات الدفاعية المتواضعة في منطقة البحر الأحمر قامت السلطات بتجنيد قوة غير نظامية من قبائل البجة أطلقت عليها أسم ميليشيا المروج اشارة لمروج العشب الخضراء التي تنضد سفوح الجبال والوديان في المنطقة ذاتها

هكذا كان الوضع بوجه عام في مديرية كسلا عندما دخلت ايطاليا الحرب ولم تتمكن الخرطوم من اخطار حاكم المديرية بنبأ الحرب في حينه لأن الخطوط التلفونية والبرقية إلى سنكات تعطلت منذ اليوم السابق لإعلان الحرب . واستدعى حاكم المديرية كبار أعوانه البريطانيين من دار السينما مساء العاشر من يونيو وأبلغهم بأن اذاعة لندن نقلت في نشرتها في الساعة الثامنة والربع نبأ إعلان ايطاليا الحرب ضد بريطانيا . واستهلت تلك الحرب في السودان والمستعمرات الايطالية في شرق افريقيا بالغارات الجوية المتبادلة فقامت الطائرات البريطانية رغم تفوق السلاح الجوى الأيطالى عليها بمعدل خمسة أضعاف – قامت بقصف المطارات الرئيسية الثلاث في مصوع وأسمرا وجورا قصفاً عنيفاً وفي دقة بالغة وأجبرت بذلك السلاح الجوى الايطالي على إتخاذ موقف الدفاع . وأغارت ثلاث طائرات ايطالية على مدينة كسلا في اليوم الثاني عشر من يونيو وألقت حفنة من قنابلها على المدينة . واسفرت هذه الغارة عن مقتل عم العمدة وأصابة ١٥ شخصاً بجراح . غير أن حامية المدينة أطلقت في ذلك اليوم نيرانها على الطائرات المغيرة وبذلك أصبح من المستحيل اعتبار كسلا مدينة مفتوحة . وعدلت السلطات عن خططها السابقة وقررت القيام بأعمال تخريبية في حالة الهجوم على المدينة مع ابداء أكبر قدر ممكن من المقاومة قبل إخلائها . ومن الثابت أن الغارات الجوية الايطالية على المواقع المختلفة في مديرية كسلا كانت متقطعة وعشوائية ويبدو أن تجمعات الحيوانات حول الآبار كانت تثير حفيظة

الايطاليين ومخاوفهم ففي خلال الأشهر الأولى استهدفت أعنف غارتين شنتها طائراتهم قطيعاً من الأغنام في القضارف وقطعاناً أخرى من الأبل والأغنام عند بئر بالقرب من طوكر وكانت الخسائر في الغارتين ضئيلة للغاية .

وأدى وقوف القوات الايطالية البرية مشلولة على الحدود لمدة شهر تقريباً إلى تلاشي المخاوف التي أنتابت المسئولين في السودان وحل مكان ذلك على الصعيدين الرسمي والعام شعور جارف بالثقة في الانتصار على العدو . وتجلى هذا الشعور بصفة خاصة بين المدنيين في مديرية كسلا إذ لم يهجر أحد منهم مهنته أو مكان اقامته باستثناء عدد قليل من التجار والحرفيين الذين تركوا بورتسودان و كسلا عند اقتراب شبح الحرب . وقد توطد الشعور بالثقة والطمأنينة بين السكان شمالى مدينة كسلا بسبب مشاهدتهم الطائرات البريطانية في غدوها ورواحها بين قواعدها والأهداف التي تغير عليها داخل أراضي العدو غير أن سكان منطقة القضارف الواقعة إلى الجنوب ظلوا يتطلعون إلى نصيبهم من نشاط السلاح الجوى البريطاني فهم رغم تسليمهم بضعف الايطاليين راحوا يتساءلون عن سر تحليق الطائرات الايطالية فوق سماء القضارف بينما لا يرون أثراً للطائرات البريطانية . وانتهت هذه التساؤلات وتنفس الجميع الصعداء عندما عبرت سماء القضارف في منتصف شهر يوليو تسع طائرات بريطانية من طراز ولزلى في طريقها لتدمير مستودعات الوقود ومحطات اللاسلكي في أصوصة وغوندار العاصمة الاثيوبية العتيقة .

وقامت السلطات في كسلا بتخزين كميات وفيرة من الغلال في مستودعات سرية داخل المدينة لا يعلم مكانها سوى السيدين محمد عثمان والحسن الميرغني وبعض أعضاء مجلس المدينة الذين تولوا توزيع تلك الغلال خلال فترة الاحتلال على المواطنين . وما من شك في أن هذه المستودعات السرية أنقذت السكان من خطر المجاعة وقد أكتشف الايطاليون عدداً قليلاً جداً منها .

ومن الحقائق الثابتة أن معظم القبائل في مديرية كسلا لا تقبل على الانخراط في سلك القوات النظامية لذلك كان يجرى في الظروف العادية تجنيد الرجال لفرقة العرب الشرقية أو الشرطة من خارج المديرية ولكن مع ارهاصات الحرب أشتد اقبال الرجال من قبائل البجة المختلفة على الانضمام إلى القوات النظامية وغير النظامية . وإلى جانب ميليشيا بكر التي سبق ذكرها جرى تجنيد قوة خاصة من السكان المحليين قوامها مائة وخمسون شرطياً لحراسة جسور الخطوط الحديدية والمستودعات في أنحاء مديرية كسلا وتشكلت في بورتسودان وحدات دفاعية احتياطية أردفت في وقت لاحق بميليشيا الهدندوة التي كانت تعرف أيضاً بأسم قوات فروستي . وفروستي هو الأسم الذى أطلقه البريطانيون في تلك الأيام على الشيخ محمد الأمين ترك زعيم قبائل الهدندوة . وكانت هنالك أيضاً ميليشيا المروج التي سبقت الاشارة إليها .

ومن جهة أخرى كانت نقاط الشرطة في القرى الحدودية أقرب المواقع للعدو وقد عهد إليها بعمليات المراقبة والاستكشاف . وفي المناطق الجنوبية بالذات عززت المخابرات نشاطها بانشاء متاجر في القرى الحدودية تتعامل بالمقايضة في أغلب الأحيان ومن خلال ذلك تقوم بتجميع المعلومات ونقل الرسائل والمنشورات الدعائية إلى داخل اثيوبيا .

وكان حتماً على مديرية كسلا أن تغدو مسرحاً للوقائع الأولى في الحرب لانها تقع على خط المواجهة ولعل أشد تلك الوقائع اثارة في الأيام الأولى ما جرى للسفينة الايطالية «أمبيريا» تجاه ساحل بورتسودان وكانت قد دخلت مياه السودان الاقليمية في التاسع من يونيو وهو اليوم السابق لدخول ايطاليا الحرب . وألقت السفينة مراسيها في البقعة المخصصة للتفتيش خارج الميناء وتتألف شحناتها من ٥ ألاف طن من قنابل الطائرات و١٧٠٠ طن من المعدات و١٩٠٠ طن أسمنت وقد أجمع المسئولون في بورتسودان ومعهم قائد الاسطول البريطاني في عدن الذى وصل إلى بورتسودان في اليوم نفسه على أن من غير المعقول السماح للسفينة الايطالية بمواصلة رحلتها إلى مصوع ولكن لا سبيل لاعتراضها لان ايطاليا رغم تأزم الموقف لم تعلن الحرب حتي تلك اللحظة . ووقف الجميع مكتوفي الأيدى وفي حيرة بالغة لا يدرون ما يصنعون إلى أن تطوع الدوتشى موسوليني بالحل في اليوم التالى وذلك بإعلانه الحرب ضد بريطانيا . وسرعان ما شوهدت السفينة أمبيريا وهي تحترق في طريقها إلى القاع وتبين أن بعض بحارتها الذين دستهم المخابرات البريطانية هم الذين احرقوها . وكان طاقم السفينة مؤلفاً من ثمانين ضابطاً وبحاراً أودعوا رهن الاعتقال في بورتسودان ثم نقلوا إلى معسكر الأسرى في الأبيض مع ستين أسيراً ايطالياً جرى اعتقالهم في الخرطوم ليلة العاشر من يونيو فور إعلان ايطاليا الحرب .

وفي مساء اليوم الذى غرقت فيه السفينة امبيريا شوهدت اضواء غريبة في البحر بالقرب من بورتسودان فأرسلت طائرة لاستكشافها ولكن سر تلك الاضواء ظل غامضاً حتي الصباح عندما تبين أن مصدرها طوق نجاة سقط من السفينة الغارقة . وبعد أيام قليلة ظهرت غواصة ايطالية بالقرب من الصخور التي على ساحل بورتسودان وشاهدتها وحدة المدفعية المصرية التي تشكل بمدفعيها عيار ٦ بوصات القوة الوحيدة للدفاع البحرى في بورتسودان . وأحجمت الوحدة المصرية عن أطلاق مدفعيها على الغواصة الايطالية المتطفلة حتي بعد أن صوبت الغواصة مدفعها نحو زورق بخارى قريب منها تابع لادارة الميناء . ونجا الزورق من الدمار بفضل الطائرات الايطالية التي وصلت في تلك اللحظة الحاسمة للأغارة على بورتسودان وحسبتها الغواصة طائرات بريطانية فعادت إلى القاع قانعة من الغنيمة بالإياب . وبرر قائد الوحدة المصرية امتناعه عن ضرب الغواصة الايطالية يومذاك بأن ايطاليا ليست في حال حرب ضد مصر وأن مصر ليست واحدة من الدول الحليفة .

وشهد ساحل البحر الأحمر واقعة مثيرة أخرى في تلك الأيام أيضاً فقد اكتشفت طائرة بريطانية في الحادى والعشرين من يونيو (١٩٤٠) بقعة نفطية كبيرة طافية على سطح البحر بالقرب من مدينة سواكن جنوبي بورتسودان كما شاهدت الطائرة فوق جزيرة قريبة من الموقع نفسه مجموعة من الناس يتراوح عددهم بين عشرين وثلاثين. وعادت الطائرة في صباح اليوم التالي إلى الجزيرة وألقت منشوراً طالبة من المجموعة الافصاح عن هويتها وجاء الرد بأنهم ايطاليون وفي حاجة إلى الماء والمواد الغذائية. وبعد عودة الطائرة إلى بورتسودان خرجت الزوارق من هناك قاصدة الجزيرة ووصلتها بعد رحلة استغرقت أربع ساعات ولم تجد الزوارق في الجزيرة سوى قميص وبشكير مبتل وقبر جديد وكوخ من النال أما المجموعة التي شاهدتها الطائرة فقد اختفت بكاملها. وعثر داخل الكوخ على يوميات قائد المجموعة وفيها أنهم آووا إلى الجزيرة في الثاني عشر من يونيو بعد أن غرقت غواصتهم نتيجة ارتطامها بالصخور وأن واحداً منهم قضى نحبه في الجزيرة.

وظهر فى ما بعد أن غواصة ايطالية أخرى اكتشفت بالصدفة المجموعة فى الجزيرة وقامت بنقل أفرادها خلال الساعات الأربع التى استغرقتها رحلة الزوارق الى الجزيرة. هذه هى الواقعة كما روتها الوثائق ولكن ليس من المستبعد أن المجموعة التى شوهدت فى الجزيرة كانت مكلفة بالقيام بعمليات عسكرية أو تخريبية وأنها اختلقت قصة الغواصة الغارقة بغرض التضليل. ولعل الغواصة التى قيل أنها اكتشفت تلك المجموعة بمحض الصدفة هى نفس الغواصة التى هبطوا منها على الجزيرة.

كانت بورتسودان فى تلك الأيام الأولى من الحرب تمر بفترة عصيبة من التوتر والقلق خوفاً من عمليات التخريب ونشاط عملاء المحور وبسبب ذلك فرضت رقابة مشددة على المقيمين والوافدين المشتبه فيهم من الأوروبيين ومواطنىّ المستعمرات الايطالية وأبناء جنوب شبه الجزيرة العربية. وقد قابل ضابط الشرطة السودانى فى أواخر يونيو رجلاً أوروبياً يرتدى زياً عسكرياً غير مألوف ويتكلم اللغة الانجليزية بلهجة غريبة ولم يصدق ضابط الشرطة أدعاء الرجل بأنه جندى بريطانى وازدادت شكوكه عندما شد انتباهه جسم كروى داخل جيبه على هيئة قنبلة يدوية. ولم يتردد الضابط الهمام فى القاء القبض على الرجل واقتاده الى قومندان الشرطة البريطانى الذى ادرك منذ الوهلة الأولى أن المقبوض عليه بريطانى من مقاطعة ديرهام التى جاء منها القومندان نفسه والتى يتحدث أهلها الانجليزية بلهجة الجوردى التى لم يتعود الناس فى السودان على سماعها. وظهر أن الجسم الكروى الذى كان يداعبه فى جيبه تفاحة بريئة وأن الزي العسكرى الذى يرتديه يختلف عن أزياء القوة البريطانية المرابطة فى بورتسودان لأن الرجل البريطانى الذى ارتاب ضابط الشرطة فى أمره تابع لوحدة الدفاع الجوى البريطانية التى وصلت فى اليوم السابق الى بورتسودان.

وفى الليلة التى أعلن الدوتشى فيها الحرب توجه الرسل عبر الحدود الى داخل أثيوبيا واريتريا ومعهم رسالة الجنرال بلات الى زعماء العشائر وقادة المقاومة وأخطرهم الجنرال فيها بنشوب الحرب

بين بريطانيا وايطاليا ونقل اليهم قرار السلطات السودانية بمساعدتهم بكل الطرق الممكنة للقضاء على العدو المشترك وجاء فى الرسالة « اذا كنتم فى حاجة الى البنادق والذخيرة أو الى ملابس ومواد غذائية فان المطلوب منكم ارسال ما تستطيعون من رجال ودواب الى المكان الذى سيخبركم به حملة هذه الرسالة . وثقوا بأننا قادرون على تلبية احتياجاتكم ومن المستحسن أن توفدوا إلينا مندوبيكم للتشاور معهم حول الخطة المناسبة لمقاومة عدونا المشترك » .

وأبدى قادة المقاومة الاثيوبية وزعماء العشائر الذين تسلموا رسالة الجنرال بلات – القائد العام – استعدادهم للتعاون ولكنهم أعربوا عن تفضيلهم الانتظار الى ما بعد موسم الأمطار حين تجف الأنهر والخيران فيسهل الانتقال وتقل أخطار الملاريا فى الأراضى الواطئة . وصادف اقتراحهم هذا قبولاً لدى القائد العام الذى كان يرى أن نشوب ثورة شاملة فى أفريقيا الايطالية لن يكون مجدياً قبل توقف الأمطار وقبل وصول الامدادات المنتظرة التى تمكن السودان من تقديم عون فعال لحركات المقاومة . ولكن قبل أن يتم ذلك يتعين على حركات المقاومة الاستمرار بامكانياتها الراهنة فى مضايقة الايطاليين بشن الغارات على مواقعهم العسكرية والمدنية من أجل إجبار الايطاليين على البقاء داخل حامياتهم وبالتالى استنزاف طاقاتهم فى تأمين المدنيين وربما يؤدى كل ذلك الى عدول الايطاليين عن غزو السودان خلال موسم الأمطار .وتصادف وجود فريق من المقاومة الأثيوبية آنذاك بالقرب من المتمة وانتهزت حامية القلابات المجاورة لها الفرصة.فأمطرت المتمة فى ليلة ١٤ يونيو بنيران مدافع الفايكرز بالتضامن مع رجال المقاومة الأثيوبية وأسفر ذلك عن مقتل خمسين من جنود العدو . ويذكر اللواء عوض عبد الرحمن صغير أن قصف حامية القلابات فى ذلك اليوم لمدينة المتمة الأثيوبية استهدف تجمعاً حاشداً دعت اليه السلطات الايطالية وأن عدد القوات الايطالية فى المتمة وما جاورها كان يقدر بمائة وثمانين ألف جندى . وقد استمر قصف الحامية للمتمة يومذاك أربع ساعات كاملات . وكانت ترابط فى القلابات قوة من سلاح الادارة التابع لفرقة العرب الشرقية مؤلفة من أربع فصائل بيادة وفصيلة خامسة مسلحة بستة مدافع من طراز فايكرز يقودها الملازم عبد الله محمد مصطفى وهى الفصيلة التى بقيت فى القلابات بعد صدور الأوامر لفصائل البيادة يوم دخول ايطاليا الحرب بالانسحاب منها الى خور أوتروب وكانت تلك الفصائل تضم آنذاك ثلاثة من الطلبة الحربيين (البراءة) برتبة جاويش وهم حمد النيل ضيف الله وعلى مجذوب وعوض عبد الرحمن صغير

وبعد أسبوعين من قصف المتمة وعلى وجه التحديد في اليوم الثلاثين من شهر يونيو شقت فصيلة الفايكرز طريقها بقيادة الملازم عبد الله محمد مصطفى من القلابات إلى ما وراء المتمة مع مائة وستين من رجال المقاومة الاثيوبية ووصلت في هذه المرة إلى جبل النقز شرقي المتمة حيث التحمت مع القوات الايطالية وعادت الفصيلة في آخر اليوم إلى قاعدتها في القلابات . وقدرت خسائر العدو

في هذه العملية الجريئة بثلاثين قتيلاً بينهم ثلاثة ضباط ايطاليين . ولم تقع خسائر بين رجال الفصيلة ولكن المقاومة الاثيوبية فقدت في ذلك اليوم قتيلاً واحداً وأصيب عشرة آخرون من رجالها بجراح .

وتمكنت الفصيلة خلال الفترة التي أمضتها عند الجبل من تسليم قائدى المقاومة زالاكا وأوليكا مائة بندقية وكميات من الذخيرة والذرة وتجدر الاشارة إلى أن جبل النقز هو نفس الموقع الذى قتل فيه الامبراطور الاثيوبي (يوحنا) في عام ١٨٨٩ على يد جيش المهدية بقيادة الأمير الزاكي طمل .

ووردت في أواخر يونيو تقارير إلى القيادة العسكرية في الخرطوم مفادها أن العدو يستعد لشن هجوم شامل على منطقتي كسلا والقضارف في آن واحد من أجل الاستيلاء على الخط الحديدى الذى يربطها بباقي البلاد ويعني ذلك احتلال جسر البطانة الذى يمر فوقه الخط الحديدى عند مدينة خشم القربة ولهذا الجسر الواقع على نهر أتبرا أهمية استراتيجية بالغة فالايطاليون لا يستطيعون بدونه عبور النهر لاحتلال الخرطوم أو مدينة أتبرا المقر الرئيسي للخطوط الحديدية كما أن الجسر حيوى أيضاً من الناحية الأخرى لتوفير المؤن والسلع الاستهلاكية للسكان المدنيين في منطقة كسلا . وهو جسر حديدى لا تتوفر في السودان قطع الغيار اللازمة في حالة تلفه ويعني ذلك أن عمليات إصلاحه في حالة تخريبه قد تستغرق شهوراً عديدة وربما تمتد إلى أكثر من عام في انتظار وصول قطع الغيار من الخارج . وازاء هذه المخاوف أسندت القيادة العسكرية حماية الجسر خلال الأيام الأولى من الحرب للبلوكات السريعة في إطار عملياتها التي تشمل مركز كسلا ودلتا نهر القاش وتمتد في كثير من الأحيان إلى داخل اريتريا .

وجاء في التاريخ الرسمي البريطاني للحرب العالمية الثانية أن البلوكات السريعة السودانية انطلقت في غضون أيام قليلة بعد إعلان ايطاليا الحرب متوغلة في الأراضي الاريترية المتاخمة لكسلا حيث نفذت عمليات استطلاعية قتالية أفزعت العدو وأدخلت في روعه (أن السودان مدرسة لتخريج البانزر) والبانزر هم جنود المدرعات بوجه عام إلا أن هذا الاصطلاح أصبح خلال الحرب العالمية الثانية أشد التصاقاً بالصفوة الممتازة من الجيش الألماني . وجاء في التاريخ الرسمي البريطاني عن البلوكات السريعة السودانية أيضاً أنها سرايا تمتاز بخفة الحركة وسرعة الانتقال وأن الخوف لا يعرف طريقاً إلى قلوب رجالها الشجعان .

ووقعت على السريتين الأولى والخامسة من البلوكات السريعة أعباء العمليات الاستكشافية القتالية على طول الحدود مع اريتريا وداخل أراضيها خلال الفترة التي تلت دخول ايطاليا الحرب واشتبك رجال السريتين مع العدو في مواقع عديدة وكبدوه خسائر فادحة في الأرواح والمعدات ولم تمن السريتان بخسائر تذكر وقد أبدى رجالها روحاً قتالية عالية وتحرقاً دائماً للاصطدام مع العدو الذى كان أكثر منهم عدداً وأوفر عدة وسلاحاً . ويضيق المجال عن حصر تلك المواقع التي أرهبت

البلوكات السريعة فيها العدو وأشبعته صفعاً ونكالاً ولكن لا بأس من أن نعرض في إيجاز لأربـع منهـا :-

* في ١٧ يونيو خرجت وحدة من السرية الخامسة (بلوكات سريعة) في عملية استكشافية إلى موقع قريب من تسني وتتألف الوحدة من أربع سيارات مصفحة وأربع سيارات (فان) مسلحة بمدافع البرن . وقامت الوحدة باجتياح موقعين للعدو وأسرت ١٥ جندياً . وفي طريق عودتها إلى قاعدتها اعترضتها كتيبة كاملة من العدو بالقرب من نهر القاش ففتحت الوحدة نيرانها عليها وسرعان ما تفرق رجال الكتيبة المذعورون واختفوا بين الأحراش وفي مجارى الخيران طلباً للنجاة .

* وفي ٢٥ يونيو قامت وحدتان من البلوكات السريعة بعمليات استطلاعية داخل اريتريا أحداهما بقيادة الملازم طلعت فريد والثانية يقودها الملازم محمد نصر عثمان الذى اشتبك مع قوة من العدو فأنزل بها خسائر فادحة بينما توغلت الوحدة الأخرى حتى وصلت إلى مرأى من دار الحاكم الايطالي في تسني .

* توجهت في ٢٦ يونيو وحدة من السرية الخامسة (بلوكات سريعة) لاستكشاف الطريق بين سبدرات وتسني داخل اريتريا وتضم الوحدة أربع مصفحات وسيارتين فان ومفرزتين من المشاة . وعندما لمحت قوة من العدو الوحدة السودانية سارعت إلى الاحتماء وراء جبل قريب منها وعلى الفور صدر الأمر لمفرزتي المشاة بالبقاء في مكانهما تحت حماية سيارتي الفان . وتقدمت المصفحات الأربع نحو العدو وفتحت عليه النيران ثم أنسحبت المصفحات حتي غابت عن الأنظار . وظن جنود العدو في تلك اللحظة أن الخطر قد زال فخرجوا من مكامنهم في الجبل إلى العراء ليتلقفهم المشاة وسيارتا الفان بالبنادق ومدافع البرن . وفي دقائق قليلة سقط خمسون من رجال العدو بين قتيل وجريح وعادت الوحدة بسلام إلى قاعدتها . وفي اليوم التالي شوهدت قوة من خيالة العدو في طريقها من سبدرات متجهة إلى مدينة كسلا قوامها ألف ومئتان فتصدت لها فصيلة من السرية الخامسة على سيارتي فان بقيادة الملازم محمد نصر عثمان وكانت الفصيلة رغم صغر حجمها وقلة إمكانياتها كافية لإثارة الرعب بين جنود العدو الزاحفين الذين ولوا الأدبار دون انتظام تاركين وراءهم خمسين قتيلاً على الأقل بينهم اثنان أرداهما قائد الفصيلة بمسدسه في اشتباك وجهاً لوجه . وعادت الفصيلة بغنائمها من الأسلحة والمعدات التي عرضت على الجمهور في مدينة كسلا من أجل رفع الروح المعنوية .

وقد بدأ فيضان نهر القاش في ذلك العام بعد اسبوعين تقريباً من دخول ايطاليا الحرب وتبع ذلك انتقال السرية الخامسة (بلوكات سريعة) من شرق القاش حيث تقع مدينة كسلا إلى غربه خوفاً من أن يتعذر عبورها النهر بسياراتها المسلحة اذا ما وصل الفيضان أوجه . وحلت مكان السرية الخامسة في مدينة كسلا السرية السادسة التابعة لفرقة العرب الغربية على أمل أن يكون في وجودها

رادع يصرف الايطاليين عن احتلال المدينة .

وسجل أندرو بليكي مفتش مركز كسلا فى يومياته بأسلوب ممتع وقائع الأحداث فى كسلا خلال الأيام الأخيرة التى سبقت احتلالها ولهذه اليوميات قيمتها التاريخية لأنها بقلم شاهد عيان وهي صادرة فى الوقت نفسه عن المسئول البريطانى الأول الذى كان يقف فى قلب الأحداث آنذاك ولا سبيل لايرادها كاملة تجنباً لتكرار وقائع سبق ذكرها ولكن لا بأس من أن نقتبس فى ما يلي بعضاً مما ورد فيها :

* فرانك سيمس قائد السرية الخامسة من البلوكات السريعة ونائبه بات كزنز والباشجاويش لوسى رجال ممتازون ويشد أزرهم الملازمان السودانيان محمد نصر عثمان ومحمد طلعت فريد .

* ١٢ يونيو : فى حوالي السادسة والنصف صباحاً أغارت ٣ طائرات ايطالية على كسلا وقصفت مواقع البلوكات السريعة قصفاً عنيفاً بقنابلها وقد سقطت ٥٨ قنبلة على المطار وخمس على منزل فرانك سيمس و١٥ على الطابية كما ألقت الطائرات عدداً من القنابل على حي الختمية وقصفت المدينة بمدافعها الرشاشة حيث أصيب عشرة مدنيين بجراح وكانت جراح ثلاثة منهم خطيرة . والقنابل التى استخدمتها الطائرات المغيرة صغيرة الحجم الا أنها تحدث دوياً هائلاً لدى انفجارها وتثير طبقات كثيفة من الغبار . وكنت أتابع الغارة من منزل على الضفة الغربية لنهر القاش .

وفى طريقى الي المدينة على الضفة الأخرى التقطت عدداً من شظايا القنابل وعلمت أن الطائرات الايطالية القت مائة قنبلة على مجموعة من عرب الرشايدة وهم يسقون ابلهم فأصابت عدداً منها .

* ١٤ يونيو : استيقظت فى منتصف السادسة صباحاً وتناولت الشاى وأمضيت وقتاً فى فلاحة حديقة منزلى حين مرت فى الساعة السابعة طائرتان ايطاليتان يبدو أنهما تبحثان عن مواقع الجيش . ثم انتقلت فى التاسعة الى المدينة على الضفة الشرقية لأن هناك أشياء كثيرة فى انتظارى بينها فتح السوق ومراقبة الأسعار وحفر الخنادق للوقاية من أخطار الغارات الجوية وتوزيع المهام على رجال الشرطة بالاضافة الى الاتصال مع القادة العسكريين ومعالجة رسائل الشفرة وتوزيع الغلال .

وفى انتظارى أيضاً استجواب العملاء الهاربين من اريتريا والمشتبه فيهم ومقابلة الاعيان والموظفين والمواطنين العاديين من اجل تطمينهم . وعندما تكون الأخبار غير سارة يصبح التظاهر بالبهجة والارتياح مهمة شاقة وعسيرة ولكن معي رجال ممتازون خاصة المأمور وضابط الشرطة والعمدة والسيدين محمد عثمان والحسن الميرغنى .

أمضيت اليوم فى مكالمات تلفونية متواصلة واستقبال سيل دافق من البرقيات والرد عليها . ولابد لي من الذهاب الى حوض السباحة فى النادى وآمل أن يستأنف مجلس المدينة جلساته غداً .

* ١٨ يونيو : فى منتصف السادسة صباحاً اجتمعت مع المجلس والعمدة والمأمور وتناولت وجبة الافطار بعد فوات أوانها ثم مررت على سوق المدينة فى طريقى الي مكتبي وأمضيت معظم ساعات الصباح مع الجيش وفى استقاء المعلومات والأخبار . وابلغنى أحد عملائنا بأن الايطاليين يستعدون للهجوم على كسلا من سبدرات وأديبرا وقد شوهدت الطائرات الايطالية فى الثانية والربع بعد الظهر بالقرب من كسلا . وبقيت مع الجيش حتى الساعة الثالثة ثم رجعت الى غرب القاش للغداء . وفى الرابعة والنصف هبت زوبعة فذهبت الى النادى واستمتعت بحمام بارد فى حوض السباحة . ولعل من المفارقات أن يكون المرء فى خضم الحرب ومع ذلك لا يفوته طيلة الوقت الاستمتاع بمباهج الحياة وهو فى ذلك أشبه بمن يقاتل عدوه فى النهار خارج الحصن ثم يأوى عند العصر الى داخل الحصن لينام ملء جفنيه ويأخذ نصيباً مما حوله من أسباب المتعة . واستمرت الزوبعة فترة طويلة وكان الطقس حاراً فى ذلك اليوم ولكنى قطعت الوقت فى النادى مع غراهام فى لعبة البريدج .

* ٢٠ يونيو : مشاغلى كثيرة فى الصباح وقد شملت اصدار الأوامر لمراقبة حركة النقل والامدادات والقادمين الي المدينة والخارجين منها . وقيل لنا ان تعزيزات كبيرة وصلت من أغوردات الى سبدرات ولابد من أن يكون الآن بين سبدرات وجبل أبوقمل الواقع على الحدود حوالى ٧ ألآف جندى ايطالى . وقد ألقت الطائرات اليوم خمسين قنبلة على مضارب قبيلة بنى عامر وأسفر ذلك عن مقتل بعير واحد .

* ٢١ يونيو : الزوابع لم تتوقف طيلة الوقت وسمعت أن الطائرات الايطالية حامت فوق كل مكان بين السابعة والربع ومنتصف التاسعة صباحاً . وهنالك اشاعة بأن طائراتنا أغارت على مواقع شرقى جبل أبو قمل وسبدرات كما قامت أربع سيارات فان من البلوكات السريعة المرابطة عند جسر البطانة بعملية استكشافية ناجحة وصلت فيها الى مسافة عشرة أميال من تسنى واشتبكت مع القوات الايطالية هناك . ولم تصب البلوكات السريعة بأية خسائر فى الأرواح والمعدات ولكنها أبلغتنا أن نقل القتلي والجرحي من جراء غارات الطائرات البريطانية قبل أيام قليلة علي تسنى تطلب اثنى عشر سيارة لورى .

وددت لو بادر الجنرال بلات بالهجوم الآن اذ من المؤكد سقوط مدينة كسلا فى أيدى الايطاليين ما لم يتم استيلاؤنا على تسنى وسبدرات قبل استفحال فيضان القاش فى غضون الايام العشرة القادمة . وليس من الصعب احتلال تسنى والبقاء فيها وسوف يتبع ذلك سقوط سبدرات وهروب كثيرين من الجنود الافريقيين من صفوف الجيش الايطالي .

* ٢٣ يونيو : عادت الزوابع بعد الظهر وأجبرنى ذلك على البقاء داخل مكتبي وزاد من عنائى اختلاط العرق المتصبب من جسدى مع الغبار .

وزارنى السيدان محمد عثمان والحسن الميرغنى وقالا لي ان كسلا لم تعد مدينة مفتوحة وانهما لهذا السبب عازمان على مغادرتها . ورايت فى مغادرة السيدين المدينة خطراً على الروح المعنوية فأرسلت بالشفرة برقية من أربع صفحات الى السكرتير الادارى (سير دوغلاس نيوبولد) فى الخرطوم تناولت فيها النقاط التالية :-

— اصدار أمر إلى السيدين بالبقاء فى كسلا .

— الاستيلاء على تسنى وسبدرات .

— الدفاع عن كسلا خلال فصل الخريف .

— اخلاء كسلا الآن .

ويعترف أندرو بليكي بأنه لا دخل له فى الدفاع عن كسلا باعتباره من اختصاص العسكريين ولكنه يرى فى الوقت نفسه أن الاستيلاء على تسنى وسبدرات اجراء معقول .

* ٢٤ يونيو : أنجزنا عمليات توزيع الغلال وانتهت بذلك مشاغلى فى هذا الصدد ولو أنى واثق من ان القائمة حوت أسماء وهمية . ويقول هارب وصل من سبدرات أن القوة الايطالية فيها مؤلفة من ألفين وخمسمائة رجل من الخيالة . وهذا الهارب شاب ذكى يجيد اللغتين الايطالية والعربية وقد أحضر معه بندقيته وذخيرتها وحصانه ومعدات أخرى واستخلصنا منه أكبر قدر ممكن من المعلومات ونفحته فى النهاية بجنيهين ونصف مكافأة له .

* ٢٥ يونيو : أرسلت ٩ أسرى بينهم ايطالي واحد على ظهر لورى الى الخرطوم عن طريق القضارف وفى المساء تلقيت أنباء سارة اذ بلغنى ان سرية من فرقة العرب الغربية ستصل قريباً الي كسلا وهذا يعنى اما الهجوم على سبدرات أو الدفاع عن كسلا على الأقل خلال موسم الأمطار . وقد أزال ذلك عن صدرى قدراً كبيراً من القلق ويبدو ان ارسال السرية كان ثمرة لبرقيتى المطولة الى السكرتير الادارى وآمل بشدة ان يتم الاستيلاء على تسنى قبل هطول الأمطار وتدفق المياه المنحدرة الى مجرى القاش . وليس أمامنا أكثر من عشرة أيام . وسوف يحقق لنا الاستيلاء على تسنى وسبدرات قطع الطرق المسفلتة الممتدة بين تسنى وأغوردات وأم حجر ويحقق لنا فى الواقع سقوط معظم المنطقة الواقعة غربي نهر بركة فى أيدينا .

* ٢٧ يونيو : على أثر مكالمة تلفونية مع فرانك قائد السرية الخامسة من البلوكات السريعة أرتديت الزى الرسمى على عجل وهرعت على سيارتى الى المدينة فى الضفة الشرقية وقابلنى المأمور فى الطريق وطلبت منه الاستعداد لتنفيذ عمليات الاخلاء . وعندما وصلت الى المدينة وجدتها فى حالة هلع واضطراب والناس منتشرين فى الطرقات ورأيت سيارات الجيش فى حركة دائبة .

عندما وصلت الى مكتبي علمت أن الايطاليين فى طريقهم من سبدرات للهجوم على كسلا فأرسلت برقيات بالشفرة لاخطار المسئولين بذلك ثم قمت بجولة فى السوق لاشاعة الطمأنينة بين السكان وذهبت بعد ذلك الى مقر البلوكات السريعة . وفى آخر اليوم عدت الى المكتب وراجعت مع المامور خطة اخلاء المدينة .

* ٢٩ يونيو : أخطرنى قائد البلوكات السريعة بأن المياه المنحدرة الى نهر القاش ستصل الى كسلا فى غضون ساعة واحدة فقمت على الفور بتحويل ما لدينا من الشاحنات الى الضفة الغربية باستثناء اثنتين استعارهما الجيش ووضع مدافع رشاشة عليهما . أما السيارات العسكرية فقد انتقلت جميعها من قبل الى الضفة الغربية .

وأمضيت الليلة فى مبانى المديرية فى انتظار الهجوم الايطالي المرتقب . وفى الساعات الأولى من الصباح أحضر لى وكيل البريد سريراً (عنقريب) ولكن السرير كان مليئاً بالهوام التى أشبعتنى قرصاً .

* ٣٠ يونيو : بدأ اليوم هادئاً وقد علمت من قائد البلوكات السريعة فى جسر البطانة أن السلاح الجوى البريطانى سوف يغير على سبدرات فى منتصف النهار . وصعدت الى سقف مبانى المديرية لكي اسمع من هناك دوى القنابل ولكنى لم أسمع شيئاً بسبب اتجاة الرياح .

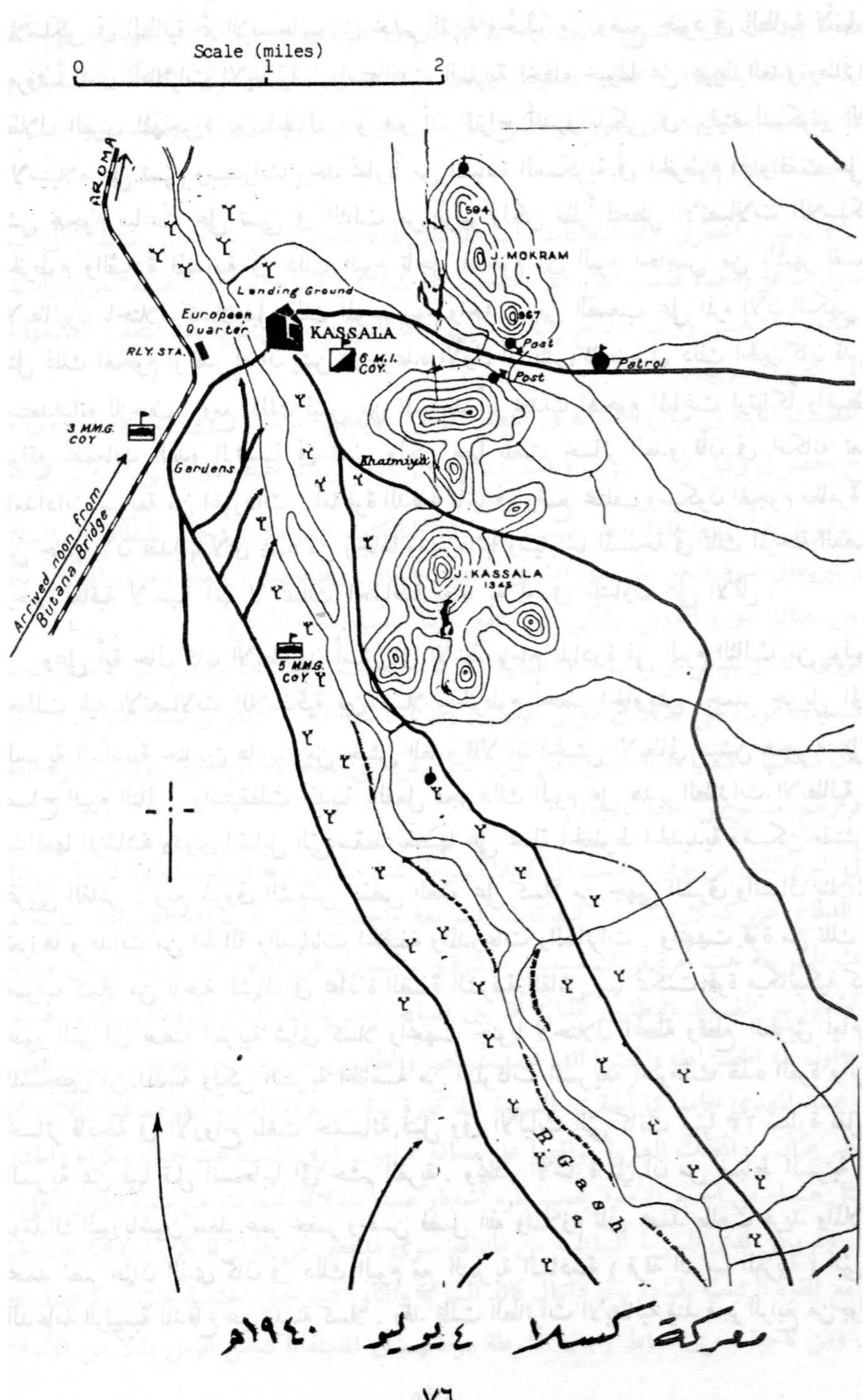
ويروى أندرو بليكى فى يومياته ان الغارة الجوية استغرقت ربع ساعة وقامت بها ٣ طائرات من طراز فينسينت مرت على كسلا فى طريق عودتها . وقد أحدثت الغارة خسائر فى سبدرات وذكر شهود العيان أن ساحتها اكستها حُلة حمراء من كثرة الطرابيش التى تساقطت من فوق رؤوس جنود العدو أثناء فرارهم مذعورين طلباً للنجاة .

وفى اليوم الثانى من يوليو وصلت الى كسلا السرية السادسة من فرقة العرب الغربية قادمة من نيالا لتتولى الدفاع عن كسلا بدلاً من البلوكات السريعة وألحقت السرية بقيادة المجموعة الثانية من البلوكات السريعة تحت أمرة فرانك سيمس مباشرة وهو المسئول عن الدفاع عن مدينة كسلا . ويؤخذ من قائمة توزيع الضباط الوطنيين آنذاك أن بين ضباط السرية المذكورة اليوزباشى النور خميس والملازم أول طه الحسن طه والملازم ثانى محمد نمر نصر والطالبيين الحربيين زين العابدين حسن الطيب هاشم ومحمد المهدى حامد كما ألحقت بالسرية المذكورة قوة من فرقة العرب الشرقية فيها الملازم ثانى محمد نصر عثمان . واتخذت السرية مواقعها على مسافة ٣ أميال شرقى المدينة عند جبال مكرام والختمية وهى كتل صماء من الحجر الأسود يحسبها المرء أشجار صبار عملاقة تحجرت من شدة الحرارة على مر الزمان . ولم يكن لدى السرية السادسة من المدافع سوى مدفعين من طراز فايكرز أحدهما عند جبل مكرام مع القوة الرئيسية بقيادة بول دانيال قائد السرية والثانى عند جبل الختمية تحت امرة محمد نصر عثمان . ومن ناحية أخرى أحاط رجال الشرطة مواقعهم فى المدينة بأكياس الرمل بدلاً من الأسلاك

الشائكة المعدومة . وتلقى قائد السرية أوامر بأن يقوم فى حالة وقوع هجوم لا طاقة له به بنسف محطة اللاسلكى فى الطابية ثم الانسحاب الى خشم القربة وحُـذِرّ من وضع جنود فى الطابية لأنها هدف معروف لدى الطائرات الايطالية . واستطاعت السرية اخفاء خيولها عن عيون العدو وطائراته بين أطلال القرى المهجورة بين الجبال . ويبدو أن اقتراح أندرو بليكى فى برقيته للسكرتير الادارى بالاستيلاء على تسنى وسبدرات وجد تجاوباً من القيادة العسكرية فى الخرطوم اذ وافقت علي خطة لشن هجوم مباغت على تسنى فى الثالث من يوليو ولكن نظراً لتعطل الاتصالات اللاسلكية بين الخرطوم والقيادة الميدانية فى ذلك اليوم تأجل الهجوم الى اليوم الخامس من الشهر نفسه وقام الايطاليون باحتلال كسلا قبل ذلك الموعد بيوم واحد . ومن الصعب على المرء الآن التكهن بنتائج مثل ذلك الهجوم لو قدر له أن يشن فى موعده الأول أو الثانى فالعدو فى ذلك الحين كان قد أكمل استعداداته للزحف . ومع ذلك ليس من المستبعد أن يحدث الهجوم المباغت ارتباكاً واضطراباً فى مواقع تجمعات العدو الرئيسية فى تسنى ولكن مهما بلغت خسائر العدو فأن فى امكانه تعويضها بامدادات سريعة من اغوردات . أما قوة الدفاع فأنها فى وضع مختلف وسيكون الهجوم مغامرة خطيرة من جانبها لأن فقدانها لأى عدد من رجالها ومدرعاتها وسياراتها المسلحة فى تلك المرحلة العصيبة أمر وخيم العاقبة لا سيما أنها لا تمتلك احتياطياً يعتد به أو فى المتناول على الأقل .

وعلى أية حال كان الايطاليون أسبق الى الأخذ بزمام المبادرة ففى اليوم الثالث من يوليو الذى تعطلت فيه الاتصالات اللاسلكية بين كسلا والخرطوم أحضر الجاويش أحمد جبريل الى قيادة السرية السادسة جنديين هاربين من جيش العدو قالا ان الجيش الايطالي سيشن هجومه على كسلا صباح اليوم التالي . واستيقظت المدينة بالفعل فجر ذلك اليوم على هدير الطائرات الايطالية وصرير مدافعها الرشاشة ودوى القنابل التى سقط بعضها على محطة الخطوط الحديدية ومسكن مفتش كسلا غربى القاش . ومع شروق الشمس انقض العدو على كسلا من جهتى الشرق والشمال بثلاث ألوية تعززها وحدات من الخيالة والدبابات الخفيفة والمدرعات والطائرات . واتجهت قوة من تلك الألوية صوب كسلا من ناحية الشمال فى محاذاة الضفة الشرقية للقاش بينما تمكنت قوة ميكانيكية كبيرة من عبور النهر الى ضفته الغربية شمالى كسلا واتجهت جنوباً لاحتلال المحطة وقطع الطريق أمام الجنود المنسحبين من المدينة ولكن السرية الخامسة من البلوكات السريعة اعترضت هذه القوة وأنزلت بها خسائر فادحة فى الأرواح بلغت خمسمائة قتيل وفى الآليات التى كانت بينها ٢٣ سيارة نقل دمرتها السرية بمن فيها قبل انسحابها الى خشم القربة . وتجدر الاشارة الي أن من ضباط السرية الخامسة يومذاك اليوزباشيين سعد عمر خضر وحسن فضل الله والملازم ثانى محمد طلعت فريد والملازم ثانى محمد نصر عثمان الذى كان فى ذلك اليوم مع السرية السادسة (فرقة العرب الغربية) التى تشكل الدعامة الرئيسية للدفاع عن مدينة كسلا . وقد ظلت الطائرات الايطالية منذ فجر الرابع من يوليو تحوم

THE BATTLE OF KASSALA
4 JULY 1940



معركة كسلا ٤ يوليو ١٩٤٠م

فوق مواقع هذه السرية وكانت تطير فى بطء وعلى ارتفاع منخفض للغاية حتى يخيل للمرء أنها توشك على الهبوط ومع ذلك لم تكتشف رجال السرية الذين كانوا مختبئين بين الجبال شرق المدينة . وشوهدت قبيل شروق الشمس طبقات كثيفة من الغبار المتصاعد الى عنان السماء بين الأحراش والتلال على طريق سبدرات وما من سبيل لأدراك كنهها وما تخفيه تحتها فقد كان الغبار كثيفاً الى حد حجب الرؤية حتى بعد أن أخذ شعاع الشمس فى الانتشار . ثم انطلقت فجأة من خلال الغبار طليعة العدو المؤلفة من نحو ستين من الخيالة الذين لم يدر بخلدهم أن المدافعين فى انتظارهم ولم تسترع انتباه العدو القوة المرابطة عند جبل مكرام . ومضى الخيالة فى طريقهم الى جبل الختمية لتطويق المدينة والالتقاء عند القاش مع قواتهم الزاحفة على طول الضفة الغربية التى لم يعلموا حتى ذلك الحين أن البلوكات السريعة فتكت بها . ولما أصبح خيالة العدو على مسافة ٧٠٠ ياردة فقط من القوة المرابطة عند جبل الختمية بقيادة محمد نصر عثمان فاجأتهم بنيران مكثفة من أسلحتها الخفيفة ومدفع الفايكرز وتساقط معظم الخيالة كالذباب بينما ارتد الناجون منهم على أعقابهم فى غير انتظام . ثم قام العدو بمحاولة ثانية مستعيناً هذه المرة بأسلحته الأوتوماتيكية ومزيد من الرجال ولكن حظهم لم يكن أسعد من ذى قبل فقد تصدى لهم محمد نصر بقوته الصغيرة وأصلاهم ناراً حامية كادت أن تحصدهم جميعاً . وولى المهاجمون الأدبار ولكنهم ألفوا أنفسهم هذه المرة تحت رحمة نيران القوة المرابطة عند جبل مكرام التى ظلت مختفية فى مكانها ولم يكن العدو على علم بوجودها هناك حتى ذلك الحين . واستطاعت تلك القوة بفضل المفاجأة وارتباك جنود العدو حصدعدد كبير منهم بمدفع الفايكرز الذى كان مخبأ تحت شجرة كريز برى (طنيضب) . وقام العدو بعد ذلك بالالتفاف حول جبل مكرام وفى هذه المرة اكتشف الضابط الايطالي مدفع الفايكرز فانقض عليه بفرسه فى جرأة بالغة ودون تردد أو احجام وألقى الضابط الفارس على المدفع قنبلة يدوية من مسافة أربعين ياردة فقط وأصابت شظايا القنبلة بول دانيال قائد السرية السادسة (فرقة العرب الغربية) . ولكن الضابط الفارس لقى مصرعه بعد تقدمه عشر ياردات أخرى على يد جندى سودانى . وأمرت القوة المرابطة عند جبل مكرام بالانسحاب ولكن الأونباشى باب الله سعد القائم على مدفع الفايكرز أصر على البقاء مع مدفعه وراح يصلى العدو نيراناً حامية . ويقول الأميرالاى الزين حسن – الذين كان يومذاك طالباً حربياً مع السرية السادسة – انهم كانوا يسمعون طلقات مدفع الفايكرز على مسافة ١٥ ميلاً من الجبل وظل الأونباشى البطل ثابتاً فى مكانه لايتزعزع الى ان داهمته قوة من العدو من خلفه وأردته قتيلاً . ونشرت الصحف الايطالية يومذاك صوراً فوتوغرافية للأونباشى الشهيد باب الله سعد وهو مضرج بدمائه ويده على المدفع . وأصبح الطريق الى مدينة كسلا مفتوحاً أمام قوات العدو من جهة جبل مكرام بعد مصرع الأونباشى باب الله فاتجهت الى داخل المدينة ولما وصلت الى الطابية تصدت لها قوة من ١٥ رجلاً بقيادة جاويش ودارت بين الطرفين معركة ضارية أسفرت عن مقتل خمسة وثلاثين من خيالة العدو

وانسحب الجاويش ورجاله سالمين فى النهاية وبعد أن قاموا بتدمير محطة اللاسلكي .

وقد استمرت معركة الدفاع عن مدينة كسلا لمدة أربع ساعات وكان القتال فيها بمثابة البوتقة التى كشفت عن معدن المقاتل السودانى فى أول معركة رئيسية خاضها فى غمار حرب معاصرة مما أكد للايطاليين وللعالم أجمع أن غزو السودان ليس مجرد نزهة خلوية . ويقول جون أوليبار وهو من مشاهير الضباط البريطانيين فى قوة الدفاع السودانية « ان الطريقة التى قاتل بها تونى وبول دانيال والملازم السودانى الشاب نمر فى اليوم الرابع من يوليو (١٩٤٠) تستحق اسمى آيات الاجلال والاكبار » بينما يقول جاكسون فى كتابه (المقاتل السودانى) ان المقاتلين السودانيين سجلوا فى كسلا صوراً من البطولة وهذا « طابع يتميز به السودانيون » . وعندما أمرت السرية السادسة بالانسحاب الى الضفة الغربية لنهر القاش توجه قائدها بول دانيال مع أربعة من رجاله الى هناك تاركاً محمد نصر عثمان للقيام بتجميع باقى جنود السرية وأخذهم الى الضفة الغربية . وقد تم انسحاب معظم رجال السرية عن طريق المدينة بقيادة اليوزباشي النور خميس بينما شقت قوة منهم بقيادة الملازم محمد نمر طريقها عنوة مخترقة خطوط العدو شمالى كسلا . أما محمد نصر عثمان فقد سلك مع عشرين من جنوده طريق حي الختمية وذكر فى التقرير الذى رفعه الى قائده انه وجد فى أحد المواقع أن الجنود لم يحملوا معهم عند انسحابهم صناديق الذخيرة فأخذ منها ما استطاع واتلف الباقى . وهذا التقرير الذى توجد صورة منه فى مكتبة جامعة درهام هو الوثيقة الوحيدة التى كتبها ضابط سودانى عن معركة كسلا وقد ذكر فيها أيضاً انه بعد وصوله الى بر الأمان فى الضفة الغربية أرسل واحداً من جنوده الى داخل كسلا متنكراً فى زى مدنى ولم يجد الرسول أثراً لجنود قوة الدفاع فى المدينة . وأثناء انسحاب السرية السادسة من كسلا سقط الأونباشي حمدان مكين من جواده ولم يستطع اللحاق برفاقة المتجهين الى بر الأمان فى الضفة الغربية لنهر القاش وأحاطت به قوة من العدو فانبرى لها ببندقيته وقتل عدداً من رجالها وأصاب آخرين بجراح وبينهم ضابط ايطالي واستطاع جنود العدو فى النهاية القاء القبض عليه وتجريده من سلاحه ثم طلبوا منه – كعقاب له – أن يحمل الضابط الايطالي الجريح على ظهره الى المدينة لاسعافه فاستجاب لهم الأونباشي مكين . وعندما وصل بحمله الى المدينة طلب السماح له بالاستحمام وغسل ثيابه التى تلطخت بالدماء المنبثقة بغزارة من جراح الضابط فأذنوا له واصطحبه جندى الى نهر القاش . وتعمد الأونباشي مكين البقاء مدة طويلة فى الماء استسلم الجندى الحارس خلالها لسلطان النوم فانتهز مكين الفرصة وعبر النهر الى الضفة الغربية وأطلق ساقيه للريح عارياً كما ولدته أمه الى أن بلغ مدينة أروما بسلام وصرف له زى عسكرى جديد .

وكان أندرو بليكي – مفتش كسلا – قد توجه منذ الصباح الباكر الى مبانى المديرية فى الضفة الشرقية لتنفيذ خطة الاخلاء المتفق عليها وتشمل ترحيل من بقى فى المدينة من الموظفين وتفجير مقسم الهاتف . وعندما وصل الى مبانى المديرية وجد الناس فى حالة هياج واضطراب ورأى فى الساحة التى

Officer Commanding,
No. 6 (M.I.) Coy. W.A.C.

Sir,

I respectfully beg to state the following in regard to Kassala Battle for favour of your consideration.

In the morning of Thursday 4th. July, 1940, I received orders from Bimbashi Daniell to have the section situated at No. 4 Post joined to that of No. 3 Post and afterwards I joined myself the force then situated at No. 2, meanwhile sending a word to the force at No. 5 to hold themselves in readiness.

On my arrival at No. 2 Post I noticed that the enemy were advancing towards us at about 700 yards distance. I, then gave the orders that fire should be opened, in which case the enemy had to retreat as far as beyond No. 6.

The enemy however had again attempted to advance and had again to be similarly dealt with. For the third time the enemy with the whole of his force pressed on us and launched a severe attack, while up to then I heard or knew nothing about the gun No. 1 opening fire. I thought consequently there was something amiss and had to go myself under heavy enemy fire to find out what was happening and to fetch also a guard for my own gun. Here I should not omit to mention that the distance of plane land separating me from gun No. 1 is about 1700 yards.

A Sketch showing the situation as it was at Kassala is herewith attached for favour of your perusal.

Your obedient servant,

[signature]

M.T., No. 6 (M.I.) Coy. W.A.C.

Gedaref
14/12/40.

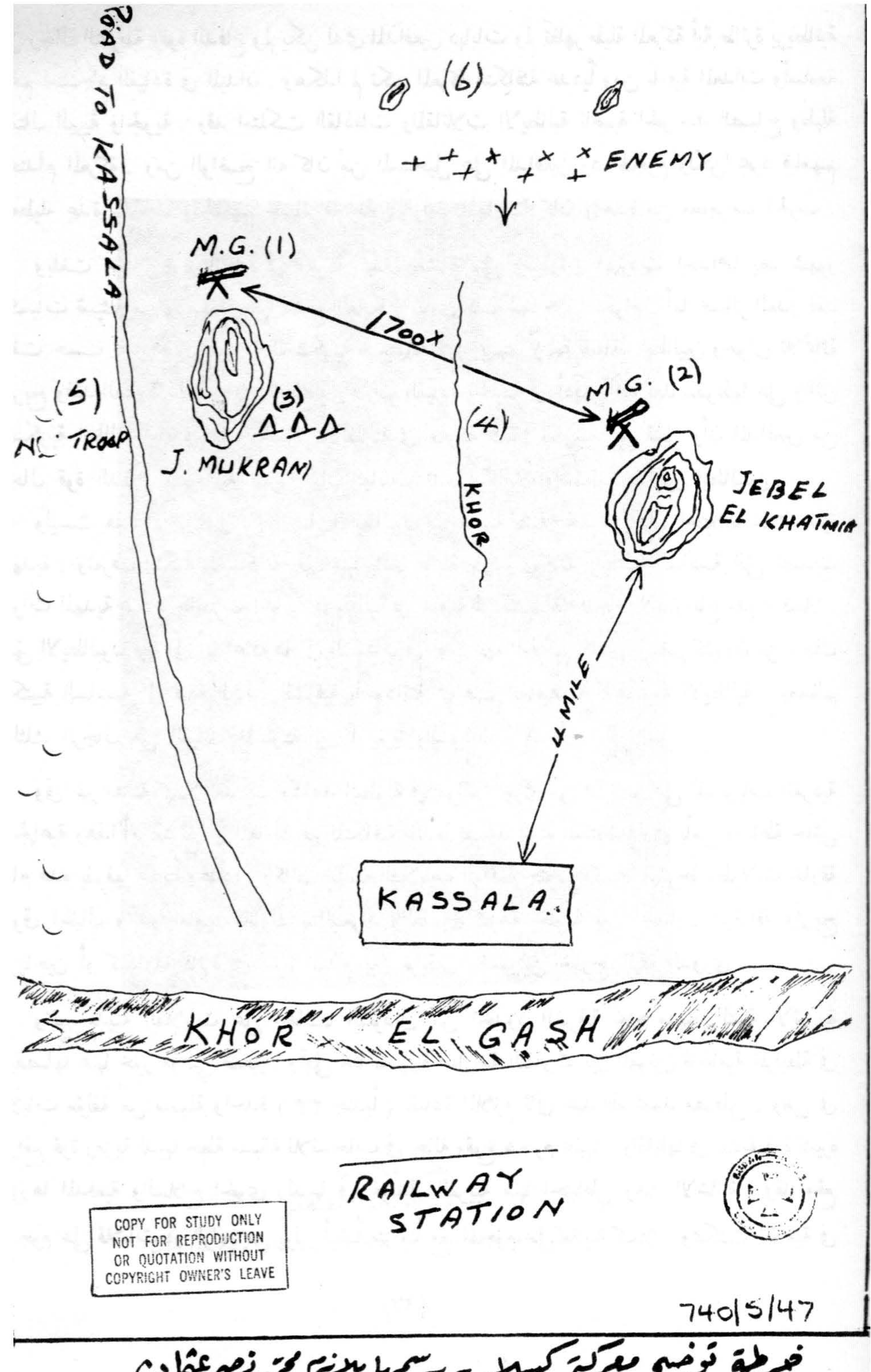
تقرير من الملازم محمد نصر عثمان
الى قائده عن معركة كسلا

أمامها شاباً مرتدياً جلابية بيضاء وفى يده بندقية وحوله عدد من جثث القتلي من جنود العدو . وهم بليكى باطلاق النار على الشاب ظناً منه أنه من الأعداء وينبغي أن يلحق برفاقه على الأرض . وصوب بليكى بندقيته نحو الشاب ولكن قبل أن يضغط علي الزناد لفت السائق نظره الى أن الشاب من رجال الشرطة السودانيين الذين تصدوا للأعداء المهاجمين وأن ذلك الشاب لم يجد متسعاً من الوقت لارتداء زيه الرسمي وبدلاً من ضياع الوقت حمل بندقيته وخرج لتوه مع رجال الشرطة الآخرين لصد المهاجمين . وهكذا كتب للشاب الشرطى الشجاع عمر جديد فقد كان بليكي من الرماة الحاذقين .

وذهب بليكي بعد اطمئنانه على تنفيذ خطة الاخلاء الي مقسم الهاتف وقام الساعى برش الغرفة التى فيها المقسم بكمية كبيرة من البترول تمهيداً لنسفها ولكن قبل أن يتخطى بليكى عتبة الغرفة الى خارجها ألقى الساعى كتلة مشتعلة من الورق عبر النافذة فاشتعلت النار فى الغرفة محدثة دوياً هائلاً ولفح لهيبها كتفى بليكي وقفاه واحترق جزء من قبعته .

وكان نسف مقسم الهاتف الحلقة الأخيرة فى خطة الاخلاء . واستقل بليكى بعد ذلك سيارته محاولاً الخروج من المدينة التى انتشرت قوات العدو فى كل ركن فيها وهكذا كان عليه أن يسلك طرقاً جانبية الى الضفة الغربية ورغم ذلك اعترضته مجموعات من جنود العدو وتبادل النار معهم أكثر من مرة وقتل اثنين أو ثلاثة منهم . وتصدت له أيضاً طائرة بمدافعها الرشاشة على مقربة من مجرى القاش وراحت الطائرة تتعقبه الى أن غاصت عجلات سيارته فى الرمال فترك السيارة وجاءت فى تلك اللحظة الحاسمة – لحسن حظه – وحدة من البلوكات السريعة فأخذته مع سائقه الى خشم القربة . وقد تمت عمليات اخلاء كسلا بنجاح حسب الخطة المرسومة وقام رجال الشرطة بدورهم فى توفير غطاء لرجال قوة الدفاع عند انسحابهم . وتسلل رجال الشرطة بعد ذلك واحداً اثر واحد الي خارج المدينة ومعهم بنادقهم وما خف حمله من ممتلكات الحكومة وملفاتها . ويذكر جاكسون فى كتابه (المقاتل السودانى) فى هذا الصدد أن جندياً اكتشف بعد وصوله الى بر الأمان على الضفة الغربية لنهر القاش أنه نسي حذاءه الأثير فى المدينة فقفل عائداً اليها ولما اكتشف العدو امره احتمى الجندى بأحد المنازل رافضاً الاستسلام وابدى مقاومة عنيفة قتل خلالها ببندقيته ٢٣ من الأعداء ثم لقى مصرعه فى النهاية بعد نفاذ ذخيرته كل ذلك من أجل حذاء لا يزيد ثمنه فى تلك الأيام على خمسة قروش ! ! ومن يقدم على مثل هذه التضحية يهون عنده كل شئ فى سبيل الدفاع عن تراب الوطن .

لقد زحف الايطاليون يومذاك على مدينة كسلا بقوة جبارة قوامها ٨ الاف من المشاة والخيالة و١٨ دبابة بخلاف المدرعات والطائرات وقوات أخرى احتياطية فى تسنى وسبدرات قدر عددها فى ذلك الوقت بأكثر من أربعة آلاف جندى . أما القوة المدافعة عن كسلا فقد كانت مؤلفة من حوالى أربعمائة



خرطة توضح معركة كسلا - رسمها ملازم محمد نصر عثمان

من رجال الشرطة وقوة الدفاع ولم يكن لدى المدافعين دبابات ولم تظهر طيلة المعركة أية طائرة بريطانية رغم استنجاد القيادة فى الميدان . وهكذا لم تكن المعركة متكافئة عددياً ومن ناحية المعدات وأسلحة القتال البرية والجوية . وقد امتلكت القاذفات والمقاتلات الايطالية ناصية الجو منذ الصباح وطيلة احتدام المعركة . ومن الواضح انه كان من المستحيل على المدافعين رد الهجوم ولكن مجرد قيامهم بتعطيله عدة ساعات والحاقهم خسائر فادحة بالقوات المهاجمة كان واحدة من معجزات الحرب .

وبلغت خسائر قوة الدفاع فى معركة كسلا عشرة قتلى وسيارتين استردت احداهما بعد شهور وكميات ضيئلة من الأسلحة بينها مدفع الفايكرز الذى كان عند جبل مكرام . أما خسائر العدو فقد بلغت حسب تقديرات المخابرات العسكرية خمسمائة قتيل بينهم أربعة ضباط ايطاليين وحوالى ثلاثمائة جريح وفقد العدو كذلك ثمان دبابات . وعثرت القيادة الحليفة فى أديس أبابا بعد سقوطها على وثائق عسكرية ايطالية جاء فيها أن الخسائر الايطالية فى معركة كسلا تقارب ألفى قتيل وأن المدافعين من رجال قوة الدفاع السودانية دمروا ثمان دبابات تدميراً كاملاً واسقطوا طائرتين ايطاليتين .

وليست هذه المرة الأولى التى احتل الايطاليون فيها مدينة كسلا فقد سبق لهم احتلالها خلال فترة المهدية . وتعرف الثكنة العسكرية التى فيها باسم طابية بارتييرى قائد الكتيبة السادسة التى تصدت لقوات المهدية عندما حاصرت الحامية الايطالية فى محاولة لم يكتب لها النجاح لاسترجاع مدينة كسلا . وبقى الايطاليون فيها الى أن أعادوها الى السودان فى أول عهد الحكم الثنائى وانضم كثيرون من رجال الكتيبة السادسة الى فرقة العرب الشرقية السودانية بموجب اتفاقية مع الحكومة الايطالية . ومعظم أولئك الرجال من القبائل المشتركة بين اريتريا والسودان .

وفى غير مدينة كسلا تعددت مشاهد البطولة فى مواقع أخرى من المديرية على المستويات الفردية والجماعية وهذا أمر متوقع فى المعارك غير المتكافئة عندما تصمد الفئة المستضعفة فى بأس ورباطة جأش أمام عدو يفوقها عدداً وعتاداً . وكانت مدينة القلابات الواقعة جنوبي كسلا مسرحاً لبطولات خارقة تفوق الخيال وتبدو أمامها معارك ستالينغراد والعلمين كنزهة خلوية بين الجداول الرقراقة وأريج الرياحين أو كمباراة فاترة فى كرة القدم بين فريقين مغمورين خارج قائمة الدورى .

وتقع مدينة القلابات على الجانب السودانى من الحدود الشرقية تجاه مدينة المتمة الاثيوبية ويفصلها عنها خور موسمي صغير . وتجلى هنا بصورة صارخة التفاوت بين القوتين فالحامية المرابطة فى قلابات مؤلفة من فصيلة واحدة (٣٣ جندياً) بقيادة الملازم ثانى عبد الله محمد مصطفى . وهى فى الواقع قوة رمزية لديها خطة مسبقة للانسحاب فى حالة وقوع هجوم عليها . وتقابلها فى المتمة قوة كبيرة تعززها المدفعية والسلاح الجوى ولديها فى غوندار القريبة منها إحتياطي رهن الاشارة . وقد وقع الهجوم على قلابات فى الرابع من يوليو أيضاً متزامناً مع الهجوم على مدينة كسلا . وتمكنت الحامية فى



بطل قلابات

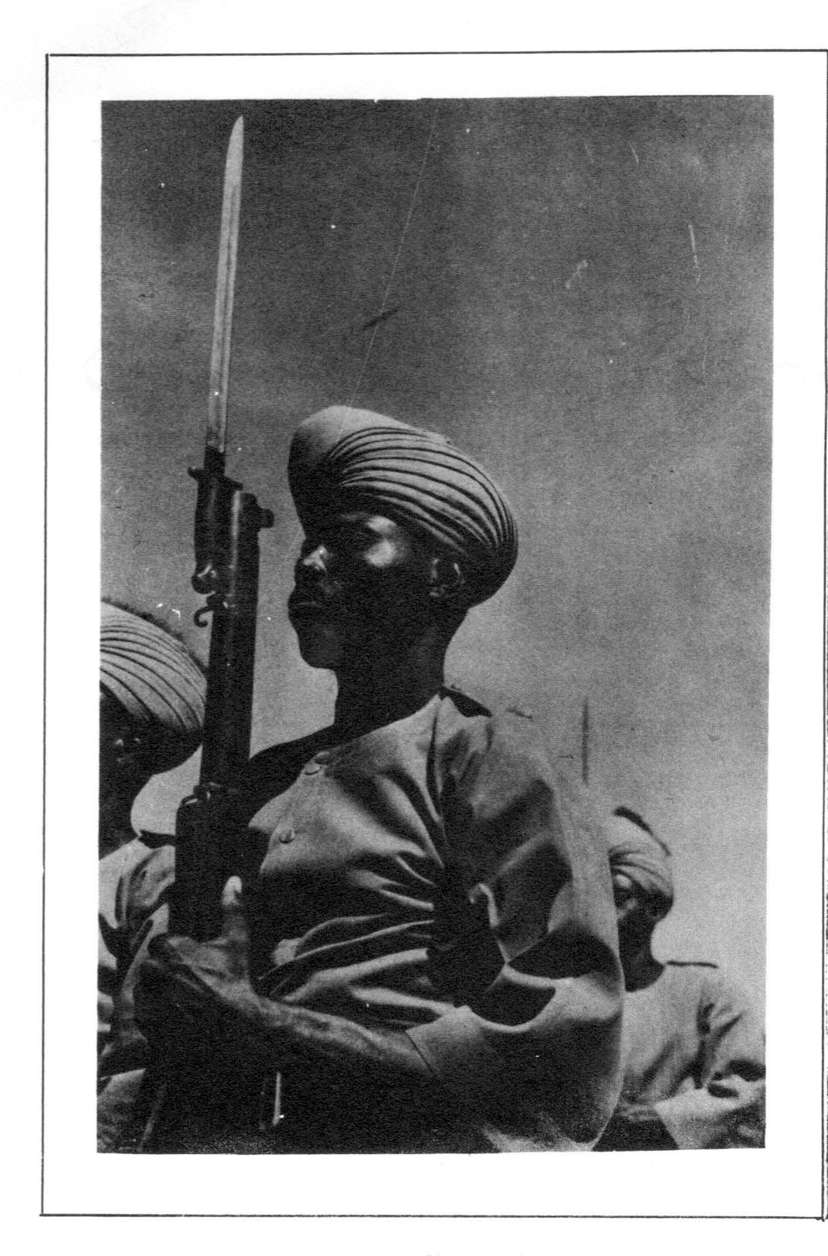
عبد الله محمد مصطفى

(التقطت هذه الصورة فى مايو ١٩٤٦ وهو برتبة يوزباشى)

البداية من صد المهاجمين وطاردتهم حتى مجرى الخور ملحقة بهم خسائر كبيرة . ودفع العدو فى الجولة الثانية بقوة أكبر عدداً وأوفر سلاحاً تساندها الدبابات والمدفعية وجرت معركة دامية استمرت زهاء ساعة تكبد العدو فيها خسائر فادحة قبل انسحاب جنود الحامية فى كبرياء ومهارة وبانتظام الى المرتفعات الواقعة غربى قلابات وبلغت خسائر الحامية فى ذلك اليوم قتيلاً واحداً وثلاثة جرحى وخمسة مفقودين . وذكر الجنرال بلات فى محاضرة له ان الايطاليين زحفوا على قلابات بقوة يربو عددها على خمسمائة وكان الأمل ضعيفاً فى نجاة رجال الفصيلة السودانية . وقد أنعم على قائدها الملازم عبد الله محمد مصطفى بوسام الصليب الحربى البريطانى (ميليتارى كروس) وهو من أرفع الأوسمة العسكرية البريطانية وذلك تقديراً لشجاعته وحنكته القيادية وهو أول ضابط سودانى يمنح هذا الوسام خلال الحرب العالمية الثانية . وتناقلت الأوساط السودانية على اختلافها يومذاك وقفة حامية قلابات المجيدة وكانت مصدر فخر واعتزاز وشوهدت السيارات وعربات القطار فى تلك الأيام وقد كتب عليها بخطوط عريضة « عبد الله محمد مصطفى بطل قلابات » .

والتقيت مع بطل قلابات أول مرة عندما كنت أعمل فى وظيفة كتابية فى قوة الدفاع خلال السنة الأخيرة من الحرب وأكثر ما يلفت النظر فيه قامته القصيرة وعنق ضخم كجذع نخلة يتألف من طبقات تتدلى على قفاه حتى تكاد تلامس أذنية مثل لبدة الأسد لولا أنها من جلد ولحم . ومما يدعو للأسى أن بطل قلابات اضطر خلال الحكم الوطنى فى الخمسينات وتحت ظروف غامضة للالتجاء الى يوغندا وبقى هناك زمناً ثم عاد ألى أرض الوطن حيث وافاه الأجل المحتوم . وما أجدرنا أن نخلد ذكراه – كما تفعل الشعوب الأخرى مع أبطالها – باطلاق اسمه على الأقل على ما يعرف فى أم درمان بشارع الأربعين حيث دار أسرته وعلى مقربة من المنطقة العسكرية وفيها (مركز تعليم) الذى تخرج منه الفقيد ضمن الدفعة الثانية تحت نظام براءة الحاكم العام . أو اطلاق أسم بطل قلابات على شارع فى مدينة القضارف على الأقل .

والى جانب كسلا وقلابات احتل الايطاليون دون مقاومة موقع قارورة الحدودى الواقع على مسافة ٣٠ ميلاً تقريباً جنوبي طوكر وكانت فيها قوة من الشرطة مؤلفة من ٥ رجال سحبوا من هناك فى وقت سابق الى موقع مجاور يدعى أيتيربا بقوا فيه عدة شهور يراقبون العدو ويرصدون تحركاته . وقد احتل الايطاليون قارورة فى نفس اليوم الذى احتلوا فيه كسلا وقلابات .



جندى من الهجانة (النوبة)

الفصل الرابع

جبهات ساخنة أخرى

« الحرب خداع والرأى قبل الشجاعة »



لندع كسلا – مدينة ومديرية – إلى حين بقاشها الموار كعاصفة من ماء ويجبالها الصماء المشرئبة إلى السماء وكأنها أشجار صبار متحجرة .

المتصرون الذين دخلوها فوق أشلاء قتلاهم يلعقون جراحهم ويجترون مرارة الهزيمة لأن انتصارهم كان انكساراً بكل المقاييس . بينما المنهزمون – أن جاز التعبير – مبتهجون لأدائهم وازدادوا يقيناً بأنهم على موعد مع المجد والخلود في جولات قادمة فالحرب سجال والغلبة فيها لمن يضحك أخيراً . ومن يتراجع ليحارب مرات أخرى لا بد من أن يكتب له النصر في النهاية .

ولننتقل إلى مديرية النيل الازرق التي تشارك كسلا على خط المواجهة أيضاً وتقع إلى الجنوب منها وتمتد حدود مديرية النيل الازرق الشرقية المتاخمة لاثيوبيا من الكرمك إلى الروصيرص لمسافة مائة وستين ميلاً تحت حراسة رجال الشرطة السودانية الذين لا يزيد عددهم على مائة رجل سلاحهم البنادق ولا توجد في متناولهم أية تعزيزات قريبة . وتكمن أهمية تلك الحدود في أنها البوابة التي يمكن للعدو عبورها إلى سنار حيث السد الذى يوفر مياه الرى لحقول القطن في الجزيرة والذى يمر عليه الخط الحديدى المتجه شرقاً إلى القضارف وكسلا ثم إلى تقاطع هيا حيث يتفرع إلى خطين يتجه أحدهما شمالاً إلى بورتسودان والآخر غرباً إلى أتبرا التي يلتقي فيها مع الخط الحديدى الممتد من الخرطوم إلى حلفا . وقد أصبح الخط الحديدى الذى يمر فوق سد سنار ذا أهمية بالغة بعد سقوط كسلا لضمان وصول التعزيزات والامدادات العسكرية والتموينية إلى القضارف وخشم القربة . وكانت السلطات السودانية على علم بأن للايطاليين حشوداً عسكرية هائلة على الحدود في مواجهة الكرمك والروصيرص تقدر بأكثر من خمسة آلاف من الجنود المدربين وتعززهم الطائرات وبطاريات المدفعية ووراءهم في أصوصة احتياطي غير محدود من الجنود والامدادات . وكان من الواضح في حالة زحف تلك القوات الايطالية على سنار أن من المستحيل صدهم ولن يقوى رجال الشرطة الموزعون على نقاط عديدة على أكثر من تعطيل الزاحفين لمدة ساعات قلائل .

وكانت مدينة الكرمك أقرب المواقع إلى الأراضي الاثيوبية اذ يفصلها عنها الجبل وخور موسمي على جانبيه أشجار وأحراش كثيفة . وقد أيقن ميرفين بل المفتش البريطاني منذ البداية بأنه لا قبل له بمجابهة العدو برجال الشرطة الذين تحت أمرته وكان عددهم نحو سبعين رجلاً غير مدربين على القتال . لقد وجد المسكين نفسه في مأزق لا مخرج منه ودفعه اليأس إلى الإلتجاء لحيلة بارعة لإيهام العدو بأن في الكرمك قوة كبيرة وذلك باستعراض قوة الشرطة التي لديه ساعة في الصباح وأخرى قبل مغيب الشمس في طابور يسير حول الجبل في حركة دائرية عدة مرات . اذا اختفى الفوج الأول من رجال الشرطة وراء الطرف الجنوبي من الجبل ظهر الفوج الثاني من الطرف الآخر . ومع تكرار هذا المشهد وتعديل تشكيل الطابور وتغيير أزياء المشتركين فيه بين كل حين وآخر دخل في روع

الايطاليين الذين كانوا يراقبون الاستعراض من مواقعهم أن في انتظارهم وراء الجبل جيشاً جراراً.
وارتدى ميرفين بل – امعاناً في التمويه والتضليل – قبعة استرالية أدخلت بدورها في روع الايطاليين أن قوة استرالية وصلت إلى الكرمك للدفاع عنها. ثم لجأ إلى خدعة أخرى اذ وضع انبوباً معدنياً طويلاً فوق صندوق وغطاه بقطعة من المشمع لأيهام الايطاليين بأن في الكرمك مدفعاً جباراً مضاداً للطائرات.

وفي صباح السابع من يوليو – بعد ٣ أيام من سقوط كسلا – أغارت طائرتان ايطاليتان على الكرمك وقصفت بقنابلها مباني المركز واستمرت الغارة لمدة ساعة تقريباً تقدمت بعدها نحو الكرمك قوة من العدو قوامها ٧٠٠ جندى مسلحين بالمدافع الرشاشة وتحت حماية بطاريات المدفعية الميدانية. ودارت بين القوة المهاجمة ورجال الشرطة معركة ساخنة تكبد العدو فيها خسائر فادحة في الأرواح بلغت ١٥٠ قتيلاً ثم أنسحب رجال الشرطة إلى موقع خارج المدينة يدعى ويسكو وكانت خسارتهم في ذلك اليوم قتيلاً واحداً.

ولم يجرؤ العدو على مطاردة رجال الشرطة المنسحبين وآثر البقاء في المدينة وفرض سيطرته عليها في انتظار هجوم مضاد من القوة الاسترالية والقوات الكبيرة الوهمية التي كانوا يتابعونها كل يوم وهي تدور حول الجبل. وعاد الصول عبد الرحمن عبد الله في اليوم نفسه إلى مدينة الكرمك لكي يبحث عن زوجته التي بقيت في المدينة بعد انسحاب زوجها مع رفاقه إلى ويسكو. كان الصول عبد الرحمن يعلم أن في عودته إلى المدينة مغامرة جريئة ولكن كل شئ يهون من أجل زوجته الحبيبة ولا بد من أن يعمل حساباً لما سيلحقه من عار حتى آخر حياته أن لم يقدم على أنقاذها. أنها مغامرة لم يجرؤ على مثلها مشاهير العشاق كمجنون ليلي وروميو وأنطونيو بل ولا ادوارد الثامن الذى تنازل عن عرش الامبراطورية البريطانية لقضاء بقية عمره مع عشيقته الليدى سمبسون.

دخل الصول عبد الرحمن مدينة الكرمك بوجهه الصارم وفي خطوات عسكرية مهيبة أودعها كل معاني التحدى واحتقار العدو. ولما شاهده جنود العدو حسبوه طليعة الهجوم المضاد المنتظر وأصابهم ذعر شديد فأطلقوا سيقانهم للريح أمامه. ولم يقنع الصول العاشق بأنقاذ شريكة حياته وانما اقدم زيادة على ذلك مستعيناً ببعض رجال الشرطة الذين تخلفوا في المدينة على اشعال النار في المباني الحكومية وتدمير سيارتين ثم عاد ومعه شريكة حياته وعدد من البغال وخزانة المركز التي كان فيها ستمائة جنيه مصرى. ومنح الصول وسام الامبراطورية البريطانية تقديراً لشجاعته في ذلك اليوم. ولكن انقاذ زوجته ودرء العار الذى كان سيلازمه إلى الأبد كان أعظم وسام.

وكان أحد زعماء العشائر بالقرب من الكرمك قد أنحاز إلى الايطاليين عندما أحاطوا بمقره في أطراف المدينة ولم يبخل عليهم بالمؤن والخدمات المختلفة. وتوجه مأمور المركز (مكاوى أكرت) مع نفر

من رجال الشرطة إلى الزعيم العشائرى الخائن وألقى عليه القبض على مرأى ومسمع من جنود العدو الذين وقفوا مشدوهين لا يتحركون أو يقدم أى منهم على نجدة صاحبهم . واقتاد المأمور الزعيم الخائن مكتوف اليدين إلى ويسكو حيث لاقى جزاءه وأصبح عبرة لكل من تسول له نفسه التعاون مع الأعداء . ومنح المأمور مكاوى أكرت وساماً بريطانياً اعترافاً بشجاعته وتقديراً لما قام به .

وأحتل الايطاليون إلى جانب الكرمك وهي المدينة الرئيسية في المنطقة بلدة قيسان وكان ذلك أقصى ما بلغوه في مديرية النيل الأزرق باستثناء محاولتين فاشلتين للتوغل إلى الداخل خلال شهر اكتوبر عندما بدأ موسم الأمطار في الأنحسار . ففي اوائل ذلك الشهر توجهت قوة قوامها مائتا رجل وبقيادة ضباط ايطاليين إلى منطقة قيلي . ونزلت القوة في طريقها في موقع على مسافة خمسة أميال من هدفها لقضاء الليل وكانت تراقبهم قوة من الشرطة مؤلفة من ٢٥ رجلاً انتهزت فرصة أنشغال جنود العدو بتناول طعام العشاء فأنقضت عليهم من كل الجهات وكانت تلك مفاجأة أذهلت العدو . ومرت عشر دقائق قبل أن يفيق الجنود من ذهولهم ويردوا على نيران الشرطة بالمثل . وظلت نيران الشرطة تنهمر بكثافة على العدو ومن جهات عديدة مما جعل رجال العدو يعتقدون أن حولهم قوة كبيرة من الجنود المدربين ولم يكن أمامهم من مفر سوى الأنسحاب عائدين إلى الكرمك . وجرت المحاولة الثانية في منتصف الشهر نفسه عندما عبرت الحدود قوة مؤلفة من نحو ألفي مقاتل في طريقها إلى الروصيرص بقيادة الكولونيل الايطالي رولي .وقد عبرت القوة الحدود عند الموقع الذى يجتاز النيل الأزرق فيه الحدود السودانية واشتهرت بأسم عصابة رولي لما قامت به من أعمال السلب وأحراق القرى في طريقها إلى الروصيرص . واستطاعت العصابة شق طريقها إلى مسافة ٢٥ ميلاً من الروصيرص رغم مناوشة ميليشيا الملك نايل ورجال الشرطة لها في شجاعة نادرة وقد ألحقوا بها خسائر فادحة في الأرواح . ولا يزال الناس في المنطقة يتغنون حتي اليوم ببطولة وبسالة رجل الشرطة الذى وقف وحده وببندقيته في وجه العصابة الغازية عندما أحاطت بقريته . وظل الشرطي البطل يدافع عن القرية مستميتاً إلى أن لقي مصرعه بنيران المدافع الرشاشة . وقد واجه رجال العصابة عناءً شديداً بسبب كثافة الأحراش وقلة الماء والطعام مع أن الماء في بعض المواقع التي مروا عليها كانت تحت أقدامهم على عمق بضعة أقدام من سطح الأرض ولكن لم يخطر على بالهم استخراجها بسبب جهلهم بطبيعة المنطقة . واضطر الكولونيل رولي إلى التراجع مع رجاله إلى داخل الأراضي الاثيوبية عندما بلغه أن سرية من سلاح الحدود في طريقها لمنازلته . وتجدر الاشارة إلى أن الملك (المك) نايل واحد من شيوخ العشائر في منطقة الروصيرص وكانت الميليشيا التي حملت أسمه واحدة من الميليشيات التي قام بتجنيدها زعماء العشائر في المناطق الحدودية .

وإلى الجنوب من الكرمك تمتد الحدود الشرقية للمديريات الجنوبية لمسافة تقارب خمسمائة ميل وتنتهى عند طرفها الجنوبي بهضبة بوما المجاورة لكل من كينيا واثيوبيا . وتتولى حراسة بعض المواقع

في هذا القطاع من الحدود وحدات من الفرقة الاستوائية التابعة لقوة الدفاع السودانية حيث ترابط في كبويتا السرية الخامسة وفي بوما السرية الثانية ومن ضباطها الوطنيين آنذاك اليوزباشيان عبد الباقي محمد أحمد ومحمد بخيت علي وترابط سرايا الفرقة الاستوائية الأخرى في جهات مختلفة داخل الاستوائية وبحر الغزال ومن ضباطها الوطنيين في تلك الحقبة البمباشي موسي الله جابو والصاغان عباس زايد ومحمد إبراهيم محمد والبمباشي عبد الفراج أحمد واليوزباشيان حسن جوهر وعلى عثمان والملازمان زاهر سرور السادات وبخيت فضل المولي .

أما في مديرية أعالي النيل فقد وقعت مهمة الدفاع عن المنطقةالحدودية المتاخمة لاثوبيا على قوة الشرطة المؤلفة من ١٩٢ شرطياً نظامياً بالإضافة إلى قوة احتياطية غير نظامية تضم حوالي ٣٥٠ رجلاً ولكن لا سبيل للانتفاع بهم عند الحاجة لأن بعضهم في مدينة ملكال الواقعة على مسافة ٣٠٠ ميل من الحدود والباقين موزعون على نقاط مختلفة داخل المديرية للمحافظة على الامن بين القبائل التي يمكن أن تنشب العداوة التقليدية بينها من جديد متى أحست تلك القبائل بإرتخاء قبضة الحكومة وإنحسار سلطانها . ويصبح الأنتقال في المناطق الحدودية في المديرية من مكان لآخر عملاً شاقاً ومضنياً بسبب الأمطار الغزيرة والمستنقعات المترامية على مد البصر وقد وقعت مرات عديدة حوادث تبادل النار بين وحدات الشرطة لأنه لا سبيل للتمييز بين الأعداء والأصدقاء بسبب كثافة الأحراش وارتفاعها وعدم توفر وسائل الاتصال السلكية واللاسلكية . ولا تدع رطوبة الأرض وإبتلالها بالمياه اثناء الخريف فرصة لرجال الشرطة لإيقاد النار لطهي الطعام أو تجفيف ملابسهم أثناء قيامهم بأعمال الدورية في المناطق النائية كما أنهم لا يجدون في معظم الأحيان ما يقتاتون به . وقد وصفهم ضابط بريطاني بأنهم مثل الدجاج البرى لا قوت له سوى ما يلتقطه من بذور الأرض وحبوبها .

وعندما تمتلئ الخيران والنهيرات – وما أكثرها – بالماء يتعذر عبورها إلا سباحة وهنالك دائماً احتمال بألا يصل الواحد إلى الضفة الأخرى وانما ينتهى به المطاف بين فكي تمساح كاسر وساء ذلك مقاماً .

واذا انتقلنا إلى الجانب الآخر نجد أن تلك القوة الصغيرة المتواضعة من رجال الشرطة في مديرية أعالي النيل يواجهها حوالى ٤ آلاف جندى على الحدود الاثيوبية وقوة احتياطية هائلة في مواقع اثيوبية غير بعيدة . وقد أستهل الايطاليون عملياتهم هناك بحملات غزو متقطعة قامت بها عصابات من القبائل الاثيوبية ومعظمها لتصفية حسابات قديمة وثارات مع بعض القبائل السودانية المجاورة لها . وقد وجدت العصابات الاثيوبية دعماً وتشجيعاً من الايطاليين لمعاودة الغارات التي كانوا يشنونها على القبائل السودانية في السنوات الماضية قبل أن تبسط السلطات البريطانية نفوذها وتتخذ الاجراءات اللازمة لحماية السكان وثرواتهم الحيوانية من تلك العصابات . وفي إطار الخطة الدفاعية قامت قوة

من الشرطة السودانية بعد عشرة أيام من دخول ايطاليا الحرب بعبور نهر أكوبو إلى داخل الأراضي الاثيوبية واحتلت معسكرين ايطاليين هناك وحققت بذلك تأمين المنطقة الحدودية في تلك الناحية إلى أن وصلت في غضون شهور قليلة الوحدات التابعة لفرقة المشاة الافريقية الملكية من كينيا ويوغندا . وقد وصلت طلائع تلك الوحدات إلى ملكال وملوط والرنك خلال شهر اكتوبر وأسهمت في تخفيف أعباء الدفاع التي كانت ملقاة حتي تلك الحقبة على عاتق الشرطة السودانية .

غير أن احتلال الايطاليين لمدينة غومبيلا في تلك الأيام كان أكبر خطر تعرضت له المديريات الجنوبية وهي في الأصل مدينة اثيوبية تجارية استاجرها السودان من السلطات الاثيوبية بموجب اتفاقية مع الامبراطور ولم يبد الايطاليون بعد استيلائهم على اثيوبيا ارتياحاً لتلك الاتفاقية وعملوا على الغائها . وكانت ترابط في غومبيلا قوة من الشرطة السودانية تحت قيادة مفتش المركز البريطاني مؤلفة من ٢٧ شرطياً وقد سمح الايطاليون غداة إعلان الحرب للمفتش البريطاني بالإنسحاب مع شرطته إلى داخل السودان . وبإستيلاء الايطاليين على مدينة غومبيلا أصبح الباب مفتوحاً أمامهم للزحف على الناصر ومنها إلى ملكال عاصمة مديرية أعالي النيل . وتقع ملكال كما هو معروف على خط الملاحة النهرية بين الخرطوم وجوبا واكتسب ذلك الخط أهمية كبيرة أثناء الحرب العالمية الثانية كحلقة اتصال بين القيادة الحليفة وجنوب افريقيا والمستعمرات البريطانية الافريقية .

لقد كان إخلاء المواقع الحدودية في مديرية أعالي النيل نتيجة حتمية أملتها ضآلة الإمكانيات الدفاعية التي كانت قاصرة على رجال الشرطة ولم تكن السلطات السودانية تتوقع اقدام الايطاليين على الزحف من هناك إلى الداخل قبل انحسار موسم الأمطار . وقد بقي رجال الشرطة قريباً من المواقع التي انسحبوا منها لمراقبة تحركات العدو ومضايقته بشن الغارات الخاطفة من آن لآخر . وهكذا أصبح رجال الشرطة في تلك الأيام شوكة في جنب الايطاليين مما جعلهم في حالة قلق دائم لا يدرون متى وأين سيداهمهم رجال الشرطة في المرة لقادمة . وفي أحدى المرات جلس القائد الايطالي في واحد من المواقع ليكتب تقريراً لرؤسائه مؤكداً فيه عدم وجود أى أثر للعدو لمسافة ٣ كيلو مترات من موقعه . وقبل أن يضع القائد قلمه مطمئناً أنقضت على الموقع قوة من الشرطة السودانية وكان مصيره وجنوده الخسين أما القتل أو الوقوع في الأسر . وقد أسندت قيادة وحدات الشرطة في مديرية أعالي النيل إلى المفتشين البريطانيين الذين التحقوا بقوة الدفاع كضباط برتبة بمباشي ولمع منهم في تلك الأيام ايفانز برتشارد عالم الانثروبولوجيا البريطاني الذائع الصيت الذى له مؤلفات عديدة عن القبائل البدائية في جنوب السودان وخاصة قبيلة الزاندى . وكان ايفانز برتشارد مولعاً بالتسلل إلى أعماق اثيوبيا وراء خطوط العدو برفقة أونباشي من الشرطة وشرذمة من المتطوعين من رجال قبيلة الأنواك العراة . وقد وجد نفسه في أحدى مغامراته وجهاً لوجه مع قوة من العدو يتراوح عددها بين مائة ومائة وخمسين رجلاً بقيادة ضابطين ايطاليين طلبا من ايفانز بريتشارد التراجع حقناً لدمائه

وحذره الضابطان من أن رفضه الانصياع لطلبهما سوف يعني القتال فرد عليهما بأن هذا ما يسعى إليه . وانتهت المجابهة بين الفريقين بتراجع القوة الايطالية في ذلة وصغار .

وفي مرة أخرى خرج ايفانز برتشارد في عملية إستطلاعية على رأس قوة صغيرة من الشرطة وكان متحرقاً كعادته للإصطدام مع العدو . ووجد ضالته بالفعل عند موقع يدعى بنغودو . ولم يتردد ايفانز برتشارد – رغم أن مهمته كانت إستطلاعية بحتة – في أقتحام الموقع بما لديه من رجال قليلين وانجلت المعركة عن هروب جنود العدو من الموقع تاركين وراءهم ١٧ قتيلاً و٣٥ ألف ليرة ايطالية وكمية من المؤن والأسلحة. وفي عملية إستطلاعية أخرى كلف الشرطي جونغباى ليرى باستكشاف معسكر للعدو في بلدة دال ولما وصل الشرطي إلى هناك فوجئ بخلو المعسكر من الايطاليين الذين انسحبوا منه قبل أيام . وأمضى جونغباى ليرى ليلة هانئة في ميز الضباط في المعسكر مستمتعاً بما لذ وطاب من شراب وطعام وفراش وثير .

وقد أخذت مديرية أعالى النيل نصيبها من الغارات الجوية الايطالية ولعل أعنفها وأشدها وحشية الغارة على مقر البعثة التبشيرية الأمريكية في بلدة دورو التي قامت بها طائرتان ايطاليتان واستخدمتا فيها القنابل والمدافع الرشاشة . وأسفرت هذه الغارة عن مصرع طبيب البعثة دكتور غريفز وزوجته التي كانت حاملاً وعلى وشك استقبال مولودها وكانت قد خرجت مع زوجها في بداية الغارة إلى العراء وهما يلوحان بالعلم الأمريكي لتنبيه الطائرتين المغيرتين إلى هويتهما الأمريكية ولم تكن أمريكا آنذاك طرفاً في الحرب . ولكن الطائرتين أمطرت الطبيب وزوجته بنيران المدافع الرشاشة وأردتهما قتيلين في الحال . وأصيب في الغارة أيضاً بجراح بالغة قس أمريكي وزوجته وعدد من الأهالى . وقد أسقطت الطائرتان يومذاك على مقر البعثة التبشيرية الأمريكية المذكورة أكثر من ثلاثين قنبلة . وكان هذا المقر يقع في منطقة نائية على مسافة ١٤٠ ميلاً من النيل ولا سبيل لإسعاف الجرحى الذين تفاقمت محنتهم من جراء مقتل طبيب البعثة . وقد أثارت هذه الغارة الوحشية مشاعر الرأى العام في أمريكا والعالم المسيحي وتحدث عنها المستر بتلر وكيل الخارجية البريطانية مستنكراً أمام مجلس العموم وأتخذت مادة لتأجيج الحملة الرامية لجر أمريكا إلى الحرب .

لقد ظل السودان منذ إعلان ايطاليا الحرب ولعدة شهور مهدداً بالغزو عبر حدوده الشرقية المجاورة لامبراطورية الدوتشي ولم يتحقق ذلك – كما سيأتي ذكره في الصفحات القادمة – بفضل قوة الدفاع السودانية أولاً ثم القوات الحليفة التي جاءت إلى السودان . وكانت قوة الدفاع بمثابة رأس الرمح في الزحف على اثيوبيا واريتريا الذى توج بإنهيار امبراطورية الدوتشي وتبديد أحلامه . ولكن كل ذلك لا يقلل من الدور الفعال الذى قام بهرجال الشرطة السودانية على طول الحدود الممتدة لمسافة ألف ميل فهم الذين تصدوا للقوات الغازية في كرمك وألحقوا بها الخسائر الفادحة وهم الذين

قاموا بتوفير الغطاء لرجال قوة الدفاع لدى انسحابهم من كسلا وهم الذين عبروا نهر أكوبو واحتلوا المعسكرات الايطالية هناك لتأمين المنطقة . وقد ظل رجال الشرطة السودانية طيلة تلك الفترة العصيبة يقومون بأعمال الدورية والمراقبة ويحبطون محاولات العدو للتوغل داخل البلاد ويقومون إلى جانب ذلك بتدريب المجندين للإلتحاق بقوة الدفاع .

الفصل الخامس

الطريق المفتوح الى الخرطوم

« ماكل بارقة تجود بمائها وماكل مصقول الحديد يمانى »



دخل السودان – بعد استيلاء الايطاليين على كسلا والمواقع الحدودية الأخرى – مرحلة الدفاع التى امتدت حتى أوائل العام التالى (١٩٤١) وكان فيها كالمحكوم عليه بالأعدام وقد أرهف سمعه لالتقاط وقع خطوات الجلاد من بعيد وهو قادم لتنفيذ أمر القاضى . وهذه هى المرحلة الحاسمة التى شهدت أعظم دور قام به السودان فى الحرب العالمية الثانية وكان مصير العالم كله لا السودان وحده آنذاك فى مهب الرياح . وقد طغت نوازع اليأس على دوافع الرجاء . ولم تكن هناك قوة عسكرية بخلاف قوة الدفاع السودانية لصد الغزاة غير قوات الاحتلال البريطانية الرمزية المقسمة بين الخرطوم وأتبرا وبورتسودان والتى لن يكون مصيرها خيراً من مصير القوات البريطانية المسحوقة فى دانكيرك اذا صدقت التوقعات وقرر الايطاليون مواصلة زحفهم الى داخل البلاد . وقد حشد الايطاليون لهذا الغرض فى امبرطوريتهم فى شرق افريقيا جيشاً جراراً يربو تعداده على ربع مليون جندى بقيادة ضباط ايطاليين ومظم الجنود من سكان المستعمرات الافريقية الايطالية بالاضافة الى عدد لا يستهان به من اليمنيين ووحدات من الايطاليين ذوى القمصان السوداء المغالين فى ايمانهم بالفاشية ويعتبرون صفوة الصفوة فى القوات المسلحة الايطالية . وهكذا أصبح على قوة الدفاع السودانية وحدها مجابهة ذلك الجيش الجرار – الى أن تصل الامدادات والتعزيزات – على طول الحدود الشرقية الممتدة لمسافة ألف ميل ابتداءً من قارورة فى الشمال وانتهاء ببوما فى أقصى الجنوب . ويمكن القول فى ثقة تامة بأنه كان فى امكان الايطاليين حينذاك احتلال السودان دون مشقة أو عناء معتمدين على تفوقهم فى العدد وأدوات القتال لولا وقفة الجنود السودانيين وارتقاؤهم الى مستوى المسئولية التى شاء القدر ان يلقيها على عواتقهم باسم البشرية جمعاء . وقد أنصفهم التاريخ الرسمى البريطانى عندما وضعهم على قدم المساواة مع نسور السلاح الجوى البريطانى فى معركة بريطانيا .

لقد أعيدبعد معركتى كسلا والقلابات توزيع القوات السودانية . فأتخذت المجموعة الأولى من البلوكات السريعة قاعدة لها على الضفة اليمنى لنهر أتبرا عند قوز رجب لمراقبة الطريق الذى ربما يسلكه الغزاة لاحتلال أتبرا التى تمتد الخطوط الحديدية منها الى جهات السودان المختلفة مثلما تمتد الشرايين من القلب الى سائر الجسد . ومن ناحية أخرى تولت المجموعة الثانية التى تعززها قوة خاصة من سلاح المهندسين حراسة جسر البطانة . وكانت معسكرات المجموعتين عبارة عن أكواخ وعرائش من القصب والأعشاب وجريد النخيل أشرف على تصميمها وتشييدها القائمقام عبد الله بك خليل . والى الجنوب من جسر البطانة اتخذت قوة من فرقتى الهجانة والعرب الشرقية موقعاً لها [illegible] من القلابات لمراقبة الطريق الى القضارف . وأعفيت قوات الشرطة من مهامها التقليدية لكي تقوم بدلاً عن ذلك بعمليات المراقبة والدورية فى المناطق الممتدة من جنوبى القلابات الى بوما التى توجد فيها قوة تابعة للفرقة الاستوائية . واذا وضعنا فى الاعتبار تفوق الايطاليين فى العدد وأدوات القتال فليس هناك فى الواقع ما يردع جحافلهم فى القلابات مثلاً من اجتياح القوة الصغيرة المرابطة على طريق القضارف

على مسافة تسعين ميلاً فقط لتستقل تلك الجحافل قطار الصباح من هناك الى سنار . وبعد أن تتخلف حفنة منها لاغلاق بوابات السد أو فتحها على مصاريعها حسب أوامر القيادة تستأنف الجحافل الايطالية رحلتها الميمونة على القطار المنطلق تحت حماية الطائرات الايطالية الى الخرطوم لينغمس الجنود فى نوبة من الترفيه وأعمال النهب والاغتصاب فى المدينة المباحة مثلما يفعل المنتصرون فى الحروب . ثم تنضم اليهم فى غضون يوم أو يومين جحافل ايطالية أخرى تفوقهم بأساً وشراسة بعد أن شقت طريقها من كسلا مجتاحة مواقع البلوكات السريعة لتصل الى الخرطوم عن طريق أتبرا بمحاذاة النيل مثلما فعل لورد كتشنر قبل أربعين عاما تقريباً . وليس هذا مجرد أحلام مزعجة تقض مضاجع الهاجعين وانما هى فى حقيقة الأمر كابوس زنيم ومقيم يلاحق فى اليقظة والمنام يومذاك المسئولين فى لندن والقاهرة والخرطوم ولا يخفف من ثقله أن موسم الأمطار فى عنفوانه ولذلك لا يستطيع الايطاليون تجاوز المواقع الحدودية التى احتلوها الى داخل البلاد قبل شهرين على الأقل . فالأمطار الغزيرة بما تخلقه من وحل وسيول وخيران تجعل من المستحيل استخدام وسائل النقل العسكرية الميكانيكية . وكانت السلطات على علم بأن لدى الايطاليين فى مدينة كسلا ما لا يقل عن ثلاثة آلاف من الخيالة الذين لن تقعدهم معوقات الخريف عن التحرك وبالتالى ليس من المستبعد قيامهم بالزحف لاحتلال دلتا القاش على الأقل من أجل الحصول على الغلال التى أخذت تتناقص لديهم لا سيما أن الدلتا قاب قوسين أو أدنى من مدينة كسلا . ومن ناحية أخرى كان فى امكان الايطاليين ان يتقدموا اذا شاؤا الى ما وراء دلتا القاش لاحتلال مدينة هيا ذات الموقع الاستراتيجى على الخط الحديدى المتجه من بورتسودان الى داخل البلاد أو حتى لاحتلال أتبرا والخرطوم ولا تستطيع البلوكات السريعة صد مثل هذا الزحف نظراً لقلة عددها وضعف امكانياتها ولأن عنصر المباغتة الذى تعتمد عليه تلك البلوكات يتطلب سرعة الانتقال بمدرعاتها وسياراتها المسلحة ولا سبيل لذلك بسبب معوقات الخريف . وزاد من مخاوف السلطات فى الخرطوم أن الأمطار فى خريف ذلك العام كانت أقل من معدلاتها العادية . وعلى أية حال كان فى امكان الايطاليين آنذاك التقدم من المواقع الحدودية التى احتلوها الى داخل السودان معتمدين على تفوقهم فى العدد والامكانيات . وقد أصبحت مديرية كسلا منذ الرابع من يوليو ١٩٤٠ جبهة ساخنة والمحور الرئيسى لأحداث الحرب ووقائعها ولم يشارك معظم الناس هناك السلطات فى هواجسها وفى الواقع أن احتلال الايطاليين للقلابات وكسلا وقارورة نجمت عنه آثار متفاوتة بين السكان . ففى منطقتى طوكر وبورتسودان – كما ذكر كينيدى كوك حاكم المديرية آنذاك – بقى الناس هادئين ولم تظهر بينهم بوادر الجزع لأنهم لم يروا مبرراً لا سيما بعد أن شاهدوا السفينة الايطالية أمبيريا وهي تحترق قبالة ساحل بورتسودان . كما أن قوة من البلوكات السريعة قامت فى الأيام الأولى بمطاردة قوة أيطالية تخطت الحدود متجهة صوب بورتسودان وأرغمتها على الانسحاب . وقد قامت السلطات بتوزيع رجال ميليشيا المروج التى شرعت فى تجنيدها سراً منذ عام

١٩٣٩ على المنارات التى أقامتها على تلال البحر الأحمر فى منطقة طوكر وقارورة لرصد تحركات العدو بطريقة بدائية للغاية . وتقضى الخطة فى حالة اكتشاف منارة منها لأى تحرك معادٍ بأن يوقد الرجال فى المنارة شعلة من نار لتنبيه المنارة التى تليها والتى عليها بدورها ايقاد شعلة مماثلة وهكذا ينتقل نبأ التحرك من منارة الى أخرى حتى يصل الى ملتقى طريق طوكر وسواكن حيث يوجد جهاز التلفون المتصل مع بورتسودان . وقد التقَطَتْ مرة المكالمة التالية بين بورتسودان والبمباشى لى قائد ميليشيا المروج

البمباشى – آلو بورتسودان .... بورتسودان

عامل المقسم – نعم جنابك .... بورتسودان معك

البمباشى – المعتمد من فضلك

عامل المقسم – أصبر شوية يا أخى عندنا غارة جوية .

قال العامل العبارة الأخيرة فى برود ظاهر ثم قفل الخط ولعل البمباشى المذهول قد أدرك فى تلك اللحظة أن عرش البرود ليس وقفاً على البريطانيين وحدهم .

وفى منطقة القضارف أقبل الناس على مباشرة أعمال الزراعة كعادتهم فى خريف كل عام وقد اشتهرت المنطقة بانتاج كميات هائلة من الذرة والسمسم والفول السودانى . أما منطقة القاش فقد سادها التوتر الى حد ما فى الأيام الأولى وأخد الناس يتجمعون فى المقاهى والأسواق لاستعراض ومناقشة الأنباء المذهلة التى تتحدث عن وجود الايطاليين بالفعل فى كسلا . ولعل مخاوف السكان فى منطقة القاش فى تلك المرحلة العصيبة ترجع الى أن المنطقة تقع على الطريق الوحيد الذى يمكن أن يسلكه الايطاليون فى موسم الخريف الى داخل البلاد . غير أن تلك المخاوف سرعان ما توارت واسترد السكان الشعور بالثقة بفضل جهود الشيخ محمد الأمين ترك زعيم قبائل الهدندوة وأعوانه كما أن الايطاليين أنفسهم أسهموا فى ذلك اذ اخذت تنتشر الأنباء بأنهم بدلاً من زحفهم المرتقب أخذوا يشيدون فى مدينة كسلا وما حولها استحكامات ومنشئات دفاعية خوفاً من وقوع هجوم مضاد . وهكذا أخذ يتضح أمام الناس تدريجياً ان العدو لن يبرح مكانه شبراً واحداً وان الهجوم المضاد واقع لا محالة . وقد واصل السلاح الجوى البريطانى غاراته داخل اثيوبيا واريتريا وقام فى يومي ٣٠ و ٣١ من يولية بقصف مواقع العدو ومنشئاته فى كسلا وأصابت القنابل أهدافها بدقة وبينها مستودعات الأسلحة والوقود التى اشتعلت فيها النيران مما كان موضع ابتهاج واغتباط بين السكان فى كسلا وما حولها وأدى ذلك الى ارتفاع معنوياتهم التى اهتزت من جراء الأحداث الأخيرة . ومن ناحية أخرى ظلت الطائرات الايطالية تشن غاراتها الطائشة بين حين وآخر على جسر البطانة وأتبرا وبورتسودان والعاصمة ولم تحدث تلك الغارات أضراراً تذكر فى ما عدا خسائر طفيفة فى الأرواح ولعل أشدها غرابة الغارة الجوية التى استهدفت مقابر أسرة الحاشى وهي اسرة من اولياء الله الصالحين ولهم أتباع ومريدون

عديدون فى منطقة نهر أتبرا . وقد أثارت الغارة سخطاً عظيماً . ومن المفارقات العجيبة أن الطائرات المغيرة أسقطت مع قنابلها منشورات ادعي فيها الايطاليون أنهم يحترمون الاسلام ومقدساته وأن الدوتشي موسوليني حامى الاسلام والمسلمين . وقد شنت الطائرات الايطالية خلال الفترة التى سبقت استرجاع مدينة كسلا نحو سبعين غارة على أهداف مختلفة فى السودان أدت لمقتل نحو أربعين مواطناً واصابة مائة آخرين تقريباً بجراح متفاوتة وكلهم مدنيون . وكلها – كما أسلفنا – غارات طائشة لم يجن الايطاليون من ورائها نفعاً لا سيما الغارات التى استهدفت العاصمة مثل الغارة التى شنتها طائرة ايطالية واحدة مساء اليوم التاسع عشر من أغسطس على الخرطوم وقد تظاهرت الطائرة فى البداية بأنها طائرة بريطانية على وشك الهبوط فى المطار وأضاءت أنوارها امعاناً فى التضليل ثم كشفت عن هويتها وأسقطت قنابلها على مضرب للعربان فى أطراف المدينة وولت الأدبار . وقابل المواطنون هذه الغارة باستخفاف ومزيد من الاحتقار للايطاليين وظهرت فى تلك الأيام كالنبت الشيطانى أغنية شعبية مطلعها .

طيارةْ جاتْ من بدرِى حَامْلَهْ القنابل تجرى
جاتْ تضرِب الخرطوم ضربتْ حمار كلتوم سِتّ اللبن

والمعروف عن مضارب العربان التى فى أطراف العاصمة أنها مأوى الرعاة الذين يمدون سكان العاصمة بالألبان ويبدو أن كلتوم (كلثوم) وهي من سكان الحي الذى استهدفته الطائرة الايطالية فجعت من جراء الغارة فى حمارها الذى كانت تستعين به على توزيع الألبان على زبائنها فى العاصمة . وفى نهار اليوم التالى لتلك الغارة الطائشة ألقت ثلاث طائرات ايطالية قنابلها على مدينة أم درمان العاصمة الوطنية وسقطت معظم القنابل على فناء مسجد المهدى ومدرسة الأحفاد المجاورة وأسفر ذلك عن اصابة بعض المواطنين بجراح وأثبتت جدران مساكن أم درمان السميكة المبنية من الطين أنها خير وقاء من شظايا القنابل .

وقد اخترقت احدى القنابل سقف احدى الشرفات فى مدرسة الأحفاد غير أن الطلبة كانوا يومذاك فى العطلة الصيفية . ولم تكن الغارات الجوية الايطالية موضع ازدراء واستخفاف فحسب وانما أصبحت تصرفات القوات البرية الايطالية ونواياها أيضاً موضعاً للتكهنات فقد انشغل الايطاليون بتعزيز استحكاماتهم ومنشئاتهم الدفاعية – مثلاً – فى موقع على بعد أميال قليلة جنوبي كسلا كما انشغلوا بتبديل حاميتهم فى مدينة كسلا كل يوم تقريباً من حيث حجمها وتشكيلها ومواقعها . ومن ناحية أخرى لم يغفل الايطاليون فى قلابات العمل دون انقطاع على تعزيز امكانياتهم ومنشئاتهم الدفاعية هناك رغم مناوشاتهم المتواصلة للقوة السودانية المرابطة عند خور أوتروب بالقرب من قلابات . ويمكن القول بوجه عام أن الايطاليين استسلموا فى تلك الفترة للحيرة والتردد وهذه صفة

لازمتهم ولم تفارقهم حتى النهاية . وهكذا ارتاح بال السلطات السودانية الى حد ما وتضاءل تدريجياً تخوفها من العدو فاتجهت الى الاهتمام باعادة تنظيم وتأمين الامدادات وزراعة المحصولات ودعم الميليشيات المحلية لأغراض القتال ومهام التجسس والمخابرات . والى جانب ميليشيا ديميسى المرابطة مع القوة السودانية بالقرب من قلابات دخلت ميليشيا المروج فى سنكات وميليشيا بكر فى القضارف فى برنامج مكثف للتدريب على يد رجال قوة الدفاع والشرطة كما اتخذت فى الوقت نفسه الترتيبات لتطوير ميليشيا فروستى التى شكلها زعيم قبائل الهدندوة لمساعدة الشرطة فى المهام الأمنية وأجهزة المخابرات فى عمليات الاستكشاف وتسقط الأخبار وذلك الى جانب دورها القتالي . ولرجال الهدندوة خبرات طويلة فى الغارات الليلية وقد سخروا ذلك لمضايقة العدو وأثارة الذعر بين صفوفه . والمعروف عن الايطاليين وجنودهم الافريقيين انهم لا يخافون من شئ مثل خوفهم من الظلام .

واهتمت السلطات أيضاً بدعم ميليشيا الفونج فى نواحي الكرمك والروصيرص بقيادة الزعيم العشائرى الملك نايل وميليشيات أخرى مماثلة من القبائل الحدودية فى المديريات الجنوبية .

وشهدت الفترة التى تلت سقوط مدينة كسلا اكتمال تشكيل سلاحي الحدود والمدفعية التابعين لقوة الدفاع السودانية وقد حل ثانيهما مكان سلاح السوارى (الفرسان) . ومن الضباط الوطنيين فى سلاح المدفعية عند نشأته آنذاك القائممقام سليمان عيسى واليوزباشى أحمد ادريس والملازمون أحمد مجذوب البحارى ومهدى حامد وعمر عبد الوهاب وعبد الله محمد . وكانت أول عملية قتالية أسندت اليه الهجوم على موقع ايطالي أماميّ عند شوشيب شمالي مدينة كسلا وأطلقت المدفعية السودانية فى هذه المعركة ١٤٩ قذيفة وأجبرت القوة الايطالية على الانسحاب الى اريتريا . وكان بين القتلى فى هذه المعركة ضابط بريطانى يدعى البمباشي بروس .

ومنذ الوهلة الأولى بعد الزحف الايطالي ازداد تلقائياً اهتمام السلطات السودانية بدور الاستخبارات مدركة مدى حاجتها إليه في الظروف الراهنة . فمن المفروغ منه عندما تواجه قوة صغيرة محدودة الإمكانيات كقوة الدفاع السودانية عدواً متفوقاً عليها من حيث العدد وأدوات القتال لا يبقى أمامها خيار سوى انتهاج أسلوب المباغتة والانقضاض على العدو في الوقت والمكان المناسبين حتى تضمن إلحاق خسائر به بعيدة المدى ودون أن تمنى القوة المهاجمة بخسارة في الأرواح أو خلافها . ومثل هذا الأسلوب في الحرب يتطلب تكاتف عيون الاستخبارات وآذانها مع البندقية والعمل جنباً إلى جنب . ولا يمكن للقوة المهاجمة تحقيق ما يراد منها ما لم تتوفر لديها معلومات وافية ودقيقة عن قوة العدو في الموقع المقصود وسلوك جنوده وتفاصيل دقيقة عن حياتهم من يوم ليوم . متى وأين يأكلون ويشربون ؟ ومتى وأين ينامون أو يلهون ومتى يخرجون لقضاء الحاجة ؟؟ كل هذه المعلومات ضرورية لرسم خطة الهجوم وكيفية تنفيذها بنجاح . وهكذا انصرفت السلطات السودانية بعد هدوء غبار

المعارك في كسلا وغيرها إلى توسيع شبكات استخباراتها وبالذات في منطقة كسلا التي أصبحت كما أسلفنا جبهة ساخنة ومحوراً لأحداث الحرب . وقد أبدى رجال الهدندوة نشاطاً كبيراً وحماسة شديدة في تسقط أخبار العدو ورصد الغرباء واستجوابهم ومنع تهريب السلع التموينية وخاصة الدرة إلى مدينة كسلا مما أدى إلى ارتفاع الأسعار فيها بمعدلات صاروخية وإلى تناقص كميات الدرة بصورة خطيرة أسوة بما حدث في سائر أنحاء الامبراطورية الايطالية في شرق افريقيا التي تعتمد في العادة على استيراد الدرة من السودان . وعندما اشتدت أزمة الذرة ألقى غاسبيريني حاكم اريتريا خطاباً أمام حشد من الناس في مدينة كسلا قال فيه «اننا غير قادرين على تزويد كسلا بالدرة وعليكم أن تسرقوها لنا ولأنفسكم مثلما كنتم تفعلون في الماضي» . وقد برع رجال الهدندوة في اصطياد جواسيس العدو ووقع في أيديهم خلال فترة الشهرين اللذين أعقبا سقوط كسلا ستة وعشرون منهم بينما لم يظفر العدو في تلك الفترة بأى واحد من عملاء الاستخبارات السودانية . والمعروف عن الهدندوى أنه بطبعه وربما بدافع من الغريزة يفزع من الجواسيس ويخشاهم . وأى غريب يأتي لدياره يصبح موضع اشتباه . ومن المؤكد أن أبرياء كثيرين أوقعهم سوء حظهم في أيدى رجال الهدندوة ولم يسلموا من بطشهم ونكالهم ولكن ذلك يعني من ناحية أخرى أن قليلين جداً من عملاء العدو وجواسيسه الحقيقيين كتبت لهم النجاة . وفي الأيام الأولى تمثلت مصادر المعلومات التى تتجمع لدى الاستخبارات السودانية في اللاجئين القادمين من المواقع المحتلة ومعظمهم من العاملين في المرافق الحكومية وفي بعض السودانيين الذين لم يتمكنوا من مغادرة اريتريا قبل الحرب وبينهم مجموعة من عمال البناء من ابناء دنقلا كانوا في مصوع وأسمرا وشهدوا الغارات الجوية البريطانية على المدينتين وقد أدلوا بمعلومات وافية عن مدى ما احدثته الغارات من خراب ودمار .

وبعد اسابيع قليلة أخذ المسئولون في مدينة متاتيب التي انتقلت إليها سلطات مركز كسلا بعد انسحابها من هناك يستقبلون أفواجاً من سكان كسلا ممن نهبت أموالهم أو تعطلت أعمالهم التجارية في ظل الاحتلال الايطالي بالإضافة للمزارعين الذين نزعت أراضيهم لأغراض عسكرية أو حرموا من زراعتها حتى لا تشكل المزروعات حجاباً يعترض مرمى الأسلحة النارية والمدافع . ومع مرور الأيام تحسنت وسائل التجسس والحصول على المعلومات عن الايطاليين في كسلا وأخبارهم فإلى جانب تجنيد المزيد من العملاء والجواسيس الذين كان بعضهم يعمل بالمجان أنتظمت قنوات الاتصال بين السلطات في متاتيب وأروما وشخصيات وطنية مهمة في مدينة كسلا على رأسهم السيدان محمد عثمان الميرغني وشقيقه الحسن والبكباشي المتقاعد عثمان كيلة والشيخ عبد الله فقيرى – وهما من أوثق المقربين للسيدين – والشيخ جعفر على زعيم قبيلة الحلنقة ولكن السلطات آثرت التزام الحذر وعدم الضغط عليهم حرصاً على سلامتهم . ورغم ذلك قام السيدان والشيخ فقيرى بانشاء شبكة استخبارية استعانا فيها بالتجار وسائقي الشاحنات الذين يترددون على سبدرات وتسني في رصد الأخبار في

الأسواق والمحلات العامة كما استعانا بقابلة تعمل في كسلا على تبادل الرسائل مع المسئولين في متاتيب والمواقع الأمامية . وكانت القابلة تقوم بهذه المهمة تحت ستار رسالتها الانسانية إلا أنها كثيراً ما تعرضت لأخطار الموت وهي تجتاز خطوط العدو في ذهابها وإيابها . وفي أحدى المرات نقلت القابلة رسالة من الشيخ فقيرى يلفت فيها نظر السلطات إلى أن ثلاثة من جواسيس العدو أتخذوا قاعدة لهم في قرى دلتا القاش وفي ذلك خطر كبير على دوريات قوة الدفاع السودانية . وبعد التحرى والاستقصاء قام شرطي واثنان من ميليشيا فروستي في غضون يومين بإكتشاف الجواسيس الثلاثة وإلقاء القبض عليهم . وقد عبرت الحكومة البريطانية عن تقديرها لدور أعيان كسلا خلال فترة الاحتلال الايطالي واعترافها بفعاليته في قهر العدو بمنح السيد محمد عثمان وسام الامبراطورية البريطانية (أو بي اى) وشقيقه الحسن والبمباشي كيلة وسام الامبراطورية البريطانية (ام بي اى) كما منحت الشيخ فقيرى كسوة شرف دينية من الدرجة الأولي . ولم يمض وقت طويل قبل أن تصبح أمام السلطات السودانية صور متكاملة لما يجرى في كسلا منذ إستيلاء الايطاليين عليها وكذلك لما يجرى في قلابات والمواقع المحتلة الأخرى وعلمت السلطات من أفواج اللاجئين الأولي أن الايطاليين لم يضيعوا الوقت بعد سيطرتهم على كسلا وانما أنشغلوا فوراً في احاطة مواقعهم بالاسلاك الشائكة وتشييد الاستحكامات الدفاعية وحفر الخنادق والمتاريس والأفخاخ للإيقاع بالدبابات وفسر ذلك بأنهم لا يعتزمون التقدم إلي داخل البلاد في الوقت الحاضر على الأقل . أما في الجوانب المدنية فقد قام كاربوني الحاكم الايطالي بشطب أسم تسني في الأوراق الرسمية ووضع مكانه «كسلا» واستطاع بماله ونفوذه استمالة بعض المواطنين للتعاون معهم وأبرز أولئك المتعاونين عبد المجيد سلطان وهو تاجر من قبيلة الجعليين وقد أصبح لشدة ثقة الحاكم فيه ساعده الأيمن والآمر والناهي في المدينة – وحامد شكور من خلفاء الختمية ورجلان آخران يعمل أحدهما جزاراً والثانى عضو في مجلس المدينة وهو من قبيلة الهوسا . وأصبح هؤلاء الأربعة هدفاً لسخط المواطنين ولعناتهم وبإستثناء اعتداءات جنود الاحتلال الأفريقيين على ممتلكات المواطنين وأرواحهم كان كاربوني وأعوانه الايطاليون أميل إلى العدل والانصاف في ادارة المدينة ولا يغفلون في معظم الأحيان استشارة من بقى فيها من الأعيان . وقد حذرهم السيد محمد عثمان الميرغني منذ اليوم الأول من أخذ السكان بالشدة أو الاعتداء على ممتلكاتهم وأعراضهم وتروى له ولشقيقه الحسن مواقف عظيمة في دفع الأذى ورفع المظالم عن المواطنين في تلك الأيام . وكان الايطاليون بدورهم حريصين على استرضاء السيدين والتودد إليهما نظراً لما تتمتع به طائفة الختمية من نفوذ بين السكان . وقد وصلت أنباء إلى السلطات السودانية في تلك الأيام مفادها أن الحاكم الايطالي خصص مرتباً شهرياً لكل من السيدين يعادل خمسة وعشرين جنيهاً كما أمر بإجراء اصلاحات في مبني مسجد الختمية العتيق الذى بناه السيد الحسن نجل منشئ الطريقة الختمية عندما ألقت أسرة الميرغني رحالها هناك وطاب لها

المقام . غير أن كل ذلك لم يدفع السيدين والمقربين لهما إلى تغيير موقفهم وأخذت السلطات الايطالية تفقد تدريجياً ثقتها في السيدين وفي السكان المحليين . وازدادت مخاوفهم من نشاط الاستخبارات السودانية فعمدت إلى كتمان تصرفاتها وخططها وفرضت حظراً على دخول المناطق العسكرية ولكن ذلك لم يصرف عملاء الاستخبارات السودانية وجواسيسها عن التردد على مدينة كسلا ولم يصرفهم عن ذلك أيضاً أن عملاء الايطاليين ومعظمهم من الصوماليين منتشرون في كل أرجاء المدينة يتسقطون الأخبار ويلاحقون المشتبه فيهم . وقد امتد نشاط الاستخبارات الايطالية في الوقت نفسه إلى الداخل بمساعدة عبد المجيد سلطان والشيخ محمد حسب الله زعيم قبيلة الشكرية (فرع اريتريا) والخليفة شكوز ومختار إبراهيم عمدة قبيلة الأمرار المخلوع ومحمد أبو رحمة وهو تاجر من قبيلة الجعليين أيضاً . ولكن ميليشيا فروستي ذات الأوشحة الحمراء كانت دائماً لهم بالمرصاد . ولعل أكبر انجاز حققه الايطاليون في هذا المضمار قيام سائق شاحنة من أعوان سلطان بزيارة أتبرا والخرطوم والعودة منها إلى كسلا قبل اكتشاف أمره وكان المطلوب منه في أتبرا مقابلة عميل ايطالي يعمل فيها مديراً لمصنع انتاج الزرار من بذرة الدوم ولكن المدير العميل اختفى قبل أيام من وصول السائق إلى أتبرا . ولا بد من أن الاستخبارات الايطالية قد واجهت العقبات والمثالب التي يصطدم بها عادة معظم الغزاة غير المرغوب فيهم وقد وقف السودانيون في تماسك واجماع ضد الغزاة الايطاليين منذ اليوم الذى دنست أقدامهم فيه أرض السودان .

ومن ناحية أخرى استدعت سياسة الحصار الاقتصادى وحرمان كسلا والمستعمرات الايطالية في شرق افريقيا من الدرة التركيز على زراعته في منطقة القضارف وحدها اذ أن السلطات السودانية كانت مطمئنة نسبياً من الناحية الأمنية في المنطقة ولا تتوقع قيام الايطاليين بزحف عليها ابان موسم الحصاد زيادة على صعوبة تهريب الدرة من هناك إلى ما وراء الحدود . أما في منطقتي طوكر والقاش فقد رأت السلطات أن منظر سنابل الدرة وحده كفيل بإغراء الايطاليين بالزحف على المنطقتين للإستيلاء على المحصول لفك ضائقتهم كما أن انتاج أى فائض من الدرة هناك سوف يجد طريق التهريب ميسوراً إلى داخل اريتريا . وازاء هذا الموقف فرضت السلطات إجراءات صارمة لا تسمح إلا بزراعة ما يكفى من الدرة لتغطية الاستهلاك المحلى في طوكر والقاش وعملت في الوقت نفسه على تشجيع المزارعين في المنطقتين على التوسع في انتاج القطن الذى تحتاج إليه المصانع البريطانية بسبب متطلبات الحرب كما أنه لا بد من توفير «تقاوى» القطن لموسم الزرعة القادم في مشروع الجزيرة الذى درج منذ سنوات طويلة على الحصول كل عام من هناك على حاجته من تقاوى الأقطان طويلة التيلة . ولم يكن من السهل اقناع المزارعين بزراعة محصول نقدى كالقطن على مرأى ومسمع من العدو ما لم تتوفر ضمانات حصاده وتسويقه . ولم تكن ثمة مشكلة في ما يتعلق بالتسويق وقد ساعدت على ذلك ظروف الحرب أما ضمانات الحصاد فأنها تتطلب الحماية العسكرية وقد قامت بتوفيرها البلوكات

السريعة وقوة بريطانية صغيرة في منطقة القاش . أما في منطقة طوكر فقد قامت بتوفيرها البلوكات السريعة وحدها . وأنتج المزارعون في ذلك العام محصولاً وافراً من الأقطان وخاصة في منطقة طوكر التي بذل فيها السيد محمد عثمان شنقراى رئيس الادارة الهلية جهوداً جبارة لحمل المزارعين علي التوسع في زراعة القطن بدلاً من الذرة .

وفي منطقة القاش واجهت السلطات السودانية أيضاً مشكلة توفير السلع التموينية المستوردة مثل السكر والشاى والبن وتغلبت عليها بجعل توفير تلك السلع حكراً على تاجر واحد في بورتسودان يدعى حمزة مكاوى وقدمت السلطات له التسهيلات اللازمة لنقلها على القطار الذى يقوم برحلة واحدة كل اسبوع إلى القاش . وقام حمزة مكاوى بتنظيم توزيع تلك السلع على التجار المحليين تحت إشراف سلطات المركز التي كانت تتولى أيضاً الرقابة عليها من حيث كمياتها ونوعيتها . وقد أثار إحتكار تاجر واحد لتزويد منطقة القاش بالسلع التموينية تذمراً بين التجار الآخرين إلا أنه كان إجراء ضرورياً في مثل تلك الظروف وقد حقق الغرض المطلوب . وتجدر الإشارة هنا إلى أن الاسطول البريطاني الذى أصبحت بورتسودان من قواعده المهمة التي توفر له العديد من الخدمات ظل طيلة الحرب حريصاً على تأمين وضمان وصول شحنات السلع المستوردة إلى السودان .

لقد استأثرت كسلا بأهتمامنا لأنها كما أسلفنا الجبهة الساخنة ومحور الأحداث بحكم وقوعها على خط المواجهة أما في غير كسلا فقد كان من أهم الأحداث وصول الامبراطور هيلاسلاسي إلى الخرطوم قبل يومين فقط من سقوط كسلا في أيدى الايطاليين وما من شك في أنه أصيب من جراء ذلك بخية أمل كبيرة وازداد شعوره بمرارة الخيبة عندما أكتشف أن السودان لا يملك حتى النذر القليل من المقومات لمجابهة الزحف عليه . وزاد الطين بلة أن السلطات في الخرطوم لم تحط علماً بتحرك الامبراطور من لندن وتوجهه إلى السودان إلا قبل يوم واحد من وصوله بالطائرة إلى وادى حلفا مما أحدث ارتباكاً بين المسئولين في العاصمة السودانية لأن إقامة الامبراطور فيها تقتضى اتخاذ إجراءات مسبقة تليق بجلالته وتضمن له السلامة في الوقت نفسه لا سيما أن بعض العناصر الاثيوبية المناوئة والمعروفة بعدائها التقليدى للامبراطور قبل الاحتلال الايطالي لن تتواني عن تصفيته متى سنحت لها الفرصة بل أن بعض المناوئين أعلنوا صراحة بأن الامبراطور «سو يذبح في غضون اسبوع واحد من عودته» . وكانت السلطات السودانية على علم بأن لتلك العناصر المناوئة وجوداً في السودان بين اللاجئين الاثيوبيين وخاصة المنتمين لقبائل الجالا التي أنخرط العديد منها في حركات المقاومة ضد الحكم الايطالي . وقد غادر الامبراطور هيلاسلاسي لندن في الخامس والعشرين من يونيو ١٩٤٠ - متنكراً تحت أسم المستر سترونغ - إلى ساوث هامبتون ومعه الأمير ماكونن نجله الثاني الذى قطع دراسته في كلية ولنغتون لكى يرافق والده . ومن ساوث هامبتون أستقل الامبراطور طائرة إلى مالطة ومعه إلى جانب نجله الأمير ضابط بريطاني وسكرتيروه الثلاثة ولد يوهانيس ولورينزو تيزار

وولد جورجيس . ومن مالطة استقل الجميع طائرة أخرى في اليوم التالي إلى الأسكندرية وأمضى الامبراطور الليلة فيها متخفياً وأنضم إلى حاشيته هناك كضابط سياسي ادوارد شابمان أندروز من موظفي السفارة البريطانية في القاهرة . وفي تلك المرحلة فقط أرسلت برقية إلى الحاكم العام في الخرطوم تخطره بأن الامبراطور هيلاسلاسي سيصل عن طريق الجو إلى وادى حلفا في اليوم التالى (٢٧ يونيو) . ووصل الامبراطور بالفعل في الموعد المحدد إلى حلفا ليجد في انتظاره برقية من الحاكم العام يقترح فيها بقاء الامبراطور في حلفا ريثما تكمل الخرطوم استعداداتها لاستقباله وتهيئة مكان لائق لإقامته . وأبدى الامبراطور امتعاضاً شديداً لأن البرقية تضمنت ترحيباً مقتضباً بمقدمه ولأنه كان ينتظر كما قيل له في لندن أن يخصص مكان لإقامته فى قصر الحاكم العام . وهكذا بقى الامبراطور مكرهاً في فندق النيل في وادى حلفا بينما ذهب ادوارد شابمان أندروز بالطائرة إلى الخرطوم لمقابلة المسئولين الذين أبدوا إمتعاضهم من تجاهل الحكومة البريطانية لهم وعدم أخذ رأيهم قبل تحرك الامبراطور من لندن واقترح بعض المسئولين ذهاب الامبراطور إلى عدن حيث تتوفر له أسباب الأمن والحماية . وبرر ادوارد شابمان أندروز تصرفات الحكومة البريطانية بأنها كانت مضطرة لفرض أقصى حد من السرية على تحركات الامبراطور خوفاً على حياته وأن وصوله إلى السودان بهذه الصورة المفاجئة ودون سابق انذار يرجع أيضاً إلي أن الحكومة البريطانية رأت أن من الحكمة الأسراع بانتقاله إلى الخرطوم خشية أن يصبح ذلك متعذراً اذا استمر المحور في انتصاراته وسيطر على خطوط المواصلات الجوية وغيرها بين أوروبا وافريقيا خاصة بعد دخول ايطاليا الحرب . كما أن وجود الامبراطور في السودان يجعله على اتصال مباشر مع حركات المقاومة الاثيوبية . وتمثلت المشكلة الكبرى التي واجهت السلطات السودانية آنذاك في توفير مكان مناسب وآمن لإقامة الامبراطور في الخرطوم وتلقت عروضاً في هذا الشأن من بعض النزلاء السوريين الأثرياء الذين يملكون دوراً فاخرة ولكن استقر الرأى أخيراً على إختيار قصر الزعفران الذى تملكه أسرة الشريف يوسف الهندى في ضاحية برى على مسافة ميلين تقريباً من قلب الخرطوم ويمتاز القصر بالإضافة لعزلته بقربه من ثكنات الجيش البريطاني . وأجريت على قصر الزعفران تحسينات عاجلة وزود بخط تليفوني ومخابئ ضد الغارات الجوية كما أحيط القصر بسور من الأسلاك الشائكة. ووصل الامبراطور إلى الخرطوم في الثاني من شهر يوليو أى بعد اسبوع كامل منذ خروجه من لندن . وخصصت لحراسته في الخرطوم قوة من أربعين شرطياً أعدت لايوائهم خيام بين أشجار النخيل المطلة على النيل الأزرق وفرضت عليهم قيود صارمة خوفاً من اختلاطهم مع الناس داخل المدينة . وكانت السلطات قد قامت قبل وصول الامبراطور باعتقال العديد من الاثيوبيين المشتبه فيهم وأودعتهم السجون وأوكلت إلى حاشية الامبراطور مهمة تفتيش السيارات القادمة للقصر وفحص هويات الزائرين . وما أن ذاع نبأ وصول الامبراطور إلى السودان للعمل من أجل تحرير بلاده واسترداد عرشه حتى أخذت تتوافد على قصر الزعفران أفواج

وأفواج من الاثيوبيين . وأنصرف الامبراطور بدوره إلى تجنيد ما عرف في ما بعد بأسم الحرس الامبراطورى الذى تشكلت نواته الأولى من ميليشيا ديميسي الاثيوبية بعد اعفائها من مهامها مع القوة السودانية المرابطة بالقرب من قلابات . وفي البداية سادت مشاعر التوتر وعدم الارتياح العلاقات بين الامبراطور والمسئولين البريطانيين في الخرطوم وكانت مقابلتهم الفاترة له عاملاً في تفاقم شعوره بالمرارة تجاه بريطانيا والبريطانيين وهو الشعور الذى ازدحم به صدر الامبراطور منذ سنوات لا بسبب المعاملة التي لقيها أثناء مقامه في بريطانيا فحسب وانما أيضاً بسبب تعاطف الحكومة البريطانية مع ايطاليا وتهاونها إلى حد كبير عندما أقدمت على غزو اثيوبيا واعتراض الحكومة البريطانية قبل ذلك على انضمام اثيوبيا لعصبة الأمم . وقد استغرقت المقابلة بين الامبراطور والحاكم العام يوم وصوله إلى الخرطوم خمس دقائق فقط . واقتصرت اتصالات الامبراطور مع المسئولين البريطانيين يومذاك على لقاءات متقطعة مع الجنرال بلات القائد العام والسير دوغلاس نيوبولد السكرتير الادارى . وبعد فترة من الزمن تحسنت العلاقات بين الطرفين وساد بينهما تفاهم تام . وكان دوغلاس نيوبولد شديد الاعجاب بالامبراطور هيلاسلاسي وهذا ما عبر عنه في احدى رسائله حين كتب يقول – «أنني شديد الاعجاب بالامبراطور وهو لا يزال دمثاً ولطيفاً ومحتفظاً بكبريائه لا مثل معظم المنفيين الذين تستبد بهم مشاعر الذلة والانكسار . » ويقول نيوبولد في رسالته أيضاً «ربما يكون بعض أتباع الامبراطور همجيين ولكن هكذا كان أتباع الملك الفرد وملوك السكسون ، ومهما يكن من أمر فان اثيوبيا وطنهم ولم يهددوا أحداً وقد أستخدم موسوليني في تطلعه لإمتلاك اثيوبيا القنابل والغازات السامة لطرد هذا الرجل النحيل منء وطنه الذى يرجع تأريخه إلى أيام ملكة سبأ . وأنني أرجو أن يستعيد الامبراطور وطنه وسوف نساعده بكل ما في وسعنا » .

ومن أحداث الفترة التى تلت احتلال الايطاليين للمواقع الحدودية قضية توزيع المنشورات الدعائية الايطالية فى منطقة الروصيرص وهي مطبوعة باللغة العربية وقد قام بتوزيعها مواطنان سودانيان هما دفع الله أحمد والعوض جلاب . وتكشف هذه القضية عن مدى تمسك السلطات السودانية بالعدالة وحرمة القضاء بالرغم من ظروف الحرب . وبسبب هذه القضية وملابساتها وذيولها شجب الحاكم العام بعد اطلاعه على مذكرة من رئيس القضاء شديدة اللهجة – شجب جيمز روبرتسون حاكم مديرية النيل الأزرق آنذاك وأدانه « بتجاوز سلطاته وارتكابه خطأً فاحشاً » . وقد أصبح روبرتسون بعد سنوات سكرتيراً ادارياً اى بمثابة رئيس الوزراء وتزامن ذلك مع احتدام الحركة الوطنية وكان متهوراً فى عداوته لها ومقاومتها فى عنف وضراوة . وتفاصيل القضية أن دفع الله وزميله العوض التى القبض عليهما اثناء توزيعهما منشورات دعائية إيطالية بالقرب من قرية خرابة فى أول أغسطس (١٩٤٠) واقتادهما شيخ القرية الى الروصيرص حيث اعترفا بذنبهما ومثلا أمام مفتش المركز البريطانى هناك الذى أدانهما بوصفه قاضياً من الدرجة الأولى – تحت المادة ٩٦ من القانون – بشن

حرب ضد حكومة السودان وأصدر حكمه عليهما بالاعدام رمياً بالرصاص . وتلقى فى اليوم نفسه من روبرتسون برقية بتأييد الحكم . وقام رجال الشرطة بتنفيذه فى صباح اليوم التالي . وانتقد رئيس القضاء فى مذكرته للحاكم العام اجراءات التحقيق مع المتهمين ومحاكمتهما وطبيعة الشهادة التى وردت ضدهما واغفال حاكم المديرية الحصول على تصديق من الحاكم العام على الحكم قبل تنفيذه . ولفت رئيس القضاء نظر الحاكم العام الى أنه لم يكن ثمة خطر من الابقاء على المتهمين على قيد الحياة الى أن يصل قراره بشأن الحكم عليهما طالما ان مفتش المركز ظل محتفظاً بهما فى الروصيرص منذ اليوم الثانى من شهر أغسطس حتى تنفيذ الاعدام عليهما فى صباح التاسع والعشرين من الشهر نفسه ولم يترتب على بقائهما تلك المدة إى تهديد للأمن . وذكر رئيس القضاء أنه بعد المشاورات التى أجراها مع زملائه القانونيين تبين له ان المتهمين مهما كانت الجريمة التى ارتكباها فانهما لم يشنا حرباً ضد حكومة السودان وهكذا ينبغى – فى نظره – محاكمتهما بتهمة التحريض على الحرب التى لا تنطوى على عقوبة الاعدام بدلاً من وضعهما تحت المادة ٩٦ من قانون العقوبات . وأكد رئيس القضاء أن روبرتسون حاكم النيل الأزرق لا يملك سلطة تخوله التصديق على الحكم وان ما حدث فى هذه القضية هو ان قاضياً (مفتش المركز) تولى بمفرده التحقيق ومحاكمة الرجلين المتهمين وأصدر حكمه عليهما ونفذه بمفرده أيضاً وارتكب روبرتسون خطأً كبيراً بموافقته وتصديقه بتنفيذ الحكم دون أن تتهيأ له الفرصة حتى لالقاء نظرة على وثائق المحاكمة ومدوناتها . وجاء فى مذكرة رئيس القضاء أيضاً » ان السلطات العسكرية البريطانية لن تحتمل لحظة واحدة مثل هذه التصرفات وأنها رغم ضغوط الحرب لم تتخل عن التشديد على احترام القانون وتأمين العدالة . واذا كانت الظروف غير العادية التى يجتازها السودان هي التى استدعت تنفيذ حكم الاعدام على المتهمين فقد كان فى امكان السلطات أن تفعل ذلك دون الاحتماء بالقانون وتسخير القضاء » .

أما وقد نفذ حكم الأعدام على المتهمين وذهبا الى الآخرة فى رحلة لا عودة منها فقد اعترف رئيس القضاء فى مذكرته بأنه لا يملك سوى نصح الحاكم العام بتأييد الحكم واجازته خاصة ان ظروف الحرب تستلزم الابتعاد عن كل ما يزعزع الثقة القائمة بين الحكام والمحكومين . واعترف الحاكم فى رده على المذكرة بأن اجراءات المحاكمة لم تكن سليمة فى جميع مراحلها وتتنافى مع تقاليد العدالة البريطانية وطلب من السكرتير الادارى ابلاغ روبرتسون استهجانة لسلوكه وسلوك مفتش الروصيرص وهكذا أسدل الستار على هذه القضية المأساوية التى جرت وقائعها فى أغسطس عام ١٩٤٠ وكشفت بصورة صارخة عن عقم ووحشية السياسة البريطانية التى خولت مفتشى المراكز سلطات تنفيذية وقضائية أخطبوطية أصبح المفتش بفضلها هو المحقق والقاضى والمنفذ ورئيس الشرطة ولا غرابة أذن فى أن تدمغ الحركة الوطنية فى السودان الادارة البريطانية فيه بأنها « حكومة المفتشين » .

وعلى أية حال لم يبق سير سايمز ستيوارت الحاكم العام طويلاً فى منصبه بعد قضية المنشورات

الايطالية فى الروصيرص اذ وصل خلفه سيرهيوبرت هدلستون الى الخرطوم بالطائرة فى الثامن عشر من اكتوبر وكان فى استقباله أعضاء مجلس الحاكم العام وكبار الموظفين والضباط . واستقل الحاكم العام الجديد السيارة الى السراى عبر شارع فكتوريا حيث تلقى التحية من حرس شرف من الجنود المصريين . وبعد وصول هدلستون بأيام الى الخرطوم حل عيد رمضان المبارك فقام بجولة فى سيارة مكشوفة حول العاصمة المثلثة وقابلته جماهير المواطنين بالهتاف وأقام بعد ذلك حفل شاى فى السراى دعا اليه العلماء ورجال الدين وزعماء الطائفية . وتلقى سير هيوبرت هدلستون برقية تهنئة بوصوله من مؤتمر الخريجين باسم أهل السودان .

وبعد هذه الخلفيات التى لابد منها لاكتمال صورة الوضع فى الفترة التى تلت احتلال الايطاليين لكسلا والمواقع الحدودية الاخرى نعود لرصد الأحداث والتطورات استعداداً للهجوم المرتقب لزحزحة الايطاليين من المواقع التى احتلوها ثم ملاحقتهم الى داخل اثيوبيا واريتريا . لقد هطلت الأمطار فى خريف ذلك العام (١٩٤٠) بمعدلات كافية الا أنها توقفت قبل موعدها المألوف واضطرت السلطات بسبب ذلك الى تقديم موعد العمليات استعداداً للهجوم المضاد الى أول اكتوبر بدلاً من منتصف .

وشهد شهر سبتمبر وصول الفرقة الهندية الخامسة الى السودان اذ ألقت القافلة الأولى من السفن التى حملتها – وعددها عشر سفن – مراسيها فى ميناء بورتسودان فى الثامن من سبتمبر وحاول الايطاليون اعتراضها فى البحر الأحمر ولكنهم لم ينجحوا ولو أن طائراتهم ألحقت أضراراً طفيفة بسفينة صغيرة منها عليها شحنة من المؤن والامدادات . ولدى وصول القافلة الى الميناء ظهرت أربع طائرات ايطالية بدأت كعادتها برجم ميدان الجولف ولما وصلت الى قلب المدينة كانت حمولتها من القنابل على وشك النفاذ . وعادت الطائرات أدراجها ولم يلفت انتباهها وجود السفن العشر وهي تفرغ حمولاتها من الجند والعتاد . ومن الملاحظ أن غارات السلاح الجوى الايطالي أخذت تزداد منذ أواخر أغسطس واستهدفت بالاضافة للمدن الرئيسية (اتبرا – العاصمة – بورتسودان) القرى المتناثرة فى المناطق الحدودية ومضارب العربان ولكنها لم تكن غارات فعالة وقد نجمت عنها خسائر طفيفة فى الأرواح والانعام . وسلكت السلطات سبلاً مختلفة لتوعية السكان وارشادهم الى الاجراءات التى ينبغي اتباعها لاتقاء شر القنابل ومع ذلك وقعت حوادث مؤسفة بين السُذج من المواطنين . وقد عثر مواطن من قبيلة الأرتيقه فى تلك الأيام فى منطقة القاش على قنبلة لم تنفجر وعملاً بما قيل له فى الارشادات تمدد على الأرض حتى لا تؤذيه شظايا القنبلة ثم هوى عليها بعصاه فانفجرت القنبلة ومزقته أرباً أرباً ، وبقى ابنه ليروى القصة فقد كان مع أبيه عندما عثرا على القنبلة ولما لم يكن الأب واثقاً فى صبر الابن على البقاء متمدداً فوق الأرض أمره بالوقوف على مسافة بعيدة من القنبلة وكان فى ذلك نجاته . وفى خلال سبتمبر قررت القيادة فى الخرطوم ضرورة قصف مدينة كسلا كلها بالقنابل اذا استمر

الايطاليون فى استخدام مناطقها السكنية لأغراض عسكرية ولكن السلطات كانت حريصة على ألا تشمل الغارات حى الختمية لما له من تقديس واحترام بين المواطنين . وقام السلاح الجوى البريطانى بالفعل بغارات مكثفة على كسلا فى الثامن عشر من سبتمبر . وبحلول أخر الشهر نفسه انحسرت المخاوف من امكانية قيام الايطاليين بزحف من هناك وكشفت المعلومات التى تلقتها السلطات السودانية عن أن الايطاليين لم ينقلوا الى كسلا امدادات جديدة من الجنود الا فى حدود ضيقة للغاية ولكن وصلت اليها تشكيلات من الفاشيست ذوى القمصان السوداء . ومن ناحية أخرى تجدد تدفق اللاجئين من مدينة كسلا خوفاً من الغارات الجوية واتسعت دائرة الاتصالات بين أجهزة المخابرات والسيد محمد عثمان الميرغنى الذى واصل مع شقيقه السيدحسن وبقية أعوانهما جهودهم لتجنيب المواطنين شرور الاحتلال الايطالي وتخفيف ما يعانونه من شدة وبلاء .

وفى القضارف استمرت عمليات تزويد الثوار الاثيوبيين بالأسلحة والذخيرة وتوجه بالفعل جيش كبير منهم فى أواخر سبتمبر الى منطقة غوندار العاصمة الاثيوبية العتيقة . وقام الامبرطور هيلاسلاسى خلال الشهر نفسه بزيارة الى القضارف ألهبت مشاعر الحماسة بين الاثيوبيين هناك وفى المواقع الاثيوبية المجاورة .

واتخذت الفرقة الهندية الخامسة مواقعها على امتداد الجبهة دون صعوبة وانزعاج . ولعل أسوأ تجربة مرت بها هي ما وقع لوحدة منها وصلت الى محطة تهاميام دون علم أحد ولم يكن معها أحد يتحدث اللغة العربية . ولما لم يكن فى المحطة مصدر للمياه غير الصهريج الذى يحتفظ فيه بالماء للقاطرات البخارية أخذ جنود الوحدة المياه لشربهم من الصهريج وقد كانت لسوء حظهم فى ذلك اليوم ممزوجة لسبب أو آخر بمادة لها مفعول سلفات المانيزيا (الملح الانجليزى) . وفى مرة ثانية وصلت الى تهاميام فى ظروف مماثلة وحدة الفرسان الميكانيكية التابعة للفرقة الهندية أيضاً فلم يستقبلها أحد ولم يكن لديها خرائط عن معالم المكان وكل ما تعلمه الوحدة أن الايطاليين على مرمى حجر منها . فراح الجنود الهنود المتعطشون للقتال يبحثون عن المواقع الايطالية بين التلال المجاورة الى أن التقوا بسودانى يتحدث اللغة الانجليزية عرفوا منه أين هم وأن بينهم وبين أقرب موقع ايطالي مائة ميل على الأقل . ومع وصول الفرقة الهندية التى كانت طليعة للقوات الحليفة القادمة الى السودان انهمكت السلطات السودانية فى تعبيد الطرق وحشدت لهذا الغرض كل الامكانيات المتوفرة لديها من معدات وأيد عاملة واقتضى ذلك اجراء تحسينات كبيرة وضرورية على طريق بورتسودان – سواكن – سنكات ومد طريق جديد مجاور للخط الحديدى من سنكات الى منطقة القاش مروراً بهيا ودورديب . كما جرى مد طريق برى آخر بين القضارف وخشم القربة حيث يقع جسر البطانة . وساد شعور بالغبطة والارتياح من جراء وصول القوات الهندية والتعزيزات الاخرى التى لحقت بها الى منطقة كسلا وانتهت بذلك الفترة العصيبة التى لم يكن فيها بين الخرطوم وحشود العدو فى كسلا سوى البلوكات السريعة . وقد ساعد انتهاء موسم

الأمطار فى وقت مبكر على انتقال وحدة من سلاح المدفعية السودانية الى منطقة جسر البطانة وقامت الوحدة فى الخامس من سبتمبر تحت حراسة البلوكات السريعة بقصف مدينة كسلا لمدة نصف ساعة أجرت البلوكات السريعة خلالها استعراضاً استفزازياً أمام استحكامات العدو الدفاعية عند المحطة على الضفة الغربية لنهر القاش . وفوجئ العدو بالاستعراض وعمليات القصف ولم تتصد المدفعية الايطالية للرد الا بعد مرور ربع ساعة . وبحلول منتصف الشهر نفسه انتقلت سريتان من البلوكات السريعة الى شرق جسر البطانة واتخذت دورياتها الامامية مواقع لها على بعد خمسة اميال فقط من كسلا . وفى الواقع أن السلطات السودانية وصلت آنذاك الى قناعة بأن الايطاليين ليست لديهم خطة البتة أو أن لديهم على الأكثر خطة دفاعية لا غير . ولا ترجع هذه القناعة الى وصول التعزيزات العسكرية من الخارج بقدر ما ترجع الى تضاؤل دوريات العدو واخفاقه فى اجتذاب السودانيين للتعاون معه وعجز أجهزة الاستخبارات الايطالية عن تحقيق أى نجاح يذكر ووقوع أعوانها باستمرار فى أيدى السلطات السودانية . وقد ذكر ضابط ايطالي فى تقرير له فى تلك الأيام أنه فشل فى الحصول على أية معلومات عما يجرى فى السودان غير المعلومات التى يسربها السودانيون عمداً من أجل ترويج اشاعات غير صادقة « تثير قلقنا ومخاوفنا » . وصب الايطاليون جام حنقهم وحقدهم بالذات فى هذا الشأن على ميليشيا فروستي ورجال الهدندوة بوجه عام وهذا ما كشفت عنه وثيقة ايطالية عثر عليها بعد استرداد كسلا جاء فيها أن الهدندوة لصوص وقطاع طرق – على حد ما ورد فى الوثيقة – وأن البريطانيين زودوهم بالسلاح وأوكلوا لهم مهمة مراقبة المنطقة الواقعة بين كسلا وأروما (دلتا القاش) وقتل أى غريب تقع أعينهم عليه . وجاء فى الوثيقة أن الهدندوة أعداء بطبعهم للايطاليين ! ! غير أن الايطاليين حققوا فى شهر اكتوبر أعظم نجاح لهم فى الحرب الجوية ففى السادس عشر من ذلك الشهر أغارت ست من طائراتهم على مطار القضارف فدمرت عشر طائرات عسكرية تصادف وجودها هناك فى ذلك اليوم بمناسبة زيارة جنرال بلات القائد العام لقوة الدفاع السودانية وقد كتبت له النجاة هو ومن معه . وبعد ذلك باسبوع واحد حلقت طائرات ايطالية فى سماء بورتسودان على ارتفاع ١٤ ألف قدم بدلاً من عشرين ألف قدم كما كانت تفعل من قبل وأمطرت رصيف الميناء بقنابلها فأصابت فى ما أصابت مقهى فيه حشد من العمال من قبيلة الأمرأر مما أدى لمقتل ٢٢ منهم واصابة ١١ آخرين بجراح . ونجم عن هذه الغارة المؤسفة انقطاع أعداد كبيرة من العمال عن الميناء وارتحالهم الى ديارهم .

وكان من الممكن أن يحدث ذلك ارتباكاً فى سير العمل فى الميناء لولا وصول دفعة من العمال الهنود الذين أنقذوا الموقف . وكانت فى الميناء عند وقوع الغارة ١٥ سفينة لم تصب القنابل أية واحدة منها . وفى غضون اسبوع تقريباً عاد العمال الى الميناء بفضل مساعي زعيم قبيلة الأمرأر كما أن علاوة اضافية مقدارها خمسة قروش فى اليوم خصصت للعاملين فى المواقع المستهدفة من أرصفة الميناء .

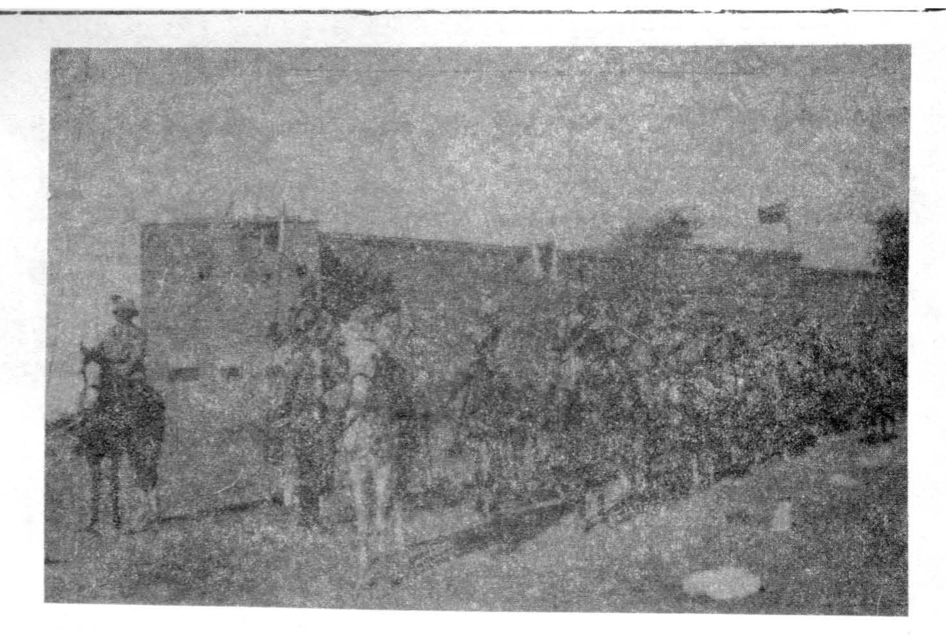
وظلت وحدات المشاة والبلوكات السريعة خلال الاشهر الثلاث (اكتوبر – نوفمبر – ديسمبر) فى

حركة دائبة وتكاثفت عملياتها القتالية والاستطلاعية أثناء الليل والنهار مما أثار قلق العدو وحرمه من نعمة الخلود للراحة والاطمئنان . وتركزت تلك العمليات بصفة خاصة فى نواحي جبل أبو قمل والجبال المشرفة على مدينة كسلا . وكثيراً ما اصطدمت البلوكات السريعة مع جنود العدو فى اشتباكات خاطفة وألحقت بهم خسائر فادحة وفى كل مرة تعود البلوكات السريعة الى قواعدها سالمة . وهذه هى الفترة التى راجت فيها اسطورة العفاريت السود وهو اللقب الذى أطلقه الايطاليون على جنود قوة الدفاع السودانية لا بدافع التعيير والاحتقار وانما لشدة خوفهم منهم وخاصة عندما يرخي الليل أسداله وينتشر الظلام . وقد صورت لهم قلوبهم الواجفة أن الجنود السودانيين مخلوقات لها قدرات وطاقات خارقة ليست من خصائص البشر . وليس من المبالغة القول بأن أولئك الجنود الشجعان لم يضيقوا بدورياتهم وغاراتهم الجزئية الخناق على العدو فحسب وانما أدخلوا فى روعه أيضاً أنه يجابه قوات جبارة لا طاقة له بها وصرفوه عن الأخذ بزمام المبادرة فى الوقت الذى كان يتمتع فيه الايطاليون بالتفوق فى كل شئ . ولهذا السبب لم يجرؤوا على التقدم شبراً واحداً من المواقع التى احتلوها وخاصة فى كسلا التى لديهم فيها أكثر من خمسة آلاف جندى وظلوا بدلاً من ذلك قابعين وراء استحكاماتهم العسكرية وسمحوا للدوريات السودانية باقامة قواعد على مقربة منهم لم يتصدوا لها الا مرة واحدة عندما شنت قوة ايطالية مؤلفة من مائة جندى هجوماً مباغتاً على دورية البلوكات السريعة المرابطة تحت بعض الأشجار على مسافة ميلين من جبل أبو قمل وانبرت لها مصفحتان وسيارتان (فان) مسلحتان بمدافع البرن فولت القوة الايطالية الأدبار تاركة وراءها ثلاثين قتيلاً مقابل جنديين سودانيين أصيبا بجراح طفيفة .

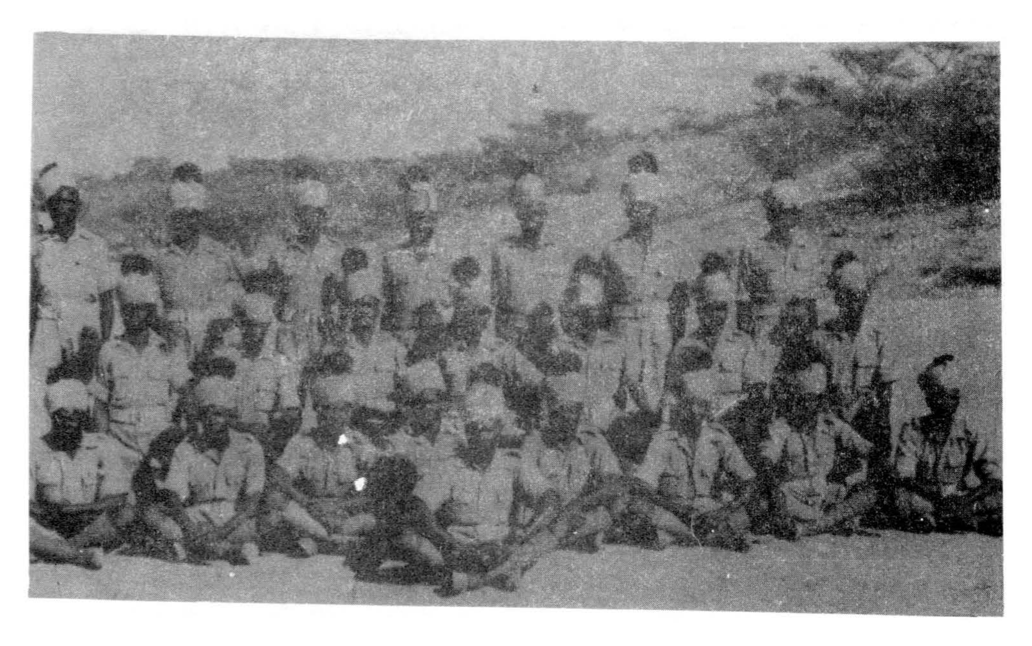
لقد شهدت الفترة بين اكتوبر وديسمبر (١٩٤٠) العديد من العمليات والغارات الجريئة التى كشفت عن أصالة الجندى السودانى وعبقريته فى القتال وعن الشحنات الجارفة من مشاعر الغيرة التى تنطلق من صدور السودانيين دفاعاً عن عزتهم وأرضهم وأعراضهم . ولمعت خلال تلك العمليات والغارات أسماء عشرات من أبطالنا فكان كل واحد منهم جوهرة فريدة فى عقد أمجاد البطولات السودانية ومنهم جنود عاديون مثل الجاويش جبارة الله يس والأونباشى آدم ابراهيم . وما من سبيل لا يراد كل ما قاموا به من مغامرات وعمليات استكشافية وحسبنا أن نختار فى ما يلى بعضاً منها على سبيـل المثـال .

*** ١٨ أكـتوبر :**

داهمت أربع سيارات مسلحة بمدافع البرن تابعة للبلوكات السريعة قوة من العدو مؤلفة من مائة رجل بالقرب من جبل أبو قمل على مشارف مدينة كسلا وأطلقت السيارات نيرانها من مسافة سبعمائة ياردة فقط على جنود العدو فأطلقوا سيقانهم للريح تاركين وراءهم ١٥ قتيلاً . وفى طريق العودة وقعت السيارة الأولى فى كمين نصبه العدو وتعطل مدفعها وخرج نحو مائة من مشاة العدو من مكامنهم



فرقة العرب الغربية
فى طريقها إلى الجبهة



صورة تأريخية للسرية السابعة (هجانة) خلال
الحرب العالمية الثانية

للاجهاز على من فى السيارة . وفى تلك اللحظة وصلت السيارة الثانية التى كانت تسير وراءها ولم يكن جنود العدو على علم بها فأمطرتهم بوابل من نيرانها وألحقت بهم خسائر فادحة مما اضطرهم الى الفرار فى هلع واضطراب حتى أنهم لم يلتفتوا لأخذ الجرحى معهم . وكانت السيارة تحت امرة الجاويش جبارة الله يس . وفى اليوم الثانى خرجت الى نفس موقع الكمين مدرعتان بقيادة الجاويش ضحية الضيف وسيارتان مسلحتان بمدفع البرن تحت امرة الجاويش جبارة الله يس . ومرة أخرى واجهت المدرعتان اللتان كانتا فى المقدمة كميناً معادياً فيه أكثر من خمسمائة جندى وفتحت المدرعتان نيرانها عليهم ففروا فى غير انتظام كالعادة ولكن الى الناحية التى اختبأ فيها الجاويش الرهيب جبارة الله يس مع سيارتيه فأصلاهم بدوره ناراً حامية وقد كانوا فى العراء هدفاً مضموناً فى متناول مدافع البرن ا وسقط من العدو فى هذا الاشتباك مائة قتيل على الأقل . وقد أنعم على كل من الجاويش جبارة يس وضحية الضيف بوسام الميدالية العسكرية البريطانية (ميليتارى ميدال) .

* ٣٠ نوفمبر :

نصبت سرية من البلوكات السريعة كميناً للعدو داخل اريتريا على طريق تسنى – أم حجر وقامت السرية فى موقع اختارته بزرع الألغام المضادة للدبابات وبقطع الخط التلفونى ثم اختبأ جنودها فى مكان غير بعيد . وكان الطريق فى ذلك اليوم مسرحاً لحركة غير عادية . وبعد وقت قصير ظفر الكمين بفريسته الأولى فى شخص جندى من العدو على دراجة نارية . ثم ظهرت ناقلة عسكرية فى طريقها من تسنى الى أم حجر فارتطمت بالألغام وتدمرت الناقلة التى كانت تقل ضابطاً ايطالياً و١٧ من الجنود الافريقيين وقد لقى ١١ منهم مصرعهم فى الحال ووقع الباقون وبينهم الضابط الايطالي فى الأسر . وبعد قليل وقع فى الكمين موكب مؤلف من ٨ من راكبى الدراجات النارية فى طريقهم من تسنى ايضاً وتمكن اثنان منهم من الهروب واستسلم ثلاثة آخرون وقتل الثلاثة الباقون . وعادت السرية آخر اليوم الى قاعدتها وقد شملت قائمة غنائمها ١١ أسيراً بينهم الضابط الايطالي و٦ دراجات نارية و٤ مدافع رشاسة و٢٠ بندقية و١٠٠ قنبلة يدوية وكمية كبيرة من الذخيرة وما كانت تدرى أن صيداً ثميناً أفلت منها فى ذلك اليوم فقد كشف ضابط ايطالي بعد سقوط أسمرا عن سر الحركة غير العادية فى ذلك اليوم على طريق تسنى – أم حجر اذ ذكر أن الناقلة والدراجات النارية التى وقعت فى الكمين لم تكن سوى طليعة موكب دوق أوستا نائب ملك ايطاليا فى شرق افريقيا الذى كان متوجهاً فى ذلك اليوم من تسنى لتفقد الحامية فى أم حجر ولولا الاثنان اللذان هربا وعادا الى تسنى وقرعا أجراس الخطر لما أفلت نائب الملك من قبضة البلوكات السريعة ولكنه نجا فى هذه المرة ليتجرع مرارة الهزيمة بعد أشهر قليلة فى أم بالاجى .

طابور من المتطوعين السودانيين



مجموعة من الأسرى الايطاليين الذين وقعوا
في يد رجال قوة الدفاع بعد معركة كرن

الفصل السادس

الإنتقال إلى مرحلة الهجوم

« مضى الى ساحة القتال ثابتاً غير وجل فى حماسة واخلاص وتـفان
من أجل كرامة الانسان »



مع تتابع انتصارات البلوكات السريعة ووصول القوات الحليفة الى السودان من مشارق الأرض ومغاربها تعالت الصيحات منادية بتطهير أرض السودان من الغزاة الايطاليين ولكن السلطات لم تبد حماسة للتجاوب مع تلك الصيحات والترمت بدلاً من ذلك جانب التريث وكانت السلطات فى تلك المرحلة الحرجة ترى أن عليها أولاً وقبل كل شئ دعم امكانيات السودان الى حد تضمن فيه عدم انهيارها قبل أنهيار القوة العسكرية الايطالية وأن عليها فى الوقت نفسه حرمان الايطاليين من احتلال القضارف أو طوكر أو أتبرا لأن احتلالهم لأى من تلك المواقع سيجعل شن هجوم عليهم من الصعوبة بمكان لا سيماً أن الايطاليين أصبح لديهم جيشان اضافيان بعد استيلائهم على الصومال . وكان المستركامبل حاكم مديرية كردفان فى طليعة الداعين إلى الهجوم على الايطاليين ونقتبس فى ما يلى بعضاً مما جاء فى الرسالة التى تلقاها من سير دوغسلاس نيوبولد السكرتير الادارى – « لا يدرك كثيرون ممن يلحون على القائد العام لشن هجوم الآن مدى قوة العدو وروحه المعنوية ولكنى سعيد بانك لا تستهين – على الأقل بالعدو الرابض على حدودنا الشرقية . أن الجنرال ويفل والحاكم العام وبلات يعلمون الكثير عن تعداد قوات العدو وأسلحته وامداداته وانا أعلم ذلك أيضاً ولكن الآخرين الذين خارج الدائرة غير ملمين بالحقائق ويميلون الى الاستهانة بالعدو الى حد يرددون فيه أن جيشاً قبلياً من السودانيين المخلصين المسلحين بالرماح والبنادق العتيقة كاف للقضاء على عدونا . ومهما كان الأمر فاننا سوف نطرد العدو وسيكون للسودانيين دور كبير فى ذلك ولكنى لا أعلم متى سيحدث ذلك ؟ ونحن لا نزال فى حاجة الى مزيد من الوقت لتعبئة القوة العسكرية الكافية بذخائرها وامداداتها وتوفير مايلزمها من وسائل النقل والاتصال اللاسلكى للاجهاز على جيوش العدو المؤلفة من ربع مليون جندى » ولم يطل تحرق حاكم كردفان والآخرين للقتال فقد وجدوا بعد نحو شهرين من رسالة السكرتير الادارى ماشفى غليلهم وكان إيذاناً بتحول السودان الى سياسة الهجوم . وكانت لفتة بارعة اتخاذ القيادة العسكرية قلابات مسرحاً لذلك فهى التى انطلقت منها أول رصاصة فى الحرب ضد ايطاليا وقام الملازم عبد الله محمد مصطفى (بطل القلابات) يومذاك مع رجاله الاشداء باقتحام أرض العدو الى ما وراء مدينة المتمة وكانت تلك المرة الأولى التى تطأ فيها أقدام جنود تابعين للحلفاء أرضاً محورية . وفى تاريخ الحرب العالمية الثانية – كغيرها من الحروب – أيام مشهودة قد يذكرها قليلون وتبقى مطمورة فى أقبية النسيان ليأتى بين حين وآخر من ينفض الغبار عنها وكان للسودان نصيب ذو شأن من تلك الأيام افترعها فى الأيام الأولى من الحرب بطل قلابات وتتالت بعد ذلك الأيام المشهودة . وتزامن تحول السودان الى سياسة الهجوم مع الحقبة الكئيبة التى سبقت انتصارات الجنرال ويفل فى الصحراء الغربية . وجاء ذلك على هيئة هجوم على العدو فى قلابات وما حولها فى اليوم السادس من نوفمبر (١٩٤٠) لفتح الطريق أمام المقاومة الأثيوبية وضمان تلقيها الامدادات من السودان وقد كان هجوماً محدوداً اشتركت فيه ثلاث كتائب سودانية وهندية وبريطانية بقيادة الفيلد

مارشال فايكاونت سلم الذى كان آنذاك ضابطاً مغموراً برتبة البريغادير وأصبح فى ما بعد – كما هو معروف – جنرالاً مهاباً وبطلاً شعبياً تحققت تحت قيادته الانتصارات البريطانية المدوية فى بورما وشغل بعد انتهاء الحرب أعلى المناصب فى المؤسسة العسكرية البريطانية إذ صار رئيساً لأركان القوات المسلحة الامبرطورية .

لقد أصبحت الطريق مفتوحة أمام الايطاليين منذ احتلالهم القلابات فى يوليو ١٩٤٠ للزحف على القضارف المقر الرئيسى لفرقة العرب الشرقية ولكنهم آثروا يومذاك البقاء فى مكانهم منصرفين لتعزيز منشئاتهم واستحكاماتهم الدفاعية فى قلابات وفى مدينة المتمة الاثيوبية المجاورة لها فأقاموا أسواراً منيعة من الأشواك والصخور والأسلاك الشائكة حول طابية قلابات كما شيدوا المرابض لمدافعهم وشقوا حفراً وأخاديد عميقة فى الفضاء حول الطابية لتكون بمثابة أفخاخ لاصطياد الدبابات . ونشروا لنفس الغرض كتلاً من الصخور على مشارف الطابية أيضاً وأزالوا الأعشاب الطويلة والشجيرات لكي يتسع مدى الرؤية أمام المدافعين ويحرموا المهاجمين فى الوقت نفسه من أى ساتر يقيهم من النيران . وفى المتمة ذاتها أتخذ الايطاليون ترتيبات دفاعية مماثلة وكانت حاميتها آنذاك تضم جنوداً أريتريين وسريتين من الفاشيين ذوى القمصان السوداء المسلحين بالمدافع الرشاشة وبمدافع بريطانية الصنع مضادة للدبابات استولى عليها الايطاليون عند احتلالهم الصومال البريطانى . وتتألف القوة التى أعدت للهجوم تحت أمرة البريغادير سلم من اللواء الهندى العاشر وميليشيا بكر وكتيبة سلاح الادارة التابعة لفرقة العرب الشرقية وقد عرفت باسم الكتيبة المختلطة لأنها كانت تضم وحدات من فرقة العرب الغربية وفرقة الهجانة . وقد زودت القوة بست دبابات خفيفة ومثلها من ناقلات الجنود ووحدة من المدفعية البريطانية . وكان البريغادير سلم يعلم أن قوات غريمة الكولونيل كاستاغنولا فى المتمة وقلابات ربما تكون مساوية فى عددها للقوة المعدة للهجوم الا أنها تمتاز بمواقعها الدفاعية الحصينة وفى امكانها فضلا عن ذلك تلقى امدادات سريعة من غوندار مقر قيادة المنطقة ويعلم كذلك أن الايطاليين متفوقون بالتأكيد فى الجو ففى استطاعتهم أن يدفعوا الى المعركة فى أية لحظة بنحو أربعين طائرة من طراز فيات وهى أعلى كفاءة وأرقى فنياً من الطائرات البريطانية التسع عشرة التى تمثل أقصى ما يمكن للبريغادير الحصول عليه من دعم جوى . والمعروف عن طائرة فيات الايطالية المقاتلة أنها أسرع من المقاتلات البريطانية بنحو مائة ميل فى الساعة . وكان البريغادير سلم على يقين بأن نجاح الهجوم يتوقف الى حد كبير على عامل السرعة حتى لا يجد العدو وقتاً كافياً لاسترداد أنفاسه من هول المفاجأة وبالتالى استقبال الامدادات من غوندار . ولكى يحقق البريغادير ذلك قام فى الليلة السابقة لساعة الصفر (٦ نوفمبر) بنقل مدفعيته ودباباته الى مواقع قريبة من قلابات ولم يسترع ذلك انتباه العدو فقد تم كل شئ فى الظلام وفى سرية تامة وساعد فى ذلك أن رجال ميليشيا بكر كانوا يرابطون فى الأصل فى تلك المنطقة وعلى علم بدروبها . وقد ظلت الطائرات البريطانية تحلق طيلة الوقت على إرتفاع منخفض فوق

قلابات لأخفاء ضوضاء الدبابات والمركبات . وبحلول منتصف الليل احتلت معظم القوات الحليفة مواقعها استعداداً لمداهمة قلابات قبل شروق الشمس . وخوفاً من قيام العدو بحركة التفاف لتطويق المهاجمين كلفت ميليشيا بكر بحماية الميسرة بينما أسندت حماية الميمنة الى سلاح الادارة باستثناء وحدة الهجانة التى اقتضت الخطة اشتراكها فى الهجوم مع القوات الهندية والبريطانية . وانعقدت الآمال على استمرار المدافعين داخل الطابية فى غفلتهم عن ما يدور حولهم حتى الصباح رغم صواريخ الاستكشاف الفوسفورية المضيئة المنبعثة من الطابية . وكان الظلام حالكاً فى تلك الليلة والسماء ملبدة بالسحب والغيوم . وهطلت بالفعل فى تلك الليلة امطار غزيرة غير متوقعة إذ أن فصل الخريف ولى قبل أكثر من شهر . وتحولت الأرض من جراء الأمطار الى طبقات لزجة وسميكة من الوحل أشبه بالغراء وخرجت العقارب والثعابين من مكامنها وبدا للمهاجمين آنذاك أن المطر أشد خطراً عليهم من العدو وسيكون سبباً فى فشل خطتهم لأن الوحل سيكبل خطواتهم ويحرمهم بذلك من فرصة الانقضاض على عدوهم على حين غفلة . لقد كانت بداية غير مشجعة ومثيرة للتشاؤم خاصة بين الجنود السودانيين الذين اعتبروا هطول المطر فى مثل ذلك الوقت دليلاً على غضب من السماء لأن من الأمثال المتداولة فى السودان قولهم « اذا أراد الله بقوم سوءاً أمطرهم شتاء » وهكذا ساء صباح المنذرين .

وبسبب الأمطار تأخرت الطائرات البريطانية عن موعدها المتفق عليه ولم تظهر أية واحدة منها فساد القلق بين المهاجمين . ثم جاء الفرج فى السادسة صباحاً حين مزق هدير الطائرات السكون وتنفس الجميع الصعداء فما زال فى الوقت متسع ومازالت الطابية فى غفلها . وبعد دقائق قلائل من ظهور الطائرات البريطانية دوت قنابلها المتساقطة على قلابات والمتمة وتصاعدت الى عنان السماء أعمدة الدخان وانتشر الغبار فى كل مكان فيهما ثم فتحت المدفعية نيرانها المكثفة على مواقع العدو الدفاعية وتبع ذلك تقدم الدبابات ومن ورائها المشاة الهنود . غير أن الايطاليين لم يذهلهم وقع المفاجأة عن اتخاذ رد فعل سريع فسارعوا الى مواقعهم الدفاعية فى وقت قصير واستطاع الكولونيل كاستاغنولا الاتصال بغوندار عن طريق جهاز اللاسلكى الوحيد الذى سلم من الدمار خلال الغارات الجوية البريطانية على المتمة فوافته التعزيزات والطائرات من هناك على الفور واحتدمت فى غضون ساعات قلائل مبارزات جوية حامية فى سماء قلابات بين الطائرات الايطالية والبريطانية وسقطت فى خلال نصف ساعة فقط خمس طائرات بريطانية بينما لم يخسر الايطاليون شيئاً . وقد سقطت أحدى الطائرات البريطانية على مشهد من ميليشيا بكر ورأى جنودها قائد الطائرة المحترقة وهو يهبط بالمظلة الى الأرض فى موقع بعيد منهم . وكان هذا المشهد أول تجربة لهم أثارت فضولهم الا أنهم قابلوها بعدم الاكتراث . واستدارت الطائرات الايطالية وقد خلا الجو لها صوب المهاجمين وأخذت ترجمهم بقنابلها ومدافعها الرشاشة ورغم ذلك شق المشاة الهنود طريقهم الى الطابية ولكنهم اكتشفوا أن

الدبابات لم تنجح فى أزالة الأسلاك الشائكة المحيطة بها فتراجعوا ثم أعادوا الكرة بعد قيام المدفعية والدبابات بازالة الأسلاك الشائكة والعوائق الأخرى . وفى هذه المرة تمكن المشاة الهنود (الجوروالى) من اقتحام الطابية واحتلالها فى الساعة الثامنة صباحاً أى بعد ساعتين من بدء الهجوم .

وهكذا سقطت قلابات فى أيدى القوات الحليفة ولكن أربعاً من دباباتها الست أصيبت بتلف كما لم تبق لها من ناقلات الجنود سوى واحدة . وقد تحطمت دواليب (جنازير) الدبابات الأربع من جراء سقوطها فى الأفخاخ أو ارتطامها بالصخور المخفاة وسط الأعشاب الطويلة . ولعل تعطل الدبابات كان نكسة خطيرة منى بها المهاجمون رغم انتصارهم فقد أصبحت مواصلة الهجوم بدونها ضرباً من المقامرة والمغامرة . وعلم البريغادير سلم من الفنى البريطانى المسئول أن إصلاح الدبابات سيستغرق أربع ساعات على الأقل فى حالة وصول سيارة الصيانة . ولكن أين هى ؟؟ وتتالت بعد ذلك النكسات على المهاجمين إذ وقع إرتباك بين صفوفهم عندما أرتدى رجال وحدة الدبابات البريطانية قبعاتهم السوداء المميزة التى لم يظهروا بها من قبل امعاناً فى إخفاء وجودهم عن أنظار العدو . ولما ظهروا بتلك القبعات حسبهم الجنود الهنود جنداً من الايطاليين فحملوا عليهم نتيجة لهذا الالتباس وكان من الممكن أن يقع ما لا تحمد عقباه لو لا تدارك الأمر فى آخر لحظة . وما من شئ أدعى لزعزعة الروح المعنوية فى ميادين القتال من تبادل النيران بين رجال الجيش الواحد .

ومن ناحية أخرى واصلت الطائرات الايطالية قصف المهاجمين الذين لم يكن لديهم من وسائل الدفاع المضادة سوى أسلحتهم الخفيفة كما أن طبيعة الأرض الصخرية ضاعفت من فعالية القنابل والقذائف المنهمرة من السماء وتكبد المهاجمون خسائر كبيرة فى الأرواح . وكانت عملية نقل الجرحى والقتلى الى الخطوط الخلفية بطيئة وعسيرة للغاية . ويقول البمباشى جايسون قائد ميليشيا بكر فى مذكرة الى قيادة فرقة العرب الشرقية انه أحصى فى ذلك اليوم ٢٥ طائرة ايطالية على الأقل شاركت فى عمليات القصف وعندما توقفت عن قصفها توجه الى الموقع الذى ترابط فيه الميليشيا شمالى الطابية ولم يخالجه شك فى انه لن يجد ولو واحداً من رجال الميليشيا على قيد الحياة وكان واثقاً من أن « ميليشيا بكر » قد انتهت على الأقل كقوة مقاتلة يعتد بها .

والتقى البمباشى جابسون فى طريقه الى موقع ميليشيا بكر مع الجاويش عبد الله الذى كاد أن يطير من شدة الفرح لما رأى قائده حياً يمشى على قدميه بعد أن ظنه من الهالكين . ورفع الجاويش يديه الى السماء شاكراً الله على نجاة قائده وراح يردد « الحمد لله على سلامتك يا سعادة البمباشى » وعلم جابسون منه أن جميع رفاقه فى أمان وسلام وأنهم هبطوا الى مجرى الخور القريب من موقعهم للاحتماء بين صخوره وأحراشه من نيران الطائرات الايطالية ومعهم مائتان من البغال التى استولوا عليها من العدو . وهكذا تحولت ميلشيا بكر منذ ذلك اليوم من مشاة يطوون الأرض سيراً على الأقدام

الى قوة تنتقل على البغال . أما كتيبة سلاح الادارة فقد واجهت قصفاً شديداً ومكثفاً على موقعها فى ميمنة القوات المهاجمة وبلغ عدد ضحاياها نحو عشرين قتيلاً وكان من الممكن أن تكون الخسائر أكبر من ذلك بكثير لولا مهارة رجال الكتيبة فى مراوغة الطائرات الايطالية . وبعد هدوء عمليات القصف ذهب البريغادير سلم لتفقد كتيبة سلاح الادارة فوجد رجالها يلهون ويتضاحكون وكأنهم فى نزهة خلوية لا حرب عوان . وقد جلست مجموعة منهم فى حلقة تحت شجرة وهم يستمعون الى أغانيهم المفضلة من جهاز الحاكي . وكانت دهشة البريغادير بالغة من هؤلاء الرجال الذين لا يعرف الخوف الى قلوبهم سبيلاً فالتفت الى من معه قائلاً « وددت لو أن لى اليوم ألفا آخرين من الجنود السودانيين » وقد ظل البريغادير سلم شديد الاعجاب بالجندى السودانى وشجاعته وصبره على القتال . وعندما أصبح قائداً للقوات الحليفة فى بورما طلب فى الحاح امداده بقوات سودانية غير أن السلطات السودانية عارضت ذلك وتلقى البريغادير سلم خطاباً من القائد العام لقوة الدفاع السودانية بتاريخ ٢٢ يوليو ١٩٤٤ جاء فيه « لقد تقرر بالا تؤخذ قوات سودانية من افريقيا للعمل فى الخارج » .

وفى خلال عمليات القصف تلقت شاحنة محملة بالذخيرة ضربة مباشرة من الطائرات الايطالية فتفجرت محتوياتها فى كل اتجاه وتطايرت الشظايا كأنما قنافذ الأرض جميعاً قررت التخلص فى آن واحد من حرابها القاتلة . ولما رأت فصيلة سودانية فى الخطوط الخلفية ذلك المشهد ظنته هجوماً ايطالياً مضاداً فاتجهت للقائه بينما أطلقت مجموعة من الهنود ساقيها للريح مولية الأدبار . وفى تلك اللحظة أمر البريغادير سلم الذى كان يراقب الموقف من فوق ربوة بسد الطريق أمام الهنود المتراجعين ثم هبط من الربوة متجهاً اليهم سيّراً على قدميه . وذهل الجنود عندما أبصروه أمامهم بشحمه ولحمه وكانت قد انطلقت اشاعة بينهم تقول ان الايطاليين استرجعوا الطابية وأن البريغادير ونائبه بين القتلى . وعاد الجنود الى موقعهم ولكن قبل أن يستفيق البريغادير من هول الفاجعة ويسترد أنفاسه لحقت به فاجعة أخرى فقد بلغه فى تلك اللحظة أن سيارة الصيانة التى كانت فى طريقها لاصلاح الدبابات المعطوبة تلقت هي الأخرى ضربة مباشرة من الطائرات الايطالية أسفرت عن اصابة ثلاثة من الفنيين الذين فيها بجراح بالغة وعن تناثر محتويات السيارة من معدات وقطع غيار فوق الأرض . وتملكت البريغادير مشاعر اليأس والاحباط وأيقن أن عملية الهجوم لابد من أن تفقد قوة اندفاعها نظراً لعدم توفر الدبابات من أجل مواصلة الزحف لاقتحام المتمة . وبدا له أن الموقف آخذ فى التدهور بصورة مذهلة وقد تزايد عدد الجرحي والمعوقين فى انتظار ترحيلهم من أرض المعركة . وأخذت سمات التخاذل تلوح على وجوه جنوده وقد فقدوا حماستهم للقتال الا قليلاً . وازاء هذا الموقف القاتم أصدر البريغادير أمره بارجاء الزحف على المتمة الى ما بعد الظهر . وما من شك فى أن القوات الحليفة رغم نكساتها المتوالية كانت قد حققت انجازاً كبيراً حتى تلك المرحلة وذلك باحتلالها قلابات بعد ابادة حاميتها عن آخرها باستثناء قائدها الايطالي الذى هرب فى الدقائق الأولى الى المتمة . واذا قدر للقوات

الحليفة التوفيق فى استغلال الهزيمة النكراء التى ألحقتها بالعدو فأنها لن تعجز عن احتلال المتمة .

ومضى الظهر دون أن تتقدم القوات الحليفة صوب المتمة فقد رأى البربغادير سلم بعد أن ضرب أخماساً فى أسداس ارجاء الهجوم حتى الليل حيث تتضاءل فعالية السلاح الجوى الايطالي كما يمكن للقوات المهاجمة القيام بحركة التفاف حول المتمة من ناحية الشمال لاحتلال جبل مريم الواقع شرق المدينة وبذلك يصبح الكولونيل كاستا غنولا مطوقاً من الغرب والشرق وربما يقرر فى هذه الحال اخلاء المتمة . وتقضى الخطة التى فكر فيها البريغادير سلم بأن يعهد لكتيبة سلاح الادارة وميليشيا بكر - اللتين لم تشتركا حتى تلك المرحلة فى القتال - بالاستيلاء على جبل مريم . وهذه الخطة لا غبار عليها ولكن أى انتكاس فيها سيجعل الطريق مفتوحة أمام الايطاليين الى داخل السودان وربما يكون اقدام الايطاليين على اهتبال الفرصة هذه المرة موضعاً للنقاش فقد ظلت مثل هذه الفرص متاحة لهم منذ دخولهم الحرب . وما من شك فى أن البريغادير سلم كان مدركاً عند مراجعته للموقف وتقليب أفكاره أن أمن السودان يأتى فى المقام الأول نظراً لما ينطوى عليه من أهمية بالغة فى مسار الحرب فى افريقيا شمالاً وشرقاً . وقد واصلت الطائرات الايطالية فى المساء غاراتها على قلابات التى كادت أن تختفى تحت طيات كثيفة من الغبار . وتمكنت الطائرات الايطالية بسبب غياب المقاتلات البريطانية من تسديد ضربات مباشرة على الطابية وغيرها من المواقع الحليفة . وازاء ذلك عدل البريغادير سلم عن الزحف فى تلك الليلة على المتمة .

وواصلت الطائرات الايطالية مع شروق شمس اليوم التالي غاراتها بينما أستانفت المدفعية الحليفة قصف المتمة وشوهدت النيران تشتعل فى مبانيها ومنشئاتها وبينها مستودع للوقود . ومنيت القوات الحليفة فى هذه المرة بنكسة أخرى أذ أفلحت الطائرات الايطالية فى تدمير واحدة من الدبابتين الباقيتين وأحس البريغادير سلم فى تلك المرحلة أن الموقف بلغ حداً لا سبيل لاحتماله وأنه لا أمل له فى الهجوم على المتمة ولا جدوى فى الوقت نفسه من المكاسب التى حققها فى اليوم السابق لا سيما أن الطابية التى احتلتها قواته لا تنطوى على قيمة كبيرة ما لم يقرر مواصلة الزحف . وهكذا قرر البريغادير سلم الانسحاب الى المواقع التى بدأ منها وراء التلال المطلة على قلابات . وجرى الانسحاب دون عناء بعد تدمير ما بقى من الاستحكامات الدفاعية التى أقامها الايطاليون .

لقد استغرق الهجوم يومين تقريباً خسرت القوات الحليفة خلالها ١٦٧ بين قتيل وجريح بينهم سبعون بريطانياً بينما بلغت خسائر الايطاليين ما يزيد على ٤٠٠ بين جريح وقتيل واضطرت قيادتهم العليا الى ارسال لواء كامل الى المتمة تعزيزاً لحاميتها . ولم يحقق الهجوم الغاية المنشودة الا أنه أدى من ناحية أخرى لزعزعة الروح المعنوية بين جنود العدو ومعظمهم من الاريتريين وقد وصف الجنرال بلات الهجوم بأنه فاشل تكتيكياً وناجح استراتيجياً وفى رأيه أنه - رغم الفشل فى فتح طريق من السودان الى

داخل أثيوبيا - قد اثبت امكانية حشد قوة عسكرية كبيرة معززة بالدبابات والمدفعية فى الخفاء ودون أن يسترعي ذلك انتباه الايطاليين . كما أن مجرد القيام بذلك الهجوم المباغت قد وطد فى اذهان الايطاليين المخاوف القائمة أصلاً وأضفى أبعاداً جديدة على ما يساورهم من قلق وهواجس وأصبحوا يتساءلون فى حيرة قاتلة متى ستنزل عليهم الضربة القادمة ؟ ومن أين ؟ وهل يستطيعون صدها ؟ وقد كان للهجوم غرض آخر هو تأجيج الحماسة بين رجال المقاومة الاثيوبية من خلال اطمئنانهم بأن بريطانيا لا تزال قوة مهابة وأنها عاقدة العزم على تمكين الامبرطور من استعادة عرشه . وقد ظلت قصة الهجوم ترددها وتتناقلها الأسماع بين الاثيوبيين الذين كانوا يستبعدونه قبل وقوعه واعتبروه بداية النهاية للامبرطورية الايطالية فى شرق افريقيا .

ولم يعد الايطاليون الى طابية قلابات بعد انسحاب القوات الحليفة أو يحاولوا الاقتراب منها فقد ظلت القوات الحليفة بالمرصاد لهم دائماً وأبداً . وقامت قوة هندية فى صباح اليوم التاسع من نوفمبر بزيارة الطابية وبقيت فيها حتى المساء . وقد عسكرت القوات الحليفة فى المرتفعات المطلة على قلابات من ناحية الغرب على هيئة نصف دائرة مما ضمن لها الاستمرار فى قصف مدينة المتمة بالمدفعية وضمن لدورياتها القيام بعمليات الاستكشاف القتالية على طول خطوط العدو وكثيراً ما وقعت اشتباكات بين الطرفين . ولا يمكن وصف الحياة فى تلك المرتفعات بأى شئ سوى أنها شاقة وعصيبة فطبيعة الأرض والطقس قاسية والجنود يعيشون اما فى أكواخ من القصب أو فى خنادق مسقوفة بالطين والنال شقوها بعد جهد وعناء فى الأرض الصخرية الصلبة . والمعروف عن أعشاب النال (عشب الفيل) أنها سريعة الاشتعال اذا علقت بها شرارة من نار وفى بعض الأحيان تشتعل النار فيها بسبب الاحتكاك أو حرارة الشمس المفرطة وهكذا كان لابد من الاحتفاظ على الدوام بأوعية مليئة بالماء لاطفاء الحرائق . والماء فى تلك البقعة أغلى من الذهب وخاصة فى مواسم الجفاف . والحرائق ليست خطراً على سكان الأكواخ والخنادق فحسب وأنما تأتى أيضاً على الأعشاب والأحراش الطويلة التى تخفى الجنود عن عيون الأعداء وطائراتهم . وقد فرضت سيطرة الايطاليين على الجو على الجنود أنماطاً روتينية من الحيطة والحذر اذ لابد من اخفاء الخنادق والأكواخ والدروب المؤدية اليها عن الانظار حتى لا تنالها طائرات العدو . ومن حسن الحظ انها طائرات بطيئة نسبياً وتصدر محركاتها ضوضاء عالية مما يمنح الجنود وقتاً كافياً للاختباء وهذا كل ما يملكون لأن ما لديهم من وسائل الدفاع الجوى لا يتعدى حفنة من المدافع الرشاشة ومدافع الميدان وأخرى مضادة للدبابات وكلها لا تقوى على اسقاط طائرات تحلق على ارتفاع شاهق .

لقد كان الموقف يومذاك على مشارف المتمة وقلابات مواتياً للايطاليين ولكنه لفت أنظار الجنرال بلات القائد العام الى الاهتمام بأول عنصر فعال فى الخطة التى أسفرت فى مقبل الأيام عن دق أول مسمار فى نعش المحور فقد آمن الجنرال بفضل ما جرى فى قلابات بأنه لا أمل البتة فى نجاح أى هجوم

برى ما لم تتوفر له الامكانيات الكافية لتحييد السلاح الجوى الايطالي . وهكذا اتجه الجنرال بلات الى تطوير قدراته الجوية من الطائرات وأسلحة الدفاع الجوى .

وعلى أية حال لم يظهر البريغادير سلم فى ملحمة قلابات من المواهب والمميزات ما ينبئ بأنه على موعد مع المجد فى أدغال بورما أو أية جبهة أخرى أو بأنه سيصبح يوماً ما نداً لعمالقة القادة العسكريين البريطانيين فى الحرب العالمية الثانية أمثال مونتغمرى والكسندر فاتح تونس . ولكن ربما شد الانتباه اليه انه قاد أول هجوم على المحور فى شرق افريقيا فكان ذلك أولى خطواته فى طريق المجد والشهرة . وقد بقى سلم مع قواته فى منطقة قلابات حتى ديسمبر ١٩٤٠ حين حل مكانه قائد آخر . وشهدت فترة الشهرين والنصف التى تلت ملحمة قلابات محاولات من الجانبين لاحتلال الأرض الفضاء على مشارف قلابات التى تحولت طابيتها نتيجة ما نالها من قصف الى ركام واطلال تنتشر فوقها الصقور التى وجدت بين الركام والأطلال وليمة دسمة من جثث القتلى . وقد أصبحت الصقور بدورها مثل طائرات الانذار المبكر لأنها تفزع الى الجو صائحة من أدنى حركة يقوم بها أحد الجانبين المتقاتلين فتوقظ بذلك الجانب الثانى من غفلته وتجذب أنظاره للخطر القادم . والى جانب الصقور تزخر المنطقة بأعداد وافرة من الحيوانات المتوحشة والثعابين والعقارب والبعوض . وكانت القرود بالذات مصدر ازعاج كبير فهي فى العادة تنتقل فى مجموعات وكثيراً ما يدفعها الفضول ليلاً الى الاقتراب من مواقع الجنود فيحسبونها تشكيلاً من الأعداء ويصلونها ناراً حامية قبل أن يكتشفوا أنها قرود عابثة لا ناقة لها أو جمل فى الحرب الدائرة بين بنى الانسان . وفى احدى المرات تسلل سرب من أفراس البحر الى المعسكر فأحدث فزعاً واضطراباً ولما تناول جندى هندى بندقيته وصوبها نحو قائد السرب أنتهره ضابط سودانى قائلاً « لا مانع من أن تقتل جندياً من الأعداء ولكن القانون هنا يحرم قتل فرس البحر » وألقى الجندى الحائر بندقيته ولم يخف دهشته من قانون يحل قتل الانسان ويحرم قتل الحيوان .

وفى مرة اخرى بينما كان ضابط بريطانى يتحدث عن طريق اللاسلكي من موقعه فى الخطوط الأمامية مع ضابط آخر فى القيادة التقطت أذن الاخير – عبر اللاسلكي – أصواتاً غريبة فتساءل مستفسراً عنها . ورد عليه الطرف الآخر بأنها زئير أسد معتوه فى زيارة للموقع . وبعد انتهاء المكالمة تلقى الزائر الذى جاء على غير موعد وبدون دعوة آيات الحفاوة والاحترام اللائقة بملك الغاب حملتها اليه رصاصة استقرت بين عينيه فكف عن الزئير الى الأبد .

أن عنصر الاثارة في الحرب – كما يقولون – لا يزيد على واحد في المائة والباقي سأم وملال ولعل هذه العبارة تصور بحق الحياة في منطقة قلابات ويتساوى في ذلك الايطاليون والقوات الحليفة المؤلفة من سودانيين وهنود وبريطانيين . فالجندى السوداني لا يطيب له العيش بعيداً عن أهله وعشيرته والرسائل من الهند وبريطانيا أو إليهما تستغرق قرابة شهرين . غير أن سير الأحداث في تلك

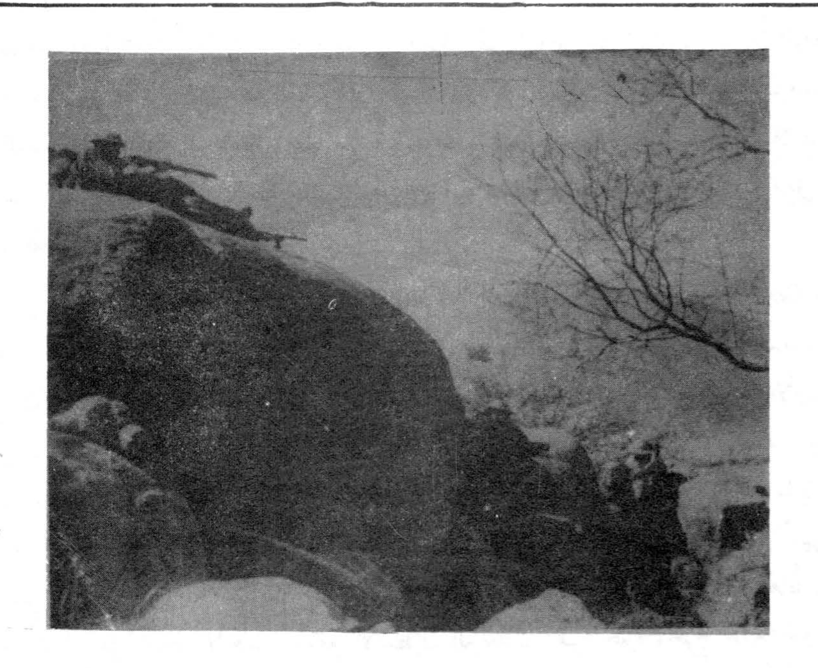
المرحلة كانت تحكمه خطوات وتدبيرات تجرى في الخفاء من وراء ستار . ففي خلال شهر ديسمبر من العام نفسه (١٩٤٠) دعا الجنرال ويفل إلى مؤتمر في القاهرة اشترك فيه الجنرال بلات القائد العام لقوة الدفاع السودانية والجنرال كاننغهام قائد القوات البريطانية في شرق افريقيا وصادف ذلك عشية هجوم الحلفاء على سيدى براني الذى أفضى إلى احتلالهم بنغازى للمرة الأولي في السابع من فبراير ١٩٤١ . وأبلغ الجنرال ويفل القائدين بأنه قرر شن هجوم من كينيا على الأراضي الاثيوبية عبر نهر جوبا لاحتلال كيسمايا على أن يتزامن ذلك مع دخول الامبرطور هيلاسلاسي خلال النصف الثاني من يناير إلى اثيوبيا عبر موقع بين قلابات والروصيرص ليصبح محوراً تلتف حوله المقاومة . وعلى الجنرال بلات في الوقت نفسه القيام باحتلال مثلث كسلا — تسني سبدرات — بعد أن تصل إليه احدى الفرق الهندية المشتركة في الهجوم على سيدى براني ويتوقف أرسالها إلى السودان بالطبع على نجاح الهجوم . وإلى أن يتحقق ذلك أوصى الجنرال ويفل باستمرار الضغط على الايطاليين في منطقة قلابات ولكن دون الاشتباك معهم في معارك رئيسية . وقال الجنرال ويفل للقائد العام (بلات) وهو يودعه «هل تعدني باحتلال أسمرا ومصوع اذا أمددتك بفرقة أخرى ؟؟» وهز الجنرال بلات رأسه ثم رد قائلاً «لن أعدك بذلك ولكن سأضمن احتلال أغوردات وبارنتو» . وسرت بين الجنود على حدود السودان الشرقية موجة من التفاؤل عندما بلغتهم أنباء سقوط سيدى براني وتقدم القوات الحليفة في الصحراء الغربية بينما ساد القلق والشعور بالتشاؤم الايطاليين ولكنهم كانوا واثقين من قدرتهم على الصمود إلى أجل غير مسمي في افريقيا الشرقية فالمسألة لا تعدو مجرد وقت كما قال موسوليني في رده على برقية من دوق أوستا نائب الملك في أديس أبابا جاء فيها «أننا صامدون بفضل أعواننا وشجاعة جنودنا وولاء السكان المدنيين» . ولعل القيادة الايطالية العليا رغم تظاهرها بالإطمئنان كان يساورها في تلك المرحلة شعور خفي بما يضمره لها الغيب وقد يستشف هذا من العبارة التي أختتم به دوق أوستا برقيته إلى الدوتشي اذ جاء فيها بالحرف الواحد «أننا مستعدون للتضحية العظمي» . وقد صار واضحاً في تلك المرحلة أن القيادة الايطالية العليا عمدت أثر سقوط سيدى براني إلى أنتهاج استراتيجية الدفاع المطول في اثيوبيا واريتريا بحيث لا يجد الحلفاء فرصة لتحويل قواتهم وإمكانياتهم العسكرية منهما إلى الصحراء الغربية .

وكان من أهم الأحداث في شهر نوفمبر ١٩٤٠ بخلاف ملحمة قلابات تشكيل «قوة الغزال» الأسطورية وهي بمثابة ما يعرف في أيامنا هذه بقوات الصاعقة . وتتألف تلك القوة من وحدات سودانية وهندية بقيادة الكولونيل فرانك ميسيرفي البريطاني الذى أصبح في ما بعد أول قائد عام للجيش الباكستاني . والوحدتان الرئيسيتان في قوة الغزال هما وحدة الاستكشاف التابعة للفرقة الهندية الخامسة والمجموعة الأولى من البلوكات السريعة السودانية ومعظم رجالها من فرقتي الهجانة والعرب الشرقية ثم أنضمت إلى قوة الغزال بعد قليل وحدات من المدفعية السودانية التي لعبت

بمدافعها الهاوتزر عيار ٣,٧ دوراً حاسماً في الزحف على «كرن» واحتلالها . وكانت كرن أشد منعة من أنف الأسد . وتزامن تشكيل قوة الغزال مع قيام الايطاليين بتعزيز مواقعهم الأمامية وشمل ذلك تعزيزهم للواءتهم الثلاثة المرابطة في مثلث كسلا - تسني - سبدرات بلواءين آخرين من الجيش الاحتياطي بينما وصلت إلى كسلا سريتان من المقاتلين الايطاليين ذوى القمصان السوداء . وتصدت قوة الغزال في أول عملية قتالية لها لقوات العدو المرابطة بالقرب من تهاميام واشتبكت معها في ما عرف بمعركة آبار تهاميام وتمكنت قوة الغزال من زعزعة العدو هناك وأجبرتها في النهاية على الإنسحاب إلى داخل الأراضي الاريترية . وجاء في هذا الصدد في التاريخ الرسمى البريطاني للحرب العالمية الثانية «لقد أقنعت المعركة التي خاضتها قوة الغزال عند آبار تهاميام ثم غاراتها المتواصلة الجنرال فروتشي - القائد العام للقوات الايطالية في القطاع الشمالي - بأن البريطانيين سيداهمون خطوط اتصاله مع كسلا من ناحية الشمال وهكذا قام في ٣١ ديسمبر بسحب قواته من هناك إلى كيرو ووشاى» وهذه المرة الأولى التي يعترف فيها القائد الايطالي بتحول استراتيجيته من الهجوم إلى الدفاع . وبعد معركة آبار تهاميام انتقلت وحدة من قوة الغزال من مقرها الرئيسي في دقين إلى جبل بالقرب من الحدود الاريترية شمالي سلا مما أثار قلق القيادة الايطالية فوجهت فرقة قوامها ألف جندى تقريباً إلى هناك فكانت معركة شوشيب التي قام فيها حوالى ثلاثمائة من قوة الغزال بمحاصرة الفرقة الايطالية وإبادة القوة الايطالية التي جاءت لنجدتها وفك الحصار . وكانت هذه القوة الأخيرة تضم حوالي ثلاثمائة مقاتل من الجنود الاريتريين . واستمر الحصار الذى بدأ في أول نوفمبر حتي العاشر منه حيث حاولت قوة الغزال اقتحام موقع العدو ولكن لم يحالفها التوفيق نظراً لمناعته واضطرت في النهاية إلي الإنسحاب عندما بلغتها أنباء تقول أن لواء كاملاً في طريقه لنجدة المحاصرين . وفي اليوم التالي ارتدت الفرقة الايطالية بدورها إلى داخل الأراضي الاريترية . واستمرت قوة الغزال في القيام بعمليات الاستطلاع والمراقبة على الخطوط الأمامية للعدو كما قامت خلال غارتين خاطفتين بقطع أسلاك الهاتف بين كسلا وتسني . وفي الوقت نفسه قامت قوة من المجموعة الثانية من البلوكات السريعة المرابطة عند جسر البطانة بعبور نهر القاش واشتبكت مع وحدات العدو في المنطقة الواقعة بين كسلا وتسني ثم عادت ومعها مجموعة من الأسرى . ومن ناحية أخرى وافقت السلطات العليا أخيراً تحت إلحاح شديد من جانب قيادة قوة الغزال علي تسليح ميليشيا فروستي (الهدندوة) وزيادة عددها إلى مائة وخمسين يرتدون زياً رسمياً يتألف من قميص وسروال قصير من الخاكي ووشاح أحمر . وأخضع رجالها لفترة تدريب على استخدام البنادق وأعمال الاستكشاف وملاحقة الجواسيس المعادين . وقد أقبل رجال الميليشيا على التدريب في حماسة بالغة ولكنهم لم يخفوا تذمرهم من «طابور الصباح» وقال أحدهم وقد نفذ صبره مخاطباً الضابط البريطاني دعنا من «لِفْ جاى وجاى نحن عاوزين نحارب» . ووقع في تلك الأيام حادث عابر ولكنه مثير

وطريف فقد وصل صبحي إلى مكتب ادارة مشروع القاش في أروما وسلم المهندس سجلاً دقيقاً وكاملاً لمعدلات مياه نهر القاش عند محطة القياس في كسلا . وذكر الصبحي أن والده الذى كان مسئولاً عن قراءة المقياس في المحطة أمر بالجلاء عنها مع بقية موظفي ادارة المشروع قبل سقوط كسلا في أيدى الايطاليين وبقي الصبحي في المحطة حسب توجيهات أبيه لمباشرة قراءة المقياس مثلما كان يفعل أبوه عبر سنوات طويلة .

ورأى الجنرال بلات بعد عودته من مؤتمر القاهرة – الذى أجاز فيه الجنرال ويفل خطة الهجوم– أنه يتعين عليه تضليل العدو تضليلاً كاملاً في ما يتعلق بمخططاته ونواياه فخلق وظيفة جديدة في قوة الدفاع لتحقيق هذا الغرض اشترط في من يشغلها أن يكون مخادعاً ومحتالاً من الطراز الأول وفشاراً لا يشق له غبار . ووقع اختياره على ضابط بريطاني بعد معاينة دقيقة أدارها بنفسه . وقد سأل الضابط خلال المعاينة أن كان في إمكانه التكتم على الأسرار فأجابه « نعم ولكن إلى حدٍ ما يا سيدى » ثم سأله القائد العام أن كان كاذباً حاذقاً فرد عليه الضابط «أجل لقد كنت واحداً من أمهر لاعبي البوكر في كامبريدج » وبدأ الضابط المحتال مهمته بتسيير مجموعة من السنابيك جيئة وذهاباً بين عقيق ومواقع أخرى على البحر الأحمر . ووقع الاسطول البريطاني في حيرة وحرج عدما قام الضابط المحتال ببناء رصيف ممتد في البحر بالقرب من عقيق دون أن يحاط قائد الاسطول علماً بأن الرصيف لن يستخدم على الإطلاق . وبينما كانت القوات الحليفة مرابطة في منطقتي القاش ونهر أتبرا وهي على أهبة الاستعداد للهجوم كان صاحبنا مشغولاً بمد خط حديدى جديد من القضارف إلى قلابات ولم يكن مقصوداً استخدام ذلك الخط في أى يوم من الايام . كما شرع في تشييد سلسلة من المطارات التي لا حاجة لهبوط طائرات فيها . وقام أيضاً بصنع دمى للدبابات وضعها بالقرب من قلابات . بل أن تحمسه للخداع والإحتيال وتضليل العدو دفعه إلى بناء مستشفى وهمي إمعاناً في التمويه على الطائرات الايطالية كما درج في أحاديثه على الإشارة إلى الفرقة الهندية الخامسة متلاعباً بالألفاظ على نحو أدخل في روع الايطاليين أنها خمس فرق هندية . وفي الواقع أن الجنرال بلات القائد العام لقوة الدفاع السودانية قد اعتمد منذ الأيام الأولى للحرب على أساليب الخداع وتضليل العدو بسبب ضعف إمكانياته العسكرية ثم أتسعت دائرة الخداع والتضليل مع اكتمال الإستعدادات للزحف واكتسبت أبعاداً جديدة. والحرب – كما يقولون – خداع وتكشف مدى نجاح بلات فى ذلك عندما أبدى دوق أوستا الحاكم الايطالي دهشته من مجرد تفكير السلطات السودانية في إمكانية قيام القوات الايطالية بالزحف على منطقة القاش . وأعترف الدوق بأن ذلك لم يدر بخاطره مطلقاً نظراً لضخامة ومناعة القوات الحليفة المرابطة في المنطقة المذكورة . ولا بد من أنه عض بنانه نادماً لما قيل له بعد الهزيمة أن تلك القوات التي كان يخشاها





ظلت مقتصرة لمدة طويلة على وحدة بريطانية صغيرة وسرية من البلوكات السريعة التي لا سبيل إلى تحركها في موسم الأمطار. لقد راح دوق أوستا كغيره من الجنرالات الايطاليين ضحية إعتماده على أجهزة المخابرات الايطالية التي فقدت منذ البداية صوابها وأصبحت ضحية لحملات الخداع والتضليل من قبل أجهزة المخابرات السودانية وأعوانها المدنيين.

وقد اقتضت الاستعدادات للزحف وفق الخطة التي أقرت في مؤتمر القاهرة ترحيل السكان من القرى الواقعة على الطريق الذى ستسلكه القوات الحليفة الزاحفة وتكفل الشيخ ترك وأعوانه بترحيل المنتمين لقبيلته (الهدندوة) إلى مواقع بعيدة في منطقة القاش ورافقتهم مجموعات من قبيلة بني عامر بقيت على ولائها للسلطات السودانية بينما أرغمت المجموعات الأخرى المشتبه في ولائها على الارتحال إلى المواقع الايطالية الأمامية. وكانت السلطات السودانية قد أقدمت قبل شهرين تقريباً على إخلاء المنطقة الواقعة بين كسلا وجسر البطانة من سكانها لحرمان الايطاليين في كسلا من اللحوم. ومعظم سكان هذه المنطقة من قبيلتي الهدندوة والرشايدة ويعتمدون في حياتهم على تربية الابل والأغنام. ونجم عن عمليات الترحيل هذه احتشاد منطقة القاش والقرى القريبة منها على نهر أتبرا بالسكان فلجأت السلطات من أجل تخفيف الضغط عليها إلى منع الرعاة من قبيلة الشكرية والقبائل الصغيرة الأخرى الدائرة في فلكها من عبور نهر أتبرا إلى ضفته اليمنى. ومع تزايد عمليات الاستكشاف والدوريات العسكرية من جانب القوات الحليفة اضطرت السلطات إلى إخلاء سبع قرى بين كسلا والطرف الجنوبي لمنطقة القاش من السكان وقد وفرت لهم وسائل النقل بالإضافة إلى منحهم كميات سخية من الدرة عند وصولهم إلى المواقع التي وزعوا عليها داخل منطقة القاش. ويقول كينيدى كوك في تعليقه على عمليات الإخلاء «لقد قوبلت المشاق العظيمة التي اقترنت بها في بشاشة بوجه عام كما أن تعاون الزعامات القبلية كان موضعاً للاعجاب» ولكن كانت هنالك جوانب سلبية فقد أدى أبعاد السكان من القرى القريبة من الخطوط الأمامية الأيطالية إلى انحسار تدفق المعلومات التي تحتاج إليها أجهزة المخابرات السودانية ولم يبق لها من مصدر يعتمد عليه سوى أصدقائها وعملائها القادرين على التسلل إلى داخل مدينة كسلا والمواقع الأخرى التي يسيطر عليها الايطاليون.

وشهد النصف الثاني من شهر ديسمبر تصاعداً فى الغارات الجوية الايطالية وأسفرت أحداها عن تدمير أربع طائرات في القضارف. وقامت الطائرات الايطالية في يومي ١٦ و ١٧ بست غارات على بور تسودان تسببت في احتراق ١٥ ألف جالون من البنزين وفي ما عدا ذلك لم تقع سوى إصابات واضرار طفيفة لحقت ببعض المباني والمنشئات والمدنيين. وقد أسقطت المقاتلات البريطانية أحدى الطائرات المغيرة بالقرب من طريق سواكن - جبيت وقام المفتش البريطاني بعرض ذيل الطائرة في ساحة سوق بور تسودان وعلق عليه إعلاناً دعا فيه المواطنين للتعبير عن فرحتهم وابتهاجهم بإيداع تبرعات مالية في صندوق وضعه بالقرب من الذيل. وفي غضون ثلاث ساعات

فقط بلغت جملة التبرعات خمسين جنيهاً مصرياً بالتمام والكمال . وقد توافدت جماهير غفيرة لمشاهدة ذيل الطائرة الايطالية وواجه رجال الشرطة مشقة في صد عدد كبير من المواطنين الذين أصروا على انتهاز الفرصة للتعبير أيضاً عن احتقارهم للدوتشي موسوليني باستخدام ذيل طائرته الصفيقة في ممارسات غير لائقة مكانها المناسب دورات المياه . على أن رجال السلاح الجوي الذين أسقطوا الطائرة وجدوا في اسقاطها عزاء على الأقل عن ديوكهم الرومية التي كانوا ينتظرون بها أعياد « الكريسماس » ولكنها راحت ضحية للغارات الايطالية . ونشط السلاح الجوي الايطالي لسبب أو آخر خلال شهر ديسمبر في شن غاراته الجوية على المدن والمواقع العسكرية وخاصة في منطقة القاش ولكنها كانت كالعادة طائشة وغير فعالة وفي بعض الأحيان يبق نحو ثلث القنابل المتساقطة فوق الأرض في مكانها دون أن تنفجر لتشكل إغراء لا يقاوم خاصة بين المواطنين البسطاء من قبائل البجة الذين يخدعهم بريق بعض مكونات القنبلة فيتوهمون أنه من الذهب الخالص . وفي أحدى المرات أهدي واحد منهم إلى صديقه قنبلة صغيرة لم تنفجر بدعوى أنها علبة دواء ناجع وحاول الصديق دون جدوى نزع الغطاء منها فانهال على القنبلة ضرباً بعصاه وكان ذلك فوق طاقة القنبلة رغم أنها إيطالية فأنفجرت وفقد الصديق المسكين ذراعه نتيجة الانفجار .

ووصلت في أواخر ديسمبر عن طريق بورتسودان الفرقة الهندية الرابعة وانتقلت على الفور إلى منطقة القاش وبوصولها اكتمل التحول من الدفاع إلي الهجوم كما اكتملت تبعاً لذلك الإستعدادات لإسترداد كسلا . واستمرت بكل الوسائل المتاحة سياسة إرهاب العدو وتخويفه بإعطائه صوراً مبالغاً فيها عن عدد القوات الحليفة المحتشدة في السودان في انتظار ساعة الصفر . وفي هذا الإطار أصبح وصول القطار في منتصف الليل إلى أروما – مثلاً – بمثابة إشارة لكل سيارة في المنطقة لكي تضيء أنوارها الأمامية وتنخرط في جولات متواصلة من المحطة وإليها حتى وأن لم يكن لها دخل بتفريغ القطار من محتوياته البشرية وغير البشرية . وإلى جانب الفرقة الهندية الرابعة وصلت إلى السودان في تلك الأيام من الكونغو البلجيكى (زائيرى) فرقة من المشاة ومعها بعض المدافع وسيارة اسعاف عسكرية . كما جاءت من قبرص سريتان ببغالها التي كانت ذات قيمة كبيرة في الزحف على اريتريا . وأسهمت جنوب افريقيا بعدد من الطيارين بطائراتهم وبسيارات للنقل يقودها ملونون . ووصلت من افريقيا الغربية الفرنسية كتيبة تشادية ووحدات من الفرقة الأجنبية . ومن فلسطين سرية من الكوماندو العرب واليهود . كما تلقت القوات البريطانية تعزيزات تتألف من ست كتائب من المشاة والمدفعية . لقد تجمعت على أرض السودان يومذاك شعوب من مختلف الأعراق والألوان والألسن والتقى فيها الافريقيون من المستعمرات الفرنسية والبريطانية مع أبناء القبائل السودانية ومنهم رجال النوبة الأشداء والعمالقة من غياهب السدود والمستنقعات في جنوب السودان .

واختلط على أرض السودان يومذاك المحاربون من الماهراتا والجاروالى والبنجاب الهندية مع أقرانهم

البريطانيين القادمين من ريف انجلترا وجبال اسكوتلندا . خليط متنافر من الشعوب يختلف في كل شئ ولكنهم يلتقون عند هدف واحد نبيل هو انقاذ البشرية جمعاء من خطر لا يبقي ولا يذر .

وشرع الايطاليون خلال الأيام الأخيرة من العام (١٩٤٠) فى الانسحاب من مدينة كسلا ومواقعهم الأمامية الاخرى واقترن ذلك بحملة اعتقالات واسعة النطاق شملت بخلاف السكان المحليين أعضاء الجالية اليونانية فى كسلا التى اعتقل جميع رجالها ونقلوا الى معسكرات الاعتقال داخل اريتريا وبقوا فيها الى أن حررتهم القوات السودانية . كما أخذت السلطات الايطالية فى الوقت نفسه تتحرش بالسيدين محمد عثمان وحسن الميرغنى وأتباعهما وأقدمت فى السابع والعشرين من ديسمبر على نصب ٨ مدافع بين جبل كسلا وطرف مزرعة السيدين ووضعت على المدافع قوة من الايطاليين ذوى القمصان السوداء وقصدت السلطات الايطالية من وراء ذلك تخويف السيدين وارهابهما . وفى عشية رأس السنة الجديدة اعتقل الايطاليون زعيم (ناظر) قبيلة الحلنقة وكذلك البكباشى المتقاعد عثمان على كيلة الذى ظل منذ الاحتلال الايطالي على اتصال وثيق مع السيدين وأسهم من خلال موقعه فى مجلس المدينة فى تقديم خدمات جليلة للمواطنين وكان درعاً وعوناً لهم ضد تجاوزات الحكام . ومع مغيب شمس عام ١٩٤٠ واستقبال العام الجديد اصبحت القوات الحليفة فى حالة تحفز وتعطش للقتال بينما ظل الايطاليون فى حالة ترقب وقلق . ووزعت عمليات الزحف على القوات الحليفة بحيث تسلك الفرقة الهندية الرابعة وفى مقدمتها قوة الغزال طريق كسلا – سبدرات – كيرو – أغوردات – كرن ومنها الى أسمرا بينما تسلك الفرقة الهندية الخامسة ومعها البلوكات السريعة الطريق الجنوبي الممتد من تسنى الى أدى أوغرى مروراً ببارنتو وعرزا . وكان الجنرال بلات حريصاً على استخدام البلوكات السريعة كرأس رمح للقوات الزاحفة . وشهد الاسبوعان الأولان من العام الجديد نشاطاً كبيراً فى عمليات الاستكشاف من جانب القوات الحليفة وكان الاعتماد فيها على رجال قوة الدفاع السودانية نظراً لخبرتهم بطبيعة المنطقة ودروبها وأهلها . وبرز فى هذه العمليات بالذات الملازم ثانى محمد نصر عثمان كضابط استخبارات عسكرية ممتاز فقد توجه أولاً ومعه سيارتان (فان) من البلوكات السريعة الى أدارافى الواقعة على نهر القاش شرقى مدينة تسنى وإضطر فى طريقه إليها للقيام بحركة التفاف طويلة حول مواقع العدو داخل الأراضى الاريترية وبقى الملازم نصر مع رجاله فى ادارافى لمدة ٢٤ ساعة رصدوا خلالها تحركات العدو على طريق تسنى – بارينتو . وعاد الملازم نصر مرة ثانية فى ١١ يناير الى أدارافى وبقى فيها يومين كاملين دون أن يفطن له العدو أو يسترعي انتباههم . وسجل فى تقريره بعد عودته الى قاعدته أنه شاهد هذه المرة كتيبة من قوات العدو تحملها وسائل النقل الميكانيكية المتجهة شرقاً بالاضافة الى عدد من الشاحنات من مختلف الأحجام متجهة الى الشرق ايضاً ويبدو أنها محملة بالمؤن والامدادات وتطابقت هذه المعلومات مع ما نقله اللاجئون وبينهم جنود هاربون من جيش العدو عن شروع الايطاليين فى الانسحاب . وقد أخلى الأيطاليون بالفعل مدينة كسلا وجلوا عنها فى

الثامن عشر من الشهر نفسه . وبذل السيد محمد عثمان الميرغني كل ما في وسعه لاخطار السلطات السودانية بذلك في حينه الا أن رسالته وصلت الى جسر البطانة بدلاً من السلطات العسكرية أو المدنية في القاش ولم يكن مصدر الرسالة واضحاً . وقد أفلت السيدان محمد عثمان والحسن من الاعتقال في آخر لحظة وكان الايطاليون ينوون أخذهما معهم الى اريتريا . وصارت نجاتهما من ذلك المصير مداراً لكرامات تناقلها الأتباع والمريدون . ولكن الايطاليين أخذوا معهم إلى اريتريا الجعاشي كيلة وناظر الحلنقة وعلى أية حال وبعد التأكد من اخلاء مدينة كسلا انتقلت قوة الغزال الى موقع على طريق سبدرات داخل اريتريا وتحركت الفرقة الهندية الخامسة صوب كسلا . وفي الساعة الخامسة من صباح ١٩ يناير دخلت الى كسلا وحدة صغيرة من البلوكات السريعة بقيادة الملازم ثاني أحمد عبد الله حامد ولم تجد فيها أثراً للايطاليين . وفى الوقت نفسه قامت البلوكات السريعة باحتلال جبل أبو قمل ومدينة تسني . غير أن السلاح الجوى الايطالي قام في ذلك اليوم بشن آخر غارة جوية له على الأراضي السودانية واستهدفت الغارة محطة دورديب القريبة من كسلا ولعلها كانت واحدة من أنجح الغارات الجوية الايطالية اذ تلقى فيها قطار محمل بالجنود الهنود ضربة مباشرة وأسفر ذلك عن مقتل ٢٣ هندياً وضابط بريطانى واحد . وفى غضون اسبوع واحد من استرجاع مدينة كسلا استؤنفت الخدمات البرقية والهاتفية فيها واستعيدت امدادات الكهرباء وشبكات مياه الشرب وأسهمت القيادة العسكرية بتوفير خمسين ألف وجبة للمواطنين من التعيينات المخصصة للجنود كما استأنفت محطة الخطوط الحديدية نشاطها رغم الدمار الذى حل بالورش والصهاريج والمنشئات التابعة لها من جراء غارات السلاح الجوى البريطانى . وباستثناء المحطة وجزء من الطابية لم يكن التلف الذي لحق بالمباني كبيراً لان الغارات الجوية البريطانية استهدفت المنشئات العسكرية الدفاعية . ولكن هذه المنشئات والحفر الناجمة عن انفجار القنابل شوهت المدينة وجعلتها أشبه بفارس مثخن بجراح غائرات بعد قتال حامي الوطيس . وزاد الطين بلة أن الايطاليين درجوا خلال الفترة التي أمضوها في كسلا على حفر المخابئ لاتقاء الغارات الجوية تحت جدران المبانى مباشرة مما أدي الى اضعاف أسسها . وبعد شهور من استرجاع المدينة ابتلع أحد المخابئ ذات ليلة المرحاض الملحق بغرفة النوم في مسكن حاكم المديرية فقد انهار الجدار الملاصق للمخبأ واختفي المرحاض تبعاً لذلك في جوف الأرض . وتدهورت الأوضاع الصحية أيضاً خلال فترة الاحتلال تدهوراً عظيماً مما استدعي تنفيذ حملة واسعة النطاق لنظافة المدينة ودفن جثث الحيوانات النافقة المتناثرة هنا وهناك فى أرجاء المدينة . وبفضل العناية الألهية وحدها لم تنتشر الأمراض الوبائية بين السكان خلال فترة الاحتلال الايطالي . ولكن كان واضحاً أن السكان يعانون من سوء التغذية . وكانت المتاجر فارغة من السلع الاستهلاكية وليس في أيدى الناس سوى الليرة الايطالية . وقد ساعدت الوجبات الغذائية المجانية التي تبرعت بها القيادة العسكرية في حل الضائقة نسبياً بين سكان المدينة البالغ تعدادهم آنذاك نحو سبعة آلاف نسمة . وشكلت السلطات

بالاضافة الى ذلك هيئة خيرية لاغاثة الفقراء فى المدينة أسندت رئاستها الى محمد عثمان العوض المرضى باشكاتب المديرية . وتبرعت هيئة الاغاثة المركزية بألف جنيه للمدينة يوم استرجاعها . ودعت سلطات المدينة الى اجتماع لاعلان ذلك كان بين خطبائه الشيخ عبد القادر جعفر (شقيق العمدة) الذى لم ترقه فى ما يبدو فكرة الاجتماع فقال مخاطباً الحاكم البريطانى « أن كل ما نشعر به فى الوقت الحاضر هو التعبير عن الشكر على عودة حكومتنا ولم يعد هناك ما يخيفنا فدعونا بضعة أيام نملأ فيها بطوننا وحينذاك سنكون قادرين على تقديم النصح لكم حول أمثل الطرق للاستفادة من هذا التبرع السخي الذى تتحدثون عنه » .

وكانت مشكلة العملة المتداولة بالطبع أول المشاكل التى واجهتها السلطات وتبين أن جملة ما لدى السكان من العملة الايطالية يبلغ ثلاثة ملايين ليرة بينها ٤٠٠ ألف ليرة فقط فى أيدى الطبقة الفقيرة ولابد للسلطات حينذاك من التصدى لهذه المشكلة اذ ما من سبيل قبل حلها لعودة النشاط التجارى لمساره الطبيعي وتمكين المواطنين من الحصول على احتياجاتهم الضرورية . وازاء ذلك قامت السلطات بشراء ما يزيد على مليون ليرة من المواطنين بأسعار مجزية بالعملة المصرية المتداولة وقدمت قروضاً للتجار والمزارعين لاستئناف نشاطهم . وبفضل العون الرسمي والشعبي كتب لمدينة كسلا أن تقف على قدميها من جديد فى فترة قصيرة واستردت « عروس التاكا » زينتها وحلتها التى عرفت بها فى الماضى .

ولابد من أن نسجل هنا أن ولاء سكان كسلا وروحهم المعنوية لم يتعرضا الي الاهتزاز كثيراً طيلة فترة الاحتلال الايطالي القاتمة التى أمضوها فى ظل الحرمان وعدم الاستقرار . ويرجع معظم الفضل فى ذلك الى السيدين محمد عثمان الميرغنى وشقيقه الحسن وأعوانهما من أعضاء مجلس مدينة كسلا الذين أثبتوا أنهم قادة أصيلون وأهل للثقة طالما وقفوا بين الفاتحين ومواطنيهم فى كل مرة يميل فيها الايطاليون وأشياعهم الى اتخاذ اجراء بغيض أو ضار . وأشرف السيدان وأعوانهم بحكمة ومهارة على توزيع امدادات الذرة المودعة فى المخابئ السرية وبفضل ذلك لم يهلك أحد من الجوع وبقى جانب من تلك الامدادات حتى استرجاع المدينة . وما من شك فى أن السيدين وأعوانهما غامروا بأرواحهم ومصالحهم وحرياتهم بوقوفهم الى جانب مواطنيهم وحمايتهم من الوقوع فريسة للظلم أو الجوع ، وطالما هيأوا لهم سبل الهروب من المدينة الى بر السلامة والأمان بالاضافة لتزويدهم السلطات العسكرية والمدنية السودانية بمعلومات ذات أهمية بالغة . وقد انتقل السيد محمد عثمان الميرغنى (ولقبه زعيم الشباب) فى أواخر سنوات حياته من كسلا الى الخرطوم وأقام فى مسكنه الريفى فى ضاحية شمبات وتوثقت بينى وبينه عرى المودة والصداقة وذكر لى أن الايطاليين حاولوا كثيراً استمالته والتودد اليه ولكن دون جدوى وقد عرضوا عليه فى احدى المرات منصب نائب الامبرطور (امبرطور ايطاليا) فى اثيوبيا واريتريا والسودان ولكنه اعتذر بحجة أن آل الميرغنى « بيت دين لا ملك » . وقال عن واقعة اعتزامه مع شقيقه الحسن الخروج من كسلا قبيل استيلاء الايطاليين عليها انهما أرادا مغادرتها مؤقتاً

للاستنارة برأى عمها السيد على الميرغنى (زعيم الختمية) وتلقى توجيهاته ولكن عمها طلب منها البقاء فى المدينة ونصحها فى الوقت نفسه بتجنب أخذ زمام المبادرة فى أى عمل يمكن أن يفسر بانه تعاون من جانبها مع الايطاليين . وأعرب السيد على فى رسالته لها عن ثقته فى انتصار بريطانيا . وقد أنعمت الحكومة البريطانية بعد استرداد كسلا على السيد محمد عثمان بوسام الامبرطورية البريطانية (أو بي سى) بدرجة ضابط وعلى شقيقه الحسن والبمباشى كيلة ومحمد عثمان المرضى بنفس الوسام ولكن بدرجة عضو (أم بي أى) . وأنعم على الشيخ عبد الله فقيرى بكسوة شرف دينية وقد رفض فى أباء المكافأة المالية السخية التى عرضتها عليه السلطات تعويضاً عن خسائره خلال فترة الاحتلال الايطالى .

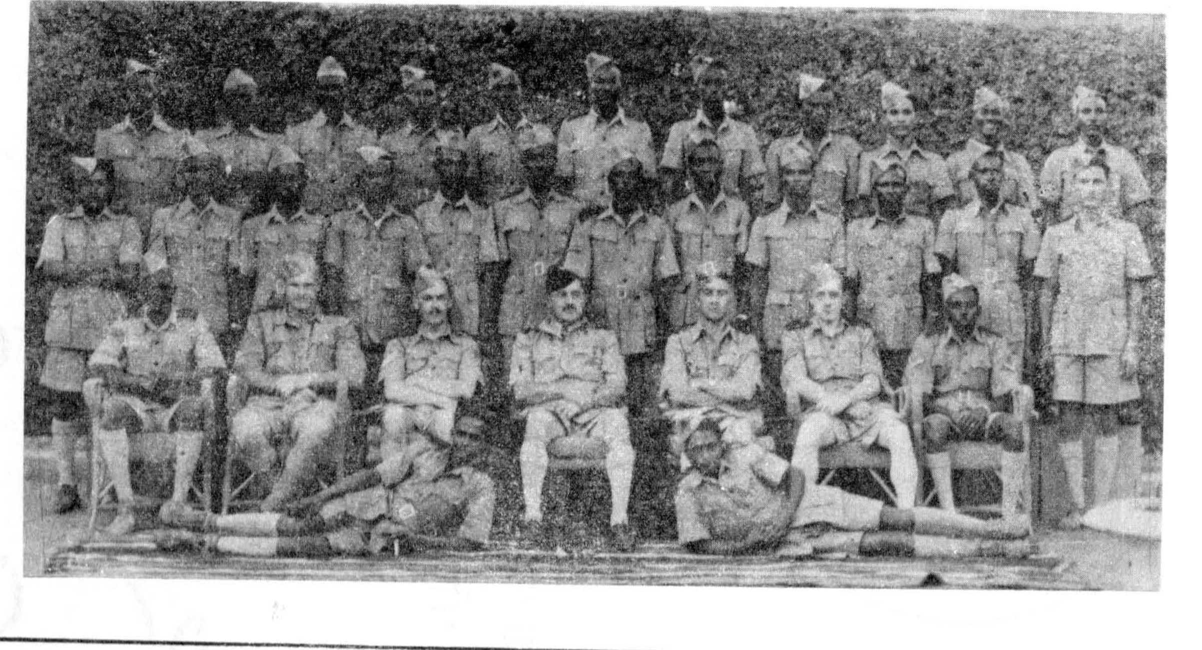
أما الشيخ محمد الأمين ترك (فروستى) فقد كان نصيبه وسام فارس الامبرطورية البريطانية (سى بي أى) .

وقبل أن ندع كسلا المشغولة بتضميد جراحها لابد من الاشارة الى « شفرة القاش » التى اخترلت ساعات طويلة من المشاق ولم تفلح أجهزة المخابرات الايطالية رغم سعيها المحموم فى كشف رموزها . وشفرة القاش من بنات أفكار المستر هازلدين مفتش مركز البجة آنذاك فقد شد انتباهه التشابه الصارخ بين خريطة لندن ومعالم منطقة الحدود الشرقية وجمح به الخيال فاذا بنهر أتبرا يصبح فى نظره بمثابة شارع باركلين وأصبحت دلتا القاش حى سوهو الشهير فى قلب العاصمة البريطانية وأصبحت مدينة كسلا ميدان بيكاديللي ولما كان البكباشى كيلة مقيماً فيها فقد صار يرمز اليه فى الشفرة باسم أيروس صاحب التمثال الذى يتوسط ميدان بيكاديللي . واتسعت الشفرة تدريجياً بحيث أصبحت تضم العديد من شوارع لندن ومعالمها مثل شوارع فينشلي وكينغز رود وستراند ومحطة فكتوريا . وقد وقعت بعض رسائل شفرة القاش فى يد الايطاليين وتوهموا أن طلاسمها ترمز الى حشود بريطانية داخل السودان أو فى طريقها اليه .

وكان استخدام شفرة القاش هذه قاصراً فى البداية على المسئولين المدنيين ثم اعتمدتها بعد ذلك قيادات السلاح الجوى البريطانى وقوة الغزال .



سرية سلاح المدفعية الإحتياطية



العشاري عبدالله Ashari Abdulla — محمد حسن الامين Mohammed Hassan El Amin — عبد السيد موسى Abdel Sayed Mousa — على العطا Ali El Atta — حسن عيد Hassan Eid — محمد حسن Mohammed Hassan — محمود بر Mahmoud Bur — احمد حسين دسوقي Ahmed Hussein Disouki — وداعه رزق الله Widaa Rizgalla — الجاك الله جابو El Jak Allagabu — هاشم عبده Hashim Abdo

عزره هارون ليفي Ezra Haroon Levy — بشرى عبد المعبود Bushra Abd el Maboud — صالح احمد عبدالسخي Salih Ahmed Abdel Sakhi — حسين حسن Hussein Hassan — عبدالله احمد جمعه Abdullahi Ahmed Gumaa — سراج النور خوجلي Silag El Nour Khogali — توتو ارمنت Tote Arment — عبدالفتاح علي عمر Abdel Fatah Ali Omar — ابراهيم محمد الامين Ibrahim Mohammed El Amin — الطيب عبدالله El Tayib Abdalla — محمد عثمان Mohammed Osman — حسين فرحات Hussein Farahat

الطيب الشافعي El Tayeb El Shafie — ب . م . دين B. M. Dean — باش H. C. J. Pash — ف . هركومب F. Hurcomb — السترو . بيلي سترونج W. Baillie-Strong — ر . ويكفلد R. C. Wakefield — فضل المولى بحر Fadl El Mulla Bahr

سيد محمد بشير Sayed Mohammed Bashir — مهدي مصطفى Mahdi Mustafa

الفصل السابع

في الطريق إلى كرن

عبقرى الروح والبدن عانق العلياء فى كرن
ومضى للموت يطلبه تحت أطراف القنا اللدن



ليس من السهل ضرب عدو عقد العزم على الفرار من أرض المعركة وولى الأدبار مطلقاً ساقية للريح وذيله بين فخذيه مثل الكلاب المستنفرة المذعورة ولابد من أن يصاب المهاجمون المتحرقون للقتال بخيبة أمل كبيرة عندما يكتشفون أن العدو الذى جاؤا لمنازلته تخلى عن موقعه وربما تضطر القيادة لمراجعة خطتها من جراء ذلك . وهذا ما فعلته قيادة القوات الحليفة حين اضطرت بسبب انسحاب الايطاليين من مواقعهم الامامية الى تقديم ساعة الصفر من أول الاسبوع الثانى من فبراير الى الثامن عشر من يناير . وكان استرجاع مدينة كسلا فى اليوم التالى ايذاناً بمطاردة العدو المتقهقر داخل الأراضى الاريترية وحرمانه من فرصة التجمع فى مواقعه الجبلية الحصينة على طريق أسمرا العاصمة الاريترية الآمنة وراء سلسلة جبلية متراصة تمتد من الشمال الى الجنوب ولا سبيل الى تخطيها إلا عند طرفها الشمالي حيث تقع مدينة كرن أو طرفها الجنوبي من جهة بارنتو وعرزا .

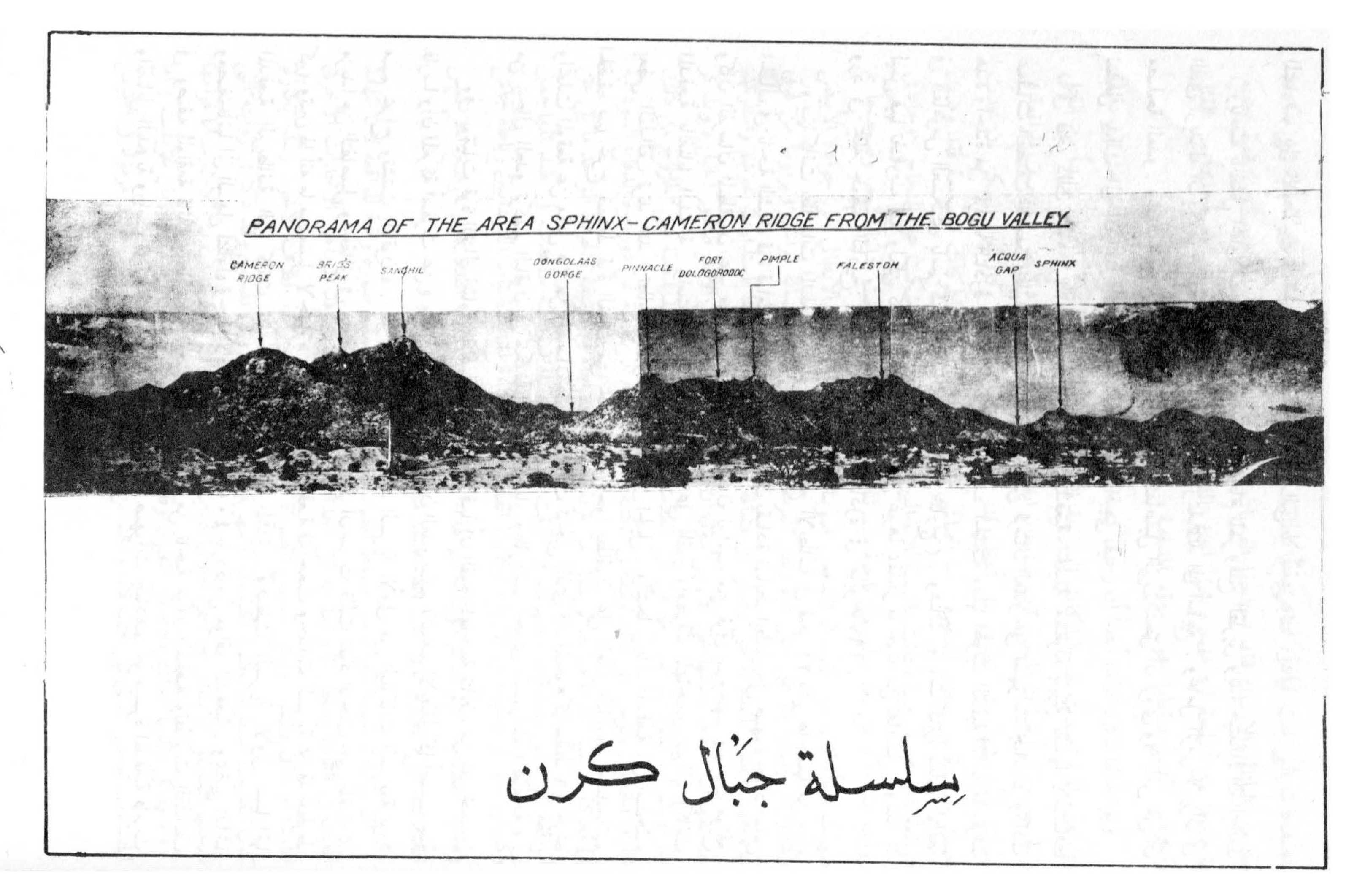
ولم تنشغل القيادة العسكرية الحليفة بمدينة كسلا بعد استرجاعها فأوكلت أمر ادارتها الى السلطات المدنية التى كانت على أهبة الاستعداد . وانطلقت القوات الزاحفة من هناك على محورين رئيسيين اتجه أحدهما شمالاً عبر طريق سبدرات – كيرو – كرن بينما اتجه الثانى جنوباً على طريق تسنى – ابكوتا بارنتو – عرزا من أجل تطويق العدو وسحقه فى هجوم خاطف عاصف معتمدة فيه على الاسلحة الخفيفة ووسائل النقل الميكانيكية السريعة كالمدرعات والسيارات المسلحة بالمدافع الرشاشة . ويعنى هذا وقوع العبء الأكبر على البلوكات السريعة والمدفعية التابعتين لقوة الدفاع السودانية باعتبارهما رأس الرمح . وقد اعترف التاريخ الرسمي البريطانى بالدور المثير الذي نهضتا به فى مطاردة العدو وقطع خطوط تراجعه أو انتقاله من موقع لآخر . وكان ثمة تنسيق كامل بين القوات الزاحفة على المحورين وكثيراً ما هبت احداهما لنجدة الاخرى أو مساندتها عند اللزوم فالمسافة بين المحورين لا تزيد علي خمسين ميلاً .

وقد تولت الفرقة الهندية الخامسة وفى طليعتها المجموعة الثانية من البلوكات السريعة ووحدات من المدفعية السودانية الزحف على المحور الجنوبي وانضمت اليها فى منتصف الطريق الفرقة الهندية العاشرة بقيادة البربغادير سلم . وتحركت على المحور الشمالى الفرقة الهندية الرابعة تتقدمها قوة الغزال الشديدة المراس التى تضم المجموعة الأولي من البلوكات السريعة ووحدات من المدفعية السودانية أيضاً . وجاء فى التاريخ الرسمي البريطانى عن قوة الغزال انها تشكيل سريع الحركة فى عمليات الاستكشاف والمطاردة والقتال . اما المدفعية السودانية فأنها أحدث سلاح انضم الى قوة الدفاع السودانية آنذاك نتيجة لتطوير سلاح الفرسان (السوارى) وكانت الحاجة اليها شديدة للغاية بسبب فعالية مدافعها من طراز الهاوتزر التى ثبت من خلال التجربة أنها السلاح الوحيد المناسب للتعامل مع المعاقل الايطالية المنتشرة فى السفوح الجبلية المنحدرة انحداراً شديداً الى الوديان والطرق التى سلكتها القوات الزاحفة . وشهد المراقبون للمدفعية السودانية فى تلك الأيام بكفاءتها المدهشة وقدراتها القتالية ودقتها فى اصابة

الهدف ومن النادر أن تطيش قذائفها . ولعل مما يدعو الى الاعجاب أن جنود المدفعيه السودانية – الفتية آنذاك – لم يروا فى حياتهم مدفعاً حتى أول يوليو من عام ١٩٤٠ وكان أول قتال اشتركوا فيه المعركة التى جرت فى نوفمبر من العام نفسه وقد سبقت الاشارة اليها .

وفى بداية الزحف وفى نفس اليوم الذى استرجعت فيه مدينة كسلا قامت قوة الغزال باحتلال مدينة سبدرات على المحور الشمالي بينما احتلت المجموعة الثانية (بلوكات سريعة) مدينة تسنى على المحور الجنوبي . وكانت القوات الايطالية قد أخلت المدينتين فى اليوم السابق . ولكن فى ما وراء سبدرات وتسنى ازداد طريق القوات الزاحفة على المحورين وعورة وضيقاً بين الشعاب الجبلية وازداد تبعاً لذلك خطر وقوعها فى كمائن معادية كما انتشرت على طول الطريق الألغام التى زرعها الايطاليون المتقهقرون بالاضافة للمسامير المدببة الحادة وغيرها من المعوقات . ولنبق الى حين مع القوات الزاحفة على المحور الشمالي .

بعد احتلال سبدرات انطلقت القوات الزاحفة صوب كرن عبر أغوردات فى سباق مع الزمن من أجل الوصول الى هدفها فى الوقت المناسب وفقاً للخطة المرسومة القائمة على أساس معاجلة العدو وسحقه قبل أن يستجمع قواه فى معاقلة الجبلية الحصينة فتصبح زحزحته أمراً متعذراً . وقادت المجموعة الأولى من البلوكات السريعة الملحقة بقوة الغزال الهجوم على وشاى فاجتاحتها رغم تعرضها لغارات الطائرات الايطالية التى كانت المدفعية دائماً لها بالمرصاد . وواصلت القوات زحفها الي أن بلغت مشارف ممر ضيق يقع بين وشاى وكيرو التى أخذت تتجمع فيها قوات العدو . وتوقف الزحف هناك بسبب مدفعية العدو التى صبت على القوات الحليفة نيراناً حامية من معاقلها الجبلية . وقد تدحرجت سيارة البلوكات السريعة التى كانت منطلقة فى الطليعة الى بطن الوادى اثر ارتطامها بأسلاك التلغراف الممدودة على ارتفاع قليل على عرض الطريق . وعندما هم طاقم السيارة بمغادرتها أصيب أحدهم بجرح فى رأسه من جراء عيار نارى وباستثناء ذلك لم تقع بينهم خسارة فى الأرواح . وتصدت المدفعية لمصادر النيران المعادية فأخرستها وتم انتشال السيارة فى اليوم التالي (٢٠ يناير) . ثم اقتحمت قوة الغزال الممر وواصلت القوات زحفها فى اليوم نفسه الى السهل الواقع على مسافة ثمانية أميال غربى كيرو ومن وراء السهل سلسلة متصلة من الجبال المنيعة كجدار من الجرانيت لا سبيل لاختراقه الا عبر ممر ضيق للغاية يمتد لمسافة ميل واحد تحف به من الجانبين جبال شاهقات يصل ارتفاعها الى الف ومائتى قدم وتتولى حراسة الممر « كتيبة الفرسان الأمهرية » المؤلفة من نحو ألفى مقاتل معظمهم من الخيالة بالاضافة الى عناصر من الهجانة والمشاة والمدفعية الخفيفة . وكانت مهمة هذه الكتيبة تعطيل الزحف بتضييق الخناق على جناحيه حتى تتمكن القوات الايطالية المتراجعة من الوصول الى كيرو وبينها الفرقة الثانية التى خطت منذ انشائها قبل عشرات السنين سجلاً حافلاً بالانتصارات وأصبح من



سلسلة جبال كرن

المتعارف بين الايطاليين الاشارة اليها باسم « الفرقة التى لا تُقهر » .

وباءت بالفشل المحاولات الأولى التى بذلت لاقتحام الممر وفتح الطريق وبدا حينذاك أن الزحف الذى أريد له أن يكون خاطفاً وعاصفاً سيتوقف فترة ربما تمتد الى أسابيع . وعامل الزمن لا يزال فى مصلحة العدو . وشهد اليوم التالي واقعة مثيرة مليئة بالتفاصيل التى تستحق أن تروى ولا بأس من أن ننشغل بذلك الى أن تجد القوات الزاحفة مخرجاً مما هى فيه :

فى فجر ذلك اليوم (٢١ يناير) وبينما كانت المدفعية الحليفة مشغولة بتهيئة نفسها لاستئناف عمليات القصف انقضت عليها من وراء الجبال قوة من فرسان العدو على صهوات جيادهم وكانت هذه واحدة من المرات النادرة التى شهدت فيها الحروب الحديثة ومنها الحرب العالمية الثانية ما يعرف فى القاموس العسكرى باسم كَرةِ الفرسان (كافلارى شارج) . وهناك روايات كثيرة لتلك الواقعة ليس فيها تضارب كبير ولكن كل واحدة منها تتميز عن غيرها بمقدار ما حوته من تفاصيل . ونبدأ بما ورد فى مجلة جمعية التاريخ الحربي البريطانية الصادرة فى مايو ١٩٧٧ .

« بينما كانت بطاريات المدفعية تستعد لقصف المواقع الايطالية فى فجر ٢١ يناير هاجمتها من وراء الجبال فى ناحية الشمال قوة قوامها نحو ستين من الفرسان بقيادة ضابط ايطالي على صهوة جواد أبيض وكان الفرسان المنطلقون على صهوات جيادهم يطلقون نيرانهم من فوق سروجهم ويرمون مواقع المدفعية بالقنابل اليدوية . واستدارت المدفعية نحوهم علي الفور وأمطرت المهاجمين بنيرانها وكانت بعض القذائف ترتد عند ارتطامها بالأرض الي صدور الخيل . والتجأ رجال المدفعية الى اسلحتهم الخفيفه بينما خرج ضباط قوة الغزال من خنادقهم وراحوا يطلقون على العدو النار من مسدساتهم وانجلت الموقعة عن مقتل ٢٥ من الفرسان بينهم اللفتنانت توجنى الذى قاد الهجوم كما سقط ١٦ جريحاً من رجال العدو تركهم الباقون فى مكانهم وولوا الأدبار وطاردتهم احدى السيارات المصفحة » .

وفى يوميات قوة الغزال اشارة مقتضبة للواقعة جاء فيها أن القوة المهاجمة تتألف من نحو خمسين فارساً وأن المعركة أسفرت عن « مقتل اثنى عشر من فرسان العدو بينهم قائدهم الايطالي كما أصيب ستة منهم بجراح وتشتت الباقون » . غير أن بوبهام باشا قائد السرية الأولى من البلوكات السريعة يورد مزيداً من التفاصيل والحقائق فى وصفه للواقعة فهو يذكر أن سريته ظلت تقود الزحف حتى بلغت ممر كيرو وتبين لها أنه ما من سبيل لاجتيازه الا باستخدام المدفعية فتراجعت وحدات السرية مخترقة خطوط المدفعية البريطانية التى كانت تستعد لمساندة زحف المشاة . وهبطت السرية الأولي بسياراتها ومصفحاتها الى السهل لتناول وجبة الأفطار على مسافة ٤٠٠ ياردة من مواقع المدفعية . ويمضى الباشا فى وصفه للواقعة قائلاً « تعالى فجأة صخب وضجيج من ناحية موقع المدفعية وتطايرت القذائف والقنابل اليدوية ورأيت كوكبة من الفرسان مندفعين على صهوات جيادهم نحو ميسرة المدفعية فأمرت

المصفحات التي تحت قيادتي بمتابعتي ثم انطلقت على سيارة « فان » الي خطوط المدفعية التي سادها جو من البلبلة والارتباك فقد اجتاحها الفرسان في هجومهم المفاجئ . واستخدمت المدفعية جميع ما عندها من أسلحة لرد الهجوم حتى اختفى الفرسان عن الأنظار تاركين وراءهم عدداً من القتلى والجرحى الذين سقطوا حول موقع المدفعية » .

ويؤخذ مما ذكره الباشا أيضاً أن رجال كتيبة الفرسان الأمهرية قاموا بكرة ثانية بعد عشرين دقيقة وفي هذه المرة تصدت لهم البلوكات السريعة فارتدوا على أعقابهم تاركين وراءهم مزيداً من القتلى والجرحى وذكر أيضاً أن الهجوم قاده ضابطان ايطاليان كل منهما على جواد أبيض . ووصف الواقعة في جملتها بأنها مشهد مثير انطوى على أعظم قدر من الشجاعة والاقدام وكان من الممكن أن يحدث خسائر جسيمة بين رجال المدفعية . أما البمباشي بيتر أوبشر أركانحرب البلوكات السريعة فقد وصف الواقعة بأنها مجزرة رهيبة وكانت بالنسبة للايطاليين محاولة جريئة للغاية أوشكت على النجاح . وجاء في روايته عنها – « على بعد ميلين من ناحية ميسرتنا رأينا غباراً كثيفاً والتقطت أذاننا صخباً وضجيجاً ثم ظهرت فجأة كتلة من الفرسان المندفعين صوبنا وفي مقدمتهم قائدهم الايطالي على جواده الأبيض وكادوا أن يحيطوا بنا على حين غرة وظل الفرسان يطلقون في جرأة وبسالة نيرانهم ويرموننا من فوق سروجهم بالقنابل اليدوية حتى وصلوا الى مسافة ثلاثين ياردة من مدافعنا فاستدارت نحوهم وأمطرتهم بقذائفها التي سقط بعضها على الأرض دون أن ينفجر بينما مزق البعض الآخر صدور الخيل » ويذكر بيتر أوبشر أن البلوكات السريعة هي التي أنقذت الموقف وكانت عوناً للمدفعية على الخروج من ذلك المأزق الخطير . وتؤمن على ذلك وثيقة في مكتبة جامعة ديرهام البريطانية عن دور قوة الدفاع السودانية في معركة افريقيا أعدها ضابط بريطاني من فرقة الهجانة وقد جاء في الوثيقة بالحرف الواحد ما يلي عن الواقعة التي نحن بصددها « ظهرت في الوقت المناسب فصيلة سودانية ساعدت في صد المهاجمين وكبدتهم خسائر جسيمة في الأرواح وكانت الفصيلة تحت قيادة أشد الضباط السودانيين رباطة جأش وهدوء أعصاب » ولم تذكر الوثيقة اسم هذا الضابط السوداني ولكنها أغدقت في موضع آخر نفس الصفات على الملازم ثاني عبد الله محمد مصطفى بطل قلابات .

ان روايات شهود العيان من ضباط القوات الزاحفة ربما لا تقدم صورة وافية للواقعة لأن شاهد العيان في العادة يسجل ما يرتبط به من أحداث دارت أمام عينيه وقد يتجاهل الأحداث الأخرى عامداً أو دون قصد . ولكي تكتمل الصورة لابد من عرض روايات الطرف الآخر . ونبدأ بكارلو كول الطبيب البيطري لكتيبة الفرسان الأمهرية الذي شارك بنفسه في الهجوم وقد ذكر في روايته التي سجلها القنصل البريطاني في أسمرا خلال الستينات أن الكتيبة المذكورة تتألف من ثلاث سرايا قوامها ٧٠٠ مقاتل ولديها آنذاك ٤٥٠ من الخيول وقائدها هو البارون أميديو غويليت (كابتن غويليت) أما اللفتننانت توجني الذي لقي حتفه فانه واحد من قادة السرايا الثلاثة وكان أبوه جنرالا مرموقاً في الجيش

الايطالي . وقد استخدمت القيادة الايطالية كتيبة الفرسان الأمهرية كقوة متنقلة لمناوشة القوات الحليفة وتعطيل زحفها وكلفت فى هذا الاطار بالهجوم على قوة الغزال التى كانت على مسافة تتراوح بين سبعة وثمانية أميال غربي كيرو . وقال كارلوكول عن واقعة الهجوم على مواقع المدفعية انها استغرقت ساعتين ونصف انقض الفرسان خلالها فى ثلاث كرات على تلك المواقع ووصلوا فى كل واحدة منها الى حيث المدافع والمصفحات وأصيب اللفتننانت توجنى بثلاث قذائف من مدفع رشاش اخترقت صدره فسقط مضرجاً بدمائه وسقط معه جواده الذى أصابته أيضاً قذائف مماثلة . وتمكن كارلوكول من نقل جثة الفارس القتيل من أرض المعركة وأشرف على دفنها ثم نقلت فى وقت لاحق الى مقبرة ضحايا الحرب الايطاليين فى مدينة كرن . ويضيف كارلوكول فى روايته أن السريتين الأخريين بقيادة لوكاريللى وكارا شنتا هجوماً أيضاً على مواقع المدفعية قبل أن يقوم الكابتن غويليت بالانسحاب الى أغوردات مع من بقى على قيد الحياة من كتيبته ووصلوا إلى أغوردات بعد ثلاثة أيام ولكن بعد مشقة وعناء بسبب مطاردة البلوكات السريعة لهم وافتقارهم الى الماء والطعام . ويذكر كارلوكول أيضاً أن كتيبة الفرسان الأمهرية كانت مؤلفة من جنود اريتريين ويمنيين بقيادة ضباط ايطاليين . وقد سجل البارون أميديو غويليت قائد الكتيبة بدوره ذكرياته عن الواقعة التى نحن بصددها فى رسالة الى القنصل البريطانى فى أسمرا خلال الستينات أيضاً ذكر فيها أن البلوكات السريعة (السودانية) قامت منذ الوهلة الأولى بالالتفاف حول فرسانه ولما أدرك اللفتننانت توجنى ذلك تحول لمهاجمة البلوكات السريعة مما أدى الى انفصالها عن باقى قوة الغزال وأصبح من غير الممكن لها اطلاق نيرانها على الفرسان المهاجمين خوفاً من أن تصيب النيران مواقع المدفعية ومقر قيادة قوة الغزال . وقال إن الفرقة الثانية تمكنت من الوصول الى كيرو فى ظهر اليوم نفسه ولكن فرقة ايطالية أخرى بقيت خارجها اذ وجدت كل الطرق مسدودة أمامها . وتحدث البارون عن خسائر كتيبته فى ذلك اليوم فقال انها فقدت ١٧٩ قتيلاً وأكثر من مائتى جريح وما يزيد على مائتى حصان ولكنه يفخر بأن ثمن تلك التضحية كان نجاة الفرقة الثانية وتمكينها من الاحتماء داخل مدينة كيرو وتجميع أطرافها لمواصلة القتال من جديد .

وتضاربت الأقوال حول مصير البارون أميديو غويليت فمن قائل أنه عند سقوط أسمرا لم يبق معه من كتيبته سوى مائتين وانه وقع فى الأسر ولكنه تمكن من الهروب عبر البحر الأحمر الى اليمن ومن هناك الى روما . ومن قائل – وهذا هو الأرجح – أن البارون لم يقع فى الأسر وانما أفلت فى آخر لحظة وعهد بمطاردته للميجر ماكس هارارى من جهاز المخابرات التابع لقيادة الشرق الأوسط ولم يفلح الميجر فى القاء القبض عليه فقد كان البارون مراوغاً من الطراز الأول . وأوشك مرة واحدة على الوقوع فى الأسر ولكنه نجا بأعجوبة تاركاً وراءه حصانه الأثير « ساندور » . ولما مات الحصان فى الأسر احتفظ الميجر هارارى بحوافره وسلمها بعد انتهاء الحرب الى البارون الذى أصبح آنذاك قنصلاً لبلاده فى عدن وتدرج فى السلك الدبلوماسى الي أن أصبح سفيراً فى العاصمة الأردنية . ومثلما تضاربت

الأقوال حول مصير البارون غويليت تضاربت أيضاً حول مصرع اللفتننانت توجنى « وعلى أى جنب كان » .

* كارلو كول الطبيب البيطرى لكتيبة الفرسان الأمهرية يقول أن ثلاث قذائف من مدفع رشاش اخترقت صدر الفارس الشجاع .

* بوبهام باشا قائد السرية الأولى من البلوكات السريعة يؤكد أن قذيفة من مدفع مضاد للدبابات هشمت رأسه ويتفق معه فى ذلك الجنرال سير روبرت مانسيرغ الذى كان آنذاك ضابطاً صغيراً مع المدفعية البريطانية الملحقة بقوة الغزال .

* البريغادير هوساك من ضباط قوة الغزال يدعى أنه هو الذى أطلق النار على « الضابط الشاب ذى الشعر الأشقر » عندما حمل عليه شاهراً سيفه . وقام هوساك بعد الحرب بتسليم الشرطة فى اسكوتلنده مسدساً ادعى أنه من أسلاب الفارس ذى الشعر الأشقر .

وجميع هذه الأقوال المتضاربة صادرة عن شهود عيان شاركوا فى الواقعة وليس فى ذلك ما يدعو الى الاستغراب لأن شاهد العيان يسجل فى العادة ما يقع امام عينيه من أحداث مرتبطة به وقد يغفل عن سواها غير أننى أميل للأخذ برواية الطبيب البيطرى وفى اعتقادى انها أقرب الى الحقيقة وتؤيدها رواية بوبهام باشا الى حد ما كما يؤيدها الى حد كبير سير القتال الذى لعبت البلوكات السريعة فيه دوراً حاسماً يضاف الى ذلك أن كارلو كول – الطبيب البيطرى – هو الذى قام بنقل جثة الفارس القتيل (لفتننانت توجنى) وأشرف على دفنها . ولا يملك المرء الا أن يرفع قبعته تحية للبلوكات السريعة التى اتفق الرواة في ما يشبه الاجماع على أنها هى التى أنقذت الموقف وانبرت لمطاردة فلول الفرسان المندحرين .

ومع انقشاع غبار المعركة تقدمت القوات الحليفة صوب كيرو وفي طليعتها قوة الغزال وقامت وحدة من البلوكات السريعة بعمليات استكشاف جريئة وراء خطوط العدو بحثاً عن منفذ من الممر الضيق الذى تقع كيرو على طرفه الآخر ولكن بعد يوم من الهجمات المتبادلة التي اشتركت فيها مدفعية الجانبين أخذت قوات العدو في الانسحاب سريعا من مواقعها على جانبي الممر وتنفست القوات الحليفة الصعداء وأقبلت على تطهير الممر من الألغام وكتل الصخور وبعد ذلك انطلقت مجموعة من البلوكات السريعة والمدفعية السودانية وكأنها في سباق ماراثوني في حلبة الأولمبياد حتى تجاوزت مدينة كيرو إلى موقع على مسافة ١٥ ميلاً إلى الشرق منها واكتشفت هناك أسباب انسحاب القوات الايطالية المفاجئ من مواقعها المنيعة على جانبي الممر اذ وجدت القوة السودانية في الموقع الذى وصلت إليه سرية من البلوكات السريعة المشتركة في الزحف على المحور الجنوبي شقت طريقها خلف كيرو وكان جنود السرية في غمرة من الفرحة والابتهاج وسط ركام السيارات وغيرها من وسائل النقل

الايطالية المدمرة . وما من شئ يثير حفيظة الايطاليين ومخاوفهم أكثر من نخس مؤخرتهم وبالتالي قطع خط التراجع والانسحاب عليهم .

كانت خسائر العدو في كيرو – رغم انسحابة في اللحظات الأخيرة – جسيمة في الرجال والعتاد غير أن خسائره المعنوية أكبر من ذلك بكثير فقد تزعزعت معنويات الجنود غير الايطاليين بصفة خاصة وتجسمت الأخطار المحدقة أمام القيادة العليا في أسمرا فأقدمت على نقل قيادة الجبهة الاريترية إلى أغوردات على أمل الصمود هناك بفضل الفرقة الثانية التي نفذت من خلال سم الخياط عندما أطبقت عليها القوات الزاحفة عند مشارف كيرو ولولا كرة فرسان الكتيبة الأمهرية لما كتبت لها النجاة والوصول إلى أغوردات . وقد وصلت قوة الغزال في صباح ٢٥ يناير إلى موقع معروف بأباره في الطريق إلى أغوردات علي مسافة ثمانين ميلاً من الحدود السودانية وتمكنت في ظهر اليوم نفسه من قطع الطريق بين بارنتو وأغوردات ولم تكن القيادة الايطالية علي علم بوصول قوة الغزال إلى هناك وقد جاءت بعد الظهر بقليل خمس دبابات ايطالية في طريقها إلى أغوردات فتصدت لها سريتان من البلوكات السريعة ودمرت دبابتين وتمكنت الثلاث الاخريات من الهروب . وقد خسرت البلوكات السريعة في هذا الاشتباك سيارة فان واحدة عليها مدفع رشاش .

وفي خلال هذه المرحلة من الزحف على المحور الشمالي أصيب البريغادير فوسديك (الخرتيت) قائد المجموعة الاولى من البلوكات السريعة بحمى التيفويد ونقل من الميدان للعلاج وحل مكانه برونو براون نائب قائد الهجانة . وقد حزن رجال قوة الغزال علي فراق الخرتيت الذى كان قائداً محبوباً بين السودانيين وغيرهم وموضعاً لاحترام الجميع .

بقي على القوات الحليفة بعد قطع الطريق بين أغوردات وبارنتو مواصلة زحفها شرقاً لاقتحام مدينة أغوردات وهي تعلم أنها هدف عسير المنال فقد أقام الايطاليون فيها استحكامات منيعة وصدرت الأوامر للفرقة الثانية بالدفاع عنها مهما كان الثمن . وهنالك أيضاً جبل كوشين الصامد الذى يسد الطريق إلي المدينة أمام القوات الزاحفة . وازاء هذه المعوقات قررت القيادة الحليفة تجنب اقتحام مدينة أغوردات والبحث بدلاً من ذلك عن منفذ تصل القوات الزاحفة من خلاله إلى شرقي مدينة أغوردات حيث الطريق الممتدة إلى كرن . وانشغلت البلوكات السريعة بالبحث عن منفذ مناسب خلال يومي ٢٦ و٢٧ يناير وقد أسندت هذه المهمة الاستكشافية لثلاث وحدات احداها بقيادة الملازم أحمد عبد الله حامد (فاتح كسلا) واتضح أن الدروب التي يمكن سلوكها للإلتفاف حول مدينة أغوردات وعرة للغاية وغير صالحة لإستخدام وسائل النقل العسكرية الميكانيكية وأنه لا مفر من خوض المعركة لاقتحام المدينة عبر جبل كوشين العتيد . ووضعت الخطة بحيث يستهدف الهجوم ميسرة العدو علي أن يسبق ذلك إيهام العدو بأن المهاجمين قادمون من ناحية الميمنة . وقد ثبت منذ الأيام

الأولى للحرب أن الخداع سلاح ناجع ضد الايطاليين حتى عندما كانوا في قمة الانتصار وأن للبلوكات السريعة باعاً طويلاً في هذا المضمار الذى يتطلب بخلاف اليقظة والدهاء الشجاعة وسرعة الحركة . وهكذا – وتنفيذاً للخطة المرسومة – ظلت سيارات البلوكات السريعة (السرية السادسة) تقوم كل ليلة ولمدة ثلاث ساعات بالسير جيئة وذهاباً بين قاعدتها وموقع على بعد ميل واحد شمالي خور بركة تجاه ميمنة العدو . كانت السيارات تتحرك وأنوارها مضيئة في رحلات الذهاب وتطفئها في رحلات الإياب لكي لا يراها العدو . وانطلت الخدعة على الايطاليين وقاموا بنقل معظم قواتهم من الميسرة إلى الميمنة لصد الهجوم المرتقب . وبعد ثلاثة أيام انقضت القوات الحليفة على مدينة أغوردات مخترقة ميسرة العدو التى أخذت على حين غرة وكان ذلك في اليوم الحادى والثلاثين مـــن ينـــاير .

وباجتياح جبل كوشين وسقوط مدينة أغوردات أصبح الطريق مفتوحاً إلى كرن ومنها إلى أسمرا وانطلقت قوة الغزال وراء القوات الايطالية المتراجعة تقص من أطرافها وكان من المأمول أن تصل قوة الغزال إلى مشارف كرن في غضون ساعات قليلة وقبل أن تتمكن القوات المتراجعة من الصعود إلى المواقع الجبلية الحصينة لولا أن قوة الغزال تعثرت في انطلاقها عند جسر موسوليني على خور بركة شرقي أغوردات .

ولندع إلى حين القوات الزاحفة على المحور الشمالي وفي طليعتها قوة الغزال ببلوكاتها السودانية السريعة التى أصبحت تعرف بين الجنود في الميدان بأسم « الخيالة المصفحة » منذ اشتباكها مع كتيبة الفرسان الأمهرية . ولننتقل الآن لمتابعة الزحف على المحور الجنوبي .

قادت الزحف على هذا المحور – كما أسلفنا – المجموعة الثانية من البلوكات السريعة بقيادة الأميرالاى أور بك ومن ورائها الفرقة الهندية الخامسة ووحدات من المدفعيتين السودانية والبريطانية . وقامت البلوكات السريعة في نفس اليوم الذى استرجعت فيه كسلا باحتلال مدينة تسني الاريترية ثم مدينة هايكوتا التى أنضمت فيها إلى القوات الزاحفة الفرقة الهندية العاشرة بقيادة البريغادير سلم ولما بلغت القوات الزاحفة خور عديفونجاى اعترضتها قوة من العدو مؤلفة من نحو ثلاثمائة من المقاتلين المعتصمين وراء استحكاماتهم في القمم الجبلية المطلة على جانبي الطريق واستطاعت البلوكات السريعة بمساندة المدفعية زعزعة تلك القوة من معاقلها وفتح الطريق لمواصلة الزحف شرقاً وبعد اشتباكات ثانوية متناثرة مع فلول العدو تمكنت البلوكات السريعة التى لم تتخل عن مكانها في المقدمة من قطع الطريق بين كيرو وأغوردات وهو الذى سلكته القوات الايطالية وقد اشتبكت البلوكات السريعة مع لواء منها وأنزلت به خسائر فادحة كما تمكنت من الإيقاع بكتيبة كاملة من جيش العدو المرابط في كيرو وتمزيقها وكانت الكتيبة متجهة في اطمئنان إلى أغوردات بكل معداتها

ووسائل النقل الميكانيكية والحيوانية التى دمرتها البلوكات السريعة تدميراً كاملاً . واستسلمت الكتيبة التى أذهلتها المفاجأة بقائدها وضباطها الايطاليين .

وكان التفاف البلوكات السريعة حول كيرو وقطعها الطريق الممتد منها إلى أغوردات واحداً من الانجازات الخارقة التى أذهلت العدو الذى لم يدر في خلد قادته أن في إمكان القوات الحليفة قطع ذلك الطريق قبل أن تكمل انسحاب قواتها إلى أغوردات . وبعد قع الطريق بين كيرو وأغوردات تحولت القوات الحليفة جنوباً وفي طليعتها البلوكات السريعة على طريق أغوردات – بارينتو الذى حرصت القوات الايطالية المتراجعة على تخريب جسوره وزرع الألغام وسده بالمعوقات الأخرى كالصخور وجذوع الشجر . وبينما أخذت القوات الرئيسية تشق طريقها لمداهمة بارينتو من ناحيتي الشمال والغرب انطلقت البلوكات السريعة في حركة إلتفاف جزئية لمداهمتها من ناحية الشرق . واحتلت البلوكات السريعة في البداية هضبة ساميرو ثم توجهت فصيلة منها بقيادة الملازم محمود أبو سمرة إلى موقع على خور ليدا لإكمال عملية الإلتفاف ولكن الفصيلة وقعت هناك في كمين نصبه لها العدو الذى أمطرها بنيران مكثفة من أمامها وخلفها ومن جانبي الطريق الضيقة الوعرة . وأيقن رجال الفصيلة أنهم هالكون لا محالة ولكن «اذا لم يكن من الموت بدٍ فمن العجز أن تموت جباناً» فثبتوا في مكانهم إلى أن جاءت لنجدتهم فصيلة أخرى بقيادة اليوزباشي عبد الرحمن الفكي تساندها وحدة من المدفعية بقيادة اليوزباشي الطاهر إبراهيم العبد ومن جنودها الطالب الحربى الزين حسن الطيب . وتمكنت الفصيلة المحاصرة من التراجع إلى هضبة ساميرو تحت غطاء وفرته لها الفصيلة التى جاءت لنجدتها والتى خسرت بدورها في ذلك اليوم مدرعة واحدة دمرتها نيران العدو . ويقول أحد الضباط البريطانيين الذين شهدوا الواقعة عن الدور الذى قام به اليوزباشي عبد الرحمن الفكي «لقد أظهر هذا الضابط السوداني مهارة وشجاعة طيلة العمليات ويرجع الفضل بصفة رئيسية في أنقاذ رجال الفصيلة المحاصرة من موقف خطير إلى الطريقة التى أدار بها فصيلته ووجهها في ذلك اليوم» وقد منح اليوزباشي الفكى وسام الصليب البريطانى (ميليتارى كروس) كما منح آدم إبراهيم جاويش الفصيلة الميدالية الحربية البريطانية تقديراً لشجاعتهما وثباتهما في ذلك اليوم . وعلى أية حال واصلت البلوكات السريعة (المجموعة الثانية) اشتباكاتها مع قوات ايطالية في خور ليدا والمواقع المجاورة تفوقها من ناحية العدد وتعتمد على مدافعها المنصوبة في معاقل جبلية حصينة كما أن طبيعة المنطقة كانت غير مواتية للسيارات والمصفحات نظراً لضيق الطرق فيها ووعورتها . ولو كان لدى البلوكات السريعة تشكيلات مناسبة من المشاة لما وجدت صعوبة في إجتياح معاقل العدو . وقد استمرت الاشتباكات في منطقة خور ليدا أربعة أيام أجبرت بعدها القوات الايطالية على الانسحاب في صباح اليوم الثاني من فبراير وهو نفس اليوم الذى سقطت فيه بارنتو على أيدى القوات السودانية والهندية والبريطانية التى انقضت عليها من ناحيتي الغرب والشمال . وقد انسحبت

القوات الايطالية من بارنتو بعد قتال مرير استبسلت فيه بوجه خاص الفرقة الايطالية الثانية والعشرين التى كانت رأس الرمح في الزحف الايطالي على كسلا وبقيت مرابطة بعد احتلالها بالقرب من جبل أبو قمل . وكان في انسحاب القوات الايطالية من بارنتو إلى عرزا خيبة أمل كبيرة للمجموعة الثانية من البلوكات السريعة التى كانت تأمل في مداهمة بارنتو من جهة الشرق وبالتالي قطع طريق الانسحاب إلى عرزا . وضاعت الفرصة عليها بسبب المقاومة التى أبدتها الحاميات الايطالية في منطقة خور ليدا . ولكي تعوض البلوكات السريعة ما فاتها انبرت لمطاردة قوات العدو المنسحبة بعد سقوط بارنتو مباشرة فأستولت فى اليوم نفسه على مئات من الأسرى وعلى كميات هائلة من المدافع والسيارات العسكرية التى تخلت عنها ثلاثة ألوية أطلقت سيقانها للريح طالبة النجاة . وفي الواقع أن القوات الايطاليةالمنسحبة فقدت في ذلك اليوم كل سياراتها العسكرية باستثناء واحدة منها فقط أفلحت في الوصول إلى عرزا . واشتبكت البلوكات السريعة (المجموعة الثانية) خلال المطاردة وعلى مسافة عشرة أميال شرقي بارنتو مع قوة مؤلفة من عشر دبابات فدمرت ستا منها واستسلمت الأخريات .

وحاولت قوة ايطالية أخرى نصب كمين للبلوكات السريعة فدارت عليها الدوائر وحاق بها مكرها اذ أفلتت البلوكات السريعة من الكمين وأندحرت قوة العدو أمامها تاركة وراءها العديد من القتلى والجرحي واحدى وعشرين شاحنة من مختلف الأحجام ودارجتين ناريتين (موتورسايكل) وسيارة قائد القوة نفسها . وواصلت القوات الحليفة زحفها صوب عرزا تتقدمها المجموعة الثانية من البلوكات السريعة . وأخذت معاقل العدو تتساقط الواحد تلو الآخر دون مقاومة أو بعد اشتباكات طفيفة في بعض الحالات . وفي خلال ستة أيام وصلت القوات الحليفة إلى مسافة سبعين ميلاً شرقى بارينتو عبر دروب وعرة متعرجة بين الجبال تتخللها مجموعة من الخيران التى وجدت وسائل النقل الميكانيكية مشقة وعناء فى عبورها . وهبطت القوات الزاحفة هناك إلى وادٍ تناثر فيه حشد مهمل من سيارات العدو ومدافعه وغير ذلك من الأمدادات ووسائل النقل التى تخلت عنها القوات المنسحبة حتى لا تعوقها فى تراجعها بأقصى سرعة ممكنه إلى عرزا وقد عرف هذا المكان فى ما بعد بأسم «وادى الفوندوران» . وبلغت حصيلة ما استولت عليه القوات الحليفة منذخروجها من بارنتو وحتى بلوغها الوادى المذكور ٧٥٠ أسيراً و١٥ دبابة خفيفة و١٨ مجموعة من المدافع و١٧٠ شاحنة وذلك بخلاف كميات كبيرة من الإمدادات والذخيرة والبغال والجمال . وقد اتضح أن قوات العدو انسحبت من وادى القوندوران قبل ساعات قليلة من وصول القواتالحليفة إليهاإذ كانت مدافعها مخبأة بدقة متناهية فوق مرابضها وهى جاهزة للاستخدام أما السيارات فقد كانت بينها سيارة الفان والشاحنة اللتين استولت عليهما القوات الايطالية عند احتلالها لمدينة كسلا . وقد أصبحت سيارة الفان صالحة للاستخدام بعد اصلاحها وترميمها أما الشاحنة فقد كانت فى حالة يرثى لها ولا سبيل إلى

إصلاحها . ودخل الزحف عند وادى القوندوران فى مرحلة ركود اذ ليس ثمة منفذ للتقدم من هناك . وبقيت القوات الحليفة فى مكانها مكتفية بتعبيد الطرق بينما انشغلت البلوكات السريعة ووحدات المشاة السودانية بعمليات الدورية والاستطلاع في المنطقة إلى أن تم في السابع من مارس تشكيل قوة منها أطلق عليها أسم «قوة عرزا» وتتألف من المجموعة الثانية من البلوكات السريعة وسريتين من مشاة قوة الدفاع السودانية وسرية بريطانية وأسندت قيادتها إلى الأميرالاى أور بك قائد المجموعة الثانية . وعندما استحرت معركة كرن على المحور الشمالي قامت قوة عرزا بإستعراض عضلاتها على طريق بارينتو - عرزا لإيهام العدو بأن ثمة قوات حاشدة تتحرك فى تلك المنطقة لاحتلال عرزا مما يستوجب على الايطاليين الاحتفاظ بقوات كبيرة فيها بدلاً من تحويلها لتعزيز القوات الايطالية في كرن . وتكمن أهمية عرزا في أنها تقع على الطريق الرئيسية الممتدة من أسمرا إلى عدوة وغوندار وما من شك في أن سقوطها سيؤدى إلى قطع ذلك الطريق وتصبح المواقع الرئيسية الثلاثة (أسمرا وعدوة وغوندار) معزولة عن بعضها .

ولنترك القوات الزاحفة على المحور الجنوبى فى مكانها عند وادى القوندوران لنرجع إلى المحور الشمالي الذى تابعنا مسيرته حتى سقوط أغوردات وإنسحاب القوات الايطالية منها في أتجاه كرن .

عالم من الأشباح فى وادى المنايا . هكذا أصبحت مدينة أغوردات على حد تعبير ضابط هندى بعد سقوطها فى أيدى القوات الحليفة . فنى خلال الفترة القصيرة بين تراجع القوات الايطالية ووصول القوات المنتصرة قام الأهالي بنهب الحي الايطالي فى المدينة وتناثرت فى طرقاتها وحواريها الأوراق المبعثرة وحطام الأثاث والمقتنيات الأخرى بالاضافة الى كميات هائلة من الأسلحة والمعدات العسكرية وبينها ثلاثون مدفعاً تخلى عنها المنهزمون . ولم تنشغل القيادة الحليفة بترميم الدمار والخراب واعادة الحياة الى طبيعتها فى المدينة اذ كانت فى سباق مع عقارب الساعة ولابد من مطاردة العدو دون تأخير حتى لا يجد فرصة للاحتماء بسلسلة جبال كرن الواقعة على مسافة ستين ميلاً . وهكذا تحركت القوات الحليفة فى صباح أول فبراير شرقاً عبر المسالك الجبلية التى كانت زاخرة بمشاهد الخراب والدمار المألوفة فى حالة تراجع الجيوش المنهزمة فى فوضى ودون انتظام . رائحة الموت تفوح من جثث القتلي والأشلاء وأنات الجرحي تزحم المكان وكأنها أصداء سيمفونية حبيسة بين أصابع القدر .

ورغم الألغام وحطام السيارات وغير ذلك من المعوقات التى وضعها المنسحبون لسد الطريق تمكنت البلوكات السريعة السودانية من الوصول بعد ساعات قليلة الى جسر موسوليني المقام على خور بركة على مسافة ١٢ ميلاً من أغوردات ويرجع الفضل فى قطع البلوكات السريعة لهذه المسافة فى زمن قياسى الى أن المنطقة كانت قبيل الزحف الساحة الرئيسية لعمليات الاستكشاف التى قادها الضابط السودانى الحاذق الملازم محمد نصر . وتوقف الزحف عند جسر موسوليني لأن الايطاليين قاموا بتدمير عدد من دعائمه وبزرع الألغام عند طرفى الجسر وبين الرمال فى مجرى خور بركة الذى كان جافاً فى

تلك الأيام لأنه نهر موسمي صغير تغذيه مياه الأمطار المنحدرة من هضاب اريتريا وينساب كما هو معروف الى منطقة طوكر فى السودان . واستغرقت عمليات تطهير حقول الألغام واصلاح الجسر ثمان ساعات من العمل الشاق تحت وهج الشمس المحرقة ونيران المدفعية الخفيفة والثقيلة التى تركها العدو وراءه لاحباط أية محاولة لعبور الجسر . وتمكنت طلائع القوات الحليفة الزاحفة فى منتصف نهار اليوم التالي من الوصول الى سفوح جبال كرن عند الممر المعروف باسم دونغلاس . ولم يكن فى الامكان التقدم من هناك لأن الايطاليين فى هذه المرة قاموا بنسف الصخور التى على جانبي الممر وتدحرجت الكتل الصخرية الضخمة على الطريق حتى سدته تماماً ولم تبق على منفذ فيه كأنما اقتلع الايطاليون الجبل من أغواره ونصبوه على الطريق . لقد كانت تلك الساعات الثمان التى ضاعت عند جسر موسوليني حاسمة لأن القوات الزاحفة فقدت بسببها زمام المبادرة وفاتت عليها فرصة مباغته العدو وسراويله متدلية الى ما دون الركبتين ! ! ولو تواصل الزحف فى وقت أبكر وبخطوات أسرع الى ممر دونغلاس لاستطاعت القوات الحليفة دون عناء احتلال أربع مرتفعات استراتيجية على الأقل كانت خالية آنذاك من الجنود وهي مرتفعات زليل وفاليستو وأمبا وفوركوتا .

ومن ناحية أخرى كانت تلك الساعات الثمان كافية لتمكين الايطاليين المتقهقرين من تحصين مواقعهم مما أدى كما أثبتت الأحداث فى ما بعد الى تأخر سقوط مدينة كرن لمدة شهرين تقريباً . وقد أحسنت الحامية الايطالية فى كرن استغلال الساعات الثمان دقيقة بدقيقة فى تأمين مواقعها واستقبال مزيد من التعزيزات وبينها قوات على مستويات راقية من الكفاءة والقدرات القتالية مثل جيش المستعمرات الأول الذى وصل الى كرن فى صباح اليوم الذى تحركت فيه القوات الحليفة من أغوردات وقائد الجيش المذكور هو الجنرال نيكولانجيلوكارنيمو وهو مقاتل متفان وخبير بشئون الحرب سبق له الاشتراك فى ثلاث حملات عسكرية وقاد كتيبة اسبانية فى الحرب الأهلية وقد أطلق عليه فى ما بعد لقب « أسد كرن » . وتولى الجنرال كارنيمو فور وصوله قيادة الحامية فى كرن فكان ذلك بمثابة وضع الرجل المناسب فى المكان اللائق وفى الوقت المناسب أيضاً . وقد انصرف لتوه الى الاستعداد لهجوم من جانب القوات الحليفة كان يراه وشيكاً ولكنه كان يعلم فى الوقت نفسه أن العوامل الطبيعية – وهي من مصلحته – ستجبر عدوه على فرض حصار طويل الأمد يستطيع كارنيمو خلاله الاعداد لهجوم مضاد أو ربما يستسلم الحلفاء فى أوروبا وتضع الحرب أوزارها فى كل مكان . ورغم هذا التفاؤل كان الموقف العسكرى للايطاليين فى كرن سيئاً للغاية فمعنويات الجنود متدهورة وتوشك أن تصل الى الحضيض والمدفعية باستثناء القليل منها لم تكن فى مواقعها الاستراتيجية وقد ذكرنا من قبل كيف أن أربعة مرتفعات كانت خالية حتى من الجنود . ولم يكن أمام القائد الجديد « أسد كرن » من علاج لتلك السلبيات الخطيرة سوى اخضاع جنود الحامية لبرنامج من العمل الشاق ليلاً ونهاراً لسد الثغرات وتلافى أوجه النقص والتقصير ولكى يشغلهم ذلك ايضاً عن اجترار مرارة الهزائم الأخيرة .

وأقبل الجنود على اقامة مزيد من الاستحكامات ونسف المسالك والطرقات بما فى ذلك الخط الحديدى الممتد عبر الأنفاق داخل الجبال . وأصدر كارنيمو أوامره للوحدات بالتزام مواقعها والثبات فيها وقال لهم أنه لا مكان للتراجع لأن الجيش الايطالي على حد تعبيره – « سيقف بعد الآن ليحارب فى صمود وعناد » .

وكان من الممكن رؤية الجنود الايطاليين المنتشرين فى المرتفعات وهم فى حركة دائبة مثل خلية النحل وقد قال القائد البريطانى متسائلاً عندما رأى ذلك المشهد « ماذا تفعل تلك المعيز التى تجرى هنا وهناك فى أعلى الجبل ؟ فرد عليه الضابط المرافق » انهم الألبينى يا سيدى ! ! » والألبينى لقب يطلق على الايطاليين من قبيل الاحتقار والازدراء وهو مستمد من جبال الألب الشهيرة فى شمال ايطاليا .

ومن الواضح أن القيادة الايطالية اختارت جبال كرن للقاء القوات الحليفة القادمة من الغرب فى معركة فاصلة تنقذ الامبرطورية الايطالية فى شرق أفريقيا من الضياع وتسترد فيها شرف الجيش الايطالي الذى تمرغ فى التراب . وتمتد سلسلة جبال كرن المتراصة من الشمال الى الجنوب ويصل ارتفاعها فى بعض المواقع الى ألفين وخمسمائة قدم وهي وعرة للغاية ومعظم صخورها ذات أطراف حادة كشفرات الحلاقة بسبب تفتتها من جراء حرارة الطقس والعوامل الجوية الأخرى . وأمام هذه الموانع القاهرة التى بعضها من صنع الطبيعة والبعض الآخر من صنع الايطاليين تبخر الأمل فى امكانية اختراق الخطوط الايطالية الدفاعية فى هجوم شامل . وبعد أن كانت معدلات الزحف تقاس بالأميال مسافة وبالساعات زماناً أصبحت تقاس بالأقدام والأسابيع . وقد وجدت القوات الحليفة الزاحفة منذ وصولها الى سفوح جبال كرن نفسها تحت نيران حامية من مدفعية العدو الخفيفة والثقيلة وبنادق القناصة والقنابل اليدوية وليس للجنود وقاء من تلك النيران سوى الاحتماء بمجارى الخيران والأشجار والأحراش المتناثرة هنا وهناك . وفى الوقت نفسه ظلت الطائرات الايطالية تصليهم من الجو بقنابلها ونيران مدافعها الرشاشة . واتجه تفكير القيادة الحليفة فى الأيام الأولى الى البحث عن طريق للالتفاف حول كرن وكلفت مجموعة يقودها ضابط هندى باستكشاف الطريق المناسب وقد كان لكل موقع أو معلم فى المنطقة مصطلح يعرف به فى قاموس الشفرة . ولكن رؤى أن يحفظ الضابط الهندى تلك المصطلحات فى ذهنة بدلاً من اعطائها له مكتوبة خوفاً من اكتشاف أسرار الشفرة اذا قدر له الوقوع فى الأسر . ويبدو أن الضابط الهندى كان ضعيف الذاكرة فقد نسى ما استحفظه وحارت القيادة فى تفسير رسائله المبهمة .

واستبعد الجنرال بلات – القائد العام لقوة الدفاع السودانية والقوات الحليفة – اقتراحاً بتحويل مسار الزحف الى الطرف الجنوبي من جبال كرن حيث يقع الطريق بين بارنتو وعرزا ويمتد بعد ذلك الى أسمرا ومصوع . ولم يوافق الجنرال بلات على الاقتراح لأن الطريق المقترح يخترق فى بعض مواقعه

ممرات ضيقة للغاية غير صالحة لمرور قوات فى الحجم المطلوب بعتادها ومركباتها العسكرية . كما أن سطح الطريق يتحول فى موسم الأمطار الى طبقات سميكة من الوحل يتعذر معها نقل الامدادات فضلاً عن أنه مليئ بالألغام ومن الممكن للايطاليين أن يقوموا بسده وتخريبه . وهكذا أصبح واضحاً لدى القيادة الحليفة أنه لا حل سوى اجتياح سلسلة الجبال عند كرن بأى ثمن ومهما بلغت التحديات . وبنبغي على القوات الحليفة ألا تتقاعس عن ذلك بحجة ان الايطاليين زيادة على احتمائهم بمواقعهم الجبلية الحصينة وبسلاحهم الجوى متفوقون على القوات الحليفة عددياً بنسبة تربو على الضعف فمن المتوقع أن يتخاذل الايطاليون وتتداعى مقاومتهم فجأة دون مقدمات أو سابق انذار مثلما حدث من قبل مرات ومرات . وهكذا تضافرت كل العوامل لتدخل كرن التاريخ من أوسع أبوابه باعتبارها أول معركة فاصلة فى الحرب العالمية الثانية ذاق المحور فيها مرارة الهزيمة بعد انتصاراته المتتالية وظلت غصة فى حلقه حتى الأبد . وما من سبيل لمقارنة موقعة كرن مع المواقع الأخرى التى انتصر فيها الحلفاء فى تلك الأيام فى الصحراء الغربية لأن انتصارهم لم يدم طويلاً وتقهقروا أمام قوات المحور عائدين الى الأراضى المصرية . وما كان لمعركة كرن أن تقع لولا احجام الجيش الايطالي أولاً عن مواصلة زحفه بعد احتلاله للمواقع الحدودية السودانية المتاخمة لاثيوبيا واريتريا ولولا تأخر قوة الغزال ثانياً عند جسر موسوليني على خور بركة لمدة ثمان ساعات .

اليس من المفارقات الصارخة أن تسهم تلك الساعات الثمان فى صنع معركة فاصلة استغرقت أربعة وخمسين يوماً بالتمام والكمال ؟ ؟ .

وأمام جبال كرن الشامخات التى وقفت سداً منيعاً فى وجه القوات الحليفة اتخذ القتال طابعاً جديداً لم تعد خفة الحركة وسرعة الانتقال العامل الأول فيه . وهكذا انحلت فى الرابع عشر من فبراير قوة الغزال التى قادت الزحف منذ بدايته ولم يمض على تشكيلها أكثر من ثلاثة أشهر ولكنها خطت خلال تلك الفترة القصيرة سجلاً باهراً من الانتصارات التى تفوق حد الخيال والتى تعجز عنها جيوش عريقة موغلة فى القدم . ويرجع الفضل فى ما حققته قوة الغزال الى تضافر وحداتها السودانية والهندية والبريطانية وعملها يداً واحدة دون شجار أو احتكاك بين الجنود . وأصبح فرانك ميسيرفى قائد قوة الغزال بعد حلها قائداً للواء المشاة التاسع التابع للفرقة الهندية الرابعة وهو اللواء الذى احتل فى ما بعد تحت قيادته جبل دولوغورودوك من سلسلة جبال كرن وبقى فيه رغم الهجمات الايطالية المضادة المتكررة وكانت هذه الثغرة الرئيسية التى مكنت القوات الحليفة من اختراق استحكامات العدو واحتلال كرن . وتحول فرانك ميسيرفى بعد سقوط كرن مباشرة الى الصحراء الغربية حيث رقى الى رتبة ميجر جنرال واسندت اليه قيادة الجيش البريطانى السابع « جرذان الصحراء » .

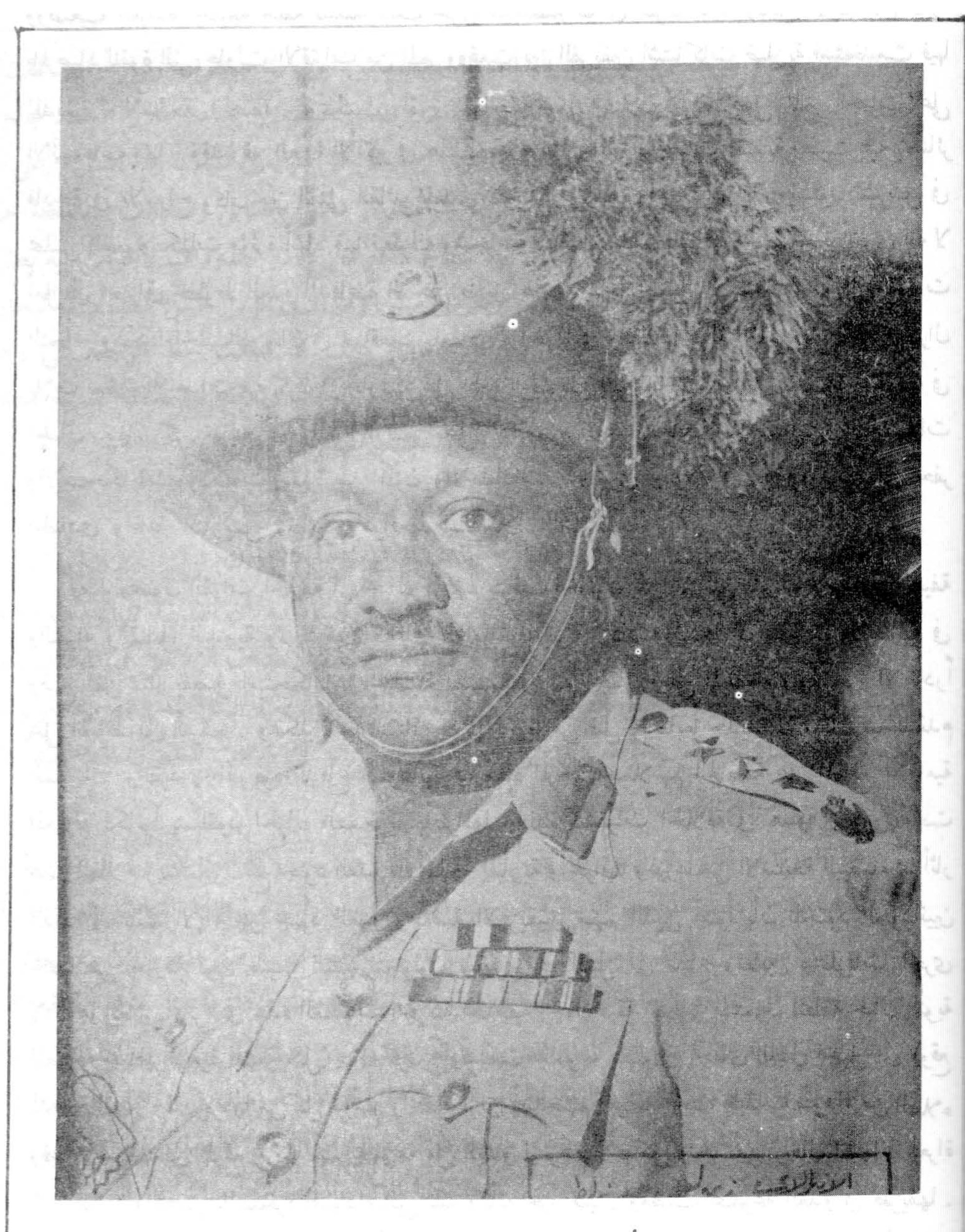
وحل مكان قوة الغزال تشكيل جديد باسم « قوة العوسق » . والعوسق (كيسترل) طائر من

الجوارح كالنسور والصقور. وقد تم تشكيلها من المدفعية السودانية والمجموعة الأولى من البلوكات السريعة وقوة هندية ووحدة من المدفعية المضادة للدبابات لكي تقوم بالمهام التقليدية للبلوكات السريعة وتكون فى الوقت نفسه بمثابة قوة احتياطية متنقلة لرد أى هجوم ايطالي مضاد. وظلت دوريات البلوكات السريعة تخرج الى مواقع قريبة من جناحي العدو وتبقى هناك فى بعض الأحيان فترات تصل الى عشرين يوماً مما أثار مخاوف الايطاليين ودفعهم الى تعزيز مواقعهم هناك على حساب القوات الرئيسية المدافعة عن كرن. واستدعى القيام بتلك الدوريات فى أحيان كثيرة تقسيم البلوكات السريعة الى تسع وحدات على الأقل وكثيراً ما وصل بعضها الى مواقع على بعد تسعين ميلاً تقريباً من مقر رئاسة قوة العوسق وكثيراً ما أصبح من الصعوبة بمكان الاتصال بها أو ببعضها البعض.

وبعد حل قوة الغزال انتقلت قيادة الزحف الى الجنرال سافورى الذى كان قد وصل الى كرن على رأس فرقة بريطانية هندية تضم جنوداً من البنجابيين والاسكوتلانديين كما أعلنت فى الوقت نفسه ترقية بلات القائد العام الى رتبة لفتنانت جنرال بعد أن أصبحت القوات التى تحت أمرته أكبر من جيش كامل وتضم الى جانب البريطانيين والسودانيين جنوداً وضباطاً من مصر والهند وجنوب افريقيا ويوغندا وكينيا والكونغو واثيوبيا وقبرص وفلسطين ونيوزيلندا واستراليا ومن ما تعرف الآن باسم المملكة المغربية.

وبدأت المعارك فى كرن بمحاولة الاستيلاء على بعض المرتفعات الجبلية ولكنها باءت بالفشل باستثناءالاستيلاء على الهضبة المطلة على نفق الخط الحديدى وقد بقيت فيها قوة هندية واسكوتلاندية ظلت هدفاً لنيران العدو وخاصة القنابل اليدوية الصغيرة الحمراء التى كانت تتساقط دون انقطاع وهي أقل ايذاءاً من مثيلاتها البريطانية ولكن خفة وزنها تجعل من السهل رميها الى مسافات طويلة وقد أدت لمقتل عدد من الجنود الهنود والاسكوتلانديين وأصابة كثيرين منهم بجراح. وصحبت هذه المحاولة الأولى غارات جوية على مدينة كرن قامت فيها الطائرات البريطانية بقصف المنشئات واسقاط منشورات دعائية تبشر باقتراب عودة الامبرطور وبالمعاملة الطيبة التى تنتظر الهاربين من خدمة الجيش الايطالي. ولقيت هذه الدعاية استجابة محدودة بين الجنود الاثيوبيين والاريتريين والصوماليين ولم تلق استجابة على الاطلاق من الايطاليين الذين كانت معنوياتهم فى القمة كما ظهر من خلال تصديهم للمحاولة التى قامت بها القوات الحليفة للاستيلاء على بعض الهضاب على أمل فتح ثغرة فى خطوطهم الدفاعية وقد تكبدت القوات الحليفة فى تلك المحاولة خسائر كبيرة فى الأرواح وكان بين القتلى عدد غير قليل من الضباط البريطانيين.

وكان من المعروف أن ثمة ممراً جبلياً ضيقاً الى سهل مدينة كرن يمكن أن تعبره الدبابات والمركبات العسكرية واذا استطاعت قوة ذات حجم معقول الوصول عبر ذلك الممر الى السهل يصبح فى الامكان قطع خطوط المواصلات التى يعتمد عليها الجنرال كارنيمو وتطويق عدد كبير من جنوده.



الأميرالاى زين العابدين حسن الطيب
قائد القيادة الغربية
١٩٦٢ إلى ١٩٦٤
من الضباط السودانيين الذين اشتركوا فى القتال
خلال الحرب العالمية الثانية

ووضعت القيادة الحليفة خطة لتنفيذ ذلك جرى التحضير لها فى سرية تامة ولكن الايطاليين كانوا بالمرصاد للقوة التى حاولت الاقتراب من الممر ووقعت بين الفريقين اشتباكات ضارية استخدمت فيها المدفعية والأسلحة الخفيفة . وتمكنت القوة المهاجمة من احتلال مواقع على الممر أجبرت على الانسحاب منها . وقد وقع العبء الأكبر فى هذا الهجوم على عاتق الوحدات الهندية ومنيت فيه بخسائر فادحة فى الأرواح وكان بين القتلى القائد الهندى سوبيدار رشبال رام الذى رثاه ونستون تشرشل فى مجلس العموم بكلمات مؤثرة أشاد فيها ببطولته وشجاعته . لقد تكشف للقيادة الحليفة مرة أخرى أنه لا أمل فى اختراق خطوط العدو الدفاعية الا عن طريق هجوم شامل طويل الأمد تتوفر له كل مقومات النجاح وهكذا أخلد الفريقان فى مواقعهم يلعقان جراحهما فى انتظار الجولة القادمة . ونقل الجنرال بلات بعض الوحدات من كرن الى بارينتو على المحور الجنوبي لتلقى مزيد من التدريب على الحرب فى الجبال بينما ركز غريمه الجنرال كارنيمو على دعم مواقعه الدفاعية بمزيد من التحصينات والاستحكامات وبكميات وفيرة من المؤن والامدادات . وانبرى جنوده فى همة وحماسة الى حفر الخنادق واقامة المتاريس وتطويق مواقعهم بالأسلاك الشائكة .

ومنذ وصول القوات الحليفة الى جبال كرن لم يتوقف الجانبان عن التراشق بنيران الأسلحة الخفيفة والثقيلة والقنابل اليدوية ولم تتوقف كذلك الغارات الجوية وكان واضحاً أن القوات الايطالية فى وضع آمن ممتاز بفضل استحكاماتها الحصينة المنتشرة فى قمم الجبال وعلى المرتفعات ولم تجرؤ الا نادراً على الهبوط الى السفح . وهكذا اتخذ القتال – كما ذكرنا من قبل – طابعاً جديداً لا مكان فيه للتقدم السريع . وانفرد رجال قوة الدفاع السودانية فى هذه المرحلة بحملاتهم الخاطفة على المواقع الأمامية المعزولة فكانوا يتسلقون الجبال الصخرية بأطرافها الحادة كشفرات الحلاقة فى هدوء وسكون تحت ستار الظلام ويشتبكون مع جنود العدو بالأسلحة النارية والحراب وغيرها من الاسلحة البيضاء مما أثار الذعر فى تلك الأيام بين جنود العدو وخاصة الافريقيين منهم الذين آمنوا بأن للجنود السودانيين خصائص خارقة فوق طبيعة البشر يتحولون بفضلها فى الليل الى سباع وثعابين ومخلوقات أخرى لا تراها العين . وبرع فى هذه العمليات الجريئة الخاطفة رجال فرقة الهجانة المنتمون لمنطقة جبال النوبة المعروفة بجبالها الوعرة المنيعة مثل جبال كرن . وتسلقت مجموعة منهم فى احدى الليالي الجبل الى موقع لمدفعية العدو وقد تجردوا من كل ثيابهم واخفوا بريق أسلحتهم البيضاء تحت طبقات سوداء من الطلاء وقبل وصولهم الى الموقع مرت بهم مجموعة من العدو لم ترهم لأن كل واحد من رجال الهجانة العراة كتم أنفاسه والتصق بالصخرة السوداء التى تليه وكأنه جزء منها . ومضت مجموعة العدو فى طريقها . وواصل الجنود العراة صعودهم الى أن بلغوا الموقع وذبحوا كل من فيه مثلما تذبح الشاه ثم قفلوا عائدين الى قاعدتهم .

واحتلت المدفعية السودانية (مدفعجية شندى) مكان الصدارة فى قصف مواقع العدو على قمم

جبال كرن وذاع صيت وحدتين منها بالذات لما حققتاه من اصابات مباشرة . وقيل أن مدافعهما لم تخطئ أهدافها ولو مرة واحدة طوال القتال وكانت احدى الوحدتين بقيادة الملازم أحمد مجذوب البحارى الذى أصبح فى تلك الأيام أسطورة يجرى اسمه على كل لسان فى الميدان وقد اشتهر – على حد تعبير أحد الضباط البريطانيين – بثباته فى موقع المراقبة غير عابئ بالقنابل والقذائف المتساقطة حوله وفى يده خريطة وفى اليد الأخرى منظار . ولا يحتاج لأكثر من دقائق معدودات لاخراس أية بطارية من مدفعية العدو عندما يطلب منه ذلك . ويقول زميله الأميرالاى الزين حسن الطيب أن البحارى زعزع بمدفعيته مرة فى تلك الأيام كتيبة ايطالية كاملة كانت قد قطعت خط الرجعة على وحدة بريطانية . وقد خلد الشاعر محمد الحسن النصيرى هذه الواقعة فى قصيدة غنائية شعبية مطلعها « خطرية طوبجية سودانية قدرك سما » وجاء فى مقطع منها :

ضابطنا يا البحارى مقدام على الأخطار
يوم الهجوم النارى طارى أم شِلِيخَا مـجارى

والمعروف عن مدفع الهاوتزر الذى تستخدمه المدفعية السودانية أن القذيفة تنطلق منه – على خلاف المدافع الأخرى – على زاوية شبه قائمة مناسبة لقصف الأهداف التى على قمم الجبال . وفى المتحف الحربي البريطانى صورة فوتوغرافية لرجال وحدة من المدفعية السودانية وهم مشغولون عند سفح الجبل مباشرة بقصف مواقع العدو التى على القمة بينما أخذت قذائف العدو تتساقط بعيداً منهم على الطريق الواقع تحت سفح الجبل .

أما البلوكات السريعة السودانية فقد أنزلت بعض وحداتها فى المواقع الامامية التى ترابط فيها قوات هندية – أنزلت مدافعها الرشاشة من سياراتها ومصفحاتها لدعم تلك القوات وتعزيز قدراتها النارية وبالاضافة الى ذلك وقعت على عاتق البلوكات السريعة مهمة نقل الماء والمؤن والذخائر على ظهور رجالها الى المواقع الامامية للقوات الحليفة ومعظمها مرتفعات مكشوفة مثل موقع المراقبة الذى ترابط فيه السرية الثانية من البلوكات السريعة ويقع بالقرب من جبل بيلو جنوبي مدينة كرن . وتمتد من هذا الموقع أسلاك التلفون التابعة للقوات الحليفة لمسافة خمسة أميال وكان على السرية الثانية حراسة هذا الخط الحيوى الذى ظل يؤدى مهمته دون انقطاع طوال فترة الحصار رغم الهجمات العنيفة التى شنتها قوات العدو لتخريبه . ولا يقتصر دور هذا الموقع بالقرب من جبل بيلو على تزويد القيادة بتقارير دقيقة ووافية عن بطاريات العدو وانما شمل أيضاً رصد تحركات العدو وتعيين مواقع احتشاده مما ساعد على زعزعة العدو واجتياح مواقعه فى النهاية .

وقد بدأت معركة كرن الحقيقية فى الخامس والعشرين من مارس بتنفيذ خطة جديدة وضعها





أحمد مجدوب البحارى عندما كان برتبة ملازم

الجنرال بلات تستهدف اختراق الجدار الجبلي بدلاً من اعتلائه . ولضمان نجاح عمليات الاختراق لابد من تطهير نفق الخط الحديدى المتجه الى أسمرا من العربات المعبأة بالصخور والتى وضعها الايطاليون هناك خوفاً من أن تسلكه القوات الحليفة الزاحفة . ولابد أيضاً من الاستيلاء أولاً على مواقع العدو المباشرة التى تحمي بنيرانها مشارف الطرف الشرقى من النفق ثم يتبع ذلك تقدم القوات الحليفة . وتصادف أن وصل الى الخرطوم فى هذه المرحلة الجنرال ويفل فى واحدة من زياراته المتكررة وكان الغرض من زيارته هذه المرة الوقوف بنفسه وعن كثب على سير القتال وكان الجنرال ويفل حريصاً على الفراغ من اريتريا بأسرع ما فى الامكان لكي يستطيع ارجاع القوات الهندية المشتركة فى القتال الى مصر لمواجهة هجوم محورى مرتقب عبر الصحراء الغربية تشترك فيه لأول مرة القوات الألمانية التى أخذت طلائعها تصل بالفعل الى طرابلس .

وبدأ الهجوم لاجتياح كرن وفق الخطة الجديدة فى ساعة مبكرة من فجر ٢٥ مارس حين تقدمت فرقة بقيادة الكولونيل فليتشر مؤلفة من بريطانيين وهنود بالاضافة الى وحدات سودانية من المشاة والبلوكات السريعة . وكان الهجوم خاطفاً وسريعاً وقد أخذت على حين غرة المواقع الايطالية المطلة على مشارف النفق والطريق الرئيسى باستثناء موقع واحد منها لفتت انتباهه جلجلة علب الصلصة الفارغة التى علقها الايطاليون كوسيلة للانذار على سياج الأسلاك الشائكة المحيطة بالموقع . ومع ذلك قامت فرقة من المشاة بالاستيلاء على هذا الموقع تحت غطاء من نيران المدافع الرشاشة وفرته لها البلوكات السريعة . وفى ما عدا ذلك لم يواجه المهاجمون مقاومة ذات بال وكان بين الأسرى الكولونيل الايطالي فابيانى الذي اعترف بأنه لم يحل بخاطره امكانية اقدام القوات الحليفة على مغامرة جنونية من هذا القبيل . وباحتلال المواقع المطلة على مشارف النفق والطريق الرئيسى أصبح مفتاح الموقف فى يد القوات الحليفة وأخذت مكونات الجدار الجبلى الذى وقف سداً منيعاً فى وجهها فى الانهيار موقعاً اثر موقع ومربضاتلو مربض . وقد استمرت الاشتباكات بين الجانبين طيلة اليوم الأول واشتركت فيها الطائرات البريطانية والايطالية . وشرعت أربع كتائب هندية وسودانية منذ الصباح فى تطهير الطريق الرئيسى من المعوقات والألغام واستطاعت انجاز مهمتها فى غضون ٢٣ ساعة ظل الجنود خلالها تحت رحمة الطائرات الايطالية ونيران المدفعية الايطالية البعيدة المرمي اذ لم يعد فى امكان العدو استخدام أسلحته الخفيفة بعد طرده من المرتفعات المطلة على جانبي الطريق . وبلغت خسائر الكتائب الأربع خمسة قتلى و١٥ جريحاً بينهم بعض الجنود من سلاح "المهندسين التابع لقوة الدفاع السودانية . ولابد من أن الجنرال كارنيمو قد أدرك فى تلك اللحظات أن الثغرة التى أحدثتها القوات الحليفة مصيرها الى الاتساع لتصبح فجوة خطيرة تنذر باقتراب النهاية . وتعلقت آماله لانقاذ الموقف بالفرقة السادسة عشر التى وصلت الى كرن فى الليلة السابقة وتضم كتيبة كاملة من الايطاليين الفاشيست ذوى القمصان السوداء المعروفين بقوة بأسهم وصبرهم على القتال . وأصدر كارنيمو فى صباح اليوم

التالي (٢٦ مارس) أمره لقواته بشن هجوم شامل مضاد لاسترداد المرتفعات التى سقطت فى أيدى القوات الحليفة ولكن ذلك جاء بعد فوات الأوان . وكان ظاهراً أنها محاولة يأئس مقهور مقضى عليها بالفشل لا محالة . وقد بدأ الهجوم المضاد فى التاسعة صباحاً وسرعان ما تبخر وتلاشى قبيل منتصف النهار ولم يصبح أمام القيادة الايطالية من خيار سوى التراجع .

وجاء الجنرال ويفل فى اليوم نفسه الى جبهة القتال وورد فى مذكراته بعد اطلاعه على الموقف « قلت للجنرال بلات انه يبدو لى أن الزحف قدما على الطريق الرئيسى مع تجاهل القمم التى على اليمين واليسار هو السبيل الوحيد لاختراق خطوط العدو فرد علّى الجنرال بلات بأن هذه هى خطته وقد أحرزت النجاح » ويتساءل الجنرال ويفل عن امكانية نجاح هذه الخطة لو أنها نفذت من قبل بدلاً من الانتظار قرابة شهرين على أمل اجتياح قمم الجبال ! ! وهذا انتقاد صريح من قائد عسكرى طويل الباع ولكن علينا أن نتساءل ان كانت لدى الجنرال بلات الامكانيات المطلوبة لتنفيذ تلك الخطة فى الماضى ؟ ؟ وحاول الجنرال ويفل فى ذلك اليوم زيارة موقع أمامي ثم عدل عن ذلك عندما نجا بجلده من قنبلة أسقطتها طائرة ايطالية على موكبه . ولعله أدرك فى اللحظة نفسها مدى حاجته الملحة لتحويل القوات الهندية من اريتريا الى الصحراء الغربية اذ قال للجنرال بلات الذى كان جالساً بجواره « انى فى حاجة لكل ما لديك من تشكيلات قتالية وطائرات ومدافع ومركبات لمواجهة الهجوم المحورى على مصر ولكنى لن آخذ منك شيئاً قبل الانتصار فى معركة كرن » .

وتلقت القيادة الحليفة قبل مغيب الشمس فى اليوم السادس والعشرين اشارة مفادها أن الطريق الرئيسى الى كرن خالٍ من المعوقات وأن الكولونيل كورسو كورسى فقد الأمل فى مواصلة الدفاع عن مرتفعات سانشيل آخر المعاقل التى بقيت للايطاليين واستسلم مع سائر القوة التى تحت قيادته . وأمضت القوات الحليفة ليلة هادئة سادها السكون حتى فجر اليوم التالى عندما تجدد هدير المدفعية وراحت تمطر بنيرانها المكثفة المواقع الايطالية يميناً وشمالاً لتصفية جيوب المقاومة وتأمين الطريق إلى كرن . وبدا أن كل شئ يسير وفقاً للخطة المرسومة وأن النصر أصبح قاب قوسين أو أدنى . وصدرت الأوامر الى الكولونيل فليتشر لكنس حقول الألغام القريبة من الطريق الرئيسى مستعيناً بقطعان من الابل والأغنام ومن ورائها البلوكات السريعة السودانية ووحدات هندية . ولكن القطعان لم تصل فى الموعد المحدد فانطلقت البلوكات السريعة بدونها وشاركتها الوحدات الهندية فى تطهير المنطقة من الألغام ثم تقدمت الدبابات والمصفحات وسريتان من البلوكات السريعة على الطريق الرئيسى حتى بلغت بحلول منتصف السابعة صباحاً مفترق الطرق عند طرف سهل كرن تاركة الجبال وراءها . وهكذا اكتملت عملية اختراق الجدار الجبلي المنيع الذى ظل يتحدى القوات الحليفة قرابة شهرين . وأخذت جموع العدو تتوافد رافعة راياتها البيضاء وبينها ثلاثة آلاف ايطالي معظمهم من الفاشيست ذوى القمصان السوداء .

وفى العاشر من صباح اليوم نفسه (٢٧ مارس) اقتحمت القوات الحليفة مدينة كرن تتقدمها البلوكات السريعة السودانية على سياراتها ومصفحاتها وكان يوماً مشهوداً خرج فيه الأهالى لاستقبال الفاتحين الذين حملوا اليهم بشائر الحرية والخلاص من ربقة الاستعمار الايطالي الذى ظلوا يعانون من ويلاته سنوات طويلة . واستمد الأهالي فى كرن من مشهد القوات السودانية فى الطليعة مشاعر الثقة والاطمئنان . ولم تتح للبلوكات السريعة فرصة للاستجمام ولو لفترة قصيرة ينفضون خلالها غبار المعارك ويستمتعون كما يفعل المنتصرون بحلاوة انتصارهم وبمباهج الحياة التى حرموا منها شهوراً طويلة . وبدلاً من ذلك واصلت البلوكات السريعة الزحف شرقاً لمطاردة قوات العدو المنسحبة فهذه هي مهمتها التقليدية التى ظلت تضطلع بها بكفاءة عظيمة منذ بداية الزحف الى أن أعتصم العدو بجبال كرن فتضاءلت قدرات البلوكات السريعة على الحركة بسبب طبيعة المنطقة الجبلية ووعورة مسالكها الملتوية الضيقة التى يصبح مرور الجمل عبر سم الأبرة أهون من مرور السيارة عليها . وقد أفادت تقارير السلاح الجوى البريطانى بأن قوات العدو المتراجعة قامت بتخريب الطريق المتجه من كرن الى مدينة أسمرا وتمركزت بصفة أساسية عند تكلازان على بعد ثلثى المسافة من كرن إلى أسمرا . ولكن البلوكات السريعة استطاعت مع وحدة من الدبابات الهندية تخطى المعوقات فى أول الطريق وعند وصولها الى مشارف تكلازان أصابت نيران المدفعية الايطالية الدبابات الهندية وعطلتها تماماً وتحولت الى عائق سد الطريق أمام البلوكات السريعة التى ألفت نفسها فى مأزق أصبحت فيه هدفاً لنيران العدو من مواقع بعيدة عن مرمى مدافعها الرشاشة أو أسلحتها الخفيفة . وكانت القنابل والقذائف تتساقط من علٍ على خط مستقيم فوق الدبابات وسيارات البلوكات السريعة ولم يكن ثمة أمل فى انقاذ الدبابات وأصبح أمام سيارات البلوكات السريعة السبع خيار واحد هو التراجع . ولكن ذلك لم يكن سهلاً نظراً لضيق الطريق ونيران العدو المكثفة الأمر الذى يجعل من المستحيل استدارة السيارات الى الخلف صوب الاتجاه الذى جاءت منه . وفى مثل هذه المآزق تمتحن قلوب الرجال وتصطنع البطولات ومن لا يهاب الموت تكتب له الحياة فى اطار المجد والخلود . وهذا ما فعلته البلوكات السريعة فى ذلك اليوم المشهود فقد نزل الملازم حسن بشير نصر من سيارته غير عابئٍ بالرصاص المنهمر والقنابل المتساقطة حوله وتولى بثبات وشجاعة مع ضابط بريطانى توجيه السيارات حتى استدارت صوب الغرب باستثناء واحدة منها أصيبت بتلف أعجزها عن الحركة . وعادت السيارات برجالها الى كرن وكانت خسارة البلوكات السريعة قتيلاً واحداً وعشرة من الجرحى بينهم الملازم حسن بشير نصر الذى . أنعم عليه بوسام الصليب الحربى البريطانى اعترافاً بشجاعته وحسن بلائه غير أن « الحلفاية » مسقط رأسه خلعت عليه وساماً أخلد وأبقى عندما ارتفعت عقيرة شقيقته (زينب بشير نصر) بأغنية حماسية مطلعها «كشاف للجيوش » ومن مقاطعها :

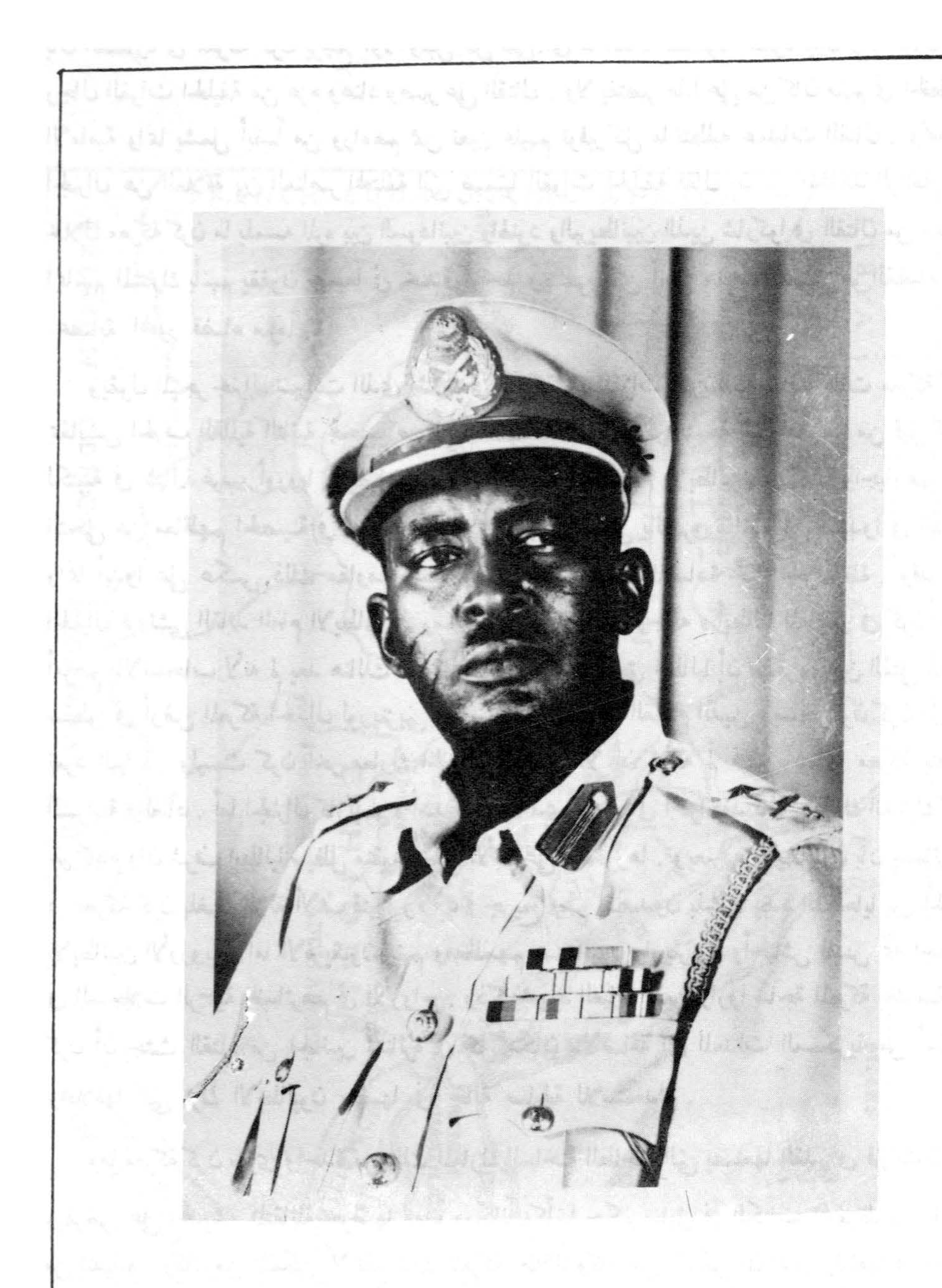
كَشَّاف للجيوش مُوَدّعَاهَ الله يسلَم لَيْ حَسَنْ من غَارَه ماَ ضَلّ

غَـنِـيّـتْ لـيك بَـأْلِـفّ لـيك	مَدَافْعَكْ برين مِينْ اِلبقْرَبْ ليكْ
فى يوم الحرب شِلْتَ النصُر لَيْ جيتْ	وُقِدَّامَ الصفوف زَىَّ القمر ضَوِيّتْ
يا مُشَكّكْ تعال أورّيكْ بُرهَانُو	فى الجبل ظَهَرْ نَاشْرِنُو بَيَانُو
دَا الجَابَ النصر وين متلُو فى أخوانُو	أنا جيدْ لَيْ بيهُو هَنونّي يا أخوانُو
أسَدَ الجبلْ يَاأَبْعَاجْ	يدخُلْ فى مَكانَ المدفع الهَرّاجْ
فى غارة كرن ماصَدّ ولاجْ	دا الْعَزأنِي أنا وفُوقْ راسِي خَتّ التاج
فى واقعة كرن ثابت ماملَخُوم	مُوشَحّ بالدموم حارساك قديم مفهوم

ونعود الى كرن وقد انقشعت الضوضاء وهدأ دوى المدافع والقنابل الذى لم ينقطع طيلة الأيام الثلاثة الأخيرة وعادت الجبال الموحشة الى صمتها الرهيب بينما أخلد الجنود المتعبون للراحة والاستجمام يستنشقون نسائم الربيع ملئ صدورهم التى ظلت شهوراً لا تعرف فيها سوى رائحة البارود الخانقة وينعمون بمتعة الاستحمام والثياب النظيفة والنوم الهادى وهى المتعة التى حرموا منها زماناً طويلاً. وقد اخذ الأيطاليون معهم عند انسحابهم من كرن معظم مدافعهم الميدانية الثقيلة ونجت نسبة كبيرة من الجنود النظاميين من الأسر وبينهم قائدهم الجنرال كارنيمو الذى هرب الى أسمرا وأسر هناك فى ما بعد. لقد استغرق حصار كرن قرابة شهرين وانتهى بالمعركة التىكانتقاصمة الظهر بالنسبة لقوات المحور وليس من المبالغة فى شئ لو قيل أنها غيرت مسار الحرب العالمية الثانية بأسرها ويقول عنها الجنرال بلات :

« لقد كان القتال حامياً بين الجانبين وكان رجالنا يقاتلون عدواً يفوقهم عدداً وعتاداً وعلى الأرض التى اختارها وأوشكنا أن نتردى الى قاع سحيق. وفى الأيام الثلاثة الأخيرة كان الاحتياطي الذى بقى تحت تصرفى ثلاث دبابات لا غير. وسألنى ضابط ان كان ذلك تصرفاً صحيحاً ومقبولاً فأجبته بأنه يتناقض مع أى مرجع عسكرى صدر حتى الآن ومع ذلك سارت الأمور على نحو ما أردنا لها. ومن حسن حظنا اننا لم نتعرض لسوى غارات جوية ضئيلة نسبياً مع أنها كانت كثيرة وعنيفة فى الأيام الأولى للحصار. وفى خلال الهجوم فى الأيام الثلاثة الأخيرة كان السلاح الجوى البريطانى يسبقنا متوغلاً فى أرض العدو بقاذفاته ومقاتلاته وطائرات الاستكشاف كما قام الى جانب ذلك بغارات فى العمق دمر خلالها مطارات العدو ».

وذكر الجنرال بلات أيضاً أن المدفعية الحليفة أمطرت العدو خلال الأيام الثلاثة الأخيرة بمائة وعشرة ألف قذيفة من مختلف الأحجام أى ما يعادل حمولة اكثر من ألف شاحنة جرى نقلها من رأس الخط الحديدى داخل السودان عبر مسافة تصل الى مائتى ميل تقريباً. ويعترف الجنرال بلات

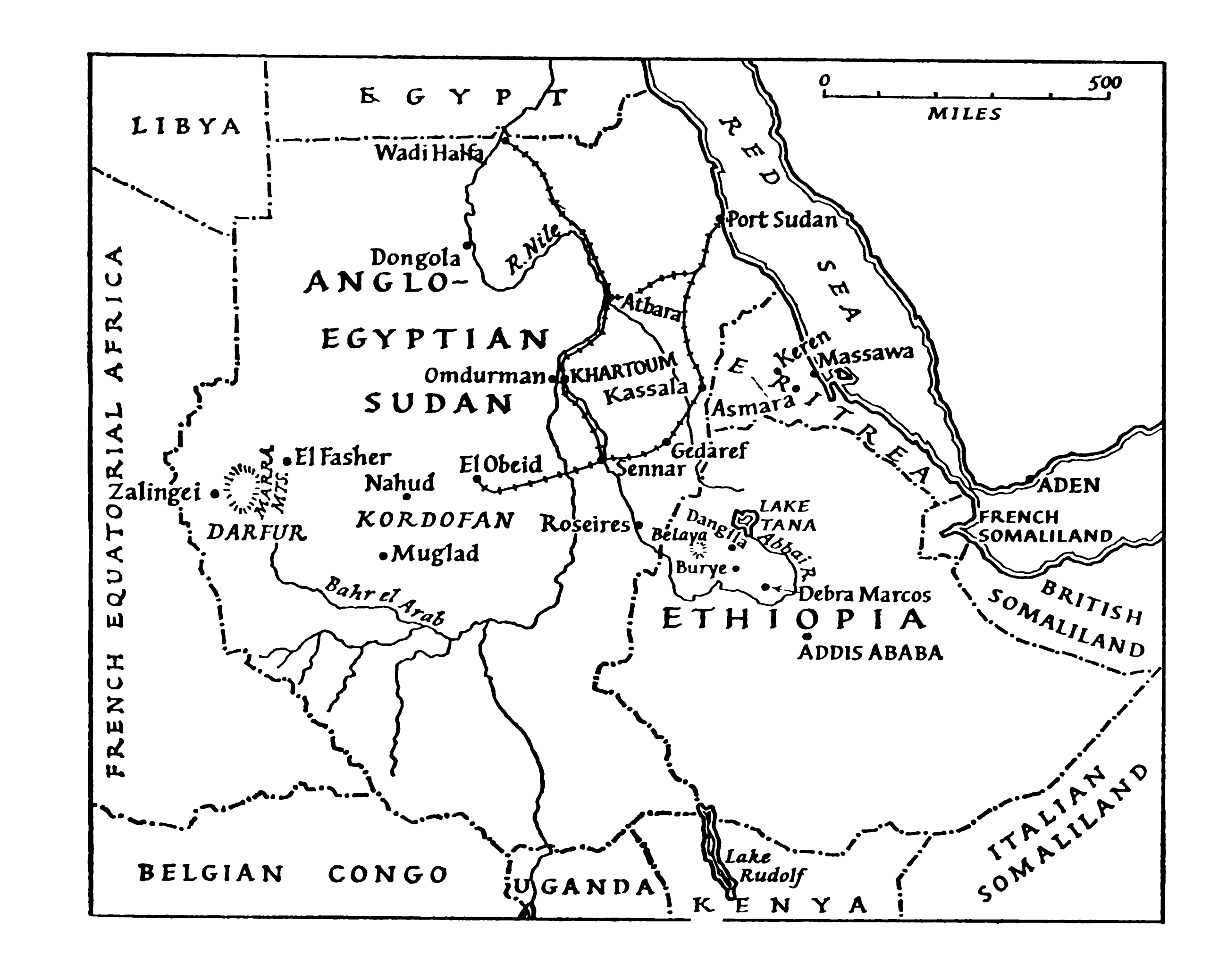


اللواء حسن بشير نصر

بأن انتصاره فى معركة كرن يرجع أولاً وقبل كل شئ الى ما أبداه المقاتلون السودانيون والآخرون من رجال القوات الحليفة من عزم وعناد وصبر على القتال . ولا يقتصر هذا على من كان منهم فى الخطوط الامامية وانما يشمل أيضاً من وراءهم ممن تعين عليهم توفير كل ما تتطلبه عمليات القتال . وتحدث الجنرال عن العلاقة بين العناصر المختلفة التى ضمتها القوات الحليفة فقال ان من المشاهد الرائعة حقاً خلال معركة كرن ما يلمسه المرء بين السودانيين والهنود والبريطانيين الذين شاركوا فى القتال من مظاهر ايمانهم المشترك بأنهم يقفون جميعاً فى خندق واحد ويسعون من أجل هدف مشترك هو القضاء على عصابة المحور قضاء مبرماً .

ويقول الميجر جنرال سبرايت الذى اشترك فى المعركة مع القوات البريطانية « لقد كانت معركة كرن بمقاييس الحرب العالمية الثانية جحيماً صرفاً ولم أشهد خلال الأشهر التسعة التى أمضيتها من قبل قائداً لكتيبة فى شمال غرب أوروبا ما يضاهيها » وفى الحقيقة أن انهزام الايطاليين فى كرن واجبارهم على التخلى عن معاقلهم الحصينة فى الأوكار ونواصى الجبال لا يعنى بالضرورة أنهم لم يصمدوا فى الدفاع وانما أبدوا على عكس ذلك مقاومة عنيفة ولم تنقطع هجماتهم المضادة حتى آخر لحظة . وقد قال الجنرال فروتشى القائد العام الايطالي فى رسالته التى وجهها الى رجاله « أبطالنا المقاتلين فى كرن » انه أمرهم بالانسحاب لأنه لم يعد هنالك مبرر للتضحية وان من حق ايطاليا أن تفخر بأن بين القتلى الذين سقطوا فى أرض المعركة الجنرال لوريتزينى وخمسة من الضباط العظام الذين « سيحرسون كرن الى أن نعود اليها » . وليست كرن آخر معارك الجنرال فروتشى الا أن قواته لم تخض بعدها معركة بنفس الشراسة والعناد . أما الجنرال كارنيمو « أسد كرن » الذى هرب الى أسمرا فقد قال يومذاك انه ترك كرن غير نادم وان شرف ايطاليا سيظل منقوشاً حتى الأبد على صخورها . ويعترف الايطاليون بأن خسائرهم فى معركة كرن بلغت ثلاثة آلاف قتيل و٤٥٠٠ جريح وهم يقصدون بذلك عدد الضحايا بين الجنود الايطاليين الأوروبيين أما الافريقيون منهم ومعظمهم صوماليون واريتريون وأحباش فليس ثمة احصاء فى السجلات الرسمية لخسائرهم فى الأرواح . وذكر شهود العيان الذين زاروا ساحة المعركة بعد سقوط كرن أن جثث القتلى من الجانبين متناثرة فى كل مكان بالاضافة الى المعدات العسكرية من أسلحة وخلافها التى ترك الايطاليون بعضها فى حالة صالحة للاستخدام .

وما معركة كرن سوى واحدة من تلك المعارك الساخنة الطاحنة التى يصنعها القدر فى فترات نادرة ويفرض على الجيوش المتقاتلة خوضها زماناً ومكاناً وكأنها حكم سابق فى الكتاب المحفوظ لا مناص من تنفيذه . وكان من الممكن ألا تقع تلك المعركة اطلاقاً وكان من الممكن أن تدور وقائعها فى مكان وزمان آخرين ولكن القدر أراد لها أن تجرى فى مكان وزمان حددهما لكي تحمل على مدى التاريخ الاسم الذى اختاره لها وتكون فى الوقت نفسه عند الحلفاء بمثابة بصيص من نور على الجانب الآخر


LIBYA
EGYPT
0
500
MILES
Wadi Halfa
RED SEA
Port Sudan
Dongola
R. Nile
ANGLO-EGYPTIAN SUDAN
Atbara
FRENCH EQUATORIAL AFRICA
Omdurman
KHARTOUM
Kassala
ERITREA
Keren
Massawa
Asmara
El Fasher
MARRA MTS.
Zalingei
Nahud
El Obeid
Gedaref
Sennar
ADEN
KORDOFAN
DARFUR
Roseires
LAKE TANA
Dangila
Belaya
Abbai R.
FRENCH SOMALILAND
Muglad
Burye
Bahr el Arab
Debra Marcos
BRITISH SOMALILAND
ETHIOPIA
ADDIS ABABA
ITALIAN SOMALILAND
Lake Rudolf
BELGIAN CONGO
UGANDA
KENYA

من النفق المظلم وكان الحلفاء يومذاك فى محنة ساحقة توارت فيها بواعث الأمل والرجاء وراء سحابة داكنة من دواعي اليأس والاحباط .

ان معركة كرن التى ستظل حتى الأبد معلماً فى التاريخ كانت فى الواقع صراعاً ضارباً بين فريقين – فريق يدافع عن الحرية والعدالة وكرامة الانسان وفريق يحركه الطغيان وشهوة الفتوحات .

وفى انتصار أى من الفريقين – كما قال الأستاذ عباس العقاد فى تلك الأيام « مصير عالمين وخافقين ومشرقين وفيه ابتداء زمان وانتهاء زمان » .

وتتضارب البيانات حول خسائر القوات الحليفة في الأرواح ولكن من المتفق عليه أن خسائر القوات الهندية طيلة أيام الحصار قدرت بما يتراوح بين أربعة ألاف وخمسة ألاف قتيل أو جريح بينما بلغت خسائر قوة الدفاع السودانية ٢٩ قتيلاً وحوالى ٤٠ جريحاً بينهم ثلاثة من الضباط السودانيين ويعترف الجنرال بلات بأن خسائره خلال الأيام الثلاثة الأخيرة من معركة كرن بلغت ٥٣٦ قتيلاً وحوالى ٣٥٠٠ جريحاً عاد معظمهم لمواصلة القتال .

وما من شك في أن معركة كرن تحتل مكان الصدارة بين الملاحم العسكرية عبر التاريخ وعندما بلغت المعركة أوجها وصفها سير دوغلاس نيوبولد (السكرتير الادارى) بالعبارات التالية :

« أنها أعظم معركة في هذه الحرب جرت في الشرق الأوسط حتى الآن وأن معارك الصحراء الغربية لدى المقارنة معها أشبه بسباق لا منافسة فيه » . لقد كانت معركة حقيقية بكل المقاييس خاضها أبطال من الجانبين وكتب النصر فيها للمشاة والمدفعية فى آخر المطاف بعد قتال مرير سجل فيه المنتصرون أروع صور البطولة والاقدام وهم يحاربون من السفح على أرض ذات طبيعة قاسية عدواً يفوقهم عدداً محتمياً بحصونه وإستحكاماته فوق قنن الجبال ولا ينقصه العزم والاصرار على الثبات ولديه إمدادات وفيرة من السلاح والذخيرة » . وقد انهالت برقيات التهنئة على الجنرال بلات غداة سقوط كرن وبينها برقيات من ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطانى والجنرالات ويفل وأوكلنك وكاترو (فرنسا الحرة) وسمطس (جنوب افريقيا) . واستأثرت قوة الدفاع السودانية بالأضواء على صفحات الصحافة البريطانية ونشرات الأخبار السينمائية . وتزامن سقوط كرن مع خروج خمس مدمرات ايطالية من ميناء مصوع متجهة إلى الشمال وشوهدت المدمرات في فجر اليوم الثالث من أبريل على مسافة ٢٠ ميلاً فقط من ميناء بورتسودان ربما للقيام بمغامرة بطولية انتحارية وقد تصدت لها – على أية حال الطائرات البريطانية فأغرقت ثلاثا منها ولاذت المدمرتان الأخريان بالفرار إلى الساحل السعودى .

وبعد النكسة غير المتوقعة التى منيت بها القوات الحليفة على طريق تكلازان والتى كادت أن تتحول إلى كارثة لولا ثبات الملازم حسن بشير نصر اكتشف السلاح الجوى البريطانى أن الايطاليين لم

ينسفوا الخط الحديدى بين كرن وأسمرا وأنما اكتفوا بإقتلاع القضبان . ويمتد هذا الخط الحديدى موازياً للطريق الرئيسى . وتبين من عمليات الاستكشاف أن الخط خال من الإلغام وأن جميع الأنفاق التى يعبرها خالية من العوائق . وبناء على هذه المعلومات تحركت كتيبة واحدة من القوات الحليفة تتقدمها البلوكات السريعة (السرية السادسة) في أتجاه أسمرا وداهمت تكلازان عند الفجر . وكانت واحدة من المرات التى وجدت البلوكات السريعة فيها وضعاً فريداً ومتميزاً لإستخدام مدافعها الرشاشة استخداماً فعالاً وأصيب ثلاثة من رجالها بجراح ولكن المعركة أسفرت عن انهيار إستحكامات العدو في تكلازان انهياراً تاماً كانهيار قلاع الرمال على الشاطئ أمام أمواج البحر . وكان في إمكان الايطاليين الصمود في تكلازان لمدة أسابيع عديدة مثلما فعلوا في كرن ولكن آثروا التراجع حينما اكتشفوا أن وحدات من القوات الحليفة في طريقها للإلتفاف حول تكلازان وقطع طريق الإنسحاب إلى أسمرا . وواصلت القوات الحليفة زحفها بعد إستيلائها على تكلازان . وفي صبيحة أول أبريل استسلمت مدينة أسمرا العاصمة الاريترية وتلقت القيادة في الخرطوم برقية زفت إليها النبأ السار وفي آخر البرقية ما يؤكد أنها ليست كذبة أبريل . وكان سير الدبابات والمركبات الحليفة على يسار الطريق بدلاً من اليمين عند اقتحامها المدينة أول إخطار للسكان بأفول نجم امبرطورية الدوتشي وانتقالهم إلى عهد جديد . وأثار الدهشة يومذاك منظر حشود غفيرة من الجنود الايطاليين وهم يتسكعون في الطرقات على غير هدى بكامل أسلحتهم التى لم يفكر واحد منهم فى إستخدامها . وعلى أثر استسلام أسمرا وجهت السرية الثانية من البلوكات السريعة إلى ثكنات جنود العدو الافريقيين لأن الايطاليين أعربوا عن تخوفهم من أنغماس أولئك الجنود الحاقدين عليهم في أعمال السلب والنهب . وفي الوقت نفسه جرى إطلاق العديد من الأسرى السودانيين المدنيين وبينهم البكباشى عثمان على كيلة وعمدة قبيلة الحلنقة اللذين أخذهما الايطاليون معهم عند إنسحابهم من كسلا كما ألقى القبض في أسمرا على الخائن عبد المجيد سلطان وأعوانه الذين كانوا عوناً للسلطات الايطالية في كسلا ونقلوا جميعاً إلى مدينة كسلا حيث قدموا للمحاكمة ونفذ حكم الاعدام شنقاً حتى الموت على عبد المجيد سلطان بينما صدرت أحكام بالسجن لفترات متفاوتة على الآخرين من أعوانه .

وفي اليوم التالى بعد استسلام أسمرا احتلت القوات الحليفة الزاحفة على المحور الجنوبى مدينة عرزا دون مقاومة ولكنها خاضت في الطريق إليهامعارك ضاربة بعد أن شقت طريقها من وادى القوندوران . وقد عجل سقوط كرن بإنسحاب القوات الايطالية من مدينة عرزا إلى مدينة أدى أوغرى التى وقعت في مساء اليوم نفسه لقمة سائغة على يد سرية من البلوكات السريعة (المجموعة الأولى) بقيادة اليمباشى بيرجي قادمة من أسمرا لتحرير البريطانيين واليونانيين الذين أسرتهم القوات الايطالية في كسلا والصومال وأودعوا معسكر الاعتقال في أدى أوغرى . وقد احتلت البلوكات

السريعة مدينة أدى أوغرى دون مقاومة تذكر بعد أن تفرقت قوات العدو فيها بين مستسلم سئم القتال أو هائم على وجهه كالمستجير بالرمضاء من النار في منطقة معادية كل من فيها في انتظار الفرصة للانتقام من الايطاليين الذين ساموهم الخسف والهوان . وانطلقت البلوكات السريعة بعد تحرير الأسرى في أدى أوغرى جنوباً وقطعت خلال ٢٤ ساعة ٧٠ ميلاً لتصل إلى مدينة عدوة الشهيرة في صباح الثالث من أبريل وكان في استقبالها هناك بطل المقاومة الاثيوبية الرأس سيوم حاكم اقليم تيغرى مرتدياً وشاحه التقليدى ذا اللونين الأزرق والأسود . ومن عدوة واصلت البلوكات السريعة سيرها إلى أديغرات التى احتلتها في منتصف نهار اليوم التالى بعد إشتباكات طفيفة على الطريق مع ثلاث كتائب من قوات العدو المتقهقرة استسلمت بكامل معداتها وإمداداتها من الأسلحة والذخيرة .

وبينما تتالت انتصارات القوات الحليفة على المحور الجنوبي في طريقها إلى المعركة الفاصلة في أمبالاجى تحركت القوات الحليفة من أسمرا في أتجاه ميناء مصوع على البحر الأحمر في الوقت الذى أخذت تقترب فيه الفرقة الهندية السابعة من مصوع من ناحية الشمال بعد أن شقت طريقها على الساحل من بورتسودان ومعها السرية الرابعة من البلوكات السريعة وميليشيا المروج والمدفعية التابعة لقوات فرنسا الحرة وافترعت الفرقة الهندية السابعة الهجوم على مصوع من ناحية الشمال بينما داهمتها من ناحية الغرب القوات الحليفة القادمة من أسمرا ومعها وحدات من البلوكات السريعة التى انتقلت من عرزا على المحور الجنوبي إلى أسمرا بعد يومين من سقوطها . لقد بدأ الهجوم على مصوع من الجهتين صباح الثامن من أبريل وبحلول منتصف النهار اقتحمت القوات الحليفة المدينة وأنبرت البلوكات السريعة على الفور لمطاردة قوات العدو المنسحبة جنوباً وأسرت أعداداً كبيرة منهم . وبلغ عدد الأسرى منذ سقوط كرن وحتى هذه المرحلة واحداً واربعين ألفاً بينهم ٢٣,٥٠٠ من الجنود الاريتريين والباقون (١٧,٥٠٠) من الايطاليين الأوربيين وفيهم ألف ضابط على الأقل . وجرى توزيع هذا العدد الهائل من الأسرى على معسكرات داخل السودان . واختيرت المعسكرات التى في هيا وتهاميام ومواقع أخرى في منطقة البحر الأحمر للأسرى الايطاليين الأوربيين بسبب اعتدال الطقس في تلك المنطقة أما الأسرى الاريتريون فقد وزعوا على معسكرات في شندى وأتبرا والخرطوم ومدنى . ولا بد من أن الدهشة عقدت ألسنة الأسرى الاريتريين وغمرتهم مشاعر مريرة عندما رأوا مقدار ما توفر للجندى السوداني من عناية واهتمام بمأكله وملبسه وسلاحه وكلها أشياء حرموا منها ولم يتفضل بها عليهم سادتهم الايطاليون .

وبسقوط مصوع اختتمت المجموعة الثانية من البلوكات السريعة دورها في الحرب داخل اريتريا وقد ظلت معنويات رجالها - كغيرهم من الجنود السودانيين - عالية منذ عبورها الحدود السودانية ولم تخل نظرتهم إلى معدن المحاربين الايطاليين وجنودهم الافريقيين وقدراتهم القتالية من استخفاف

وإحتقار. ومن الحقائق الجديرة بالتسجيل ان المجموعة الثانية من البلوكات السريعة منيت بخسائر طفيفة في الأرواح خلال القتال في اريتريا ولم يتجاوز عدد قتلاها ١٥ قتيلاً.

وتحدث سير دوغلاس نيوبولد (السكرتير الادارى) في رسالة إلى حكام المديريات بتاريخ ٥ مايو ١٩٤١ عن دور قوة الدفاع السودانية في القتال في اريتريا حيث قال - «لقد نالت قوة دفاع السودان مكانة عظيمة خلال الحملة لدى ضباط كل الوحدات الذين شاهدوها في العمليات ومنهم جنرالات متمرسون وضباط صغار ولدى الجنود الهنود والبريطانيين. لقد وقف رجال قوة الدفاع في اريتريا جنباً إلى جنب مع الوحدات البريطانية والهندية وصمدوا أمام القصف ونيران القنابل والدبابات المهاجمة وأظهروا قدراً كبيراً من الجرأة وسرعة الحركة وتسلقوا الجبال وقادوا سيارات الفان المسلحة بالمدافع الرشاشة والمدرعات فوق أرض مرعبة وتحملوا الحر والبرد والمطر وعلينا أن نرفع قبعاتنا تحية لهم وأعجاباً. وقد كانت خسائرهم طفيفة لحسن الحظ - بالقياس لحجم قوة الدفاع في الوقت الحاضر اذ بلغت تلك الخسائر ١٦٥ منهم ٤٤ قتيلاً و١٠٠ جريح و٢١ فى عداد المفقودين».

وقبل أن نطوى ملف المعارك في اريتريا يجدر بنا أن نتناول ميليشيا المروج التى اشتركت مع الفرقة الهندية والبلوكات السريعة في الزحف من بورتسودان واحتلال مصوع. وتتألف هذه الميليشيا من قبائل البجة التى دوخ رجالها القوات البريطانية في تلال البحر الأحمر خلال فترة المهدية واخترقوا «المربع البريطاني» أكثر من مرة. والمربع هو التشكيل العسكرى التقليدى الذى خاضت به الجيوش البريطانية حروبها في مشارق الأرض ومغاربها من أجل بناء الامبرطورية البريطانية. ولم تستطع أية قوة في الأرضّ اختراق المربع البريطاني إلا في السودان خلال حروب المهدية في أواخر القرن الماضي. وقال الشاعر الانجليزى روديارد كيبلينغ يومذاك :-

«لقد خضنا غمار الحرب ضد رجال عديدين وراء البحار
وكان بعضهم مقداماً وآخرون ليسو بالشجعان
الباتان... والزولو.... وفى بورما
غير أن البجة كانوا أروعهم أجمعين»

وقد أشرفت على تدريب المتطوعين لميليشيا المروج السرية الرابعة من البلوكات السريعة وأسندت قيادتها لثلاثة من الاداريين البريطانيين الذين التحقوا بقوة الدفاع هم البمباشية لى وبيتون وسالمون وقد عمل كل منهم قبل الحرب في مراكز البحر الأحمر وتعلموا اللغات المتداولة وخاصة بيتون الذى ألف كتاباً عن القواعد النحوية في لغة التبغرى.

وكانت المشكلة الكبرى التى واجهت المسئولين هي اقناع المتطوعين وعددهم مائة بالتخلى عن شعورهم المنفوشة خوفاً من أن يصبح الواحد منهم بسبب شعر رأسه المنفوش هدفاً سهلاً لقناصة

العدو . ورفض المتطوعون في بداية الأمر تسليم رؤوسهم للحلاق لاعتزازهم بتلك الشعور المنفوشة كرمز للرجولة وقوة البأس ولأنها من العادات العريقة في مجتمعات البجة . وبقي المتطوعون على رفضهم إلى أن قام الحاكم العامٰ بزيارتهم فتنازلوا عن موقفهم اكراماً له .

وقامت قوة صغيرة من ميليشيا المروج فى بداية الزحف باحتلال جبل مهاربا وكان قائد تلك القوة النفر علي عمر الذى اشتهر بلقب « موسوليني » لأنه كان شبيهاً به فى خلقته الى حد صارخ . واستولت القوة فى جبل مهاربا على تسعة جمال وكميات من الذخيرة والمعدات التى خلفها العدو هناك ثم لحقت بها بقية الميليشيا وقوة بريطانية ودارت فى آخر يناير (١٩٤١) معركة حامية مع العدو بالقرب من قارورة لمع فيها اثنان من رجال الميليشيا هما الجاويش ادريس على سليمان الذى نقل تحت نيران العدو المكثفة رسالة الى مقر رئاسة القوة البريطانية والأونباشي ادريس محمد نور الذى حمل على ظهره ضابطاً بريطانياً جريحاً من أرض المعركة الى بر الأمان . وقد منح الأدريسان وسام الشجاعة البريطانى وبينما أخذت القوات الحليفة تناطح جبال كرن قامت الفرقة الهندية السابعة.والوحدات الفرنسية والبريطانية والسودانية الملحقة بها باحتلال مرسى تاكلاى وقارورة فى السابع من فبراير . ثم قام رجال الميليشيا فى اليوم التالي بالاستيلاء على قرية الغينا . وتبين بعد ذلك أن طبيعة الأض لا تمكن القوات النظامية من التقدم السريع بعتادها ومعداتها الثقيلة الى داخل اريتريا فتقرر ألاعتماد على ميليشيا المروج لأنها تعتمد على الجمال فى تنقلاتها ولرجالها خبرة بالمنطقة ودروبها وشعابها . وهكذا تحرك اليمباشي بيتون على رأس قوة قوامها ٢٥ من رجال الميليشيا من الغينا عبر المسالك الجبلية لاحتلال بلدة نكفة الاريترية . وبعد مسيرة استغرقت عشرين يوماً تخللتها اشتباكات متناثرة استولت القوة على نكفة وبفضل ذلك انتقلت الفرقة الهندية والوحدات الأخرى الملحقة بها الى موقع على مسافة ستين ميلاً فقط من كرن وقد جرى كل ذلك قبل شهر واحد من سقوطها .

وأسندت الى ميليشيا المروج المهام الأمنية فى نكفة وغيرها من المواقع المحتلة بالأضافة لتوفير الجمال لترحيل المؤن والامدادات للفرقة الهندية وملحقاتها التى أخذت تشدد الضغط من ناحية الشمال على القوات الايطالية المدافعة عن كرن . وتحقق فى فترة وجيزة توفير خمسمائة رأس من الجمال البشارية الأصيلة وتولى رجال ميليشيا المروج الخضراء تسيير القوافل بانتظام الى الخطوط الأمامية الى أن سقطت كرن فى السابع والعشرين من مارس ١٩٤١ . وفى المرحلة التالية شاركت الفرقة الهندية فى الهجوم على مصوع وتولت مجموعة من الميليشيا بقيادة اليمباشي سالمون عمليات الاستطلاع والاستكشاف حتى تكلل الهجوم بسقوط مصوع وما حولها وكان ذلك خاتمة مجيدة لدور ميليشيا المروج فى القتال الذى طوت فيه مسافة تزيد على ثلاثمائة ميل فى أرض مجدبة وذات طبيعة قاسية بالاضافة لمشقة الحرب والقتال . ورغم ذلك عاد رجال الميليشيا بكاملهم الى أوطانهم من مسيرتهم التى استغرقت ١١ شهراً

بالتمام والكمال لم يقتل أى منهم أو يصاب بجراح . وكانوا دائماً وأبداً موضعاً للثقة والاعجاب وليس أدل على ذلك من أن معظم الأوامر للقيام بعمليات قتالية أو استكشافية كانت تختتم بالعبارة التالية « لا تنس أن تأخذ معك بعضاً من رجال ميليشيا المروج » . وشاع بعد عودة رجال المليشيا الى اوطانهم بسلام أن ذلك واحدة من كرامات الشريفة مريم عميدة بيت الميرغنى والأم الروحية لميليشيا المروج وهي ذات نفوذ واسع وكلمة مسموعة بين قبائل شرق السودان التى يدين معظمها بالولاء لطائفة الختمية . وقد تولت الشريفة بنفسها توجيه أتباعها الى الانخراط فى الميليشيا للدفاع عن أرض الوطن . وكان الراغبون منهم يأتون لزيارتها تبركاً وبغرض الاستئذان منها وتقول لهم الشريفة مريم « أذهبوا وحاربوا مع الانجليزا فهذا خير لكم وسأدعو الله عقب كل صلاة لتعودوا سالمين ومكرمين » واستجاب الله لدعائها فقد كانت أمرأة تقية صالحة ومن هم فى مثل مقامها لا يخيب لهم دعاء . ويروى البمباشي لى مفتش مركز طوكر الذى أشرف على تجنيد ميليشيا المروج وتولى قيادتها فى الأشهر الأولى أنه فوجئ بين المتقدمين للتجنيد بشيخ يدعى « أبو سن حمراء » عمره غير معروف ويبدو واضحاً من هيئته والتجاعيد التى تكسو وجهه أنه غير لائق للخدمة العسكرية . وعندما رفض طلبه احتج بأنه يجيد الرماية وليس بين المتقدمين من يباريه فى ذلك فأخذوه الى موقع ضرب النار وسلموه هناك بندقية وخمس طلقات أودعها جميعاً فى قلب الهدف خلال ثوان معدودات وكان ذلك رقماً قياسياً يحسده عليه أعظم أبطال الرماية فى العالم . وهكذا أنضم الشيخ « أبو سن حمراء » الى ميليشيا المروج وأثبت أنه ليس بارعاً فى الرماية فحسب وانما خبير أيضاً بأسرار الأبل وكيفية التعامل معها . وفى احدى المرات تصدى بمفرده لقافلة محملة بالذرة فى طريقها الى العدو فى اريتريا .

أما وقد عاد أبطال ميليشيا المروج الى أوطانهم فى تلال البحر الأحمر بعد أن سجلوا آيات المجد والفخار وغرسوا شجرة الحرية سامقة فى منابتها الوعرة بين شعاب اريتريا وصخورها فليس هناك ما يساق من عبارات الاعجاب والاكبار سوى ترديد ما قاله من قبل شاعر الامبرطورية البريطانية روديارد كيبلنغ عن مآثر أبائهم وأجدادهم الذين سجلوا مثلهم أروع آيات البطولة والاقدام فى حروب المهدية ضد القوات البريطانية .

« أناديكم يا أبطال البجة فى وطنكم السودان أنتم قوم فقراء تعيشون على الفطرة ولكنكم مقاتلون من الطراز الأول » .



بكباشي جون دانيال قائد القوة المدافعة عن كسلا عندما اجتاحها الايطاليون يلتقى فى لندن مع الأميرالاى الزين حسن الذى كان آنذاك طالباً حربياً ملحقاً بالقوة المذكورة

الفصل الثامن

اقتحام امبالاجى

آخر المعاقل الإيطالية

لو لاذ بالجوزاء منهم معقل دخلوا على أبراجها الجوزاء



أصبحت اريتريا بعد سقوط عاصمتها أسمرا وتطهير جيوب المقاومة هنا وهناك أول قطر تم تحريره منذ نشوب الحرب العالمية الثانية من قبضة المحور . وفى الواقع أن اريتريا كانت – مثل الهند لبريطانيا – درة التاج الايطالي وواسطة العقد فى أمبرطورية روما التى ظل يحلم بها الدوتشى موسولينى منذ توليه الحكم . ويقول الجنرال بلات القائد العام لقوة الدفاع السودانية الذى أدار المعركة أن حصيلته حتى تلك المرحلة بلغت أربعين ألف أسير من الجنود الايطاليين والافريقيين بالاضافة الي كميات وافرة من الأسلحة والعتاد بينها ٣٠٠ مدفع من مختلف الأحجام . ولم يقتصر فضل السودان على الدور القيادى الذى أسهمت به قوة دفاعه فى عمليات القتال ومطاردة قوات العدو بين الجبال والأودية وانما شمل أيضاً الاشراف على ادارة الأراضى المحتلة وتوفير الأمن فيها وتأهيل المشروعات الزراعية التى أضرت بها الحرب . وقد انتدبت الحكومة السودانية لهذا الغرض بخلاف العسكريين لفيفاً من موظفيها ورجال الشرطة البريطانيين والسودانيين .

وفى المرحلة التالية تركز القتال داخل الأراضى الاثيوبية التى كانت قد اقتحمتها قوات سودانية وهندية وميليشيا المقاومة الاثيوبية منذ الأيام الأولى للزحف عبر الحدود السودانية قاصدة غوندار وأديس أبابا وقد عبر الامبرطور هيلاسلاسى الحدود منذ ٢١ يناير (١٩٤١) على ظهر حصان عند موقع بالقرب من الرصيرص فى طريقه الى عاصمة ملكه ومعه رجال سلاح الحدود التابع لقوة الدفاع السودانية بقيادة الكولونيل باوستيد . وهذا جانب آخر فى سجل قوة الدفاع السودانية سنتناوله بالتفصيل لاحقاً بعد متابعة القوات الحليفة التى حررت أريتريا وانطلقت من هناك الى اثيوبيا وقد بقى فيها موقعان للايطاليين تجمعت فيهما قواتهم المندحرة هما غوندار . العاصمة الاثيوبية القديمة الواقعة على مسافة سبعين ميلاً شرقى قلابات وأم بالاجي الواقعة على مسافة مائتين وثلاثين ميلاً جنوبي أسمرا ويتوسط جبالها المشرئبة إلى عنان السماء جبل أمبالاجي الذى يصل ارتفاعه الى ١٠ ألاف قدم فوق سطح البحر ويتحكم فى المنطقة المحيطة به وهو أعلى القمم فى الهضبة الاثيوبية . وجاء فى التاريخ الرسمي البريطانى للحرب العالمية الثانية أن مجموعة جبال أمبالاجي تشكل قلعة طبيعية مهيبة وذات مناعة فريدة تدعمها من الجهات الأربع جبال ومرتفعات وهضاب صخرية أقل منها ارتفاعاً وتبللها السُحب من يوم ليوم أو تتناوبها الرياح الثلجية .

ومن الحقائق الثابتة أن وحدات قوة الدفاع السودانية هي التى قامت بتطهير الطريق بين أسمرا وأمبالاجي واحتلت جميع المواقع الايطالية بينهما بما فى ذلك مدينة عدوة التى احتلتها كما أسلفنا قوة من البلوكات السريعة . بعض المواقع سقطت فى أيدى الوحدات السودانية دون قتال اما لفرار الحاميات الايطالية التى فيها أو استسلامها والبعض الآخر أبدى مقاومة وخاصة فى المواقع الجبلية الصالحة للكمائن من أجل تأخير تقدم الوحدات السودانية وبالتالى تمكين القوات الايطالية المندحرة من الافلات الى مواقع مأمونة . وقد وقعت فى أحد هذه الكمائن بالقرب من أدى أوغرى فى الطريق الى

عدوة وحدة استطلاعية وفقدت ثلاثة قتلى ولكن قائدها الأونباشى عبد الرحمن الجعلي كتبت له النجاة مع الآخرين وعاد الى قاعدته ومعه مدفع الفايكرز الذى غامر بحياته فى سبيل انقاذه من الوقوع فى أيدى العدو.

ووقع الاختيار على وحدات من الفرق الهندية الخامسة والتاسعة والعاشرة للاشتراك مع القوات السودانية فى الهجوم على أمبالاجي بقيادة الميجر جنرال مين وكانت بين القوات السودانية السرية السادسة من المشاة التابعة لسلاح المدفعية ومن جنودها النفر حسن سعد النور الذى وافانى مشكوراً بشذرات من ذكرياته علي شريط مسجل يقول فيها « عند وصولنا الى موقع يدعى بيجا على سفح جبل أمبالاجي وجدنا السرية الرابعة من فرقة الهجانة واستقبلنا رجالها ومعظمهم من منطقة بارا بحفاوة بالغة وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث ونحتسى أكواب الشاى . وقال لنا رجال الهجانة أن « ابن موسولينى » مختبئ فى قمة الجبل الذى نجلس تحته وقد حشد الايطاليون فيه كل ما لديهم من أسلحة ورجال للدفاع عنه حتى الموت . وبعد قليل اختار البمباشي باول قائد سرية الهجانة فصيلتين من سريتنا وفصيلة هندية متخصصة فى الألغام للقيام بعملية استكشاف قتالية لاختبار طريق فى ناحية موقع يسمي دبوب يمكن أن تسلكه القوات للالتفاف حول العدو من ناحية الشرق . وحملتنا السيارات الى موقع قريب من الطريق تكتنفه أحراش كثيفة . وتركنا السيارات في مكانها ثم واصلنا السير على الأقدام وفى طليعتنا مجموعة صغيرة بقيادة الجاويش على كمبال برزت لها من بين الأحراش ثلاث فتيات اثيوبيات قادمات من خط النار الذى يرابط فيه أزواجهن . ومن المألوف عند النساء الاثيوبيات أنهن يحاربن مع أزواجهن . ولما رأت الفتيات الجنود السودانيين سقطن على الأرض مغشياً عليهن ثم نهضن بعد قليل واختفين بين الأحراش مسرعات . ومضت دقائق قليلة دوت بعدها المدافع الايطالية وكاد الجبل أن يتصدع من هديرها . والايطاليون يفضلون دائماً القتال من وراء استحكاماتهم الجبلية ويخشون لقاء العدو فى الساحات المكشوفة . وعندما اشتد قصف المدفعية الايطالية تفرقنا بين الصخور واتخذنا منها ساتراً وكان نصيبي الاحتماء مع على كمبال وزميل آخر تحت صخرة ذات سطح مستوكالمنضدة وقد سقط فوقها ١٨ قذيفة تناثرت شظاياها عند ارتطامها بالصخرة فى كل اتجاه ولكن لم ينلنا منها غير دخانها المشبع برائحة البارود . ونصحنا كمبال بالبقاء فى مكاننا دون حراك لكي يظن العدو أننا فى عداد الهالكين فيحول قذائفه الي هدف آخر . فامتثلنا للنصيحة وتحولت القذائف بالفعل الى هدف آخر . واستمرت عملية القصف زهاء نصف ساعة ولم يكن فى امكاننا الرد عليها فقد كانت القذائف تنهمر علينا من مصادر وراء الصخور فى أعلى الجبل أما البمباشى باول وهو من أشجع الضباط البريطانيين الذين صادفتهم فقد ظل طوال الوقت واقفاً وسط الطريق حاملاً منظاره ويلتفت صوبنا بين حين وآخر صائحاً « ايطاليا مغفلين يضرب بدون فايدة وبدون تنشين » . ثم أصدر فى النهاية أوامره لنا بالانسحاب دون انتظام ويعنى هذا فى المصطلحات العسكرية

أن يتصرف كل فرد منا على النحو الذى يضمن له النجاة . وعاد كل واحد منا بطريقته الخاصة الى مكان السيارات التى أقلتنا الى المعسكر . وقد عدنا جميعاً سالمين ولم يصب أحد فينا بأذى . وأمضينا الليلة فى طرب وسمر كأن لم نكن قبل ساعات على حافة الهلاك . ولم يسلم « الخواجة أبو رماش » من تعليقاتنا الساخرة وهو الضابط البريطانى الذى ينوب عن البمباشى باول ولكنه كان على عكس رئيسه أجبن من صافر واشتهر بيننا باسم أبو رماش لأن عينيه لا تكفان عن الرمش من شدة الهلع عندما يجد نفسه فى خطر . وقد رافقنا فى عملية الاستكشاف ولكن ما أن جلجلت القذيفة الأولى حتى أطلق ساقيه للريح ولم نعثر له على أثر كأنه « فص ملح وذاب » ! ! ولما عدنا للسيارات ألفيناه تحت واحدة منها فجمع أطرافه عندما رآنا ثم وقف على قدميه وسالنا غاضباً عن من أذن لنا بالانسحاب ؟ ؟ فرددنا عليه قائلين « أين كنت سعادتك » ولم نزد على ذلك ! ! وأزداد احتقارنا له فى ذلك اليوم أما البمباشى باول فقد كان دائماً موضع أكبار واعجاب . ونحن السودانيون نعشق الشجاعة بطبعنا وتهزنا البطولات » . ونكتفى الآن بهذه السطور من ذكريات حسن سعد النور وسنعود اليها بعد حين .

وأتخذت معظم الوحدات الهندية عند وصولها إلى جبل أمبالاجى مواقع بعيدة عن مرمى مدفعية العدو بينما تقدمت سريتا المدفعية والهجانة السودانيتين إلى الخطوط الأمامية لمناوشة العدو لإضعاف إستحكاماته مثلما فعلت القوات السودانية من قبل في معركة كرن . ووجه الجنرال وليام بلات انذاراً أخيراً إلى دوق أوستا دعاه فيه للإستسلام وحذره من أنه في حالة رفضه سيكون مسئولاً عن سلامة الايطاليين المدنيين . ولكن الدوق ركب رأسه وذكر في رده على الجنرال بلات أنه واثق من الانتصار مثلما فعل الجنرال توسسيللي الايطالي في عام ١٨٩٥ عندما حاصرته في نفس الموقع من جبال أمبالاجى قوة من الأحباش بقيادة الرأس ماكونن . وكشفت صحيفة الديلي تلغراف البريطانية في تلك الأيام عن أن إلتجاء الدوق إلى أمبالاجى وإعتصامه بها كانا إستجابة لأمر تلقاه مباشرة من أدولف هتلر طلب فيه من الدوق الاستمرار في المقاومة أطول فترة ممكنة حتى لا يتمكن البريطانيون من تحويل قواتهم في شرق افريقيا إلى الصحراء الغربية .

وعلى أية حال ومع انتهاء مدة الانذار أصدر الجنرال بلات أمره لقواته باقتحام أمبالاجى لتسجيل آخر سطر في ملحمة الحرب في شرق افريقيا . واحتدم القتال بين الجانبين في السهول والشعاب مما أعاد إلى الأذهان وقائع معركة كرن الفاصلة . وكانت الوحدات السودانية في المقدمة كالعادة . وقد أبلى الايطاليون بلاءً عظيماً في الدفاع عن إستحكاماتهم المنيعة وأجبرت نيران مدفعيتهم الرابضة في قمة الجبل الجنود السودانيين أكثر من مرة على الانسحاب من مواقع بعد احتلالهم لها . وكان الايطاليون يعلمون أن هذه آخر معاركهم في الحرب في شرق افريقيا ولن تقوم لهم قائمة اذا انهزموا فيها . وزادهم حماسة واستماتة أن دوق أوستا احتمى منذ فراره مع كبار أعوانه من أديس أبابا بجبل أمبالاجى وهكذا وقع على عاتقهم خوض المعركة الأخيرة دفاعاً عن شرف ايطاليا ومليكها

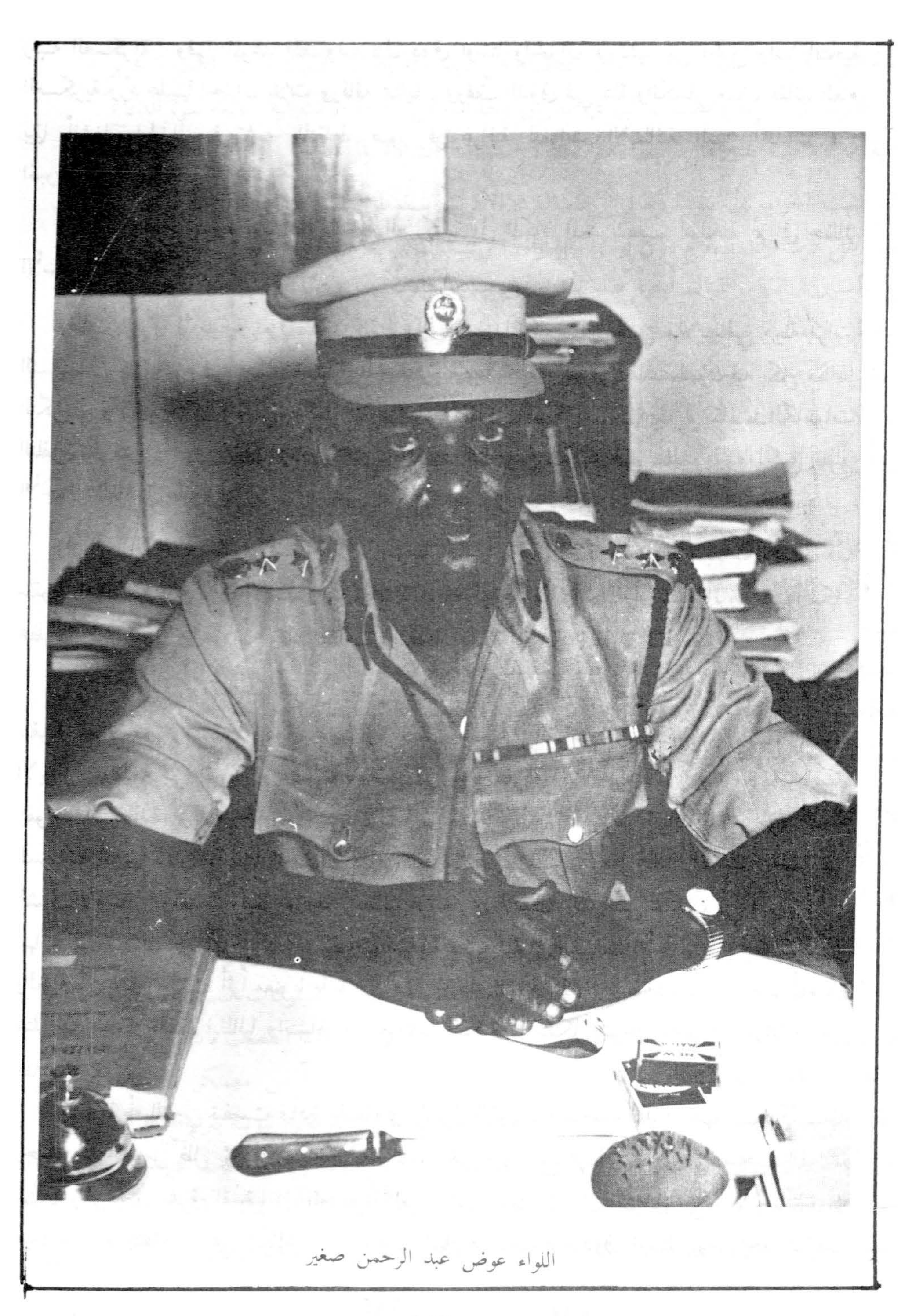
وامبرطوريتها مهما كان الثمن غالياً .

ومن ناحية أخرى أصبح احتماء دوق أوستا بالجبل حافزاً للقوات الحليفة على القتال في صبر وعناد والوصول إليه في مسبعته حتى وأن كان دون ذلك – كما يقول المثل العربي – بيض الأنوق . وليس أدعى للإفتخار عند رجال الهجانة ومدفعجية شندى من تتويج انتصاراتهم بوضع يدهم على « ابن موسوليني » حياً كان أم ميتاً .

بدأت معركة أمبالاجى بالفعل في الرابع من شهر مايو أى قبل يوم واحد من استسلام أديس أببا ووصول الأمبرطور إليها على أسنة رماح قوة الدفاع السودانية . وفي اليوم السابع عشر من الشهر نفسه وبعد قتال مرير وإشتباكات طاحنة استسلم دوق أوستا (أبن موسوليني المزعوم) ومن معه من القادة والجنود وأعوانه المدنيين . وذكرت صحيفة الديلي تلغراف البريطانية أن عدد القوات التى استسلمت مع الدوق كان أكثر من سبعة آلاف جندى من الايطاليين الأوربيين والافريقيين . ونعود ثانية إلى ذكريات حسن سعد النور ليروى واقعة الاستسلام بإعتباره شاهد عيان – يقول حسن :

« عندما قرر دوق أوستا الاستسلام أرسل ٣ ضباط ايطاليين اعترضهم رجال المقاومة الاثيوبية المرابطون في الناحية الغربية من الجبل وقتلوا الضباط الثلاثة . ونقل الايطاليون النبأ للقيادة الحليفة عن طريق اللاسلكي . وبعد اتخاذ الإجراءات اللازمة لعدم تكرار الحادث أرسل الدوق ٣ ضباط آخرين استقبلهم القائمقام رانكين بك وضابطان بريطانيان آخران . ولم يجد القائمقام رانكين قبعته في ذلك اليوم فإستعار عمامة واحد من الجنود السودانيين . وتم الاتفاق على شروط الاستسلام وبينها إخلاء الايطاليين ما تبقى لهم من إستحكامات أمامية عند الجبل لتحتلها القوات الحليفة في اليوم نفسه على أن يتم بعد ذلك بيوم واحد هبوط القوات الايطالية إلى السفح لإستكمال إجراءات الإستسلام . وكان مع الدوق أوستا في الجبل عدد من كبار الضباط الايطاليين ومنهم الجنرال فروتشيه قائد القوات الايطالية في شرق افريقيا الذى رأيته أول مرة في كسلا عندما جاء لزيارتها بعد سقوطها وأقاموا له يومذاك احتفالاً كبيراً وكنت واحداً من جماهير المواطنين الذين اصطفوا – بأمر السلطات الايطالية – على جانبي الطريق ملوحين بالأعلام الايطالية ويهتفون للجنرال عند مروره على سيارة مكشوفة . لقد كان الجنرال فروتشيه يومذاك في قمة مجده وجبروته . وشاءت الأقدار أن أراه مرة ثانية في أمبالاجى ذليلاً ومهيناً . وسبحان الذى يعطي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ! ! . ويمضي حسن النور سعد في ذكرياته قائلاً :–

« لقد كان يوماً مشهوداً تقاطر فيه على أمبالاجى ضباط الحلفاء من كل مكان وأحضرت الفرق الموسيقية العسكرية الاسكوتلاندية والهندية . وشيدت منصة في وسط الجبل وقف عليها الجنرال بلات القائد العام لقوة الدفاع السودانية وهو في الوقت نفسه قائد الجبهة ومن ورائه الضباط كلاً حسب



اللواء عوض عبد الرحمن صغير

رتبته العسكرية . وفي الموعد المضروب نزل دوق أوستا والجنرال فروتشيه من الجبل وأديا التحية العسكرية ورد عليهما الجنرال بلات ورفاقه بمثلها . ووقف الدوق في ذلة وانكسار خلف القائد العام بينما أنشغل الجنرال فروتشيه بالتقاط صور فوتوغرافية للقوات الايطالية التى أخذت في الهبوط من الجبل .

وكان كل فوج يتوجه بعد أداء التحية العسكرية إلى المكان المعد لتسليم أسلحته ثم إلى حظائر الأسلاك الشائكة التي أعدت لهم .

وظلت الفرق الموسيقية تعزف دون انقطاع السلامين الملكيين البريطاني والايطالي طيلة مراسم التسليم . وكان اليوم في جملته استعراضاً عسكرياً مهيباً أحيط المنهزمون المستسلمون فيه بكل مظاهر التكريم والأحترام كما تقضي بذلك الأعراف والتقاليد العسكرية . وودت لو كانت الكاميرات التلفزيونية متوفرة في ذلك الزمان لتصوير المشهد التأريخي الفريد في ذلك اليوم لكي تطلع الأجيال القادمة عليه » .

وأرسل الجنرال سمطس رئيس وزراء جنوب افريقيا برقية إلى الجنرال وليام بلات وصف فيها سقوط أمبالاجى بأنه ذروة الانتصارات وقال بالحرف الواحد «أن الحملة الحبشية بأثرها ستتبوأ مكاناً عظيماً في تأريخ الحروب وقد أضافت صفحة مشرقة لأمجاد القارة الافريقية» .

وفي لندن ألقي ونستون تشرشل رئيس الوزراء بياناً أمام مجلس العموم البريطاني قال فيه أن سقوط أمبالاجى وإستسلام دوق أوستا ومن بقي معه من القوات الايطالية يعني انتهاء المقاومة الايطالية المنظمة في اثيوبيا . ووصف تشرشل في بيانه معركة أمبالاجى بأنها أروع معركة خاضتها القوات البريطانية أو الامبرطورية حتى الآن وأنها مفخرة للجنرال بلات القائد العام لقوة الدفاع السودانية الذى نفذ تنفيذاً ممتازاً المهمة التى كلفه بها سير آرشيبولد ويفل قائد القوات الحليفة في الشرق الأوسط . وتحدث رئيس وزراء بريطانيا عن مغزى الانتصارات التى تحققت في اثيوبيا فذكر أنها جعلت من الممكن تحويل معظم القوات الحليفة من هناك إلى الجبهات الأخرى في ليبيا وفلسطين والعراق كما أنها أحدثت أثراً معنوياً طيباً في سائر أرجاء الشرق الأوسط وكشفت عن عجز أدولف هتلر عن نجدة حليفته ايطاليا وانتشالها من هزائمها المنكرة مما يشكل شرخاً خطيراً فى خرافة «المحور الذى لا يقهر» .

وبسقوط أمبالاجي تنفست قيادة الحلفاء فى الشرق الأوسط الصعداء فقد أراحها السودان بشعبه وجيشه من كابوس ظل يؤرقها منذ دخول ايطاليا الحرب وأصبح فى امكان القيادة سحب القوات الهندية وغيرها من شرق افريقيا الى الصحراء الغربية لدرء خطر الزحف المحورى على مصر . وبسقوط أمبالاجي تم التقاء ذراعي الكماشة اذ وصلت اليها بعد استسلام دوق أوستا بيوم واحد القوات

الافريقية التى شقت طريقها بقيادة الجنرال كننغهام من كينيا متجهة الى الشمال حيث قامت بتحرير المناطق الجنوبية فى اثيوبيا وانضمت اليها فى الطريق وحدات من الفرقة الاستوائية التابعة لقوة الدفاع السودانية التى شقت بدورها طريقها عبر حدود السودان الشرقية الى داخل الأراضى الاثيوبية .

لقد انتهت الحرب فى اثيوبيا وسائر أرجاء القرن الافريقى بسقوط أديس أبابا وأمبالاجي واستواء الامبرطور على عرشه وباستسلام دوق أوستا والجنرال فروتشيه القائد العام الايطالي غير أن انتهاء الحرب لا يعنى بالضرورة انتهاء القتال أيضاً فقد بقيت جيوب للمقاومة هنا وهناك وانتشرت العصابات الاثيوبية التى لابد من توجيه الحملات لتأديبها حتى يأمن المواطنون على أرواحهم وممتلكاتهم . وكان أخطر وكر للمقاومة فى غوندار العاصمة الاثيوبية القديمة وفيها حامية ايطالية عنيدة لم تفقد الأمل فى المقاومة بالاضافة لحاميات أخرى فى المنطقة نفسها أصغر حجماً ولكنها لا تقل عن حامية غوندار عناداً وتصميماً على مواصلة القتال . وقد أفلحت بعض عناصر الجيش الايطالي الهاربة بعد سقوط أسمرا فى الوصول الى منطقة غوندار وبينها فلول الفاشيين ذوى القمصان السوداء الذين أسكرتهم شعارات الفاشية البراقة . وكان من المقرر فى البداية قيام البلوكات السريعة والفرقة الهندية الخامسة باحتلال غواندار ولكن القيادة اضطرت لتأجيل ذلك بعد قرار تحويل المجموعة الأولى من البلوكات السريعة الى الصحراء الغربية والاكتفاء بالمجموعة الثانية لمحاصرة غوندار . وقد قامت هذه المجموعة باحتلال قرية ديبيفار على طريق غوندار ثم اعترضتها سلسلة جبال والشيفيت التى تحمى بتكوينها الطبيعي واستحكاماتها المنيعة مشارف غوندار . ويمتد الطريق من ديبيفار تجاه غوندار متسلقاً جبالاً شديدة الانحدار كأنها ثعابين منسابة فى اتئاد بين الصخور . وليست المنطقة كلها صالحة لتحركات البلوكات السريعة على سياراتها ومصفحاتها ولا تتوفر لها أعداد كافية من المشاة والمدفعية المساندة كما أن مدافع الهاوتزر التى أثبتت فعاليتها فى المعارك السابقة لم تتوفر لها هذه المرة المرابض المناسبة التى تضمن وصول قذائفها الى الاستحكامات المنتشرة بين القمم .

وقام العدو فى ليلة ٢٦ أبريل (١٩٤١) بشن هجوم على موقع المجموعة الثانية (بلوكات سريعة) وارتدت القوة المهاجمة على أعقابها بعد تبادل النيران مدة قصيرة . وبقيت البلوكات السريعة مكتوفة الأيدى فى ديبيفار وتحت رحمة نيران مدفعية العدو التى استمرت فى عمليات القصف بانتظام ولكن كانت تعوزها دقة التصويب الا مرة واحدة سقطت القذائف فيها قريباً من معسكر للبلوكات السريعة . ولم يطرأ تحسين يذكر على الموقف حتى بعد انضمام قوة من المقاومة الاثيوبية يتراوح عددها بين ٥و٩ آلاف مقاتل الى البلوكات السريعة . ودخلت تلك القوة الاثيوبية فى اشتباكات غير حاسمة مع العدو على الخطوط الأمامية من ناحيتى الجنوب والغرب وفى كل مرة تدور الدوائر عليها فى آخر لحظة بسبب افتقارها الى الانضباط ولأن رجال المقاومة الاثيوبية نادراً ما يظهرون فى الوقت والمكان

المناسبين بل انهم فى احدى المرات انتقلوا من مواقعهم بسبب المطر . غير أنهم أفلحوا فى النهاية فى عزل حاميات العدو فى المنطقة عن القاعدة الرئيسية فى غوندار . وران الخمود على جبهة القتال فى غوندار باستثناء نشاط محدود اقتصر على قيام البلوكات السريعة بعمليات الدورية والاستكشاف على الخطوط الأمامية للعدو فى منطقة ديبيفار ولم تقع أحداث ذات بال سوى حادث واحد وقع للسرية الخامسة (بلوكات سريعة) لعب سوء الحظ فيه دوراً كبيراً وذلك عندما قامت السرية المذكورة بمحاولة لاسترداد سيارتى فان لحق بهما عطب فى اشتباك سابق وبقيتا فى مكانهما الى أن توجهت الى هناك دورية من السرية الخامسة تحت غطاء من السحب المنخفضة لاسترداد السيارتين ولكن السحب انقشعت فجأة على غير العادة وفى نفس الوقت الذى وصلت الدورية فيه الى موقع ضيق للغاية كأنه حلقة خاتم وعلى أحد جانبيه جدار من الصخور الصماء وعلى الجانب الآخر ينحدر الجبل الى هاوية سحيقة لا قرار لها . وانكشفت الدورية فى ذلك الموقع فتناولتها نيران العدو وسقط أربعة قتلى من رجال الدورية بينهم البمباشى البريطانى وجاويش السرية الخامسة وهو سودانى وتمكن الباقون من العودة الى قاعدتهم . وانضم مزيد من القوات البريطانية والهندية فى هذه المرحلة الى البلوكات السريعة ولكن كان واضحاً أنه لا سبيل للتقدم نحو غوندار بسبب الأمطار الغزيرة . وقد حاولت وحدة هندية فتح الطريق أمام البلوكات السريعة ولكنها فشلت فى مهمتها بسبب خيانة قطاع من المقاومة الاثيوبية وتعاونه مع الايطاليين وكان بين القتلى قائد الوحدة الهندية . ولو كتب النجاح للمحاولة لتمكنت البلوكات السريعة من استئناف دورها التقليدى كقوة ضاربة متحركة . وعلى أية حال لم تعد المقاومة الاثيوبية فى تلك المنطقة موضعاً للثقة وقل الاعتماد عليها . ولم تكن خيانة المقاومة الاثيوبية الطعنة الوحيدة التى تلقتها البلوكات السريعة (السرية الخامسة) والوحدات الهندية والبريطانية التى معها من الخلف على يد قوة صديقة وانما تلقت أيضاً طعنة ثانية وكانت هذه المرة من طائرة تابعة لجنوب افريقيا . فقد اغارت الطائرة على معسكر البلوكات السريعة ظناً منها أنه معسكر تابع للأعداء وباءت بالفشل كل محاولات الجنود للفت نظر قائد الطائرة المغيرة الى أنهم قوة سودانية صغيرة ولم يبق أمامهم سوى السقوط فى الهاوية التى تحت الجبل أو الاستسلام للموت . ولما لم يرعو قائد الطائرة أو يثب لرشده فتحت المدفعية السودانية نيرانها عليه وسقطت الطائرة فى مكان غير بعيد وخرج قائدها سالماً من بين ركامها المحترق .

ومع انحسار الأمطار فى سبتمبر أسندت ادارة دفة الحرب فى اثيوبيا الى قيادة شرق افريقيا الجديدة (الجنرال كننغهام) وحلت القوات الافريقية القادمة من كينيا مكان المجموعة الثانية من البلوكات السريعة التى عادت على الفور الى أسمرا بعد أن أمضت زهاء خمسة أشهر فى ديبيفار علي مشارف غوندار تحت رحمة الأمطار ونيران العدو وصبر الجنود على ذلك محتفظين بلياقتهم القتالية فى انتظار الفرصة لاقتحام مدينة غواندار على رأس القوات الحليفة وهي الفرصة التى أصبحت قاب قوسين أو

أدنى عندما أمروا بالانتقال الى أسمرا . ولابد من أنهم شعروا بالمرارة وخيبة الأمل عندما استسلمت غوندار بعد عشرة أيام فقط من مغادرتهم ديبيفار .

ومن أسمرا انتقلت المجموعة الثانية من البلوكات السريعة الى كسلا وكان فى استقبالها عند مدخل المدينة حرس شرف من رجال الشرطة بقيادة مفتش المركز البريطانى كما استقبلها أهل المدينة بالهتافات والزغاريد والأغانى الشعبية الحماسية المصحوبة بدقات الدفوف . وانتشرت حلقات الرقص على طول الطريق المؤدية الى الطابية . الرجال بعصيهم وسيوفهم ودروعهم يؤدون رقصات الحرب (العرضة) والنساء يوزعن فى سخاء « الشبالات » على الأبطال العائدين . وكانت تلك المرة الأولى التى يعود رجال البلوكات السريعة فيها الى وطنهم منذ عبورهم الحدود فى يوليو ١٩٤٠ رافعين رايات الحرية ومشاعلها . غرسوا الرايات بسواعدهم فوق هامات الجبال وغمرت المشاعل بنورها السهول والشعاب

الفصل التاسع

مع الكتيبة المختلطة وسلاح الحدود

« يا رجال الحدود دافعوا عن وطن الجدود
ان قالوا سودانية سود ليس السواد عيب للأسود »



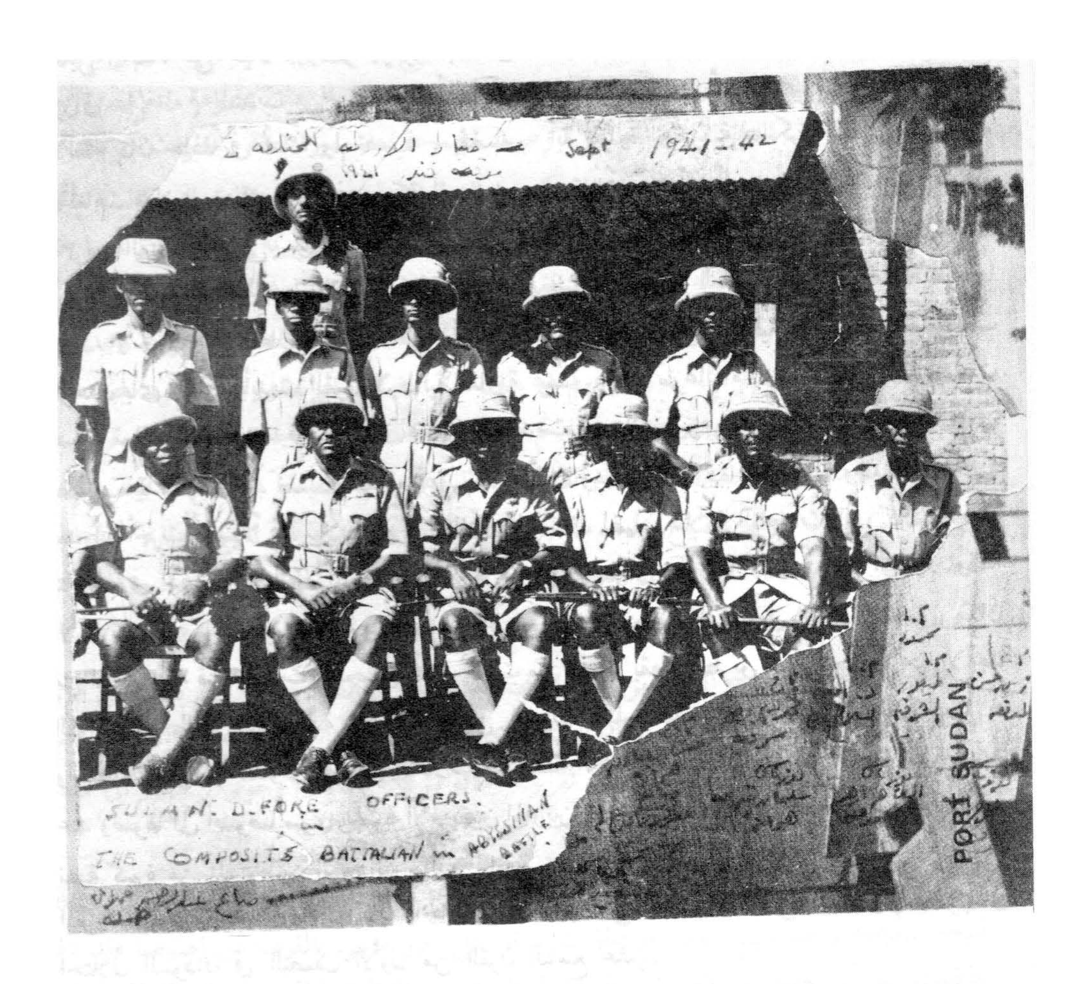
ليس دور قوة الدفاع السودانية فى القتال الفعلي على الساحة الاريترية ثم الاثيوبية قاصرا على ما ذكرناه من قبل فقد صرفتنا متابعة وقائع زحفها عبر حدود مديرية كسلا وتلال البحر الأحمر عن رصد دور فرقتى العرب الشرقية وسلاح الحدود اللتين عبرتا حدود مديرية النيل الأزرق وخاضتا معارك رهيبة ضد معاقل العدو داخل الأراضى الاثيوبية وهذا ما ستتناوله الآن من خلال متابعتنا لعمليات الكتيبة المختلطة التابعة لفرقة العرب الشرقية ثم ننتقل بعد ذلك لفرقة سلاح الحدود التى رافقت الامبرطور هيلاسلاسى فى مسيرته من داخل السودان الى أن استوى على عرشه فى أديس أبابا واستعاد تاجه المتوارث منذ عهد سليمان عليه السلام . ولكن تاج النصر والبطولات الذى كلل هامة سلاح الحدود كان أكبر قدراً وأعظم مهابة من ألف تاج على مفرق ألف ملك فى ألف مملكة .

تتألف الكتيبة المختلطة (المقاتلة) من سرية الادارة التابعة لفرقة العرب الشرقية وهي النواة الأولى للكتيبة ومن سريتين من سلاح الهجانة (النوبة) ووحدة من المدفعية (مدفعجية شندى) مزودة بأربعة مدافع هاوتزر عيار ٣٫٧ ومن ميليشيا بكر . وقد ألحقت هذه الميليشيا بفرقة العرب الشرقية فأصبحت السرية الرابعة فيها مما يعنى أنها كانت – علي نقيض الميليشيات الأخرى – قوة شبه نظامية . ويؤخذ من السجلات وما نقله الرواة المعاصرون أن الضباط السودانيين الذين اشتركوا فى قيادة الكتيبة المختلطة فى تلك الحقبة هم حسب رتبهم حينذاك : الصاغات النور خميس وعبد الرزاق على طه وعبد الرحمن حمدان واليوزباشوات طاهر ابراهيم وسليمان خيرالله ومحمد فرج الله والملازمون محمد أحمد التجانى وحسن الصادق ومحمد آدم عوض والزين حسن ودكتور سيد على عبد الرحيم (طبيب الكتيبة) والصول محمد على إدريس . وقد عهد للكتيبة فى اطار الخطة الشاملة لتحرير شرق افريقيا من المحور بالتصدى لقوآت العدو المحتشدة فى مدينة أصوصا الأثيوبية وما حولها حتى لا تفكر القيادة الايطالية فى تحويل قوات من هناك الى الشمال لتعزيز ومساندة القوات الايطالية المدافعة التى تجابه الزحف الرئيسى على المحورين الشمالي والجنوبي .

وتحركت الكتيبة المختلطة فى ديسمبر ١٩٤٠ الى المنطقة التى يخترق النيل الأزرق فيها الحدود الاثيوبية فى رحلته السرمدية الى ساحل البحر الأبيض المتوسط واتخذت مقراً لها عند موقع يدعي بيكورى . واستهلت الكتيبة عملياتها القتالية باسترداد قيسان فى العاشر من فبراير ١٩٤١ وقد أبدت الحامية الايطالية التى فيها مقاومة وكانت هذه المرة الأولى التى استخدم فيها رجال ميليشيا بكر مدافع البرن الأربعة التى زودوا بها اثر احتجاجهم على عدم توفير أسلحة مناسبة لهم لمواصلة الحرب خارج أوطانهم . وكان انطلاق الكتيبة المختلطة من بيكورى الى قيسان الواقعة على مسافة ٢٥ ميلاً تقريباً مثل سباق الداربي الشهير فقد تدافع شيوخ المنطقة وفتيانها وراء الكتيبة على ظهور الحمير أو جرياً على الأقدام حاملين سيوفهم وحرابهم وعصيهم وكل واحد منهم يمنى نفسه بأخذ نصيب من الغنائم والأسلاب . وتوجهت الحامية الايطالية المنسحبة من قيسان الى شوغالي وانبرت ميليشيا بكر لمطاردتها

حتى جسر التومات وأوقعت بها خسائر فى الأرواح والمعدات . وأفادت التقارير المستقاة من الأهالى حينذاك بأن سرية ايطالية كاملة أصبحت معزولة عن القوات الرئيسية على الطريق الى أفودو التى أخذت تتجمع فيها قوات العدو المنسحبة من مواقع عديدة . وتحركت ميليشيا بكر الى مكان السرية المعزولة سالكة دروباً غير مطروقة بين الأحراش والأدغال ودارت اشتباكات بين الطرفين تمكنت الميليشيا فيها من القضاء على السرية الايطالية ثم عادت الى قاعدتها ومعها من الغنائم والأسلاب بخلاف الأسرى عدد من المدافع مختلفة الأحجام وكمية كبيرة من الذخيرة ومئات الآلاف من الليرات الايطالية .

ثم جاءت بعد ذلك مرحلة التحفز لاحتلال أفودو فقامت فصيلة من الهجانة بالالتفاف حو طابيتها القديمة ولما أحس جنود العدو بالخطر المحدق بهم من جراء ذلك أصابهم ذعر شديد دفعهم للخروج من مكامنهم ومغاورهم واطلاق كل ما لديهم من أسلحة نارية بما فى ذلك المدافع التى كانت مخبأة بين الأحراش وليتهم لم يفعلوا اذ كشفوا بذلك عن مواقعهم فأصبحوا هدفاً فى متناول المدفعية التى أمطرتهم بوابل من قذائفها . وانتاب القيادة الايطالية قلق شديد ازاء مصير الحامية فى أفودو ومن معها من الجنود المنسحبين فشرعت فى ارسال تعزيزات الى هناك كانت فى طليعتها سيارة مصفحة وقعت فى كمين نصبته لها فصيلة من سلاح الادارة وتعطلت السيارة وهلك من فيها . وتركت الفصيلة السيارة المعطوبة فى مكانها لتكون بمثابة طعم للايقاع بالمزيد من التعزيزات القادمة من أصوصا . وتحقق للفصيلة ما أرادته إذ ظهرت فى اليوم التالي (٩ مارس ١٩٤١) قوة ايطالية حاولت انتشال السيارة فاشتبكت معها فصيلة سرية الادارة وأنزلت بها خسائر فادحة وكانت حصيلتها من الغنائم فى ذلك اليوم عشر دراجات نارية (موتورسايكل) وثلاث شاحنات . وكان هذا الاشتباك ايذاناً باحتدام المعركة فتقدمت سريتا الهجانة نحو المواقع الأربعة التى احتمت بها قوات العدو فى أفودو وكانت الزغاريد وصيحات الحرب التقليدية المخيفة التى اشتهر بها أبناء النوبة تطغى على قعقعة الأسلحة النارية وهدير المدفعية . وهذه الصيحات خليط من دوى الرعود وزئير الأسود وعواء السباع وغير ذلك مما يوجف القلوب وترتعد الأبدان من هوله . وشق أبناء النوبة طريقهم سرباً الى الموقعين الأول والثانى مثلما شقت السكين قالب الزبد وتبعهم رجال الكتيبة الآخرون . وسرعان ما دانت لهم المواقع الأربع . وأخذت قوات العدو المؤلفة من فرقتين كاملتين فى الانسحاب تجاه الجنوب الشرقى تاركة بطاريات مدفعيتها ومعظم ما لديها من الأسلحة والذخائر . ورفعت الكتيبة المختلطة علمها فوق طابية أفودو . ويقول الأميرالاى جيفورد بك قائد فرقة العرب الشرقية « كانت أفودو موقعاً حصيناً عصى المنال وقد قام الايطاليون بزرع كميات هائلة من الألغام على الطريق عند مشارفها وشقوا أنفاقاً وسراديب فى بطن الصخر » ولكن شجاعة رجال الكتيبة المختلطة جعلت اقتحامها أشبه بنزهة خلوية فى أرض آمنة . كما أن الحظ لعب دوره اذ وقع فى الأسر الضابط الايطالي الذى تولى زرع الألغام فأرشد اليها



ضباط الفرقة المختلطة

- من اليمين :

الجالسون : يوزباشي محمد أفندى فرج الله - يوزباشي طاهر أفندى إبراهيم العبد - اليوزباشي سليمان أفندى خيرالله - الصاغ عبد الرزاق أفندى على طه - بكباشي سعيد أفندى محمد سعد - الصاغ عبد الرحمن أفندى حمدان .

- الواقفون :

ملازم ثانى الزين أفندى حسن الطيب - ملازم أول طيفور الطاهر - ملازم أول (طبيب) سيد أفندى عبد الرحيم - ملازم ثانى محمد آدم عوض - ملازم ثانى حسن الصادق عبد الرحيم .

وفى الخلف ملازم أول محمود محمد عمر .

مقابل الابقاء على حياته . وذكر جيفورد بك فى هذا الصدد أن الضابط السودانى (الصاغ عبد الرزاق علي طه) المنتدب من سلاح المهندسين لمرافقة الكتيبة والذى أشرف على تطهير الطريق من الألغام كان حاذقاً فى أدائه ولم تصب - بفضله - أية سيارة أو مركبة عسكرية بعطب من جراء الألغام . وبلغت خسائر العدو فى معركة أفودو خمسين قتيلاً و٦٨ أسيراً بينما خسرت الكتيبة المختلطة ٣٢ من القتلى والجرحى . وبسقوط أفودو وتطهير منطقتها من جيوب العدو دانت منطقة بنى شنقول بأسرها للكتيبة المختلطة . وانطلقت الكتيبة من أفودو صوب أصوصا العاصمة الاقليمية شاقة طريقها وسط الأحراش والأدغال ومجارى الخيران واعترضتها فى الطريق قوة ايطالية لديها تعليمات بايقاف الزحف بأى ثمن . وأبدت القوة الايطالية مقاومة عنيفة ولكن سرعان ما ارتدت على أعقابها تحت ضغط نيران المدفعية (مدفجية شندى) التى استخدمت فى ذلك اليوم أسلوباً جديداً من ابتكارها فى تصويب قذائفها . فقد نصبت المدافع على مسافة ألف وخمسمائة ياردة فقط وراء وحدات الكتيبة بعد أن أجرت تعديلاً فى ميلان زاوية انطلاق القذائف لضمان سلامة الوحدات التى كان جنودها يتابعون فى دهشة القذائف المارة على مقربة من رؤوسهم فى طريقها لدك معاقل العدو. وهذا الأسلوب الذى ابتكره مدفعجية شندى عير مألوف حتى فى معاهد المدفعية فى البلاد المتقدمة . وكان من المتفق عليه قيام القوات البلجيكية التى جاءت من الكنغو بقطع الطريق شرق أصوصا حتى لا تجد القوات الايطالية فيها فرصة للهروب ولكن القوات البلجيكية تباطأت فى تنفيذ ماكلفت به واستطاعت قوات العدو فى أصوصا الافلات من قبضة الكتيبة المختلطة القادمة من الغرب والتى لم تجد عند وصولها الى أصوصا سوى الجنود الافريقيين الهاربين من الجيش الايطالي بالاضافة للمدنيين وبينهم نسبة كبيرة من المستوطنين السودانيين الذين اجتذبهم على مر الأجيال بريق « ذهب بنى شنقول » المعروف بجودته وأصالته والذى كان واحداً من الأسباب التى دفعت محمد على باشا (والي مصر) الى احتلال السودان فى النصف الأول من القرن التاسع عشر.

وبعد احتلال أصوصا اندفعت السرية الخامسة من سلاح الهجانة شرقاً وراء فلول القوات الايطالية الهاربة ووصلت السرية فى مطاردتها لتلك الفلول الى موقع على نهريابوس على مسافة ٣٥ ميلاً من أصوصا واشتبكت مع القوة الايطالية المرابطة هناك التى انسحبت بعد أن تكبدت خسائر كبيرة فى الأرواح والعتاد . وكان هذا الموقع أقصى ما وصلت الكتيبة المختلطة اليه فى حملتها لاحتلال أصوصا وتطهير المنطقة الواقعة حولها من قوات العدو . واستدارت الكتيبة بعد ذلك عائدة غرباً الى الروصيرص ومنها الى السوكي حيث استقلت القطار الى القضارف ثم انتقلت الى القلابات فى طريقها الى جبهة غوندار ويعنى ذلك أنها قطعت سيراً على الأقدام أو على ظهور البغال فى رحلة الذهاب والاياب من القضارف واليها نحو ألف ميل خلال ثلاثة أشهر بخلاف المسافات التى طوتها خلال العمليات القتالية . واكتشفت الكتيبة فى طريق عودتها معسكراً منيعاً للايطاليين على خور يابوس على

مسيرة ساعتين غربي أفودو وفيه طابية صغيرة الا أنها فى موقع حصين ويبدو أن هذا المعسكر لم يسترع انتباه الكتيبة المختلطة عند مرورها بالمنطقة فى طريقها الى أصوصا . وخرجت مجموعة منتقاة من رجال الكتيبة بعد منتصف الليل لمداهمة المعسكر . وعبرت المجموعة بعد مسيرة شاقة وبخطوات سريعة خور يابوس الى الضفة الأخرى للهجوم على المعسكر من ناحية الشرق . وفى اللحظات التى كانت تتأهب فيها للانقضاض على الأعداء الغافلين انخرط دليل المجموعة فى نوبة هستيرية من البكاء والعويل فقد تذكر فجأة أن زوجته وأطفاله لا يزالون فى القرية المجاورة للمعسكر وانهم هالكون لا محالة اذا جرى تبادل النيران بين الفريقين . وبدلاً من أن يستدر الدليل ببكائه وعويله عطف الآخرين وجد نفسه هدفاً لسخريتهم ودعابتهم القاسية وشاركهم فى ذلك حتى الضابط البريطانى الذى يقود المجموعة اذ تظاهر بعطفه على الدليل ومشاركته فى محنته ثم وعده فى حالة ضياع زوجه وأطفاله بعقد قرانه على الايطالية الحسناء زوجة الضابط الايطالي الذى فى الطابية وسيرزقه الله منها بنين وبنات بيض البشرة (خواجات) يرثون أموال وضياع جدهم لأمهم فى ايطاليا . ولا عتب على الجنود اذا ما اتخذوا من محنة الدليل العابرة مادة للضحك والمزاح فالابتسامة فى جو الحرب أغلى من طوق النجاة فى عين الغريق وأعذب من نغبة ماء فى منقار عصفور بين يدى ظامئ فى جوف الصحراء .

واجتاح رجال المجموعة المنتقاة من الكتيبة المختلطة المعسكر فى الصباح الباكر ولم يفلت من الأسر أو القتل سوى حفنة ممن كانوا فيه . وكان بين الأسرى القائد الايطالي الذى راح يضرب كفاً بكف من فرط دهشته اذ كان قد فرغ لتوه من كتابة تقرير لرؤسائه مؤكداً فيه عدم وجود أثر للعدو الى مسافة ٣ كيلو مترات من يابوس .

ووقع للكتيبة فى طريق عودتها من أصوصا حادث مؤسف كاد أن يودى بحياة عدد كبير من رجالها نتيجة لسذاجة واحد منهم . ومسرح الحادث موقع على خور مانجى بالقرب من أصوصا فقد دفع الفضول النفر آدم حسين الى العبث بقنبلة يدوية عثر عليها فى الليلة السابقة وانفجرت القنبلة وألحقت به اصابة بالغة أدت الى بتر ذراعه اليمنى كما أصيب آخرون ممن كانوا بالقرب منه بجراح متفاوته ولكنها غير قاتلة وهم كما جاء فى يوميات الكتيبة – الجاويش رمضان بلال والأونباشيان الممرضان جمعة صابون وحمادة عبد القادر والأنفار محمد أحمد (سائق) وسيد حمد وعبد الله عثمان وأبكر عبد البارى وحسين عيسى وصديق يونس ويوسف أحمد . وبعد قضاء فترة إستجمام قصيرة فى القضارف

وصلت الكتيبة المختلطة (المقاتلة) في منتصف أبريل ١٩٤١ إلى طريق غوندار وأنضمت إليها هناك الكتيبة الاثيوبية الثالثة بقيادة اليمباشي كير أحد ضباط فرقة العرب الشرقية الذين انتدبوا لقيادة تنظيمات المقاومة الاثيوبية . ويتسلق الطريق في المنطقة التى وصلت إليها الكتيبة منحدرات جبلية تتحكم فيها القوات الايطالية المرابطة في شيلغا والمواقع المجاورة لها . واستقر الرأى على محاولة اقتحام

المواقع الشمالية ويقتضى ذلك تنظيم عمليات نقل واسعة ومضنية عبر درب ضيق طوله عشرون ميلاً ولا يصلح لمرور الشاحنات والمركبات العسكرية . وكان لدى الكتيبة في هذه المرحلة مائة وعشرون من البغال لترحيل الجنود ومؤنهم ومتاعهم وأسلحتهم الخفيفة أما مدفعا الهاوتزر فقد جرى تفكيكهما إلى أجزاء وتولى ١٥٠ من رجال النوبة الأشداء حملها على أكتافهم من السفح إلى القمة حيث تم تجميع المدفعين من جديد . واستغرقت هذه العملية يومين كاملين واستعين بالأعمدة الخشبية وأعواد القنا على رفع أجزاء المدفعين . ولم تسترع هذه التحركات والعمليات – لحسن الحظ – أنتباه الأعداء وبالتالي لم تفقد الكتيبة المختلطة عناصر المباغتة . واستهلت المدفعية الهجوم في صباح ١٧ مايو بقصف موقع حصين شمالى مدينة شيلغا في دقة وإحكام حتى أن جنود العدو الذين أذهلتهم المفاجأة لم يتمكنوا من ازاحة شباك الكوموفلاج التى تحجب مدافعهم قبل انقضاض المشاة عليهم كالصاعقة التى لا تبقى ولا تذر . وأفاق جنود العدو بعد قليل من هول المفاجأة وتلقوا مزيداً من التعزيزات التى مكنتهم من شن هجوم مضاد على المهاجمين الذين تراجعوا إلى أسفل المنحدر ولكن بعد أن كبدوا عدوهم خسائر في الأرواح . وعاد الايطاليون إلى الأختفاء داخل المخابئ التى نحتوها في باطن الصخر قانعين بالبقاء فيها واطلاق نيران بنادقهم ومدافعهم الرشاشة على كل من يحاول الاقتراب منهم . ووجد رجال الكتيبة المختلطة متعة في إلقاء القنابل اليدوية على أعدائهم القابعين داخل المخابئ وأخذوا يتبارون في ذلك وخاصة رجال النوبة الذين لهم لعبة مماثلة يلهون بها في ديارهم ويستخدمون الحجارة فيها بدلاً من القنابل .

وهطلت في ذلك اليوم أمطار غزيرة وابتل الجميع بالماء وتحولت ألوان بشرتهم إلى بياض تشوبه خضرة من شدة البرد والرطوبة وفوجئ البمباشي لورى أثناء تفقده لسريته (الهجانة) في الصباح بجندى من أبناء النوبة بكامل سلاحه وذخيرته ولكنه كان عرياناً مثلما ولدته أمه . ولدى استجواب الجندى قال أنه ضجر من كثرة تجفيف ثيابه ولكى يريح نفسه من العناء قرر الاستغناء عنها . والعرى مظهر مألوف في جبال النوبة الواقعة في جنوب مديرية كردفان بل هو في الواقع المظهر الغالب حتى عهد قريب .

ووصل الموقف بعد الاشتباك الذى سبق ذكره إلى طريق مسدود وبدا أنه أصبح محكاً لإختبار مدى صبر المقاتلين وتماسك روحهم المعنوية . وذات صباح قررت سرية الادارة كسر الجمود الذى ران على الموقف فحملت على الموقع الرئيسي للعدو وهو عبارة عن هضبة منيعة طولها ٥٠٠ ياردة وعرضها ٢٠٠ ياردة . وقام رجال السرية بإقتحام الموقع عنوةٍ واقتساراً وتراجع جنود العدو أمامهم فى أرتباك واضطراب ولم يفكر رجال سرية الادارة في ملاحقتهم لإطمئنانهم على أنهم سيعودون ويستسلمون . وقد عادوا بالفعل بعد نصف ساعة تتقدمهم الرايات البيضاء بعد أن تبين لهم أن أبواب الانسحاب مسدودة أمامهم بإستثناء منفذ واحد يقودهم إلى أرض معادية وأن الوقوع فى الأسر أرحم

لهم من أن يتخطفهم رجال المقاومة الاثيوبية وينكلوا بهم . وبحلول المساء بلغت حصيلة الكتيبة المختلطة من الأسرى أكثر من أربعمائة أسير بالإضافة إلى مائة قتيل على الأقل من جنود العدو . ومضى الليل فى هدؤ وسلام لم يعكر صفوه سوى أضواء وجلبة قوافل السيارات والشاحنات القادمة من غوندار محملة بالتعزيزات والإمدادات . وعاودت سريتا الهجانة الهجوم في الصباح وتمكنتا من عزل ميسرة العدو بعد اشتباكات طفيفة ثم عادتا بسرعة إلى قاعدتهما خشية قيام العدو بهجوم مضاد .

واكتشفت قيادة الكتيبة المختلطة في هذه المرحلة أن إمداداتها وخاصة المواد الغذائية آخذة في التناقص مما يحتم عليها الإنسحاب والبقاء بعيداً عن مواقع العدو إلى أن تصلها إمدادات جديدة ولكن الأيطاليين قاموا بهجوم عليها قبل أن تبدأ فى الانسحاب وبلغ هذا الهجوم من العنف حداً أجبر سرية الادارة على الانسحاب شمالاً وانقطع الاتصال بينها وبين باقى الكتيبة إلى أن عادت سرية الادارة في ما بعد للإنضمام إليها سالكة دروباً جبلية وعرة غير مطروقة . ولازم سؤ الطالع الكتيبة المختلطة في ذلك اليوم وزاد الطين بلة أن قوات فرنسا الحرة التى كان مطلوباً منها قصف مواقع العدو بمدافعها قامت بدلاً من ذلك – ربما بسبب الافتقار إلى وسائل الاتصال – بصب نيرانها المكثفة على الكتيبة ونالت بصفة خاصة ميليشيا بكر التى ألفت نفسها بعد قليل تحت رحمة نيران المدفعية الايطالية واستشهد أربعة من رجالها بينهم الجاويش عبد الله كما أصيب آخرون بجراح . وفقدت ميليشيا بكر بإستشهاد جاويشها مقاتلاً ممتازاً وقائداً فريداً . وانتقلت الكتيبة المختلطة بعد المحن المتتالية في ذلك اليوم إلى موقع آخر على طريق غوندار واستمرت من هناك في مناوشة قوات العدو ومضايقتها بالمدفعية والغارات مما أدى في منتصف شهر مايو إلى إستسلام قوة من العدو في موقع استراتيجى مهم للغاية . وأصيب في تلك المناوشات والغارات جندى من ميليشيا بكر بجراح بالغة ومع ذلك حمل على نفسه وسار عدة أميال على قدميهإلى مستشفى الميدان ووقع مغشياً عليه عند عتبة المستشفى . واكتشف الجراح ١٤ شظية مغروسة في مواضع مختلفة من جسمه . وقال الجندى أنه يعلم مدى حاجة الكتيبة لكل رجل فيها لذلك لم يرد أن ينشغل أحد بتوصيله إلى المستشفى . ومثل هذا الجندى في الشجاعة ونكران الذات زميل له أصابته شظية بترت ذراعه عن باقي جسده فحمل الذراع المبتورة على كتفه وذهب راجلاً إلى المستشفى لا أملاً في أن يقوم الجراح بردها إلى مكانها وأنما لأن الجندى الشجاع عز عليه – كما قال – أن يترك ذراعه في أرض العدو يمثل بها أو تأكلها الوحوش .

ومع اقتراب موسم الخريف ارتحلت الكتيبة المختلطة (المقاتلة) عائدة إلى مقرها الرئيسي في مدينة القضارف تاركة سرية واحدة منها في القلابات وغندوا . ولم تخل رحلة العودة من أحداث طريفة كالمعركة التى دارت بين أحدى الوحدات وأفعى ضخمة من فصيلة الأصلة التفت حول بغلة تمهيداً لإبتلاعها . وكان من الممكن قتل الأفعى وأنقاذ البغلة المسكينة لكن الضابط البريطاني نهى جنوده

عن قتلها وطلب منهم البحث عن وسيلة أخرى لإستخلاص البغلة من بين طيات الأفعى . فأوقد الجنود ناراً أجبر دخانها الأفعى على التخلى عن صيدها وارتدت إلي وكرها قانعة من الغنيمة بالاياب . وفي حادث آخر وقف رجال الهجانة مكتوفى الأيدى أمام خور غندوا وهم لا يدرون كيف يعبرونه إلى الضفة الأخر لأن معظم أهل كردفان يجهلون السباحة . وانهالت عبارات التبكيت والسخرية عليهم من رجال الكتيبة الآخرين الذين عبروا الخور سباحة حاملين أمتعتهم فوق رؤوسهم . وفي النهاية تعلق رجال الهجانة بأذيال الجمال التى عبرت بهم الخور إلى الضفة الأخرى .

وأخذ موسم الأمطار في الأنحسار في بداية شهر سبتمبر فتحركت الكتيبة المختلطة (المقاتلة) عائدة إلى الجبهة في منطقة غوندار كي تقوم بالدور المناط بها فى إطار الخطة الشاملة لإحتلال آخر المعاقل في صرح الامبرطورية الايطالية المتداعية . وأمضت الكتيبة الأيام الأولى فى القيام بعمليات الاستكشاف القتالية وبالغارات بين حين وآخر على مواقع العدو ثم تحدد اليوم العشرين من نوفمبر ١٩٤١ موعداً للهجوم على مدينة شيلغا وفيها القاعدة العسكرية الرئيسية الثانية بعد غوندار وتحتل موقعاً جغرافياً مواتياً للدفاع . وتقود الدفاع عن مدينة شيلغا فرقة من الفاشيين الايطاليين ذوى القمصان السوداء من وراء إستحكامات منيعة على هضاب شاهقة مما يضمن لهم رصد أية تحركات معادية على السفح والسهول من كل الجهات . وافترعت المدفعية السودانية الهجوم صباح ذلك اليوم بقصف مواقع العدو لمدة ربع ساعة . ثم جاءت بعد ذلك ثلاث طائرات بريطانية أمطرت العدو بقنابلها . وبعد ذلك اجتاحت سرية الادارة الخطوط الأمامية إلي أن بلغت أرضاً موحلة عاقت تقدمها ولحقت بها من جراء ذلك بعض الخسائر في الأرواح وكان بين القتلى قائدها البمباشي نورمان بوير . وبينما انشغلت سرية الإدارة بتخليص نفسها من الأوحال أندفع رجال الهجانة من ناحية اليمين مخترقين خطوط العدو واشتبكوا مع قوة كبيرة من الأعداء في قتال ضار استمر لمدة أربع ساعات اعتمد فيه العدو على مدافعه الخفيفة والثقيلة ومع ذلك لحقت به خسائر كبيرة فى المعدات والأرواح . وأنتهى الاشتباك بانسحاب القوة المهاجمة . وفي نهار اليوم التالي وصل إلى الموقع الأمامي للكتيبة اثيوبى يحمل راية بيضاء ومعه رسالة من المقيم الإيطالي في شيلغا أيد فيها رسمياً مقتل البمباشي نورمان بوير وذكر أنه دفن في شيلغا حسب الطقوس العسكرية المتعارفة وأرفق المقيم مع الرسالة شارة الوسام العسكرى البريطاني الذي أنعم به من قبل على البمباشي القتيل .

واستمرت الكتيبة المختلطة فى مناوشة العدو ومضايقته من أجل تحطيم معنوياته . ففي خلال الليل تقوم الدوريات بعمليات الاستكشاف القتالية على الخطوط الامامية بينما تواصل مدفعية شندي أثناء النهار قصف مواقع العدو المطلة على الطريق من جهات مختلفة لأيهام العدو بأن لديها ترسانة هائلة من المدافع . وهكذا وقف جنود العدو مشدوهين حائرين لا يعلمون عدد المدافع المسلطة عليهم أو أين مكانها . واستمر الحال على هذا المنوال لمدة يومين تحركت بعدها الى موقع على الطريق بين شيلغا

وغوندار قوة من الكتيبة مؤلفة من الهجانة والمدفعية وميليشيا بكر ووحدة من سلاح المهندسين مزودة بالألغام والمواد الناسفة وبذلك اكتمل طوق الحصار حول مدينة شيلغا ولم يعد لحاميتها أى أمل فى تلقى مزيد من التعزيزات من غوندار. تزامن ذلك مع وصول القوات الحليفة القادمة من ديساى الى أبواب غوندار. وسرعان ما أدركت حامية غوندار عقم موقفها وأيقنت بأن مقاومتها مصيرها الى الانهيار لا محالة فألقت الحامية سلاحها وأعلنت الاستسلام مذعنة صاغرة فى صباح ٢٧ نوفمبر ١٩٤١ . ولكن الفاشيين ذوى القمصان السوداء فى شيلغا وغورغورا المجاورة لها ركبوا رأسهم وأصروا على الصمود ومواصلة المقاومة واستمرت الكتيبة المختلطة المحيطة بهم من كل الجهات فى تضييق الخناق عليهم عن طريق الغارات والقصف بالمدفعية الى أن تلقت قيادة الكتيبة رسالة من القيادة الايطالية تؤكد فيها أن قرار استسلام القوات فى غوندار يسرى أيضاً على قواتها فى شيلغا وما جاورها وأن هذه القوات أمرت بالاذعان للقرار والاستسلام فوراً . غير أن مدفعية شندى كانت قد بدأت قبل وصول – الرسالة – وكعادتها فى كل صباح – توجيه تحية الصباح الي قوات العدو المحاصرة طى قذائفها المميتة التي لا تخطئ مرماها وكان من المستحيل ايقاف المدفعية وخاصة الرابضة على جانبي الطريق بعيداً عن مقر الرئاسة . وهكذا استمرت عمليات القصف بينا أخذت الرايات البيضاء ترفرف فوق مواقع العدو معلنة عن الاستسلام . وبعد لأى تم اخطار المدفعية بقرار الاستسلام فكفت عن اطلاق قذائفها وساد الهدوء المنطقة . وأخذ رجال الكتيبة المختلطة يرقبون جنود العدو من فوق هضبة عالية وقد انتشرت الرايات البيضاء على مد البصر وكأنها طيور الرهو فى موسم الهجرة . وجاء فى منتصف النهار اثيوبي مدنى تتقدمه راية بيضاء مثبته على عصا طويلة حاملاً رسالة القائد الايطالي لحامية شيلغا وفيها تفاصيل أمره لجنوده بالاستسلام والقاء السلاح . وطلب القائد فى رسالته ايفاد مندوب اليه للتفاوض حول شروط الاستسلام وذهب اليه بالفعل واحد من ضباط الكتيبة على ظهر بغلة وعاد الضابط بعد قليل وقال فى تقريره ان الايطاليين الذين فى حامية شيلغا أبدوا روحاً ودية للغاية وانهم تواقون للاستسلام وتسليم اسلحتهم فى اليوم التالى على أن تخصص قوة سودانية لحراستهم وحمايتهم من اعتداء الاثيوبيين . وفى اليوم التالي جرت مراسيم الاستسلام وتوجهت فصيلة من الكتيبة الى جبل أيوماريام القريب من شيلغا حيث استسلمت لها قوة من الفاشيين ذوى القمصان السوداء من فلول الفرقة الرابعة التى كانت أول من خاض الحرب فى شرق افريقيا دفاعاً عن امبرطورية الدوتشي . وأبدى قائد القوة اعجاباً شديداً بالجندى السودانى وقال لوكان جنوده الافريقيون من هذا الطراز وفى نفس المستوى من الشجاعة والانضباط لما حاقت بهم الهزيمة . وأقام الضباط الايطاليون فى المساء مأدبة عشاء تكريماً لضباط الكتيبة المختلطة الذين أشرفوا علي اجراءات الاستسلام صباح اليوم التالي وفقاً للتقاليد العسكرية . وكان الهاجس الوحيد الذى استحوذ على الايطاليين المستسلمين خوفهم من اعتداء الاثيوبيين عليهم والتنكيل بهم بدافع الانتقام ولكن رجال الكتيبة المختلطة وقفوا حائلاً دون

ذلك ولم يستطع أى اثيوبي الاقتراب من الايطاليين المستسلمين . وبقى كل الأسرى فى شيلغا عدة أيام بسبب كثرة الأسرى فى غوندار الى حد فاق الامكانيات المتوفرة فيها . وعندما توفرت الامكانيات نقل الأسرى الايطاليون الأوربيون الى غوندار على متن ستين شاحنة أما الأسرى الآخرون فقد ساروا على أقدامهم مع أطفالهم ونسائهم من شيلغا الى عزوزو . وذكر الأميرالاى غيفورد بك ان حصيلة الكتيبة المختلطة من الأسرى عند انتهاء العمليات فى شيلغا بلغت حوالي ألف ايطالي أوروبي معظمهم من الفاشيين ذوى القمصان السوداء ونحو ألف ومائتين من الافريقيين واليمنيين .

وشاركت الكتيبة المختلطة بنخبة من جنودها فى الاستعراض الذى أقيم فى آخر ديسمبر ١٩٤١ فى غوندار بمناسبة الانتصار على القوات الايطالية وتطهير افريقيا الشرقية منها . وبعد ذلك عادت الكتيبة الى مقرها الرئيسى فى القضارف وصادف ذلك أول العام الجديد وقابلتها جماهير المواطنين فى القضارف يومذاك فى حماسة بالغة بالطبول والدفوف وبالرقص والزغاريد ثم تلى ذلك استعراض عسكرى نحرت فيه الذبائح حضره الجنرال بلات القائد العام الذى قام بتوزيع الأوسمة والميداليات على الضباط والجنود .

ولم تبق الكتيبة المختلطة طويلاً بعد عودتها المظفرة الى القضارف اذ جرت تصفيتها وعادت كل عناصرها الى وحداتها المختلفة فى أم درمان وشندى والقضارف وكردفان ومن بينها سريتا الهجانة اللتين كان يقود احداهما (السرية الخامسة) البمباشى غاى كامبل الذى أصيب بجراح خلال المعارك مع خمسة آخرين من جنود السرية وفى ما عدا ذلك لم تقع أية خسائر بين رجال السرية وكلهم من أبناء النوبة . ويتحدث كامبل عن واحد منهم كان كجوراً (ساحراً) ويذكر أن هذا الكجور ذبح خروفاً لدى تحرك الكتيبة من القضارف الى الجبهة ثم أحضر حربة غمس نصلها فى دم الخروف وقد تجمع حوله فى تلك اللحظة جميع رجال السرية الخامسة تقريباً وظلوا يتابعون حركاته وهذيانه فى خضوع وخشوع . واختتم الكجور هذه الطقوس السحرية البدائية بمس كل واحد من الرجال بالنصل المضمخ بدم الخروف ليصبح – حسب الاعتقاد الشائع بين أهل جبال النوبة – محصناً ضد الموت بالأسلحة النارية أو البيضاء . وعاد جميع رجال السرية الخامسة سالمين باستثناء الستة الذين أصيبوا بجراح وبينهم البمباشى كامبل لأنهم لم يشاركوا فى الطقوس ولم يمس النصل المضمخ بدم الخروف أكتافهم .

ترى أهى مجرد صدفة أم رمية طائشة أصابت مقتلاً؟ على أية حال كذب المنجمون وإن صدقوا ! ! .

وننتقل الآن كما وعدنا فى صدر هذا الفصل الى سلاح الحدود ولابد من الاشارة بادئ ذى بدء الى أنه التشكيل الوحيد فى قوة الدفاع السودانية الذى لا يقوم على أسس قبلية أو جهوية كما هو الحال بالنسبة للتشكيلات الأخرى . وقد وحدت رفقة السلاح والمرابطة فى خندق واحد ضد العدو المشترك

بين رجال سلاح الحدود الذين جاءوا من مختلف بقاع السودان فكان ذلك تجسيداً صادقاً لروح القومية السودانية التى انبثقت مع نشوب الحرب وأخذت تتغلغل بين الفئات السودانية على اختلاف مستوياتها فى المدن والبادية والأرياف . ولعل من أكثر الأغانى الشعبية رواجاً فى تلك الأيام أغنية خالدة مطلعها « رجال الحدود دافعوا عن وطن الجدود » يتغنى بها الكبار والصغار فى الشارع وبيوت الأفراح . وكانت الأغانى الشعبية قبل ذلك قاصرة على التغنى بالبطولات القبلية مثل الملك نمر وابنه عمارة عند قبائل الجعليين وموسى ود جلي عند قبائل كردفان وود مسمار فى ديار العبدلاب .

ويحدثنا الكولونيل هيوباوستيد عن نشأة سلاح الحدود قائلاً انه مر على القاهرة فى طريق عودته من بريطانيا الى السودان والتقى فيها مع الجنرال ويفل – قائد القوات الحليفة فى منطقة الشرق الأوسط – فى نفس اليوم الذى أعلن موسولينى فيه الحرب وأبلغه ويفل بأن الجنرال بلات يريد منه – أى من باوستيد – تشكيل وقيادة فرقه عسكريه فى السودان باسم سلاح الحدود مهمتها اقتحام الحدود الاثيوبية من ناحية الروصيرص لتطهير المنطقة من القوات المحورية واصطحاب الامبرطور هيلاسلاسى الى أديس أبابا . وعند وصول الكولونيل باوستيد الى الخرطوم وجد أن الجنرال بلات سبقه بانتقاء رجال مدربين من الأنفار وضباط الصف من فرق العرب الشرقية والغربية والهجانة والسوارى ليكونوا نواة للسرايا الخمس التي تألف منها سلاح الحدود وأسند الجنرال بلات منصب قائد السلاح الجديد الى الكولونيل هيوباوستيد – وهو قائد سابق لسلاح الهجانة – طالباً منه العمل على تدريب السرايا الخمس تدريباً كاملاً لكي تكون جاهزة بحلول شهر نوفمبر من العام نفسه (١٩٤٠) ولم تواجه المسئولين مشكلة فى تجنيد العدد المطلوب من الرجال فقد تقاطر الراغبون فى الالتحاق بهذا السلاح الجديد على مراكز التجنيد فى حماسة بالغة وتم تدريبهم فى فترة قياسية على أيدى الضباط وضباط الصف المنتدبين من قوة الدفاع . وشمل التدريب أيضاً دروساً فى اللغة العربية الدارجة للجنود من أبناء جبال النوبة . ولهؤلاء العمالقة السود بقاماتهم المديدة التى لا تقل عن ستة أقدام تقاليد عسكرية عريقة وكثيراً ما يسهر الجنود فى معسكرات التدريب حتى ساعة متأخرة من الليل فى تدريب بعضهم البعض على السير فى الطابور واستخدام السلاح . ويتمتع رجال النوبة دائماً بمستوى عال من اللياقة البدنية فالمصارعة هي الرياضة المفضلة لديهم لترجية أوقات الفراغ بل ان بعضهم وخاصة القاطنين منهم فى الجبال الجنوبية يمارسون الملاكمة بقفازات حديدية تكفى ضربة واحدة بها لشج رأس الخصم الى نصفين .

واتخذ سلاح الحدود فى أيامه الأولى الخرطوم مقراً رئيسياً لقيادته بينما بقيت سراياه فى مواقع تجنيدها الممتدة من القضارف شرقاً الى دار فور غرباً على مسافة ألف ميل تقريباً . وقد خلق هذا التباعد بين المواقع مشاكل للقيادة فى ما يتعلق بالادارة والتنسيق وأصبح لزاماً على الكولونيل باوستيد

قضاء أيام طويلة فى رحلات متواصلة سيراً على الأقدام أو على ظهور الجمال تحت وهج الشمس ويستخدم فى أحيان قليلة الطائرات والقطارات والسيارات . ومعظم ضباط سلاح الحدود عند نشأته كانوا من السودانيين والبريطانيين الذين جندوا حديثاً بالاضافة الى فئة قليلة من الضباط المحترفين العاملين فى قوة الدفاع . وقد تولى الجنرال بلات بنفسه اختيار الضباط الجدد متوخياً فى اختياره معايير الجلد والصلابة وملكة القيادة . وأسند منصب نائب قائد سلاح الحدود الى البكباشى جوك ماكسويل من ضباط فرقة العرب الشرقية وهو فى الأصل ضابط فى الجيش البريطانى تخرج من كلية الأركان فى حيفا (فلسطين) وانتقل بعد انتهاء الحرب فى اثيوبيا الى الجبهة الغربية فى أوروبا وخاض المعارك هناك حيث منح وساماً عسكرياً بريطانياً رفيعاً اعترافاً بشجاعته وحنكته القيادية . ويقول باوستيد ان ماكسويل كان ساعده الأيمن فى قيادة سلاح الحدود ووصفه بهدؤ الأعصاب وبالتواضع وكان الى جانب خبراته وتجاربه العسكرية ملماً بشئون السودان وطبائع أهله . وتعذر فى البداية العثور على ضابط سودانى يتولى منصب أركانحرب سلاح الحدود وهو منصب حساس للغاية فى وحدات قوة الدفاع ينبغي على من يشغله أن يكون بمثابة الأب للجنود والضباط ومستشاراً لقائد الوحدة البريطانى فى كل ما يتعلق بشئون رجال الوحدة الخاصة والعامة . ولم يكن بين الضباط السودانيين العاملين آنذاك الذين فى الرتب العسكرية المناسبة من يمكن أن تستغنى عنه الوحدة العسكرية التى فيها . وتحولت الأنظار الى البحث عن ضابط مناسب بين الضباط المتقاعدين فاهتدوا فى نهاية المطاف الى واحد منهم انتقل منذ عشرين عاماً الى السلك الادارى فى وظيفة مأمور هو اليوزباشى عبد الرزاق خير السيد الذى وصفه باوستيد بأنه « رجل ممتلئ الجسم يهتز جسمه المكتنز لضحكته التى لا تفارقه كاهتزاز قنديل البحر . وقد ملأ منصب أركانحرب سلاح الحدود بصورة تستحق الاعجاب » ويمتاز اليوزباشى خير السيد بصلاته الاجتماعية الواسعة وبشخصية قوية تضفى عليها « شلوخ الشايقية » التى على صفحتى وجهه شحنات جارفة من المهابة . وقد اشتهر بسرعة البديهة وبعباراته المرحة والنكات والتشنيعات التى يوزعها دون تكلف يميناً ويساراً . ومن ضباط سلاح الحدود الآخرين اليوزباشى الحاج موسى – والد العميد عمر وزير الاعلام الأسبق – واليوزباشى موسى محمد الذى تدرج من الصف وهو بجاوى من شرق السودان قصير القامة يحسبه من يراه مهرجاً أو ممثلاً كوميدياً على خشبة المسرح مع أنه فى الحقيقة مفرط فى التزامه بالانضباط والنظام فى ساعات الجد وكانت له خلال القتال فى اثيوبيا مواقف مجيدة تشهد بشجاعته وكفاءته كمقاتل لا يشق له غبار . ومن ضباط السلاح الصغار آنذاك الملازم حمد النيل ضيف الله

وقد بقى مقر قيادة سلاح الحدود فى الخرطوم الى ان انتقل فى شهر سبتمبر (١٩٤٠) مؤقتاً الى سنار وكان الوضع العسكرى للحلفاء آنذاك خطيراً للغاية ففى مصر يواجه الجنرال ويفل الجيش الايطالي بقيادة جرازيانى المتحفز للانقضاض عبر الصحراء الغربية كما اجتاح الايطاليون فى شهر

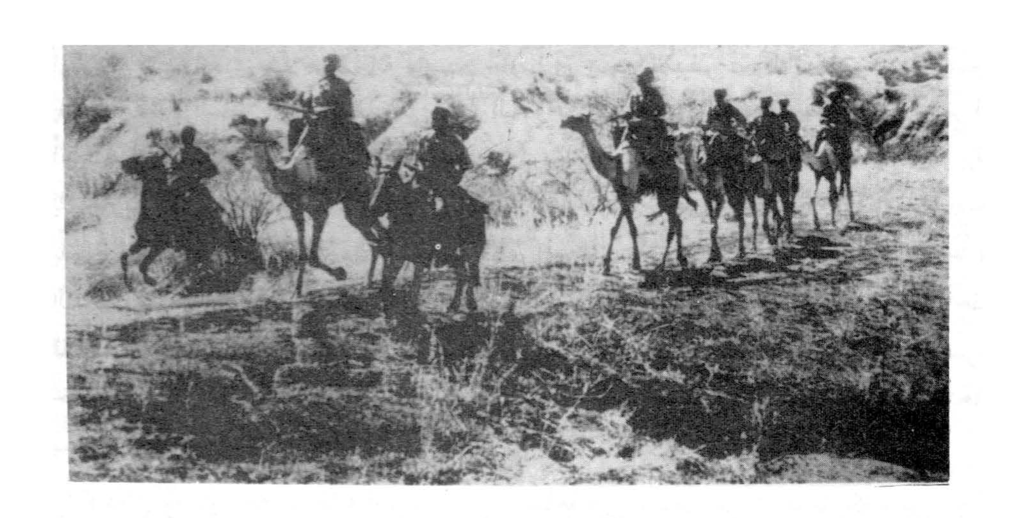


هيو بارستد قائد سلاح الحدود

أغسطس الصومال البريطاني بعد أن استسلمت لهم القوات الفرنسية فى جيبوتى أما فى السودان فقد احتل الايطاليون فى شهر يوليو – كما ذكرنا من قبل – كسلا والقلابات وغيرهما من المواقع الحدودية وأصبح الطريق مفتوحاً أمامهم لاحتلال السودان . وعلى اثر المحاولة الفاشلة التى قادها الكولونيل رولي لاحتلال الروصيرص – التى سبقت الاشارة اليها – انتقل مقر قيادة سلاح الحدود من سنار الى الروصيرص وأخذت سراياه فى التحرك للاحتشاد هناك من مواقعها المتفرقة تأهباً لاقتحام الحدود الى داخل اثيوبيا . وكان من المأمول أن تتكفل المقاومة الاثيوبية بقيادة الكولونيل ساندفورد فى اقليم غوجام الاثيوبي المتاخم بتوفير احتياجات سلاح الحدود من البغال باعتبارها الوسيلة المثالية للترحيل والانتقال الى هضبة بيلايا فى اقليم غوجام التى اختيرت كنقطة للانطلاق وقاعدة للامبرطور هيلاسلاسى .

ويمر الطريق من الروصيرص الى بيلايا عبر أم عدلة على نهر الدندر – أحد روافد النيل الأزرق – ويخترق من هناك مفازة شنكالا القاحلة من الماء والتى تكثر فيها التلال والتضاريس الصخرية والأحراش الكثيفة مما يجعل من الصعوبة بمكان استخدام وسائل النقل الميكانيكية قبل التمهيد لذلك بتعبيد الطرق الذى يتطلب بدوره شهوراً طويلة من العمل الشاق وأعداداً هائلة من العمال . وهكذا لا مفر من الاعتماد على البغال . غير أن المقاومة الاثيوبية تقاعست عن توفير البغال المطلوبة ربما بسبب عزوف قادتها الأوروبيين عن التعاون مع القوات السودانية حتى لا تشاركهم فى فضل استرداد العرش الاثيوبي ويصبح للسودان العربي القدح المعلى فى تحرير اثيوبيا مما يتعارض مع المخططات الصهيونية الرامية الى تسخير الامبرطور هيلاسلاسى بعد الحرب لخدمة الصهاينة لقاء ما قدموه له من عون ومؤازرة . والمعروف أن معظم قادة المقاومة الاثيوبية وحاشية الامبرطور صهاينة مكشوفون يتزعمهم ساندفورد والكولونيل ونجت .

وعلى أية حال قررت قيادة سلاح الحدود الاستعاضة عن البغال بالجمال المجلوبة من بوادى كردفان وكسلا والنيل الأزرق . وسرعان ما توفر لها حشد من الجمال يقارب عشرين ألفاً على الضفة الغربية للنيل الأزرق عند الروصيرص بفضل جهود زعماء العشائر والاداريين البريطانيين وموظفى مصلحة البيطرة . واستعان هيوباوستيد بصلاته السابقة مع فرقة الهجانة التى عمل بها ضابطاً ثم قائداً للحصول على الرجال المدربين على التعامل مع الجمال ورعايتها فى الميدان . وقد ذهب بنفسه الى الأبيض لهذا الغرض حيث انهال عليه سيل دافق من الرجال الذين عاصروه فى سلاح الهجانة ويذكر ذلك فى سيرته الذاتية قائلاً « لقد تجمهروا حولي فى الأبيض وكان بعضهم من جنود سريتى والبعض من السرايا الأخرى الذين تركوا الخدمة العسكرية منذ زمان الا أنهم تواقون الآن الى الحياة مع رفاق السلاح » ويذكر هيوباوستيد واحداً منهم بالذات يدعى جمعة محمد على وهو – على حد تعبير باوستيد « عربي



سلاح الحدود داخل الأراضى الأثيوبية

دنقلاوى من مواليد كردفان » يمتاز بذكاء حاد وقدرات عسكرية ممتازة خاصة فى مجال التدريب وكان ينتظره مستقبل عظيم فى سلك الجندية ولكن اكثاره من احتساء البيرة البلدية « المريسة » أدى الى عدم استمراره فى سلاح الهجانة وأصبح حارساً فى سجن الأبيض . وما أن سمع جمعة بوصول باوستيد قائده السابق الى الأبيض حتى هرع اليه وأقسم أمامه على المصحف بألا يقرب الخمر اذا أتيحت له فرصة الانضمام الى سلاح الحدود . ولم يشأ باوستيد أن يخذل صاحبه فغامر بتعيينه برتبة باشجاويش وهى الرتبة التى كان يشغلها فى الهجانة قبل أن يصبح حارساً فى السجن . ولم يخذل جمعة بدوره قائده فأقلع عن الخمر ملتزماً بقسمه وكان الى جانب خبرته فى التعامل مع الجمال بارعاً فى الرماية . وقد أحاطت عصابة اثيوبية فى احدى المرات بقافلته فى موقع معزول وليس معه سوى حفنة قليلة من الجنود المسلحين وانبرى جمعة محمد على للعصابة ببندقيته فأسقط أربعة من رجالها بسرعة خاطفة وهرب الباقون مذعورين من نيرانه الفتاكة . وصعد جمعة فى غضون عامين من التحاقه بسلاح الحدود الى رتبة الملازم .

وتمكن باوستيد خلال الفترة القصيرة التى أمضاها في الأبيض من تجنيد ما يكفيه من رجال الهجانة السابقين لمواجهة الظروف التي فرضها تحول سلاح الحدود من البغال إلى الجمال كوسيلة لترحيل ونقل المؤن والمعدات والجنود . ومن المعترف به أن للجمال فضلاً كبيراً في الانجازات العظيمة التي حققها سلاح الحدود وقد استطاعت بفضل ما تمتاز به من قوة الاحتمال والصبر على المشاق قطع مسافات طويلة في بيئة قاسية من حيث قلة الغذاء وصلابة الأرض الصخرية التي لا تناسب طبيعة وتكوين حيوان خلق في الأصل للسير فوق الرمال . وكان على الجمال أن تقطع في مثل تلك الأحوال البيئية القاسية المسافات الطويلة تحت شمس النهار المحرقة وهي مثقلة بالأحمال التي تزيد على مائتين وخمسين رطلاً (قنطارين ونصف) لكل جمل . وكان من المشاهد المألوفة المتكررة سقوط جمل في الطريق جثة هامدة من شدة الجوع والعناء ثم يلفظ الجمل أنفاسه بعد دقائق قلائل دون أن يشكو أو يتذمر . ويتحدث باوستيد عن جثث الجمال النافقة المتناثرة على جانبي الطريق من حدود السودان إلى بيلايا على مسافات متقاربة لا تزيد على مائتي ياردة بين كل كوم من الجثث وآخر . وشاهد الامبرطور هيلاسلاسي على الطريق إلى بيلايا خلال يوم واحد جثث ٥٧ جملاً وقال معلقاً على ذلك «لقد ماتت في سبيل اثيوبيا» . وقد تحرك سلاح الحدود من الروصيرص على نحو ١٨ ألف بعير لم يبق منها على قيد الحياة عند أنتهاء الحملة أكثر من ٣ آلاف . وما من شك في أن الصبر على الرزايا وقوة الأحتمال من شيم الجمال ولا يباريها في ذلك مخلوق آخر إلا أن ما واجهته يومذاك في اثيوبيا كان فوق طاقة أولي العزم من الحيوان والأنسان .

ومن المتفق عليه بين من تصدوا لتسجيل وقائع الحرب في اثيوبيا أن سلاح الحدود أطلع بالدور المناط به وحده ودون عون من القوات الحليفة مثلما حدث في اريتريا وهو دور رئيسي يشمل تأمين

خطوط الاتصال والمواصلات مع حركات المقاومة الاثيوبية في أقليم غوجام وتوصيل الإمدادات إليها وحراسة الامبرطور هيلاسلاسي وتذليل الطريق أمامه إلى أديس أبابا لإستعادة عرشه المتوارث منذ عهد سليمان عليه السلام . ومن أجل تحقيق هذه الغايات إجتاحت سرايا سلاح الحدود إقليم غوجام حيث خاضت أعنف المعارك وأشدها ضراوة في دانغيلا وانغيابرا وبورى ودمباشا ودبرا ماركوس . وأتخذ القتال في هذه المعارك طابعاً فريداً في نوعه بمقاييس ذلك العهد وهو ما أصطلح على تسميته الآن بحرب العصابات . ومن حق قوة الدفاع السودانية أن تتباهى وتفاخر بأنها أخذت بزمام المبادرة في هذا الضرب من فنون القتال فضلاً عن أنها اختطت له الأصول والقواعد المعاصرة وقد كانت قوة الدفاع السودانية دون نزاع رائدة في مضمار حرب العصابات وسجلت من الناحية العملية أروع وأرقى صورة لها طبقتها خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها حركات المقاومة في فرنسا ودول البلقان وفي الشرق الأقصى بل أن أوردى ونجت البريطاني الصهيوني الذى ذاع صيته خلال الحرب العالمية الثانية كقائد عبقرى لحرب العصابات في أدغال شبه القارة الهندية ضد اليابانيين قد تخرج على يد سلاح الحدود السوداني . ولا يغفل التاريخ الرسمي البريطاني للحرب العالمية الثانية عبقرية سلاح الحدود في حرب العصابات وإجادته لها بصورة لم يسبق لها مثيل في الحروب المعاصرة فقد جاء فيه بالحرف الواحد «لقد علم (سلاح الحدود) الجيش البريطاني دروساً جديدة في حرب العصابات» وما من شك في أن مثل هذا الاعتراف الخطير سيظل على مدى الدهر وساماً يزين صدر قوة الدفاع السودانية واكليلاً يتوج هاماتها ويثبت عبقرية المقاتل السوداني ومواهبه العسكرية .

وإقليم غوجام الذىّ شهد إنجازات سلاح الحدود الخارقة وكان مسرحاً لعملياته يعد صورة طبق الأصل للأقاليم الاثيوبية الأخرى التى لم يجرؤ الايطاليون على تركها بلا قوة عسكرية لحماية المستوطنات الايطالية في المدن والقرى من غارات حركات المقاومة وعصابات النهب الاثيوبية . وفي الواقع أن ايطاليا دخلت الحرب في وقت لم تحكم فيه قبضتها على اثيوبيا ولم يكتمل إستتباب الأمن فيها وكان معظم الاثيوبيين ساخطين من جراء وحشية الحكام الايطاليين واستبدادهم . وقد اتجه الدوق أوستا فور تعيينه نائباً للملك إلى الابتعاد عن سياسات القهر والعنف وأخذ يعمل على التودد للاثيوبيين وإستمالتهم وقام في اطار ذلك بتعيين الرأس هايلو حاكماً على إقليم غوجام . وكان الرأس المذكور من المغضوب عليهم في عهد «خاله» الامبرطور وأمضى في السجن مدة طويلة قبل إطلاق سراحه على يد الغزاة الايطاليين . وكان من رأى الدوق أن وجود حاكم صديق يدين له بالولاء في مقاطعة غوجام ذات الأهمية الاستراتيجية البالغة يضمن له الاستغاثة به عند اللزوم وفي أية لحظة ليوافيه بجيش من الفرسان والمشاة الاثيوبيين يزيد عددهم على ستة الاف مقاتل . غير أن كل ذلك لم يبدد مخاوف المستوطنين الايطاليين في إقليم غوجام ولم يستشعروا الإطمئنان لأنهم يعلمون أن الاثيوبيين بوجه عام مجبولون على الغدر والخداع وأن معظمهم حاقدون على الايطاليين الذين اغتصبوا

أرضهم واستعبدوهم . ووجدت السلطات الايطالية نفسها مجبرة على الاحتفاظ في إقليم غوجام بقوات كبيرة قوامها ١٤ ألف مقاتل من الايطاليين والاريتريين . وهكذا كان وضع الايطاليين في إقليم غوجام عندما بدأ سلاح الحدود في شهر نوفمبر ١٩٤٠ زحفه إلى داخل الأراضي الاثيوبية متجهاً صوب هضبة بيلايا في إقليم غوجام الواقعة على مسافة مائة وثمانين ميلاً شرقي الحدود السودانية .

وقادت الزحف السرية الرابعة المؤلفة من أبناء دارفور بقيادة البكباشي بيتر أكلاند وهو من مفتشى المراكز البريطانيين الذين انضموا لقوة الدفاع . وأوكلت للسرية مهمة تعبيد طريق عبر مفازة شانكالا إلى بيلايا وإقامة استحكامات هناك بالتعاون مع فيتارورى تافيرى زيليكي زعيم المقاومة الاثيوبية في بيلايا . وكلفت السرية أيضاً بتطهير أرض مساحتها ألف متر مربع شرقي بيلايا لاستقبال الطائرات . وإلى جانب ذلك حملت السرية الرابعة معها إلى الكولونيل ساندفورد قائد المقاومة الاثيوبية ألف بندقية وربع مليون مجموعة من الذخائر وسبعين ألف ريال من العملة الفضية (ريال ماريا تريزا النمسوى) المتداولة في المنطقة . وانطلقت السرية من الروصيرص في فجر آخر يوم من شهر نوفمبر على ظهور الجمال وعدد قليل من الخيول ميممة شطر بيلايا عبر أرض مجهولة المعالم وغير مأمونة . ولم يكن لدى السرية الرابعة التى تضم مائة وثمانين رجلاً وسيلة للاتصال اللاسلكي مع مقر رئاستها في الروصيرص لأن سلاح الحدود لم يزود حتى تلك المرحلة بأجهزة الاتصال اللاسلكي . كانت الرحلة إلى بيلايا شاقة ومضنية للغاية استدعى تعبيد الطريق الذى سلكته السرية اجتثاث الأحراش والأشواك المنتشرة في المنحدرات والاخاديد ومجارى الخيران وفي ما عدا ذلك شقت السرية طريقها قدماً إلى بيلايا ولم تعترضها مقاومة تذكر . وانبرت السرية فور وصولها إلى بيلايا لتنفيذ مهمتها فأقامت الإستحكامات الدفاعية التى كلفت بها على هضبة ارتفاعها ٥ آلاف قدم ونقل الجنود على ظهورهم إلى تلك الإستحكامات كميات كبيرة وثقيلة من الذخيرة والأسلحة وغير ذلك من الإمدادات خوفاً من وقوعها في يد العدو اذا تركت في سفح الهضبة . وهرع زيليكي لإستقبال رجال السرية فور وصولهم إلى بيلايا مبدياً إستعداده للتعاون أما رجال قبيلة القمز والقبائل الاثيوبية الأخرى التى تقطن في المنطقة فأنهم لم يظهروا حماسة نحو القوة القادمة أو ميلاً للإشتراك في قتال ضد الايطاليين وأن كانوا لا يمانعون في الحصول على الأسلحة . وكان ظاهراً أنهم لا زالوا يعيشون في خوف من الحكام الايطاليين وصنيعتهم الرأس هايلو . ولكن كان من المأمول أن يتغير الموقف وتتبدد مخاوف سكان المنطقة بمجرد وصول الامبرطور وبقية سرايا سلاح الحدود إليها وهذا ما أكده البكباشي أكلاند في التقرير الذى أرسله إلىالروصيرص بعد ثلاثين يوماً من وصوله إلى بيلايا وذكر في التقرير أن منطقة بيلايا خالية من الإمدادات الغذائية . وأثنى على زيليكي بينما أنتقد الكولونيل ساندفورد الذى قابل السرية الرابعة في فتور بالغ ورفض توفير أى عدد من البغال لها رغم أن

أكلاند قام بتسليمه البنادق والذخائر والريالات النمسوية .

وطار هيو باوستيد فور تسلمه التقرير في ديسمبر إلى الخرطوم لمقابلة الامبرطور هيلاسلاسي وكان يعلم مدى تلهفه على العودة إلى مملكته واسترداد عرشه . وفي الواقع أن الامبرطور لم يخف في تلك الأيام تخوفه من البقاء فترة أطول وقد عبر عن ذلك أثناء لقائه في الخرطوم مع انتوني ايدن وزير الخارجية البريطانية . ويقول هيو باوستيد عن مقابلته مع الامبرطور «كان جالساً على كرسي مقصب في شرفة قصر القرنفل وقد أختفى رأسه الأمبرطورى الصغير تحت القبعة الضخمة التي لا تفارقه .

وحيانا الامبرطور بابتسامة ساحرة» ويذكر باوستيد أن الامبرطور كان ظاهر الاستياء من بقائه فترة الصيف في الخرطوم . وحضر المقابلة الكولونيل أوردى ونجت . وسرعان ما تفجر الخلاف بينه وبين هيو باوستيد حول الطريق المقترح لرحلة الامبرطور إلى بيلايا في حالة تعذر انتقاله إلى هناك بالطائرة .

ولا يخفى باوستيد احتقاره لونجت منذ لقائهما أول مرة في القضارف في آخر العشرينات وكان ونجت آنذاك قائداً لأحدى فصائل فرقة العرب الشرقية وكان من رأى ونجت أن يذهب الامبرطور إلى بيلايا على متن سيارة شاحنة (لورى) عبر طريق وعرة لم تستكشف من قبل وتقع على الطرف الشمالي من هضبة بيلايا بينما يرى باوستيد أن يسلك الامبرطور الطريق الذى فتحته وعبدته السرية الرابعة بقيادة البمباشي أكلاند . واتخذ الخلاف بين الأثنين أبعاداً خطيرة كادت أن تخلق أزمة بين الامبرطور والسلطات في الخرطوم لان ونجت زيادة على دوره في المقاومة وثقة الامبرطور فيه ثقة عمياء أصبح - ربما بايعاز من أصدقائه الصهاينة في لندن - مستشاراً أوبالأحرى ضابط الأركان للجنرال بلات القائد العام في كل ما يتصل بالعمليات العسكرية داخل اثيوبيا وهو منصب لا تؤهله له بكل تأكيد خبراته وتجاربه العسكرية التي لا تتعدى قيادة فصيلة في القضارف أو عصابة من الارهابيين الصهيونيين في فلسطين في أوائل الثلاثينات . وكان واضحاً أن ونجت في إختياره ذلك الطريق الوعرة غير المستكشفة لم يضع أى اعتبار لدور سلاح الحدود من الناحية التكتيكية أو لطبوغرافية المنطقة الواقعة شرقي الروصيرص ولم تكن هذه المرة الأولى التي يتدخل فيها أوردى ونجت في تفاصيل الأمور القيادية لسلاح الحدود ولكن هيو باوستيد كان يصده في كل مرة في حزم ويوقفه عند حدوده لأن «وضعي كقائد لسلاح الحدود سوف يصبح ضعيفاً لو أنى وافقت على سلوكه» على حد تعبير هيو باوستيد نفسه . وأمام عناد ونجت وغروره ومعاضده الامبرطور له أبلغ باوستيد الامبرطور أنه لن يكون مسئولاً عن ما يمكن أن يقع له بين الروصيرص وبيلايا ما لم يسلك في رحلته إلى هناك الطريق الذى استكشفته وعبدته السرية الرابعة بقيادة آكلاند وهو نفس الطريق الذى سلكته السرايا الأربع الباقيات . وكانت رحلتنا شاقة ومضنية استغرقت حوالى الأسبوعين على الجمال والبغال وسيراً على الأقدام . أما هيو باوستيد فقد قطع الرحلة على ظهر حصان في ثلاثة أيام

فقط . واكتمل إحتشاد سرايا سلاح الحدود في بيلايا بحلول شهر يناير وكانت الروح المعنوية بين رجالها في القمة وكلهم متحرقون للقاء العدو . وبدأت العمليات القتالية بالفعل فى آخر الشهر نفسه بالتحرك لإعتلاء الهضبة الاثيوبية ثم الأنحدار منها شرقاً في أتجاه أديس أبابا .

ووصل الامبرطور هيلاسلاسي في أوائل فبراير إلى بيلايا مع الكتيبة الاثيوبية وكانوا جميعاً في حالة مزرية من الاعياء والإرهاق وقد فقدوا معظم الجمال التى خرجوا بها من السودان سالكين الطريق الذى اختاره الكولونيل ونجت متحدياً نصائح باوستيد . ولم يكن ثمة مبرر لذلك سوى الغيرة والحسد التى يكنها ونجت وزملاؤه الأوربيون من قادة المقاومة الاثيوبية وحاشية الامبرطور ضد السودان وجيشه تنفيذاً للمخططات الصهيونية .وتحتل اثيوبيا كما هو معروف مكانة بارزة في تراث اليهود منذ عهد سليمان عليه السلام الذىيدعى الإنتساب إليه ملوك اثيوبيا ومنهم الامبرطور هيلاسلاسي . وفي اثيوبيا إلى جانب ذلك فئة من الأحباش (الفلاشا) لا تزال على دين اليهود وأصبح الصهاينة ازاء هذه الحقائق متطلعين لقيام اثيوبيا بدور كبير في تأسيس الدولة التي يحلمون بها على أرض فلسطين . وربما لا يتأتى لاثيوبيا القيام بذلك الدور اذا قدر لها أن تتحرر على يد جيش عربى مسلم . ولم يجد الأمبرطور بدا من الاستسلام لونجت وغيره من عملاء الصهاينة الذين أدخلوا في روعه أنهم هم الذين عبأوا جهود الحلفاء لتحرير بلاده وإسترداد عرشه .

وتعتمد الخطة التي وضعها سلاح الحدود لعملياته داخل اثيوبيا على المساندة الفعالة من جانب الاثيوبيين وخاصة رجال المقاومة وما من شك في أن وصول السرايا الخمس ثم الأمبرطور مع كتيبته إلى بيلايا أذكى نيران الحماسة بين الاثيوبيين في المنطقة فأخذت جموعهم تتدفق على معسكر الامبرطور في بيلايا لإظهار ولائهم له ألا أنهم رغم حماستهم وتلاشى عوامل التخوف من السلطات الايطالية وأعوانها لم يكونوا ميالين لمزيد من المغامرة في سبيل قضية سقط من أجلها عديدون من رفاقهم خلال السنوات الأربع الماضية . حتى الذين انضموا منهم إلى حركات المقاومة لم يفعلوا ذلك بدافع وطنى ولم يكونوا حريصين على مقاتلة الايطاليين وتدمير مواقعهم بقدر حرصهم على المكاسب من وراء أعمال السلب والنهب فهذا كان همهم الأول . ومن سلبيات حركات المقاومة الاثيوبية في غوجام وغيرها أن العداء الذى وحّد بينها ضد الايطاليين قد خلق في نفوس رجالها ميلاً إلى النفور من الأجانب والإرتياب في نواياهم . وعمل قادة المقاومة الأوربيون في الميدان والمحيطون منهم بالأمبرطور على استغلال هذه الظاهرة في اذكاء نيران الحقد والكراهية بين الاثيوبيين ضد السودانيين بوجه خاص وتذكيرهم بالثأرات والحروب الطاحنة التى أستمرت بين الطرفين طيلة فترة حكومة المهدية في السودان . ومن ناحية أخرى كانت معظم المعلومات التى يأتى بها رجال المقاومة غامضة إلى درجة التضليل في كثير من الأحيان . كما أن من الصعوبة بمكان كبير التمييز بين رجال المقاومة الصادقين والآخرين الموالين للسلطات الايطالية . غير أن هذا لا يلغى دور المقاومة الاثيوبية في

المعركة ولم يدع إلى حرمانها من الأسلحة والإمدادات اذ لا بد من أعطاء الاثيوبيين دوراً في تحرير وطنهم . وقد أدى مجرد وجود المقاومة المسلحة إلى حرمان الايطاليين من تسيير الدوريات للقيام بعمليات الإستطلاع والاستكشاف وأجبرهم على الاحتفاظ في الحاميات المختلفة بأعداد كبيرة من المشاة والفرسان والمدفعية . وما من شك في أن الايطاليين كانوا مدركين مدى الخطر المحدق بهم في حالة قطع خطوط تراجعهم .وبقائهم محاصرين في أرض معادية لهم .

وتقع بيلايا التى أتخذها سلاح الحدود محوراً لعملياته بين جبال شاهقة تحيط بها من ثلاث جهات على هيئة حدوة حصان ولا سبيل لتسلقها . أما الجهة الرابعة التى تشكل المدخل إليها فقد تولى حراستها رجال سلاح الحدود بينما نصب الأمبرطور هيلاسلاسي معسكره – مثل ملكة النحل – في قلب المعسكر . ومن بيلايا تحركت سرايا سلاح الحدود والمقاومة الاثيوبية شرقاً صوب أنغيبارا التى كانت فيها حامية ايطالية مؤلفة من كتيبتين انسحبتا من هناك قبل وصول القوة الزاحفة بيوم واحد واحتمتا بموقع حصين آخر يدعى بورى على مسافة ثلاثين ميلاً جنوبي أنغيبارا كما انسحبت مع الكتيبتين الايطاليتين الميليشيا الاثيوبية الموالية بقيادة مامو وهو من الأسرة الاقطاعية الحاكمة ويتمتع بقدر كبير من الشعبية في إقليم غوجام وبثقة السلطات الايطالية التي كانت تعامله كواحد من الأوربيين . وعند وصول رجال سلاح الحدود إلى أنغيبارا بعد ظهر اليوم التالي لإنسحاب الايطاليين منها وجدوا أن القوات المنسحبة قامت قبل رحيلها على عجل بنهب المتاجر والمساكن في المدينة ولم تبق على شئ فيها . وكانت الطرقات والحوارى مليئة بما لم يستطع الايطاليون حمله من السلع المنهوبة مثل المكرونة وعلب الساردين والتونة والفواكه المحفوظة والكتب والملابس والسكر وأفلام التصوير الشمسى . وفي المساء ظهرت في سماء المدينة على ارتفاع منخفض طائرة ايطالية ولكنها لحسن الحظ لم تكتشف الجمال التى أعتمد سلاح الحدود عليها في زحفه لأن الجمال كانت مخبأة آنذاك تحت أشجار الكافور خارج المدينة . وأثار ظهور الطائرة في ذلك اليوم مخاوف القيادة من نشاط السلاح الجوى الايطالي فعمدت إلى تلطيخ الجمال البيضاء بالطين لكي لا تبصرها طائرات الإستكشاف المعادية ! ! وعبرت الجمال عن احتجاجها على هذا الإجراء المهين الذى لا تدرك مغزاه بالهدير والركل والتكشير عن أنيابها ولكن دون جدوى . وواصل سلاح الحدود زحفه من أنغيبارا صوب بورى ملاحقاً قوات العدو المتراجعة ودخل في اشتباكات حامية مع فلولها ذاق فيها الجنود السودانيون المتحرقون للقتال لأول مرة ورد الردى فاستعذبوه وكانت تلك فاتحة المعارك التي خاضها رجال سلاح الحدود وحازوا فيها على الأعجاب . وقد اتخذ القتال طابعاً غير مألوف في الحروب المعاصرة اذ انتهج رجال سلاح الحدود فيه أسلوباً مبتكراً فرضته عوامل كثيرة بينها طبيعة المنطقة الجبلية وتفوق العدو عليهم تفوقاً هائلاً من ناحية العدد والسلاح وإعتصامه بمعاقل حصينة للغاية زيادة على طائرات السلاح الجوى الايطالي التي كانت لهم بالمرصاد . أنها حرب العصابات في أرقى وأروع صورة

وهذا ما فشل فيه الاثيوبيون عندما داهمهم موسوليني بجيوشه في عام ١٩٣٦ ولكن المقاتلين من رجال سلاح الحدود أثبتوا بشجاعتهم وقدراتهم وصبرهم أنهم «اساتذة» هذا الضرب من فنون القتال . ويقول البكباشي جون هولكومب قائد أحدى سرايا سلاح الحدود «كان جنودنا يقضون النهار في راحة وإستجمام وفي مأمن من عيون العدو حتي اذا ما أرخى الليل سدوله وزعوا على مجموعات يتراوح عدد كل منها بين خمسين ومائة مقاتل ثم يتوجهون بعد ذلك نحو مواقع العدو سالكين طريقاً مستكشفاً ومرسوماً سلفاً . ولا بد من إلتزام الصمت والهدؤ أثناء السير ولا يسمح لأى منهم بإطلاق النار رداً على صواريخ الإستكشاف المنبعثة من مواقع العدو المرعوب . ويتسلل الجنود - وكل واحد منهم مزود ببندقية وسونكى وقنبلتين يدويتين - في جنح الظلام إلى مسافة ١٠ ياردات من الهدف فيرمونه أولاً بالقنابل اليدوية ثم يتبع ذلك الهجوم بالبنادق والسونكي» .

ونعود لمتابعة سرايا سلاح الحدود في زحفها من أنغيبارا إلى بورى مشاة وعلى المطايا من الأبل والخيل والبغال فقد وصلت تلك السرايا في مدة وجيزة إلى مسافة خمسة أميال من حامية بورى دون أن تكتشفها عيون العدو وخاصة الطائرات الاستكشافية . وتتألف الحامية من مجموعة من الطابيات المنيعة التي تحيط بها أسوار الأسلاك الشائكة . وكان من رأى ونجت مهاجمة الحامية في نفس الليلة ولكن كان من الواضح أن الإستعدادات لم تكتمل وأن إحتشاد السرايا في مكان واحد يجعلها فريسة مكشوفة في متناول مدفعية الحامية والسلاح الجوى الايطالي . وعدل ونجت في النهاية عن رأيه . ولكن في اليوم التالى وقعت فصيلة من سلاح الحدود يقودها ونجت في كمين نصبه العدو بسبب تهور ونجت وحماقته وقلة خبرته . وكاد العدو أن يفتك بالفصيلة ويقضى عليها قضاء مبرماً لولا شجاعة الجاويش طمبل الذى وصل في الوقت المناسب مع حفنة من الرجال لأنقاذ الفصيلة المحاصرة . وهكذا كتبت لونجت وجنود الفصيلة النجاة بإستثناء جندى سوداني واحد لقى مصرعه .

ويروى هيو باوستيد قصة إشتباك آخر على مشارف بورى بين العدو والسرية التي يقودها البكباشي بل هاريس فيقول «سمعت وقع حوافر تركض وزعيق فرسان في ذروة الهجوم بخيولهم . وكانت الدقائق القليلة التاليات حرجة . وتصرف بل هاريس وحسن مساعد في برود ورباطة جأش وإستخدم كل منهما مدفعه (البرن) في صد الفرسان المهاجمين الذين وصلوا إلى مسافة عشرين ياردة فقط . وترك العدو وراءه عدداً من القتلى والجرحى» . ويصف هيو باوستيد (حسن مساعد) بأنه عربى وسيم ومرح من قبيلة الشايقية ومقاتل متميز وبأنه قائد موهوب وشجاع مثل زميله الجاويش محمد إبرهيم وهو من قبيلة الشايقية أيضاً وقد أنعم على حسن مساعد بالوسام الحربى البريطاني (دى سي أم) بينما كان نصيب محمد إبرهيم وساماً سودانياً مماثلاً . واستمرت محاصرة حامية بورى عدة أيام واصل فيها رجال سلاح الحدود غاراتهم الليلية على الطابيات المختلفة وقد وزعوا على مواقع مختلفة لإيهام العدو بأنه تحت رحمة جيش جرار لا قبل له به . أما الجمال فقد أخفيت في موقع مأمون

تحت إشراف اليوزباشي الحاج موسى . ووصلت إلى القيادة في اليوم الثالث من مارس أنباء موثوقة مفادها أن حامية بورى آخذة في الإنسحاب شرقاً إلى دبرا ماركوس الواقعة على مسافة مائة ميل تقريباً وأتخذت وحدات مدافع الهاون موقعاً خفياً على ربوة وراحت من هناك تمطر المبانى والمنشئات في بورى بوابل من قذائفها فأشتعلت النيران في معظمها . وهيأت محاولات الايطاليين لإخماد الحرائق الفرصة لحصدهم بنيران مدافع الفيكرز . ونتيجة لذلك هربت أعداد كبيرة من جنود الحامية . وفي اليوم الثالث من مارس شرعت حامية بورى في الإنسحاب شرقاً إلى دبرا ماركوس الواقعة على مسافة مائة ميل تقريباً . وهكذا سقطت حامية بورى على يد سلاح الحدود ولحقت بها الحاميات الأخرى واحدة اثر واحدة في مانكوسا وجيغا ودمبيشا . وأصيب بل هاريس خلال إشتباك في الطريق إلى دامبيشا بجراح بالغة ألحقتها به رصاصة من مدفع رشاش وكاد أن يفقد حياته لولا العملية الجراحية التى أجراها له دكتور درو كليفورد الذى وصل إلى موقع الإشتباك قبل لحظات من وقوع الحادث . ولاذ معظم جنود الحاميات الايطالية المتساقطة كقصور الرمال بالفرار إلى دبراماركوس وانتشرت صفوفهم المتراصة على طول الطريق إليها ومن ورائهم سرايا سلاح الحدود وقد هزتها نشوة الانتصار . ودبرا ماركوس عاصمة إقليمية ذات أهمية كبيرة تحميها مجموعة متناثرة من الطابيات وإستحكامات منيعة عرفت بأسم خط غوليت .

وبحلول منتصف مارس (١٩٤١) استحرت سلسلة من المعارك الضارية للاستيلاء على دبرا ماركوس التى لاذت بها جموع غفيرة من الجنود الهاربين من المواقع المختلفة أمام سرايا سلاح الحدود الزاحفة وتجلت هذه المرة عبقرية المقاتلين السودانيين وطول باعهم فى حرب العصابات واثبتوا أنهم أساتذة هذا الضرب من فنون القتال وأبناء بجدته . واتخذت المعارك صورة الغارات الليلية التى يشنها رجال سلاح الحدود كل ليلة على مواقع العدو من جهات وزوايا مختلفة مستخدمين القنابل اليدوية والبنادق والسونكي الى جانب مدافع الهاون فى بعض الأحيان . ويعود المغيرون الى قواعدهم قبل شروق الشمس حيث يخلدون للراحة والاستجمام لمعاودة غاراتهم فى منتصف الليل . وتسبق هذه الغارات فى العادة عمليات الاستطلاع أثناء النهار لاستكشاف مواقع العدو والطرق المؤدية اليها . وقد تكبد سلاح الحدود بعض الخسائر فى الأرواح خلال الاشتباكات حول دبرا ماركوس الا أنها أقل بكثير من الخسائر التى كان من الممكن أن يتكبدها لو جرت الاشتباكات نهاراً . وفى الواقع أن مجرد التحرك فى ظلام الليل فوق أرض صخرية وعرة المسالك ينطوى فى حد ذاته على مهالك وأخطار جمة . وفى ليلة واحدة انكسرت أعناق ٣ من الجنود السودانيين عندما زلت أقدامهم فوق ممر جبلي فتدحرجوا الى الهاوية . وفى حادث آخر أصيب البكباشى بيتر أكلاند بجراح من جراء قنبلة . أما فى الاشتباكات فقد كان عدد القتلى ضئيلاً للغاية ولكن الفاجعة الكبرى كانت مقتل البكباشى كولين ماكدونالد مساعد (أدجوتانت) قيادة السلاح وقد لاقى حتفه فى الحادى والثلاثين من مارس على يد

العدو اثر اصابته بعيار نارى طائش ودفن جثمانه وسط المراسيم العسكرية التقليدية فى موقع جبلي أشبه بمرتفعات اسكوتلاندا الخضراء مسقط رأسه .

ومع اشتداد الحصار والغارات الليلية المتوالية أخذت الانباء تتحدث عن عزم الايطاليين الانسحاب من مواقعهم الامامية على خط غوليت والاحتماء مؤقتاً وراء استحكاماتهم الرئيسية فى دبرا ماركوس ذاتها ثم الهروب من المنطقة كلها عبر نهر أباى (النيل الأزرق) فى اتجاه ديساى . وانضمت فى هذه المرحلة الى سلاح الحدود قوة من المقاومة بقيادة أجازكيدى الذى قال عنه هيوباوستيد « لقد أدهشنى كقائد ذى ذكاء وعزيمة ماضية » .

وفى صباح ٣ أبريل فوجئ هيوباوستيد بالعلم الاثيوبي يخفق فوق قلعة دبرا ماركوس وعلم أن الايطاليين أخلوها ولكنهم تركوا فيها قوة مؤلفة من عدة ألاف من الجنود الاثيوبيين والاريتريين تحت قيادة الراس هايلو الذى قال أنه عازم على المقاومة حتى النهاية . وبعث اليه هيوباوستيد على الفور برسالة يدعوه فيها الى الاستسلام . وفى المساء احتلت قوة من سلاح الحدود حامية أبيها وتقدم هيوباوستيد بنفسه على رأس قوة صغيرة الى دبرا ماركوس وقابله على أبواب قلعتها الرأس هايلو مرتدياً زى جنرال فى الجيش الايطالي معلناً استسلامه . ولم يستجب هيوباوستيد حتى لرغبة الرأس الخائن فى البقاء داخل القلعة وانما عهد اليه بدلاً من ذلك بالمساهمة فى المحافظة على الأمن وايقاف أعمال السلب والنهب . وفى اليوم التالي ظهر فى دبرا ماركوس الرأس ناغاش وهو من قادة المقاومة أيضاً وادعى أن الامبرطور عينه حاكماً على اقليم غوجام ولكن باوستيد أمره بالخروج من المدينة بعد أن أوضح له أنه القائد العام فى الاقليم للقوات الحليفة بما فيها القوات الاثيوبية . ووصل الامبرطور فى السادس من ابريل الى دبرا ماركوس ومعه أدوين شابمان أندروز الضابط السياسي الذي انتدبته وزارة الخارجية البريطانية لمرافقة الامبرطور والذى أصبح فى ما بعد سفيراً لبريطانيا في السودان . وأقيم استعراض عسكرى فى دبرا ماركوس اشترك فيه الجنود السودانيون والاثيوبيون ورفع فيه الامبرطور العلم الاثيوبي ثم ألقى خطاباً حيا فيه الجنود . وقبل أن يغادر الامبرطور المنصة تقدم نحوه الرأس هايلو (ابن أخته) وقد استبدل زى الجنرال الايطالي بثوب أبيض بديع وسلك الراس طريقه بخطوات بطيئة بين صفين من الجند وتمدد مرتين على طوله فوق الأرض وفى المرة الثالثة كان تحت قدمي الامبرطور فقبلها فى ذلة وخضوع . لكن الامبرطور ظل ساكناً فى مكانه لا تختلج عضلة في وجهه ولم يبدر منه ما يوحي بمسامحته لابن اخته .

وكان الكولونيل مارافينتانو قد خرج من دبرا ماركوس قبل سقوطها على رأس قوة قوامها ٨ آلاف مقاتل متجهاً الى ديساى وانبرت وحدة من سلاح الحدود لمطاردته يقودها البكباشي جونسون ومعها قوة من المقاومة الاثيوبية بقيادة بيلاى زاليكا وولفرد ثيسيغر مندوباً عن أوردى ونجت . وكان الغرض منع مارافينتانو وقوته من عبور نهر أباى الى الضفة الأخرى . وكاد البكباشي جونسون أن يلحق به الا

أن بيلازاليكا وثيسيغر نصحاه بتأجيل الهجوم على القوة الايطالية بسبب مناعة مواقعها وتفوقها فى العدد ونصحه الاثنان بالانتظار حتى وصول مزيد من الامدادات من دبرا ماركوس . وكانت فترة الانتظار كافية لعبور ما رافينتانو وقوته بسلام الى الضفة الأخرى . وظهر فى ما بعد أن بيلازاليكا تقاضى مبلغاً طائلاً من المال مقابل تمكينه للقوة الايطالية من العبور . وعلى أية حال عبر البكباشي جونسون ووحدته من رجال سلاح الحدود النهر الى الضفة الأخرى فى الثالثة والربع من صباح ٩ أبريل واضطر الجنود الى حمل أمتعتهم وسلاحهم فوق رؤوسهم وعبروا بها النهر اذ ما من سبيل لحملها على الدواب نظراً لعمق الماء فيه . ولما علم ما رافينتانو بسقوط ديساى بمم شطر أغيبار ولحقت به هناك وحدة سلاح الحدود بقيادة جونسون وضربت حوله حصاراً محكماً وظلت تناوشه ومن معه فى اشتباكات جريئة أثناء الليل والنهار الى أن وهنت قواه وخارت عزائم أصحابه ولم يبق أمامهم من خيار سوى الاستسلام أو الفناء عن بكرة أبيهم فاستسلموا جميعاً فى صباح الثانى والعشرين من مايو . وقام البكباشي جونسون مع خمسة وعشرين من رجاله بتجريدهم من الأسلحة فى اليوم التالى وكان ذلك أعظم صيد ظفر به سلاح الحدود منذ انطلاقه من الروصيرص فقد بلغ عدد الأسرى ألفاً ومائة من الايطاليين الأوروبيين وسبعة الاف من جنودهم الارتريين والاثيوبيين و٢٠٠ امرأة اثيوبية وسيدة ايطالية واحدة بالاضافة الي كميات كبيرة من المؤن والسلاح .

وكانت قد توجهت قوة اخرى من سلاح الحدود بقيادة البكباشي جارفيس بعد سقوط دبرا ماركوس الى بحردار حيث ترابط قوة ايطالية هناك بقيادة الكولونيل توريللي ولقى الجنود السودانيون فى طريقهم عناء شديداً بسبب طبيعة الأرض الصخرية ووعورة مسالكها بالاضافة الى نوع من البراغيث يعرف محلياً باسم جيفّا ينحشر تحت الجلد بين أصابع اليد والقدم فيحدث آلاماً مبرحة . وتقع بحردار عند مخرج نهر أبآى فى الطرف الجنوبي من بحيرة تانا . وقد أقام الايطاليون فيها استحكامات دفاعية منيعة وتضم القوة المرابطة فى بحردار عدداً من الضباط الايطاليين الفاشيين ذوى القمصان السوداء الذين لم يفقدوا الثقة فى الدوتشى أو الأمل فى الانتصار بعد هزائمهم المتلاحقة وما عليهم – كما توهموا – الا أن يصابروا ويصمدوا الى أن يأتيهم المدد بعد اجتياح القوات الحليفة فى الصحراء الغربية وانتصار القوات المحورية هناك الذى بات وشيكاً ! ! . وأمام صمود القوة الايطالية وراء استحكاماتها المنيعة فى بحردار وتصميمها على القتال مهما كان الثمن لجأ رجال سلاح الحدود الى أسلوب حرب العصابات الذى طبقوه بنجاح فى دبرا ماركوس واستمرت غاراتهم الليلية بالقنابل اليدوية والبنادق والسونكي لمدة ١١ يوماً فقد العدو خلالها بين قتيل وجريح ٢٦٨ جندياً وستة من الضباط الايطاليين بينهم الكولونيل توريللي وانسحبت باقى القوة فى النهاية الى غوندار .

وبعد الاستيلاء على بحردار تلقت قيادة سلاح الحدود رسالة استغاثة من أوردى ونجت بالقرب

من موقع يدعى موتا وفيه حامية ايطالية عنيدة فتوجه سلاح الحدود بكامله الى هناك على الفور بعد ظهر اليوم الثامن عشر من ابريل تتقدمه فصيلتان على رأسها هيوباوستيد قائد السلاح بنفسه . ويمتد الطريق الذى سلكه الجنود الى موتا عبر ممر شيغول على ارتفاع ١٤ ألف قدم ولم يقاس الجنود من البرد وحده وانما من الجليد المتساقط أيضاً اذ أن معظمهم من سكان السهول فى السودان . وأمضوا ليلة قاسية فى ذلك الممر وهم فى العراء وليس لدى الواحد ما يحميه من البرد سوى بطانية واحدة . وقد عانى كثيرون منهم من دوار الجبل . وفى الصباح واصلوا السير الى أن هبطوا بسلام من الممر وكانت معنوياتهم عالية للغاية رغم المشقة والعناء فى الليلة السابقة . ولم يكن مصير حامية موتا بأحسن من مصير الحاميات الايطالية الاخرى اذ استسلمت بعد معارك استغرقت يومين اعتمد فيها سلاح الحدود على غاراته الليلية التقليدية ثم القصف بمدافع الهاون نهاراً . وشن العدو هجمات مضادة باءت جميعها بالفشل . وبعد الاستسلام وافق الجنود الاريتريون فى الحامية على الانخراط فى جيش الامبرطور بينما نقل الضباط الايطاليون وعددهم تسعة عشر الى معسكرات الأسرى .

وكان الاستيلاء على موتا فى ٢٤ أبريل (١٩٤١) خاتمة انتصارات سلاح الحدود فى اثيوبيا وشهد الشهر نفسه قبل ذلك بأيام خاتمة الحرب فى اريتريا بسقوط ميناء مصوع وفى مايو سجل آخر سطر فى شهادة وفاة الامبرطورية الايطالية فى شرق افريقيا باستسلام دوق أوستا فى أمبالاجى للجنرال بلات قائد قوة الدفاع السودانية وبذلك انهارت أحلام الدوتشى وطغمته الفاشية فى اعادة أمجاد روما القديمة . ومن حق قوة الدفاع أن تفاخر وتباهي بأنها قدمت للحلفاء أول انتصار لهم فى الحرب العالمية الثانية مما ألهب حماسة قواتهم فى سائر الجبهات وأعاد اليهم الثقة فى الانتصار بعد النكسات والهزائم المتتالية وأن تفاخر وتباهي أيضاً بأن اثيوبيا واريتريا اللتين تحررتا على يديها هما أول قطرين تم تخليصهما من قبضة المحور .

وقد دخل الامبرطور هيلاسلاسى أديس أبابا عاصمة ملكه فى الخامس من مايو (١٩٤١) فى موكب مهيب تتقدمه سيارة الامبرطور ومن ورائه أبطال سلاح الحدود والمقاومة . وكانت أديس أبابا قد أعلنت مدينة مفتوحة لذلك لم يجر قتال فيها . وأقام الامبرطور فى قصره حفل عشاء تكريماً لقائد سلاح الحدود وضباطه ويقول هيوباوستيد « استقبلنا الامبرطور بما عهد فيه من بشاشة ووقار وأمضينا فى القصر أمسية زادتها بهجة زجاجات الشمبانيا وشراب « التيج » المحلى . وكان الامبرطور ودوداً للغاية وتناولت أحاديثنا معه الفترة التى قضاها فى انجلترا والغزو الايطالي لبلاده وما انطوت عليه حربنا فى اريتريا والحبشة من مشقة وعناء » . والمعروف عن الامبرطور أنه يتمسك دائماً بالتحدث باللغة الفرنسية التى يتقنها ويتجنب اللغة الانجليزية رغم المامه بها خوفاً من الوقوع فى أخطاء لا تليق بمقامه الامبرطورى ولكنه فى حفل العشاء خرج عن هذا التقليد ودار الحديث بينه وبين ضباط سلاح الحدود باللغة الانجليزية وخاصة مع البكباشى هنرى جونسون قائد أحدى السرايا الذى كان قبل انخراطه فى

سلاح الحدود يعمل مفتشاً زراعياً فى مشروع الجزيرة وعرفته ميادين كرة القدم فى بريطانيا قبل ذلك كلاعب ممتاز . وقد أبلى بلاء حسناً فى الحرب فى اثيوبيا وأنعم عليه بالوسام الحربي البريطانى (دى سى أو) . وترك حفل العشاء أثراً طيباً فى نفوس المدعوين وقد أنعم الامبرطور فيه على هيوباوستيد قائد سلاح الحدود بوسام القديس جورج الذى يعتبر ارفع الأوسمة الاثيوبية كما أنعم بأوسمة أقل على الضباط البريطانيين والسودانيين الآخرين .

ومن ناحية أخرى أشاد الأمبرطور هيلاسلاسى بدور قوة الدفاع السودانية فى تحرير بلاده وذلك عندما قام الأمبرطور بزيارة السودان فى عام ١٩٥٩ حيث ألقى خطاباً فى نادى الضباط قال فيه :

« أتاحت لنا ظروف الحرب العالمية الثانية أن نحارب فى ميدان واحد بل وفى صف واحد مع الضباط السودانيين الذين ترونهم الآن فى رتبهم العالية ومع من استشهدوا منهم فى سبيل الواجب . ونعرف أن العالم أشاد بما قام به السودانيون من أعمال البطولة والشجاعة ولا يمكننى أن أغفل ذكر هذه الحقائق وقد أتيحت لنا هذه الفرصة النادرة للقائكم وهى حقائق سجلها التأريخ بمداد من نور » .

وتجدر الاشارة الى أن الامبرطور هيلاسلاسى امتنع عن الاعتراف بدولة الكيان الصهيونى عند قيامها وفاء منه للسودان ودوره فى تحرير بلاده واسترداد عرشه ولكنه أجبر فى ما بعد على الاعتراف بها رداً على موقف بعض الدول العربية ضده خلال الفترة التى سادت فيها دعوة الرئيس عبد الناصر ومبادئه المنادية بالقومية العرّبية . وما من شك فى ان موقف الامبرطور من دولة الكيان الصهيونى ابان مولدها كان لطمة للمغامرين من المرتزقة الأوروبيين الذين هيمنوا على حركة المقاومة الاثيوبية وفقاً للمخططات الصهيونية . وقد أشرنا من قبل الى جانب من مشاعر الغيرة والحقد التى طالما أبداها أولئك المغامرون نحو المقاتلين السودانيين فى ميدان المعركة . ويتحدث البكباشي جون هولكومب وهو قائد سرية فى سلاح الحدود عن مدى التدهور وتوتر العلاقات مع المقاومة الاثيوبية بسبب العناصر الصهيونية المسيطرة عليها . ويذكر فى هذا الصدد كيف انهالت على الامبرطور فور عبوره الحدود السودانية جموع غفيرة من الاثيوبيين لتقديم فروض الطاعة والولاء ومعهم هداياهم من الأبقار والأغنام . ويمضى جون هولكومب قائلاً « المنطقة غير مأهولة ولا أثر فيها للزراعة والحيوان ولم يكن لدينا لحوم أو خضروات وفى الواقع لم يكن لدينا شئ يؤكل سوى دقيق الذرة . وبعثت برسائل الى أوردى ونجت طالباً منه اتخاذ الترتيبات اللازمة لتمكيننا من شراء بعض الأبقار والأغنام التى ترد الى الامبرطور لاننا لم نذق لحماً أو خضاراً منذ أكثر من ثلاثة أسابيع . ولم يصلنى رد على رسائلي وأصابنى الجزع من جراء الموقف فأقدمت على اعتراض طريق ثلاث مجموعات من الاثيوبيين المتوجهين الى الامبرطور وطلبت منهم أن يبيعونى بعضاً مما معهم من أبقار وأغنام ولكنهم رفضوا فاستوليت بالقوة

على بعض منها وامتنع الاثيوبيون عن قبول اثمانها نقداً . وقد كانت لدينا مبالغ كبيرة من ريالات ماريا تريزا النمسوية الفضية . وبعد يومين تلقيت رسالة عاجلة أخطرت فيها بالمثول أمام ونجت وعندما ذهبت اليه ألفيته على المائدة وأمامه كوب من الحليب وبيضتان مسلوقتان وأوضحت له أنى عرضت أولاً على أصحاب الأبقار والأغنام شراءها بالثمن فلما رفضوا أخذتها منهم لأننا لم نطعم لحماً منذ اسبوعين » وكان ونجت كعادته فظاً وصفيقاً فبالغ فى توبيخ هولكومب وتحذيره من ارتكاب مثل ذلك العمل مرة ثانية خوفاً من اغضاب جلالة الامبرطور . انصرف جون هولكومب بعد أداء التحية العسكرية رغم مقته واحتقاره لونجت الذى كان أعلى منه رتبة ومقرباً للامبرطور زيادة على وضعه كمستشار للجنرال بلات . ولم يطل انتظار جون هولكومب للانتقام من غريمه الصفيق فقد نما الى علم ونجت أن لدى هولكومب كمية من الكيروسين يستخدمه للاضاءة فأرسل اليه مندوباً فى المساء يطلب منه التنازل عن الكيروسين لجلالة الامبرطور الذى ليست لديه قطرة واحدة . وركب هولكومب رأسه وعاد المندوب بخفى حنين بعد أن أبلغه هولكومب بأن الكيروسين الذى لديه ملكه شخصياً ولن يتنازل عن قطرة منه تحت أى ظرف لجلالة الامبرطور . وتوترت العلاقة بعد ذلك بين الاثنين الى حد اضطرت فيه القيادة الى تحويل هولكومب وسريته الى موقع آخر بعيداً عن الامبرطور وبطانته .

وانتقل سلاح الحدود في أوائل يونيو من العام نفسه بسراياه الخميس إلى أسمرا في طريقه إلى السودان بعد طول غياب وقد اشتد الحنين بالجنود للقاء الأهل والأحباب . وشهدت أسمرا في تلك الأيام حادثاً مؤسفاً في السوق اثر مشادة في السوق بين جنديين سودانيين وجمهرة من الأحباش وتطورت المشادة إلى إشتباك دموى أسفر عن مقتل أحد الجنديين بينما تمكن الثاني من الهروب إلى الطابية مستغيثاً برفاقه الذين هبطوا إلى السوق وانتشروا في شوارع المدينة بأسلحتهم . وسقط يومذاك عشرات من الأحباش بين قتيل وجريح . وكان انتقاماً رهيباً على حد تعبير الجاويش حسن على الذى قاد عملية الانتقام وقد ذكر أيضاً – خلافاً لما روته المصادر الرسمية – أن الأحباش ذهبوا في تحرشهم بالجنديين إلى حد التعريض بالأسلام والاساءة إلى نبيه عليه السلام بعبارات جارحة . وكان هناك في الأصل توتر بين المسلمين والمسيحيين عملت جهات مختلفة على تأجيجه واضفاء أبعاد خطيرة عليه . ولم يكن ما قام به الجنود السودانيون يومذاك أخذاً بثار زميلهم القتيل بقدر ما كان انتقاماً من المتجنين على الأسلام دون وجه حق .

وقدم الجنود السودانيون إلى محكمة عسكرية ميدانية في أسمرا أصدرت أحكاماً بالأعدام أو السجن على الجاويش حسن على ورفاقه وخفضت أحكام الأعدام في مرحلة الاستئناف إلى السجن المؤبد . وكانت المحكمة برئاسة القائمقام فضل المولى التوم وعضوية القائمقام سليمان الخليفة عبد الله التعايشى والقائمقام إبرهيم عبود وتولى الدفاع عن المتهمين البكباشي عبد اللطيف الضو والبكباشي سليمان إبرهيم . وكان البكباشي عبد الرحمن الفكي ممثلاً للأتهام . ومهما كانت أسباب

هذا الحادث المؤسف الذى راح ضحيته عشرات من الأحباش فأن التوتر الذى كان سائداً بين المسيحيين والمسلمين في اريتريا يكشف عن أن ثمة أصابع مسيحية وصهيونية كانت تعمل في الخفاء لتشويه دور الجندى السوداني الذى خاض أشرف المعارك وقوفاً إلى جانب الحق والعدل وكرامة الانسان وكان مثالاً للسمو والأقدام على تمزيق رايات الباطل – أن الباطل كان زهوقاً.

وقام الجنرال بلات – القائد العام – بزيارة رجال سلاح الحدود الأبطال في أسمرا فور وصولهم إليها ليعرب لهم عن تقديره وإعجابه بإنجازاتهم العظيمة في الحرب. وأقيم بهذه المناسبة استعراض عسكرى في العاصمة الاريترية تحدث فيه القائد العام عن دور سلاح الحدود وقال أنه لم تكن ثمة فرصة للانتصار في اريتريا لولا اضطرار الايطاليين للاحتفاظ بجانب كبير جداً من قواتهم وأسلحتهم في غوجام للدفاع عن معاقلهم ومستوطناتهم هناك بدلاً من تحويل تلك القوات لتعزيز إمكانياتهم الدفاعية في كرن وغيرها. وتفقد الجنرال بلات السرايا الخمس في معسكراتها وصافح كل رجل فيها يداً بيد في بشاشة وانشراح وكأنهما صديقان حميمان. ولم يكن مثل هذا السلوك غريباً فقد تعلم الجنرال بلات من خلال معايشته للجنود والضباط السودانيين أن أقرب طريق إلى قلب الواحد منهم اشعاره بانه صديق قبل أن يكون قائداً ومخاطبته ولو بكلمة أو كلمتين بلغته العربية. ومثل هذه العلاقة الحميمة يتفهمها المقاتل السوداني وتجعله يقبل تلقائياً وفي صدق واخلاص على تنفيذ أوامر قائده العام أو من ينوب عنه في الميدان. ويتفق الذين عاصروا الجنرال بلات على أنه ظل منذ قدومه إلى السودان وحتى مغادرته شديد الاعجاب بالجندى السوداني وأنه وصل في تعلقه به إلى حد تبنيه وكان منه في الواقع بمنزلة الأب من حيث الرعاية والعناية. ولم تكن مواهب بلات القيادية وحدها التى جعلته قائداً فريداً في تاريخ قوة الدفاع السودانية وانما أسهم في ذلك إلى حد كبير إلمامه بما ينطوى المقاتل السوداني عليه من مزايا وسجايا نادرة.

أما الكولونيل هيو باوستيد قائد سلاح الحدود فأنه شخصية مثيرة ومغامر من الطراز الأول. وقد كان في صباه رياضياً ممتازاً وبطلاً في حلقات الملاكمة. وانعكس شغفه بمتع الحياة ومباهجها بصورة صارخة على سلوكه في الحياة فهو لم يتزوج على الإطلاق لأن المسئولية الزوجية في اعتقاده تحرمه الحرية والاستقلال ولأنه من ناحية أخرى يرى في مشاركة امرأة له في عزلته وحياته الشاقة ظلماً لها. ويعترف في مذكراته بأنه كانت تعتريه حالات يتخلى فيها عن موقفه من الزواج. وقد خطب مرتين ولكنه هرب في أخر لحظة من القفص الذهبى. ويبدو أنه كان ينظر في مستهل حياته للخدمة العسكرية نفس نظرته للزواج وقد هرب بالفعل من الخدمة السكرية مع الاسطول البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى. ولكن الملك (جورج الخامس) أصدر عفواً عنه إستجابة لوساطة خاله سير موريس هانكي سكرتير مجلس وزراء الحرب وسمح له بعد العفو بالإنضمام للكتيبة التى جندتها

حكومة جنوب افريقيا للقتال مع الحلفاء في اوروبا والتى اشترك باوستيد معها في معارك عديدة في الجبهة الغربية ومنح وهو برتبة ملازم ثاني وسام الصليب الحربى البريطاني تقديراً لشجاعته في معركة أراس التى استولى فيها بقوته الصغيرة على مجموعة من المدافع الألمانية واستسلم له عدد كبير من الجنود الألمان .

وتطوع هيو باوستيد قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى للقتال مع قوات روسيا البيضاء ضد الثوار البلاشفة وتولى تدريب وحدات المدفعية القوقازية وقادها في المعارك ثم عاد في آخر المطاف إلى بريطانيا حيث التحق بجامعة أوكسفورد للحصول على درجة في اللغة الروسية . وفي أثناء دراسته في الجامعة اختير ضمن الفريق البريطاني في دورة الألعاب الأولمبية لعام ١٩٢٠ . وبقى هيو باوستيد في بريطانيا حتى عام ١٩٢٤ حيث التحق مع مولد قوة الدفاع بفرقة الهجانة في الأبيض برتبة البكباشي وأخذ يتدرج في سلم الترقي في فرقة الهجانة إلى أن أصبح قائداً لها في عام ١٩٣١ ثم عاد إلى بريطانيا ولم يطب له المقام فيها واشتد به الحنين إلى السودان فشد الرحال إليه حيث عين مفتشاً لمركز زالنجى فى دارفور وبقى هناك لمدة تسعة أعوام أهتم خلالها بالعمل على انشاء المدارس وتحقيق نظام قويم للعدالة وكبح جماح رجال الإدارة الأهلية الذين يجنحون إلى البطش وظلم رعاياهم . ويبدو أن هيو باوستيد قد ارتاح للحياة في زالنجي بعيداً عن أجواء المغامرات وكرس معظم وقته للعمل الادارى والقيام بجولات في المنطقة تستغرق شهوراً عديدة لا يتحدث خلالها اللغة الانجليزية – كما قال – أو يرى رجلاً أبيض . لقد كان فى شبه عزلة عن الأحداث فى العالم الخارجى ومع ذلك أحس بالقلق وساورته المخاوف عندما أقدمت ايطاليا على غزو اثيوبيا وزاره في تلك الأيام في زالنجى الجنرال فرانكلين القائد العام لقوة الدفاع الذى كان واثقاً من أن أطماع الدوتشي لن تقف عند حد ولابد من أن يحاول إبتلاع السودان في المرة القادمة . ولم يكن الجنرال فرانكلين آنذاك مرتاحاً لسياسة غض الطرف والاسترضاء التي أنتهجتها الحكومة البريطانية ازاء سياسات المحور التوسعية . ويذكر هيو باوستيد أن فرانكلين قال له فى تلك الزيارة «هنالك الايطاليون ومعهم قوة عسكرية قوامها ١٥٠ ألف رجل ولدينا فى السودان قوة الدفاع المؤلفة من حوالى ٤ آلاف وعلينا عندما تهب العاصفة أن نوقف الزحف الايطالي إلى أن تصلنا التعزيزات وبعد ذلك يصبح فى امكاننا أن نتحول من الدفاع إلى الهجوم» وطلب الجنرال فرانكلين من هيو باوستيد أن يكون على استعداد للعودة إلى الخدمة العسكرية فى الوقت المناسب لكى يتولى قيادة قوة مستقلة متنقلة للقتال فى اثيوبيا . ولعل ذلك كان بمثابة الارهاصات الأولى التى سبقت تشكيل سلاح الحدود . ولم يخف هيو باوستيد يومذاك إغتباطه للمهمة التى اقترحها عليه الجنرال فرانكلين اذ أنها سوف تهيئ له الفرصة – على الأقل – للاستفادة من تجاربه السابقة فى روسيا خلال الحرب العالمية الأولى . ومكث هيو باوستيد فى زالنجى إلى أن كُلف فى عام ١٩٤٠ بتجنيد وقيادة سلاح الحدود

الذى تولى كما أوضحنا من قبل دحر الايطاليين في اثيوبيا وإعادة الامبرطور هيلاسلاسي إلى عرشه

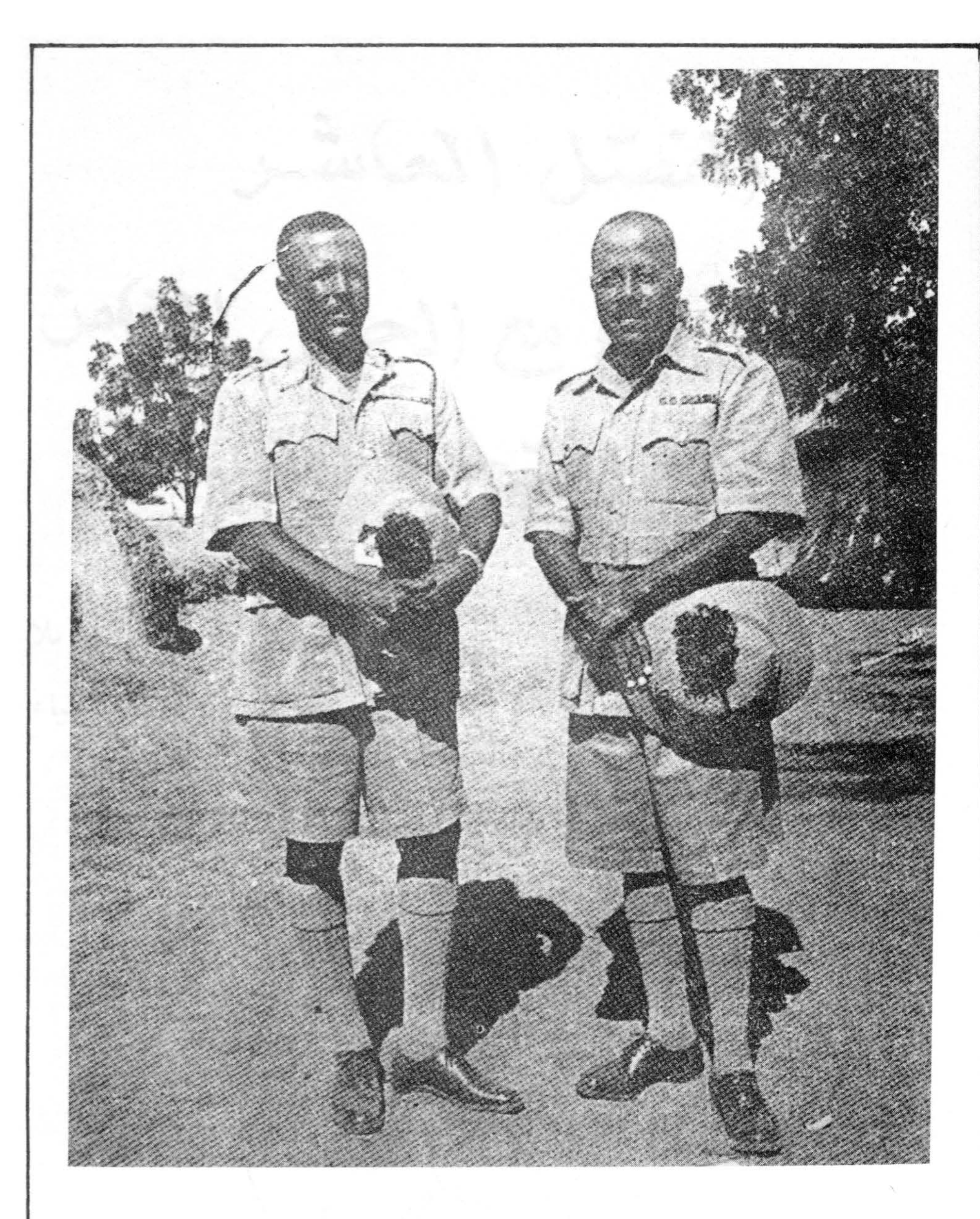
وأشادت براءة الوسام البريطاني (دى سي أو) - الذى منح لهيو باوستيد عقب معارك دبرا ماركوس - بفعالية حرب العصابات التي قادها بحنكة وذكاء وكيف أجهز الملاكم الذى عرفته حلقات الملاكمة العسكرية في بريطانيا على عدوه بالضربة القاضية.

وبعد انتهاء الحرب عاد هيو باوستيد إلى مركز زالنجي وكان في استقباله على أبواب المدينة مائة وخمسون من زعماء العشائر ورجال الادارة الأهلية وجيش جرار من المواطنين على صهوات الجياد. واختلطت دقات الطبول بالزغاريد وقعقعة الأعيرة النارية إبتهاجاً بمقدمه إلى المدينة التى أحبته مثلما أحبها. وواصل هيو باوستيد سياسته التى سار عليها من قبل في إدارة مركز زالنجي وهو الموطن الرئيسى لقبائل الفور وكان صارماً كدأبه دائماً في تعامله مع زعماء العشائر ورجال الادارة الأهلية الذين يسيئون معاملة رعاياهم ويستغلون نفوذهم للثراء أو يعتدون على المال العام. وقد أوقعه هذا السلوك مرات عديدة في مجابهات مع محمد الفضل أمير زالنجي وزعيم الفور الذى أمضى معظم حياته في مصر وفيها نشأ وترعرع إلى أن عاد مع أبيه من هناك عندما اتجهت الحكومة إلى احياء سلطنة الفور. وقد أصدر هيو باوستيد في عام ١٩٧١ كتاباً عن سيرته الذاتية بعنوان «رياح الصباح» قال فيه عن سياساته واهتماماته خلال الفترة التى أمضاها مفتشاً لمركز زالنجي «هنالك قناعات قليلة أكثر ارضاء للمرء من قيامه بدور في مساعدة بلد أو شعب للسير قدماً إلى حياة يسودها الأمن والسلام مع ازدهار الزراعة والتجارة في ظل حكومة نزيهة تحقق العدالة وتوفر العناية الطبية للمرضى والتعليم للشباب».

ويعترف هيو باوستيد بأنه واجه بعض المصاعب في اقناع الشبان النابغين من أبناء منطقة زالنجي بمواصلة الدارسة إلى المراحل العليا لكى يصبحوا مؤهلين لملء المناصب المهمة في أجهزة الحكم في السودان ويستشهد في هذا الصدد بالشاب أحمد نجل الشرتاى ابراهيم قائلاً «عاد أحمد مؤخراً بعد إكمال المرحلة الدراسية المتوسطة بتقارير ممتازة تقول أنه أذكى الطلبة على الإطلاق ومن الواضح أنه صالح لمواصلة تعليمه في المراحل العليا. واشتهر أحمد في كل مكان باسم غريغ لأنه ولد في نفس الليلة التى وصل فيها الكولونيل غريغ مفتش زالنجي آنذاك لزيارة قريته وهكذا أطلق عليه والده ذلك الأسم تكريماً للزائر. وكان الشرتاى ابراهيم قد توفى خلال غيبتى في الحرب وظل منصبه شاغراً ولكن لحسن الحظ كان هناك أبن أخيه الذى يمكن أن يخلفه وهكذا يمكن لأحمد أن يتفرغ للدراسات العليا. ولكن أحمد احتج احتجاجاً شديداً على ذلك وادعى أننى أظلمه وأستهين به. ورددت عليه قائلاً (سيأتى يوم قد تصبح وزيراً وتذكرنى فيه). وبالفعل وصلت إلى الخرطوم في

شتاء عام ١٩٦٦ - أي بعد ١٩ عاماً - في زيارة لأصدقائي في السودان ومكثت هناك شهرين كاملين . وكان أول من توجهت لزيارته أحمد ابراهيم وزير العمل وهو أصغر الوزراء سناً وذو ذكاء خارق ويتحدث الانجليزية بطلاقة وكان قد واصل تعليمه في السودان ثم الجامعات البريطانية والألمانية» . وغني عن البيان أن أحمد ابراهيم الذى سبق ذكره هو السياسي السوداني أحمد ابراهيم دريج الذى تولى في الماضي عدا المناصب الوزارية منصب زعيم المعارضة البرلمانية في حقبة الستينات كما أصبح في ما بعد حاكماً لإقليم دارفور . وقد أصاب التحريف أسم المفتش البريطاني الذى أطلق عليه عند مولده فأصبح دريج بدلاً من غريغ .

وقد غادر هيو باوستيد السودان نهائياً في عام ١٩٤٩ ولا يعرف أحد سر عدوله عن الاستيطان في زالنجي أو الخرطوم التى اقتنى فيها مسكناً ومزرعة كبيرة في ضاحية شمبات شمالي الخرطوم . وبسبب تجاربه مع العرب وخبرته بشئون الشرق الأوسط عينته الحكومة البريطانية بعد مغادرته السودان مستشاراً مقيماً في حضرموت ثم المكلا حيث أمضى تسع سنوات أصبح بعدها مديراً للتنمية في سلطنة عمان لمدة ثلاث سنوات شهد خلالها إستيلاء السلطان قابوس على الحكم . ثم عين مقيماً سياسياً في أبوظبي وعاصر هنالك انتقال الحكم إلى الأمير زايد آل نهيان . وتوطدت أواصر الصداقة بين الاثنين وظل هيو باوستيد في أبوظبي إلى أن أحس بتقدم العمر فتقاعد وهو في السبعين وعاد إلى بريطانيا في عام ١٩٦٥ حيث أنعمت عليه الملكة اليزابيث بلقب سير وقام بجولة ألقى خلالها محاضرات في أمريكا . ثم استقر به المقام في نهاية المطاف في مدينة طنجة التى أختارها لقضاء ما تبقى من العمر . ولكن صديقه الشيخ زايد دعاه في عام ١٩٦٨ إلى أبوظبي للإشراف على خيوله فقبل الدعوة وبقى في حاشية الشيخ إلى أن وافاه الأجل في أبريل ١٩٨٠ بعد حياة حافلة بالمغامرات وعناصر الاثارة أمتدت منذ مولده في عام ١٨٩٥ في مزرعة الشاى التى يمتلكها والده في جزيرة سرنديب (سرى لانكا) .



أحمد محمد وإبراهيم عبود في ميدان القتال (١٩٤١م)

الفصل العاشر

قوة الدفاع مع الجيش الثامن في الصحراء الليبية

« تلك الصحارى غمد كل مهند أبلى فأحسن فى العدو بلاء
وقبور موتى من شباب أمية وكهولهم لم يبرحوا أحياء »



بقى السودان فى قلب دائرة الحرب بعد انتهاء العمليات القتالية فى اريتريا واثيوبيا باعتباره قاعدة برية وجوية وبحرية تابعة للقيادة الحليفة فى الشرق الأوسط التى كان حاكم عام السودان عضواً فى مجلسها وأصبحت قوة الدفاع السودانية من خلال ادائها الممتاز وممارساتها القتالية جيشاً يعول عليه فى اطار آلة الحرب البريطانية واستراتيجية الحلفاء بوجه عام فقد ارتقت فى تلك المرحلة القصيرة الى مستوى لم تبلغه فى تلك الحقبة أية قوة نظامية مقاتلة فى القارة الافريقية أو الوطن العربي . وعندما طرح أمام البرلمان البريطانى اقتراح يدعو الى الحاق ضباط افريقيين بالقوات المحاربة رفض وزير المستعمرات الاقتراح متذرعاً بأنه لا يوجد غير واحد أو اثنين من الضباط الافريقيين الأكفاء الذين وصلوا الي مستوى من التعليم يؤهلهم للعمل مع الجيش البريطانى . ورد سير دوغلاس نيوبولد السكرتير الادارى – الذى كان بمثابة رئيس وزراء السودان – بأن قوة الدفاع تضم حوالي اربعمائة من الضباط السودانيين الممتازين ومعظمهم من خريجي كلية غوردون التذكارية فى الخرطوم الذين يجيدون اللغة الانجليزية . وذكر نيوبولد أيضاً أن قوة الدفاع أصبحت جيشاً مدرباً كامل الاعداد بمدرعاتها وآلياتها ومدفعيتها ووحداتها الفنية مثل أسلحة المهندسين والاشارة . ولديها معهد فنى راق فى مدينة الأبيض تخرج منه فى غضون عامين فقط نحو سبعة آلاف من السائقين والميكانيكيين المدربين على خدمات الصيانة لسد احتياجات قوة الدفاع وخاصة سرايا البلوكات السريعة ووحدات المشاة التى تستخدم الناقلات العسكرية .

وبدأ التفكير منذ سقوط كرن فى الاستعانة بقوة الدفاع السودانية فى جبهات القتال خارج السودان وبالذات فى الصحراء الغربية ويرجع ذلك بالطبع الى أدائها فى اريتريا واثيوبيا الذى حاز اعجاب العديدين من القادة العسكريين ولكن كانت هناك أسباب أخرى بينها أن السودانيين مثل سكان الصحراء الغربية يتحدثون اللغة العربية ويدينون بالاسلام وأن السيارات المسلحة التى تستخدمها البلوكات السريعة تعتبر أنسب وسيلة للتنقل فى تلك الصحراء بفضل اطاراتها العريضة ذات الضغط المنخفض مما جعلها أقرب شئ لأخفاف الأبل صنعه الانسان . وقد عرفت الابل منذ فجر الخليقة بأنها سفينة الصحراء التى تعينها أخفافها الاسفنجية العريضة على السير فوق الرمال كما تمتاز فوق ذلك بصفات فريدة تمكنها من تحمل مشاق البيئة الصحراوية وهى صفات لا تعوز إيضاً الجندى السودانى . ولقيت فكرة ارسال الجنود السودانيين الى الخارج اعتراضاً شديداً من جانب الجنرال وليام بلات القائد العام لقوة الدفاع السودانية لأنه كان يعلم من معايشته للجندى السودانى أن السودانيين بوجه عام لا يصبرون على الابتعاد عن وطنهم ومفارقة أسرهم وأزواجهم مدة طويلة . وكان بلات لا يريد أن يصبح جنوده علفاً للمدافع فى ميادين القتال كغيرهم من جنود المستعمرات ولكنه وافق فى النهاية وتحت الحاح سير دوغلاس نيوبولد وآخرين على ارسال وحدات سودانية الى الصحراء شريطة أن يعاملوا على قدم المساواة مع الآخرين من جنود الجيش الثامن وخاصة فى ما يتعلق بالمؤن

والتعيينات . وفى الواقع أن نيوبولد كان شديد التعلق بالصحراء الغربية منذ مطلع حياته اذ حارب مع القوة الايطالية التى قضت على حركة المقاومة السنوسية . وعندما التحق بخدمة السودان فى ما بعد قام بجولة استكشافية فى الصحراء الغربية التى يقع جزء كبير منها داخل الحدود السودانية الشمالية .

وتقع الساحة الرئيسية للقتال فى جبهة الصحراء الغربية على الشريط الساحلى المطل على البحر الأبيض المتوسط حيث وضع المحور عينيه على مصر وقناة السويس . وكانت قيادة الشرق الأوسط الحليفة تدرك منذ دخول ايطاليا الحرب مدى الخطر الذى تشكله الحاميات الايطالية المنتشرة فى واحات الصحراء الغربية وفى مقدمتها واحة الكفرة التى تضم القوة الايطالية فيها وحدة عسكرية ميكانيكية مجهزة بسيارات مصممة خصيصاً للعمليات الصحراوية . وفى امكان الايطاليين من هذه الواحات تعطيل الخط الجوى من والى تاكورادى فى غرب افريقيا وبذلك يفقد الحلفاء الجسر الجوى الذى يعتمدون عليه لترويد قواتهم فى الشرق الأوسط بالامدادات القادمة من أمريكا . ولم يكن من المستبعد أيضاً أن يفكر الايطاليرن فى الزحف من واحة الكفرة على وادى حلفا الواقعة على النيل فى أقصى شمال السودان حيث ينتهى الخط الحديدى الممتد من داخل السودان وهو بالنسبة للقوات الحليفة فى شمال افريقيا كالوريد الذى يجرى الدم منه الى العروق كلها اذ تأتى عن طريقه المؤن والعتاد والامدادات من سائر انحاء العالم واذا أفلح الايطاليون فى قطع هذا الخط الحديدى عند حدود السودان الشمالية تصبح سائر القوات الحليفة فى الشرق الأوسط فى مأزق حرج للغاية . وظلت هذه المخاوف تؤرق السلطات السودانية والقيادة فى القاهرة الى أن قامت قوة فرنسية فى مارس ١٩٤١ باحتلال واحة الكفرة بعد عملية عسكرية جريئة تعد واحدة من أشهر المغامرات العسكرية المثيرة خلال الحرب العالمية الثانية اذ طوت القوة الفرنسية مسافة ألف ميل من فورت لامى (انجمينا) عبر دروب الصحراء الى أن بلغت واحة الكفرة وانضمت اليها فى الطريق وحدة من قوات الكوماندو البريطانية .

وسبقت احتلال الكفرة موجة من الاشاعات المثيرة للقلق تتحدث عن خطة ألمانية لاتخاذها نقطة انطلاق الى شرق افريقيا وغربها وصاحب تلك الاشاعات قيام السلاح الجوى الألمانى بعمليات استكشافية مكثفة فى المنطقة . وقد استسلمت حامية الكفرة للقوة الفرنسية فى فجر اليوم الأول من مارس ووقع فى الأسر ٣٥٠ من الجنود الايطاليين بأسلحتهم وبينها ٥٣ مدفعاً رشاشاً و٤ مدافع ميدانية . وتتألف واحة الكفرة من مجموعة من الواحات وتشغل مساحة طولها ٢٥ ميلاً وعرضها ١٥ ميلاً وفيها مخزون وافر من المياه وعدد من الآبار المالحة . ويبعد ساحل البحر الابيض المتوسط عن الكفرة مسافة ٧٠٠ ميلاً الى الشمال بينما تقع مدينة وادى حلفا على مسافة مماثلة الى الغرب منها . وتحيط بواحة الكفرة بحار عريضة من الرمال المتموجة المتنقلة التى تتخللها الصخور هنا وهناك . ولذلك تعتبر الكفرة أشد المناطق انعزالاً على وجه الأرض . ومع ذلك ظلت منذ زمان موغل فى القدم

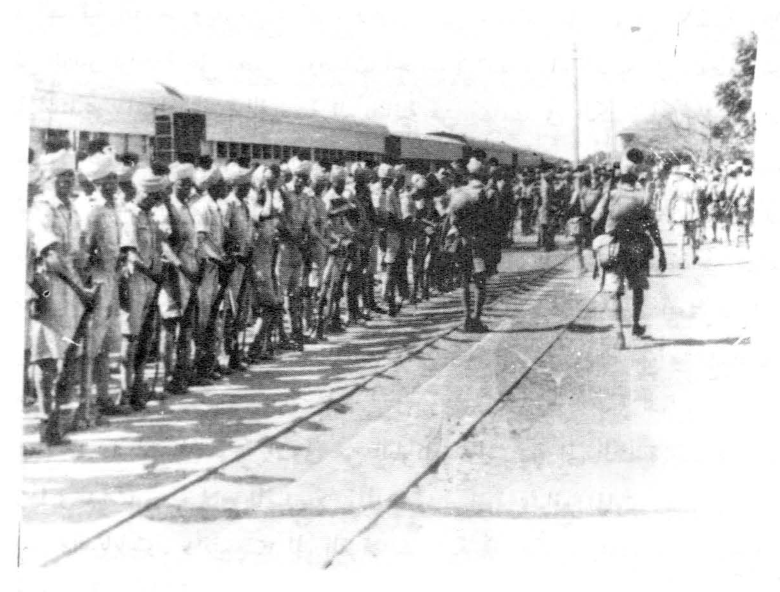


الملازمون

من اليمين إلى الشمال

محمود أبو سمره - محمد نصر عثمان - يوسف محمد سعيد

مع الجيش الثامن فى الصحراء الليبية



السرية السابعة من فرقة الهجانة تتأهب لاستقلال

القطار فى محطة الخرطوم إلى الصحراء الغربية

مورداً مهماً لترويد القوافل التجارية بالماء . وأقرب الواحات اليها هي واحة رزيانا على مسافة ٩٠ ميلاً غرباً وواحة جالو على مسافة ٣٥٠ ميلاً شمالاً ثم واحة سليمة الواقعة على مسافة ٤١٠ ميلاً شرقى الكفرة بينما تمتد من مسافة ٦٠٠ ميل الى الجنوب منها جبال تيبستى التى تصل أعلى قمة فيها الى ١٠ آلاف قدم فوق سطح البحر . وأول رحالة أوروبي قام بزيارة الكفرة هو الهر رولفس الألمانى الذى وصل اليها على ظهور الجمال فى عام ١٨٧٩ وأوشك أن يلقى حتفه على أيدى الأهالي قبل أن يهرب ناجياً بجلده . ثم جاء بعده رحالة آخرون بينهم الرحالة المشهورة روزيتا فوربس . وكانت تقطن الكفرة فى ذلك العهد قبيلة تيبو الزنجية التى هاجرت اليها من غرب افريقيا أما سكانها اليوم فهم خليط من العناصر العربية والافريقية والبربر .

وظلت الكفرة – مثل واحة سيوة – منتجعاً مقدساً لدى السادة السنوسيين وأتباعهم واتخذوها معقلاً لمقاومة الاحتلال الايطالي الى أن قررت ايطاليا فى عام ١٩٣١ تأمين امبرطوريتها فى الشمال الافريقى فوجهت الى الكفرة حملة عسكرية مزودة بالطائرات والمدافع والمركبات الآلية . وبطش الايطاليون يومذاك بالسنوسيين وأتباعهم فى وحشية بالغة وطردوهم من الكفرة فهاموا على وجههم فى الصحراء وهلك عشرات الالآف منهم ظمأ وجوعاً فى غياهبها .

وبقيت القوة الفرنسية فى الكفرة بعد احتلالها ورفع العلمين البريطانى والفرنسى فوق طابيتها والمنشآت الأخرى كالمطار الذى شيده الايطاليون بينما اتخذت وحدات الكوماندو البريطانية المدربة على العمليات الفدائية الصحراوية من الكفرة قاعدة لشن غاراتها علي المواقع الألمانية والايطالية وأطراف جيوش العدو الزاحفة على مصر . ووصلت الحرب فى الصحراء الغربية الى منعطف خطير فى تلك الآونة مما استدعى اعفاء القوة الفرنسية البريطانية من مهامها فى الكفرة لكي تلحق بالجيش الثامن الذى حمل أعباء الدفاع عن الأراضى المصرية . وهكذا نبعت الحاجة الى الاستعانة بقوة الدفاع السودانية على حراسة الكفرة بدلاً من القوة الفرنسية البريطانية مع امكانية تكليفها فى المستقبل بحراسة المطارات والمنشآت الأمامية فى الصحراء الغربية . ولم تستبعد القيادة الحليفة فى القاهرة الى جانب ذلك امكانية مساهمة وحدات سودانية فى القتال الفعلي . وازاء ذلك أمرت المجموعة الأولي من البلوكات السريعة السودانية فى ابريل ١٩٤١ بالانتقال من غوندار التى كانت على وشك السقوط فى أيديها الى واحة الكفرة عن طريق وادى حلفا .

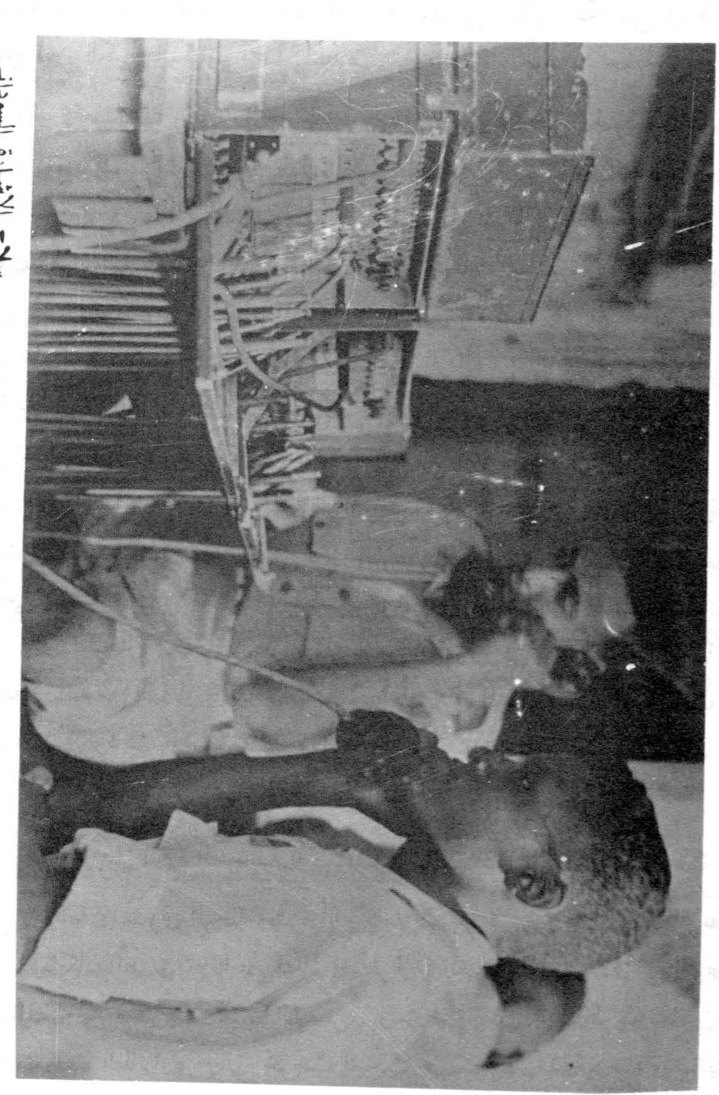
وفى يوليو ١٩٤١ وصلت المجموعة الأولى من البلوكات السريعة الى الكفرة بقيادة الأميرالاى براون بك تعززها وحدات من سلاح المهندسين والمدفعية المسلحة بمدافع الهاوتزر عيار ٣٫٧ ومدافع مضادة للطائرات والدبابات . وانضمت الى القوة السودانية فى الكفرة وحدة من المدفعية التابعة لجنوب افريقية وسرية بريطانية . ووضعت جميع هذه القوات تحت قيادة الأميرالاى براون .

وكان انتقال القوة السودانية من وادى حلفا عبر الصحراء تجربة قاسية ومحكاً لايرحم لاختبارات مدى كفاءة وقدرات سلاح الخدمة السودانى وهو تشكيل حديث العهد لم يكن له وجود قبل اندلاع الحرب وكان يتولى قيادته انذاك القائمقام لونزديل ونائبه البكباشى ابراهيم عبود ومن ضباطه السودانيين الكبار البكباشى عبد اللطيف الضو والرائد يوسف حمد النيل .

وقد وقعت على عاتق سلاح الخدمة مهمة الادارة وترحيل الجنود وعتادهم ومؤنهم بما فى ذلك الماء والوقود للسيارات . ويبلغ طول الطريق بين الكفرة ووادى حلفا حوالي ستمائة ميل عبر صحراء قاحلة موحشة وصفها ضابط بريطانى بأنها جحيم من الرمال وحرارة الشمس المحرقة ولا يستطيع أى مخلوق الحياة فيها باستثناء الذباب الذى تنطلق جحافله مع شروق الشمس ويصبح أى طعام هدفاً مغرياً لها . ومن النادر أن يبتلع المرء فى تلك الصحراء لقمة غير مصحوبة بذبابة أو ذبابتين . وليس أدل على لؤم الطبيعة وقسوة الحياة فى « جحيم الرمال » من أن الجربوع – فأر الصحراء – لا أثر له البتة ولا أثر كذلك للنبات على طول الطريق بين الكفرة وحلفا باستثناء أشجار النخيل فى واحة سليمة التى تشرئب فوق الأرض وكأنها أعمدة خاوية فى معبد مهجور . وعلى جانبي الطريق تلال صخرية مثل البثور على وجه مجدور وتتخللها خيران صغيرة يابسة متحجرة وأكوام من رفات الابل النافقة فقد كانت تلك الخيران وما حولها مرعى لأبل القوافل التجارية فى قديم الزمان ثم جفت الخيران واندثرت المراعي بسبب تحول الأمطار الى جهات أخرى . ويتحدث الرحالة المستكشفون الذين زاروا المنطقة عن جذوع أشجار متحجرة فى مواقع قريبة من الكفرة وعن حيوانات قشرية مائية متحجرة بالاضافة الى قطع بالية من الفخار وكلها مخلفات تنبئ بأن هذه المنطقة الصحراوية كانت مأهولة ومعمورة قبل آلاف السنين وكانت أرضها خصبة وماؤها وفير بل هناك اعتقاد سائد بين سكان الواحات بأنها المنطقة التى غمرها الطوفان فى عهد نوح عليه السلام .

وجرى ترحيل القوة السودانية بأكملها وبمؤنها وعتادها الى الكفرة على هيئة قوافل يقودها ضباط سلاح الخدمة وتستغرق الرحلة عشرة أيام كاملات يصرف خلالها لكل رجل نصف جالون من الماء يومياً . ولما كان الطريق خالياً من المعالم اضطر قادة القوافل الى الاعتماد على البوصلة الشمسية وبالتالى الى التوقف عن السير بعد مغيب الشمس . وقد ضل بعض الضباط البريطانيين الطريق مرات كثيرة واهتدت اليهم الطائرات – التى خرجت للبحث عنهم – بعد مشقة وعناء ونجوا بذلك هم ومن معهم من الهلاك فى البيداء .

ومنذ وصول القوة السودانية الى الكفرة طغى على سكانها شعور بالابتهاج والارتياح فقد عانوا سنوات طويلة فى ظل الاحتلال الايطالي ولم تكن القوة الفرنسية التى خلفت الايطاليين بأحسن حال منهم . وقد ظل أهل الكفرة منذ قدوم القوة الفرنسية فى خوف دائم على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم



سلاح الإشارة السوداني
في الصحراء الغربية

من جراء سلوك رجالها الذين كان معظمهم من سكان المستعمرات الفرنسية . ووجد أهل الكفرة تحت حماية السودانيين الأمن والأمان وتوارت كل مخاوفهم السابقة .

وكان الايطاليون قد شيدوا طابية فوق الجبل الذى يتحكم فى سائر أنحاء الواحة ويتوسط فناء الطابية نصب من الأسمنت عليه شعار الفاشيست وكلمات باللغة اللاتينية تخليداً لذكرى انشاء هذه المحطة النائية فى نطاق امبرطورية كانت آنذاك فى طريقها الى الاندثار . وأصبحت هذه الطابية العتيقة المقر الرئيسى للحامية فى عهد الايطاليين ثم الفرنسيين ومن بعدهم القوة السودانية . ووضع الأميرالاى براون فور تسلمه قيادة الحامية خطة دفاعية ذات شقين احداهما للدفاع المستقر والأخرى للدفاع المتحرك وتركزت أولاهما حول الطابية والمرتفعات المجاورة لها وأسند أمرها لوحدة المدفعية السودانية والسرية البريطانية وفصيلة فرنسية . وطلب الأميرالاى براون من الجنود فى أول أمر صادر اليهم الصمود حتى آخر رجل وآخر رصاصة وقد انضمت اليهم بعد فترة قصيرة سرية تابعة لسلاح الحدود . أما تشكيل الدفاع المتحرك فقد كان مؤلفاً من البلوكات السريعة ووحدات من سلاحي المهندسين والمدفعية وجرى توزيع هذه القوة الدفاعية المتحركة على مواقع مختلفة فى واحة الكفرة يتوسطها موقع ترابط فيه المدفعية المزودة بمدافع الهاوتزر بينما احتلت سرية من البلوكات السريعة موقعاً على الطرف الغربي بالقرب من المطار .

وتتلخص مهام هذه القوة الدفاعية المتحركة فى مضايقة قوات العدو البرية بكل ما تملك من قوة مستفيدة الى أقصى حد ممكن من قدراتها على الحركة السريعة الخاطفة . وأعدت لها فى حالة اضطرارها للانسحاب من الكُفرة قاعدة بديلة فى موقع على مسافة ٥٠ ميلاً شرقى الكُفرة فيه كميات احتياطية من الذخيرة والمؤن والوقود داخل مخابئ سرية . ومن مهامها أيضاً احباط أى هجوم من جانب العدو يقوم به الكوماندو أو جنود محمولون على الطائرات .

وتتمثل الأخطار المباشرة التى تهدد الكُفرة آنذاك فى الغارات الجوية أو قيام العدو بهجوم برى عليها مستخدماً وحدات الكوماندو والمظليين . وتعاظمت المخاوف من هذه الأخطار نتيجة لعمليات رجال الكوماندو البريطانيين التى أقضت مضاجع العدو الى حد جعله يفكر فى القيام باجراء مضاد ونتيجة أيضاً لاكتمال عقد الجيش الألمانى على الشريط الساحلي الليبي . وقد دفع كل ذلك قيادة حامية كُفرة الى وضع مجموعة من الجنود السودانيين فى كل من واحتى تازيربو وزجين لتكونا بمثابة أداة للانذار المبكر وذلك كاجراء احتياطي لاتقاء الأخطار المتوقعة . وتقع واحة تازيربو على مسافة ١٢٠ ميلاً شمالي الكُفرة وهي كبيرة نسبياً وتليها على بعد ٤٠ ميلاً تقريباً واحة زجين وهي أصغر حجماً وفيها عدد قليل من أشجار النخيل ولكن أهميتها تكمن فى أنها أقرب المواقع لواحة جالو التى أصبحت المعقل الرئيسى للمحور فى قلب الصحراء الغربية ويمكن أن ينطلق منها الهجوم المنتظر ضد الكُفرة .

ولم يكن أمام الأميرالاى براون طيلة الفترة الباقية من عام ١٩٤١ خيار سوى الاقتصار على موقف الدفاع اذ لم يتيسر له تخزين أى قدر يعتمد عليه من الوقود والذخيرة وغير ذلك من الامدادات التى تتطلبها العمليات الهجومية . وحسب سلاح الخدمة بقوافله (كونفوى) التى تأتى مرة واحدة كل اسبوع من وادى حلفا ترحيل ما يكفى الحامية لمباشرة مهامها الدفاعية من يوم ليوم . غير أن وحدات الكوماندو البريطانية التى اتخذت من الكُفرة قاعدة لها كانت أسعد حالاً لأن قائدها الكولونيل رالف باغنود رحالة متمرس له خبرة واسعة بالصحراء الغربية اكتسبها من خلال عمله قبل الحرب فى مسحها وقام خلال ذلك باخفاء كميات من الماء والامدادات فى مستودعات سرية فى مواقع مختلفة لم يصعب الاهتداء اليها ووجدت محتوياتها فى حالة جيدة وصالحة للاستعمال . وعندما تخلى الكولونيل باغنود عن قيادة وحدات الكوماندو البريطانية هذه خلفه الكولونيل برندرغارست وهو من ضباط قوة الدفاع السودانية .

وعلى عكس ما توقعته قيادة الحامية اكتفى العدو بشن غاراته الجوية على الكُفرة بين حين وآخر ولم يقدم على شن هجوم برى لاستردادها . وكانت الغارات الجوية غير فعالة وذات أثر محدود للغاية . وفى كل مرة كانت المدفعية السودانية تستقبل الطائرات المغيرة بنيرانها المكثفة وتردها على أعقابها قبل أن تتمكن من القاء قنابلها فى معظم الأحيان . ومع مرور الأيام والليالي ورتابة الحياة فى المعسكرات وسط الصحراء أخذ الشعور بالملل يدب فى نفوس الجنود السودانيين وهم الذين قطعوا الفيافى والقفار متعطشين للقتال وخوض المعارك لا البقاء داخل المعسكرات . وسرعان ما استبد بهم الحنين الى الأهل والوطن وهكذا صدقت توقعات الجنرال بلات حين قال ان السودانيين لا يطيقون الابتعاد عن أهلهم وأزواجهم مدة طويلة . وقد أضرب جنود السرية التابعة لسلاح الحدود بعد شهرين من وصولهم واعتصموا بمعسكرهم احتجاجاً على التسويف فى منحهم العطلة التى وعدوا بها لقضائها فى السودان . وبعد أيام قليلة ولنفس الأسباب أضربت وحدة سودانية أخرى واعتصمت داخل معسكرها أيضاً . ومثل هذا التصرف يعتبر فى العرف العسكرى تمرداً صريحاً لا يليق بقوة الدفاع السودانية التى عرفت بالانضباط والنظام ومن شأنه أن يشوه الصورة المشرقة التى ارتسمت فى الأذهان للمقاتل السودانى من خلال أدائه الممتاز فى ميادين القتال فى اثيوبيا واريتريا . ويبدو أن السودانيين ورثوا فى ما ورثوه عن أسلافهم العرب تلك النوبات الكاسحات من المتناقضات التى تعتريهم بالجملة فهم –كما قال لورنس العرب– أناس من سماتهم التهايج والثوران ويستندون فى قناعاتهم على الغريزة ويصدرون فى تصرفاتهم عن البداهة باعتبارها الوسيلة المثلى لادراك القيم والمثل الأخلاقية . وما من شك فى أن الجنود السودانيين فى الكُفرة لم يحالفهم التوفيق فى التعبير عن احتجاجهم . وليس من الانصاف أن يرى الناس فى ذلك تناقضاً مع الصفات والسجايا التى تميز الجندى السودانى بها فى ميادين القتال لأن تلك الصفات والسجايا ليست لدى التحليل الدقيق سوى تجسيد لالتصاق السودانى بالوطن والأرض

والعرض والعشيرة الى درجة لا يتحمل فيها الاغتراب مدة طويلة . ولابد من أن يشفع للجنود السودانيين فى الكُفرة من ناحية أخرى أن ما أقدموا عليه كان رد فعل نجم عن تجربتهم فى اثيوبيا واريتريا التى جعلت من الصعب عليهم التمييز بين حرب طويلة الأمد والعمليات العسكرية التى على مستوى الدورية . ويشفع لهم ثانياً انهم يستحقون بعد المعارك الطاحنة التى خاضوها فى صدق وثبات عطلة يقضونها فى أرض الوطن لا سيما أن معظمهم لم يروا أهلهم وأزواجهم منذ تجنيدهم فى مطلع عام ١٩٤٠ . وهذه حقيقة كان يتعين على المسئولين فى الخرطوم ادراكها وقد نبههم اليها الجنرال بلات منذ البداية وكان يتعين عليهم أيضاً ألا يغفلوا عن جانب ظاهر فى طبائع السودانيين وخصائلهم ويتمثل فى استيائهم من المماطلة والتسويف فما من شئ أشد منهما اثارة لحفيظة الرجل السودانى جندياً كان أم مدنياً . وعلى أية حال مرت الزوبعة دون أن تثير غباراً كثيراً اذ كان المسئولون حريصين على اخفاء ما وقع فى الكُفرة عن أعين واسماع العدو خوفاً من أن تتلقفه أجهزة الدعاية المعادية وتتخذه وقوداً لحملاتها .

وقد أعيد جنود سرية سلاح الحدود المضربون من الكُفرة إلى أتبرا فوراً حيث قدموا إلى محكمة عسكرية كما أتخذت اجراءات ميدانية مماثلة ضد الجنود المضربين الآخرين .

وبحلول شهر مايو (١٩٤٢) كانت كل المؤشرات تؤكد بأن الجنرال روميل قد أكمل إستعداداته جواً وبراً وبحراً لتوجيه الضربة القاضية التى سوف تنهى الجيش الثامن إلى الأبد ويصبح الطريق بعدها مفتوحاً أمام المحور عبر قناة السويس إلى آبار البترول في العراق وايران . وأخذ الوضع العسكرى للحلفاء يتدّهور تدهوراً شديداً بحلول آخر مايو وتقدمت قوات روميل إلى العلمين داخل الحدود المصرية بعد اختراقها خط الغزالة واسترجاعها مدينة طبرق . وهكذا أصبحت على مسافة أقل من مائة ميل من الاسكندرية بينما وصلت طلائع تلك القوات على المحور الجنوبي من الجبهة إلى مسافة سبعين ميلاً فقط من العاصمة المصرية . وازاء هذا الخطر المحدق ساد الاضطراب القاهرة وغمرت المتعاطفين مع المحور موجة من الفرحة والابتهاج وخرج الفاشيون منهم إلى الطرقات في القاهرة والاسكندرية بقمصانهم السوداء وشاراتهم المميزة استعداداً لاستقبال الدوتشي الذى بشرهم بدخوله القاهرة على صهوة جواد أبيض في مقدمة موكب من جيشه الفاتح وقال لهم أن مصر ستدين له مثلما دانت من قبل لنابليون والاسكندر المقدوني أشهر الغزاة الفاتحين في التاريخ . وأدلى الملك فاروق الذى أصبحت العلاقات فاترة بينه وبين البريطانيين بتصريح ألهب المشاعر الوطنية قال فيه أن الانجليز سمحوا لقوات المحور بالتقدم إلى داخل الأراضى المصرية لكى يفرضوا مزيداً من سيطرتهم على مصر . ومن ناحية أخرى التجأت طائرتان من السلاح الجوى المصرى إلى العدو في الصحراء الغربية ونتيجة لذلك منعت السلطات البريطانية تزويد الطائرات المصرية بالوقود وأجبر تدهور الوضع العسكرى وحدات الكوماندو البريطانية على الجلاء من قاعدتها في واحة سيوة المصرية بعد أن أحتلتها

مجموعة من الشبان الفاشيين الايطاليين الذين جئ بهم إلى هناك خصيصاً للاشتراك في موكب النصر الموعود .

وهربت السفارة اليونانية بكاملها من القاهرة عن طريق البحر إلى جنوب افريقيا ومعها جميع اليونانيين الذين هربوا إلى مصر بعد استيلاء الجيش الايطالي على اليونان . وقامت السفارتان البريطانية والأمريكية والقيادة الحليفة في القاهرة بحرق ملفاتها ووثائقها خوفاً من وقوعها في يد العدو كما انتقل المقر الرئيسى للإمدادات العسكرية البريطانية للشرق الأوسط ووزير الدولة البريطاني المقيم في القاهرة إلى فلسطين . وأصدر القنصل العام تعليمات إلى الرعايا البريطانيين ليكونوا على أهبة الاستعداد لمغادرة الأراضي المصرية .

وهرع ونستون تشرشل والجنرالان سمطس والكسندر إلى القاهرة لانقاذ ما يمكن انقاذه وترتب على ذلك إجراء تغيير جذرى في هيكل القيادة الحليفة العليا في القاهرة حيث أسند منصب قائد الجيش الثامن للجنرال مونتغمرى ووضعت في الوقت نفسه خطة للقيام في آن واحد بأربع عمليات فدائية وراء خطوط العدو لتخفيف الضغط على القوات الحليفة المدافعة وذلك بتعطيل خطوط الإمدادات المحورية الرئيسية على ساحل البحر الأبيض المتوسط وصرف أنظار الجنرال روميل مؤقتاً عن مواصلة زحفه أو جره – على الأقل – إلى تحويل جزء من قواته المحتشدة في العلمين إلى ما سوف يحسبه جبهة أخرى جديدة . وأستقر رأى العسكريين على أن تستهدف تلك العمليات الفدائية طبرق وبنغازى ومطار المرج الواقع على بعد ٥٠ ميلاً إلى الشرق من بنغازى – وواحة جالو التى تقع على مسافة ٣٠٠ ميل إلى الجنوب من بنغازى . واستقر الرأى كذلك على إتخاذ الكُفرة قاعدة للعمليات الأربع وأسند للحامية السودانية فيها القيام بتنفيذ العملية المقررة ضد الحامية الايطالية في جالو . ولم تكن هذه العملية فدائية بحتة كالعمليات الأخريات التى تقتصر على القيام بأعمال تخريبية وتحرير الأسرى البريطانيين ثم الانسحاب بعد ذلك اذ كان المطلوب من القوة السودانية احتلال جالو والبقاء فيها لتأمين عودة القوات الأخرى من طبرق وبنغازى والمرج إلى الكُفرة بعد الفراغ من العمليات الفدائية المكلفة بها . ولما كان الطريق بين الساحل والكُفرة يمر على مسافة أميال قليلة من جالو فان وجود قوة معادية فيها سوف يمكن الايطاليين من قطع الطريق أمام القوات العائدة إلى الكُفرة .

وأحيطت الخطة بسياج من الكتمان لضمان عنصر المباغتة الذى يتوقف عليه نجاح العمليات الفدائية . ولم تكشف القيادة في القاهرة عن سر الخطة إلا لعدد قليل جداً من كبار العسكريين . ولكن لم يمض وقت طويل حتى تسرب قدر كبير من المعلومات عنها إلى عدد غير قليل من الناس . ففى الاسكندرية راح جندى مخمور من البحرية البريطانية يتفاخر وسط مجموعة من رواد حانة عامة بأنه سيذهب عما قريب إلى طبرق مع قطع البحرية البريطانية التى ستبحر إلى هناك لإلتقاط الأسرى

البريطانيين الذين سيتم تحريرهم على يد وحدة الكوماندو . وفي بيروت أصيب ضابط فرنسى من أنصار دى غول بدهشة بالغة عندما أكتشف أن السقاة في حانات الفنادق هناك يعرفون الكثير من تفاصيل خطة العمليات المزمعة وراء خطوط العدو في الصحراء الغربية . ومن المتفق عليه في تلك الأيام أن السقاة في حانات بيروت ليسو موضعاً للثقة وبينهم كثيرون من عملاء أجهزة الجاسوسية المحورية . ويقول ضابط بريطاني من قوة الدفاع السودانية كان على مقربة من مجرى الأحداث «أن إجراءات الأمن في القاهرة لم تكن صارمة وهذا أقل ما يمكن أن توصف به وكانت المناقشات تجرى في العلن ودون تحفظ حول الخطة والغرض منها وكيفية تنفيذها . وما من شك في أن آذان مخابرات العدو الطويلة قد التقطت كل ذلك» وكانت القاهرة وبيروت خلال الحرب العالمية الثانية زاخرة بشبكات الجاسوسية من كل لون وخاصة في الحانات والملاهى . ولكن من المرجح أن الثغرة الخطيرة التى تسربت أسرار الخطة من خلالها لم تكن نتيجة للغط الدائر في القاهرةوبيروت وأنما كانت – حسب الاتفاق السائد – نتيجة لإلتقاط الألمان برقية لاسلكية أمريكية صادرة من جهة ما في القاهرة إلى واشنطون . وتحوى البرقية تفاصيل الخطة . ويبدو أنها كانت برقية عادية أو بأدنى رتب الشفرة التى لم يجد الألمان عناءً كبيراً في فك رموزها . وعلى أية حال كانت ثمة دلائل كثيرة توحى بأن العدو أصبح على علم بالغارات الأربع المزمعة وأتخذ إجراءات عديدة لمجابهتها . وتجمعت القوات المطلوبة لتنفيذ العمليات الأربع خلال فترة قصيرة من الزمن في معسكرات بين أشجار النخيل في واحة الكُفرة وتضم تلك القوات بالإضافة للقوة السودانية وحدات من الكوماندو البريطانيين بقيادة الكولونيل بادى مين ووحدة فرنسية ومجموعة صغيرة من اليهود الألمان الذين كلفوا بالقيام بدور رئيسى في الهجوم على طبرق متنكرين تحت الزى العسكرى الألمانى ويتمثل دورهم في إيهام مواقع الحراسة الألمانية بأنهم رأس الرمح لقوة كبيرة فى طريقها لنسف مستودعات الوقود ومنشئات الميناء وتحرير الأسرى الذين ستصل سفن بريطانية في وقت مناسب لنقلهم . وقد منيت هذه العملية بفشل ذريع .

وانهمك الفنيون الميكانيكيون في الكُفرة ومعظمهم من رجال قوة الدفاع في إصلاح وإعداد الشاحنات وغيرها من المركبات العسكرية التى كان بعضها في حالة يرثى لها من جراء الرحلة الطويلة من وادى حلفا وقد ضلت بعضها الطريق وخرجت الطائرات البريطانية للبحث عنها . ومن ناحية أخرى أنشغل الفنيون في وحدات المهندسين بتحضير القنابل وغيرها من المفرقعات بينما أنكب آخرون على تحضير الخرائط ودراستها . وظلت تصل إلى الكُفرة خلال الفترة بين اكتوبر ونوفمبر من عام ١٩٤٢ كميات هائلة من الذخيرة والوقود وغير ذلك من الإمدادات اللازمة للعمليات الفدائية المزمعة كما وصلت إلى الكُفرة أيضاً سريتان من سلاح الهجانة لتعزيز القوة السودانية المكلفة بالهجوم على واحة جالو . وقبيل يوم ١٥ نوفمبر الذى حدد موعداً لإكمال سائر الإستعدادات جرى تنوير الجنود

والضباط بالعمليات المزمعة ولم يكونوا على علم بها حتى تلك المرحلة باستثناء كبار الضباط .

وفى الموعد المحدد تحركت القوات من الكُفرة لتنفيذ العمليات الفدائية الأربع وتزامن ذلك مع هجوم الجيش الثامن ضد قوات روميل على الشريط الساحلى وكانت القوة السودانية مؤلفة من ثلاث كتائب قوامها ألف مقاتل من الهجانة والبلوكات السريعة وأسلحة المهندسين والاشارة والخدمة والمدفعية . ولم يكن أمام الكتائب الثلاث سوى طريق واحد تسلكه إلى هدفها الواقع على مسافة ٣٥٠ إلى الشمال من الكُفرة . ويبدأ هذا الطريق من الكُفرة مخترقاً منطقة صحراوية قاحلة ذات رمال ناعمة فى لون حبات القرنفل وتنتشر فيها صخور سوداء مختلفة الأحجام والأشكال ويلى ذلك ما يعرف بأسم « بحر الرمال » وهو عبارة عن بيداء من الرمال العميقة المنبسطة على مد البصر لا يكسر رتابتها شئ سوى كثبان متراصة أو متفرقة يصل ارتفاع بعضها إلى مئات الأقدام وتبدو وكأنها أضلاع صدر مارد معروق أضناه السرى وبراه الهجير . ولكى توفر القوة السودانية على نفسها مشقة عبور بحر الرمال اتجهت لدى خروجها من الكُفرة إلى واحة زجين التى ترابط فيها حامية سودانية صغيرة . وتحتل هذه الواحة موقعاً يتقلص عرض بحر الرمال فيه إلى نحو عشرين ميلاً فقط مما يجعل من السهل إلى حدٍ ما عبوره إلى الجانب الآخر . ورغم ذلك كانت الرحلة إلى واحة جالو شاقة ومضنية . وكان من المألوف خلالها أن تغطس الشاحنة التى تسير فى المقدمة فى الرمال فجأة ودون سابق انذار ثم تتعثر الشاحنة إلى أن تتوقف عن المسير وقد غاصت حتى محاور عجلاتها وتتوقف السيارات والمركبات السائرة وراءها . ولا جدوى فى مثل هذا المأزق من تشغيل محرك الشاحنة المتوحلة لأن عجلاتها تكتفى بالدوران حول نفسها بلا هدى كالدجاجة الذبيحة التى فقدت رأسها وتغوص العجلات إلى أعماق أبعد فى باطن الأرض . ولا مخرج من المازق إلا بحفر الأرض بالمجارف لانتشال الشاحنة ثم بسط حصيرة خشبية معدنية لتسير الشاحنة فوقها أو تجر بالحبال إلى أرض ثابتة . وكان السائقون قد تعلموا من خلال تجاربهم وتدريبهم في المعهد الفني العسكرى فى الأبيض أن من الممكن تخطى الكثبان الرملية التى تعترضهم عن طريق المراوغة ومضاعفة السرعة . وجرت العادة عندما تعترض الكثبان الطريق أن تنبرى سيارات الجيب إلى المقدمة ثم تسير الشاحنات الثقيلة وراءها وكأنها أفيال مذعورة بسبب دوى محركاتها وما تثيره من غبار . ومن النادر أن تعبر السيارات تلك الكثبان بسلام فقد يتردد السائق فجأة وفى اللحظة الحاسمة لسبب أو آخر وهو فى منتصف الطريق فتغوص الشاحنة حتى شوشتها فى الرمال . وهكذا تبرز مرة أخرى المجارف والحصائر والحبال لإنتشال الشاحنة المنكودة إلى بر الأمان .

وربما يصبح عامل السرعة غير محمود العواقب فى بعض الأحيان لإجتياز الكثبان وخاصة فى حالة سيارات الجيب لأن بعض الكثبان ينحدر فى جانبه الآخر على زاوية حادة من ارتفاع شاهق فاذا مابلغت السيارة المنطلقة قمة الكثيب فانأقرب الاحتمالات أن تهوى إلى القاع من أرتفاع يصل

فى بعض الأحيان إلى خمسين قدماً فى قفزة يحسدها عليها حملة الرقم القياسى فى القفز وتنتهى المأساة باستقرار السيارة فى القاع وقد انكفأت راساً على عقب .

ومرة أخرى تجلت عبقرية الجندى السودانى ومزاياه الفريدة – التى ليس أقلها الصبر وتحمل الشدائد – فى الطريق الى جالو وما ضر الجندى السوانى أن يضمخ الرمال بعرقه ودمائه فى سبيل حرية الانسان وهو الذى شق طريقه عنوة واقتساراً الى شجرتها فى منبتها الوعر على قمة الجبال فى اثيوبيا فارتوت الشجرة من عرقه ودمائه حتى اخضرت واستقام عودها .

وفى جالو وجدت القوة السودانية الحامية الايطالية فى انتظارها فقد كانت على علم بمقدمها أسوة بالمواقع الأخرى – بنغازى وطبرق والمرج – وكان الجنود الايطاليون مرابطين فى جالو بمدافعهم الرشاشة وراء حقول الألغام التى زرعوها بدقة وأحكام . وبالرغم من ذلك انقضت القوة السودانية على العدو واستولت على معظم المواقع فى الواحة ثم قامت سرية من الهجانة فى الفجر باقتحام الطابية . ودار اشتباك حامى الوطيس تبادل الطرفان فيه الرمي بالقنابل اليدوية والأعيرة النارية من الغرف وسقوف مبانى الطابية كما استخدمت الأسلحة البيضاء . ويروى اللواء عوض عبدالرحمن صغيرون أحد الضباط السودانيين الذين اشتركوا فى المعركة وكان آنذاك برتبة الملازم – يروى أن المعركة داخل الطابية بدأت منذ الرابعة صباحاً . وقد استولى الجنود السودانيون على الطابية فى المرحلة الأولى منها ولكنهم اضطروا الى التراجع فى النهاية بينما استمرت المدفعية فى رجم الطابية بقذائفها . ثم ظهرت طائرات العدو وراحت تمطر الجنود السودانيين بقنابلها ومدافعها الرشاشة . وتمكنت المدفعية من اسقاط طائرتين الا أن خسائر القوة السودانية فى الأرواح فى ذلك اليوم كانت كبيرة .

وبعد أربعة أيام عاود رجال الهجانة الهجوم على الطابية بمساندة المدفعية ولكن قبل احتدام القتال وصلت برقية من القيادة العليا فى القاهرة بتعليق عملية الهجوم على جالو واحتلالها الى أجل غير مسمى . وطلبت القيادة فى برقيتها من القوة السودانية العودة الى قاعدتها فى الكُفرة . واجتاحت الجنود السودانيين صدمة مريرة من جراء البرقية بعد كل الاستعدادات والجهد الشاق الذى بذلوه منذ خروجهم من الكُفرة وبعد أن تشبعت نفوسهم بالأمل فى انتصار ساحق بعد معركة تطفئ تعطشهم للقتال منذ أمد طويل . ولكن تأجيل الاستيلاء على جالو كان نتيجة حتمية للانتصارات الساحقة التى حققها الجيش الثامن بقيادة الجنرال مونتغمرى على الشريط الساحلى وتراجعت القوات المحورية أمامه تراجعاً شاملاً ورأت القيادة العليا الحليفة ازاء ذلك أنه لا مبرر لتعريض القوة السودانية لمزيد من الخسائر وأن حامية العدو فى جالو سوف تستسلم لامحالة فى المستقبل القريب يضاف الى ذلك أن الهجوم على جالو أدى الغرض المطلوب اذ دفع الجنرال روميل الى تحويل كتيبتين كاملتين وستة أسراب من طائراته من الجبهة الرئيسية على الشريط الساحلى بعد أن دخل فى روعه أن ثمة قوة حاشدة فى الطريق لمداهمته من ناحية الجنوب عبر الصحراء لا مجرد قوة سودانية صغيرة مغامرة. وما من شك فى

أن القوة السودانية باستيلائها على معظم المواقع فى واحة جالو ومحاصرة حاميتها داخل الطابية قد ضمنت تأمين طريق العودة للقوة البريطانية التى توجهت الى بنغازى والتى وصلت الى مشارف جالو فى طريق عودتها للكُفرة فى نفس اليوم الذى وصلت فيه برقية القيادة العليا من القاهرة . وقد منيت هذه القوة البريطانية بفشل ذريع فى مهمتها ولم تفلح فى اجتياز نقاط المراقبة الى داخل بنغازى ولحقت بها خسائر فادحة فى الأرواح وظلت طائرات العدو تلاحق من بقى من رجالها فى جوف الصحراء الى أن وصلوا الى جالو واستجاروا بالقوة السودانية . وقداضطرت القوة البريطانية الى التخلى عن ٢٥ من جرحاها عند الجبل القريب من مدينة بنغازى وكان مصيرهم الوقوع فى الأسر . ويقول بريان ديلـلون أحد ضباط القوة البريطانية المذكورة « لدى وصولنا الى جالو فى طريق العودة الى الكُفرة اختلطنا مع رجال قوة الدفاع السودانية الذين أفلحوا فى الاستيلاء على الواحات الواقعة خارج حرم الطابية ولم يبق لدينا آنذاك ومنذ اسبوع مما نعيش عليه سوى نصف ما يسد الرمق من البسكويت واللحوم المعلبة وكمية ضئيلة جداً من الماء » . وبعد فترة استجمام قصيرة واصلت القوة البريطانية المسحوقة مسيرتها الى الكُفرة مع القوة السودانية .

ويروى بريان ديلـلون واقعة حدثت فى الطريق هى فى الحقيقة واحدة من تلك الوقائع الاسطورية المثيرة التى جعلت الجندى السودانى موضعاً للثناء والاعجاب . يقول بريان ديلـلوث « انقلبت الشاحنة التى كانت منطلقة أمام سيارة الجيب التى تقلنى وتطاير الجنود السودانيون الذين كانوا على الشاحنة فى كل اتجاه . وتوقفنا بالطبع لتقديم المساعدة فى مشهد كان يبدو مريعاً للغاية . ثم ظهر فجأة البكباشى ستبس آمراً الجنود بالنهوض من فوق الأرض وكان صارماً فى لهجته . فقلت له لابد من أن يكون بينهم من أصيبوا باذى وفى حاجة الى اسعاف فرد علىّ قائلاً - « من المستحيل أن يلحق أذى بالسودانى فأما أن تقتله أو لا تقتله وما من شئ بين المنزلتين ! ! ونهض الجنود بالفعل من فوق الأرض وأعدلوا الشاحنة حتى استقامت على عجلاتها ثم استقلوها » .

وظلت الطائرات المعادية تلاحق القوة السودانية والقوة البريطانية المستجيرة بها على طول الطريق الى الكُفرة وما أن وصل الجميع الى هناك حتى ظهرت ثمان طائرات المانية فى سماء الكُفرة وشنت غارة عنيفة عليها ألقت كل طائرة خلالها قنبلة زنة ٥٠٠ رطل وعشرين قنبلة زنة ٢٥٠ رطلاً بالاضافة لمجموعة من المفرقعات والقذائف . واسفرت الغارة عن خسائر فى الأرواح وعن تدمير مستودع للأسلحة والذخيرة وست طائرات كانت جاثمة فى المطار . غير أن الطائرات المغيرة لم تعد فى ذلك اليوم الى قاعدتها بسلام فقد أسقطت المدفعية السودانية اثنتين منها وربما ثلاث .

حقيقة أن القوة السودانية لم تتمكن فى هجومها الأول من احتلال طابية جالو ولكنها حققت باحتلالها معظم المواقع فى الواحة تأمين الطريق لعودة قوة الفدائيين البريطانيين من بنغازى وهذا هو

الغرض الأول من توجيه القوة السودانية الى جالو . أما العمليات الفدائية الأخرى فقد كان نصيبها الفشل الذريع . فقد عادت القوة البريطانية من بنغازى بأنف دامية كما أوضحنا من قبل بينما لم تتمكن القوة البريطانية الأخرى من الوصول الى المرج لتخريب مطارها ولكن قوة ثانية من الفدائيين البريطانيين تحركت من الفيوم بقيادة الكولونيل ايزنسميث وعبرت بحر الرمال لتنقض من طرفه الشمالي فى هجوم مباغت على مطار المرج ودمرت ثلاثين طائرة فيه . أما المجموعة المؤلفة من اليهود الألمان والتى كلفت بالغارة على طبرق فلم ينج من القتل أو الأسر سوى اثنين من رجالها هاما على وجهها فى الصحراء الى أن وصلا فى أخر المطاف الى العلمين . وكان بين القتلى جون هازيلدن قائد المجموعة . وفقد الحلفاء فى هذه العملية الفاشلة قطع الاسطول البريطانى الخمس التى حاولت التسلل الى ميناء طبرق لنقل الأسرى بعد أن تقوم المجموعة اليهودية الألمانية بتحريرهم .

وفى أوائل نوفمبر (١٩٤٢) وضعت قيادة حامية الكفرة - بتكليف من القيادة العليا فى القاهرة — خطة جديدة لارسال قوة الى جالو عندما يتخلى العدو عنها وهذا ما كانت تتوقعه القيادة العليا منذ بداية الهجوم على قوات روميل على الشريط الساحلي . وهكذا انتعشت الآمال من جديد بين الجنود السودانيين ولكنها سرعان ما تبخرت اثر برقية من القيادة العليا تطلب فيها من قيادة حامية الكُفرة الغاء كل الترتيبات التى اتخذتها للتحرك الى جالو والاكتفاء بدلاً من ذلك بارسال فصيلة واحدة من البلوكات السريعة السودانية الى هناك . وتحركت الفصيلة بالفعل فى السادس والعشرين من نوفمبر الى جالو . وليس أدعى للشعور بالاحباط من أن تنتهى ملحمة جالو فى آخر المطاف على يد قوة صغيرة مؤلفة من فصيلة واحدة تضم ٣٣ مقاتلاً فقط وهي الملحمة التى طالما تمنى رجال قوة الدفاع الاصطدام فيها مرة أخرى بالعدو الذى ذاق من قبل شدة بأسهم داخل السودان ووراء حدوده الشرقية . وجاء هذا الاحباط ليضاعف من مرارة خيبة الأمل التى سرت بين الجنود السودانيين قبل ذلك بأسابيع قليلة عندما أمرتهم القيادة العليا فى القاهرة بتأجيل عملية الاستيلاء على جالو بعد أن فرضوا سيطرتهم على معظم المواقع فيها وكانوا على وشك اقتحام طابيتها واحتلالها .

وتضاءلت أهمية الكُفرة عسكرياً بعد استيلاء البلوكات السريعة على جالو وانتصارات الجيش الثامن الساحقة وهكذا جرى توزيع وحدات حامية الكُفرة على مواقع أخرى فانتقلت سرايا الهجانة شمالاً الى طبرق بينما تحولت المجموعة الثانية من البلوكات السريعة الى اجدابيا وقد طرأت تغييرات كثيرة عليها ولم يبق فيها حينذاك من الضباط الذين عملوا فيها منذ نشأتها عند نشوب الحرب سوى اثنين هما الأميرالاى هال دين الذى أصبح قائداً لها ومحمد نصر عثمان الذى وصل آنذاك الى رتبة يوزباشي . وكانت النية متجهة فى الأصل الى أن تصبح القوات السودانية جزءاً متكاملاً من الوحدات المقاتلة تحت راية الجيش الثامن ولكن لم يتحقق ذلك نظراً لاعتراض الحكومة المصرية التى لم توافق أيضاً فى وقت لاحق على ارسال كتيبة سودانية الى بورما من رجال الهجانة والفرقة الاستوائية الذين يمكنهم أن

يتأقلموا بسرعة وفى سهولة تامة على الأحوال الطبيعية فى المنطقة الاستوائية فى الشرق الأقصى لشدة تقاربها مع الأحوال الطبيعية فى جبال النوبة وجنوب السودان .

وبالرغم من موقف الحكومة المصرية هذا بوصفها أحد طرفى الحكم الثنائى أتيحت الفرصة لوحدات من سلاحي الخدمة والمهندسين السودانيين لدعم تقدم الجيش الثامن في أرض المعركة من ناحية النقل واصلاح الطرق والمطارات والجسور التى درج العدو على تخريبها أثناء تراجعه . والى جانب ذلك نهض رجال قوة الدفاع السودانية بمهام أخرى داخل مصر ووراء خطوط القتال مثل المحافظة على الأمن وحراسة المنشئات ومعسكرات الأسرى والخدمات الادارية فى القرى والمدن المحررة . ولا يعنى هذا بأية حال من الأحوال أن دور قوة الدفاع السودانية كان ثانوياً أو أن رجالها المتحرقين للقتال لم يشاركوا فى قتال فعلي ضد قوات المحور فى الصحراء الغربية باستثناء معركة جالو التى سبق ذكرها . لقد ظلت مواقع الوحدات السودانية فى الصحراء الغربية هدفاً متواصلاً للغارات الجوية . ومن الثابت أن المدفعية السودانية أسقطت خلال الفترة التى سبقت اندحار قوات المحور ثمان طائرات ألمانية وايطالية .

وفى أوائل عام ١٩٤٣ اشتبكت سرية سودانية مع وحدة ألمانية بالقرب من مدينة مصراته فى معركة حامية استخدم الطرفان فيها البنادق والأسلحة البيضاء وأسفرت عن أبادة الوحدة الألمانية عن آخرها تقريباً . وبلغت خسائر السرية السودانية فى ذلك اليوم ٢٠ قتيلاً وعدداً من الجرحى . ويقول سير دوغلاس نيوبولد عن هذه المعركة انها « مصدر زهو وافتخار للسرية وأن ضباطها وجنودها الوطنيين تصرفوا فى هدوء وثبات وكان أداؤهم جيداً » ولعلها هي المعركة التى تحدث عنها الجندى حسن سعد النور – الذى أوردنا من قبل طرفاً من ذكرياته – حينما ذكر أن اصطداماً وقع على أبواب مدينة طرابلس بين قوة سودانية ومؤخرة الجيش الألمانى المتراجع وإن القوة السودانية تكبدت خسائر كبيرة فى الأرواح . ويقول ان الوحدات السودانية تحركت منذ البداية مع الجيش الثامن وكانت التعليمات تقضى بان تسير وراء القوات الحليفة الزاحفة الا أن اندفاع القوة السودانية المذكورة وحماسة رجالها الذين كانوا يطمعون فى دخول مدينة طرابلس قبل غيرهم كانا سبباً فى الاصطدام مع مؤخرة القوات المتراجعة .

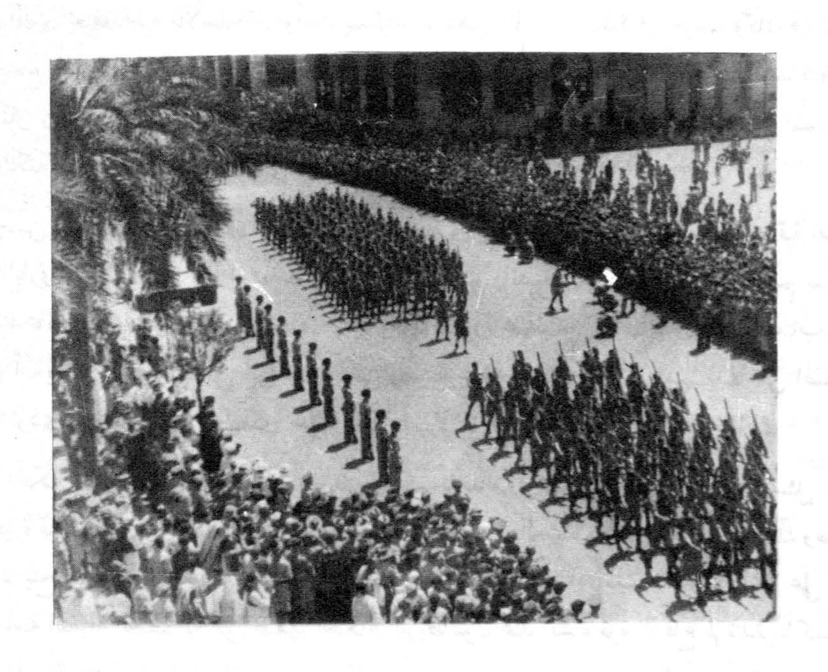
وفى مرة أخرى تصدت فصيلة سودانية لقوة من المظليين الايطاليين الذين هبطوا بالقرب من بنغازى وراء خطوط الجيش الثامن . واستسلم قائد القوة فور هبوطه معرباً عن عدائه للفاشية بينما التحم الباقون من رجاله مع الفصيلة السودانية وتمكنوا خلال ذلك من الحاق أضرار بحظيرة المطار وتدمير بعض الطائرات الجاثمة فيه ثم هبطوا الى كهف فى جبل مجاور وحاصرتهم الفصيلة السودانية هناك الى أن استسلموا واحداً أثر واحد .

ووقع فى تلك الأيام حادث مؤسف للسرية السودانية المرابطة فى موقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط بالقرب من بنينا وكانت السرية تحت قيادة حسن بشير نصر. وذهب ضحية الحادث مبكياً عليه الملازم أبو عبيدة الشيخ وقد كان ضابطاً واعداً فى دوحة الشباب دمثاً وطيب المعشر مما جعله محبوباً بين زملائه والجنود. وتفاصيل الحادث أن الملازم أبو عبيدة اتهم جندياً فوراوياً (من قبيلة الفور التى تقطن دارفور) بسرقة كيس شاى اخضر وأمر بحبسه تمهيداً لمحاكمته. ورأى الجندى فى ذلك تجنياً عليه واجتراحاً لكبريائه وصور له الشيطان أن تصرف أبو عبيدة – وهو من قبيلة الشايقية – نحوه نابع من احتقاره للجنود الذين ليسو من قبيلته. وتسلل الجندى فى جنح الليل وعلى غفلة من الحرس الى المكان الذى يحتفظ فيه بالأسلحة. وأخذ بندقيته ثم ذهب الى أبو عبيدة فى خيمته وكان فى تلك اللحظة يستمع الى الراديو مع صديقه سعد زغلة. وانتهز الجندى المتربص فرصة ذهاب سعد لقضاء الحاجة فأطلق رصاصتين متتابعتين من بندقيته أصابتا أبو عبيدة فى مقتل. وقد نقل بسرعة الى المستشفى لاسعافه ولكنه فارق الحياة فى الطريق.

وأمر حسن بشير بفحص البنادق التى كانت مرصوصة فى مكان واحد واكتشفت بينها بندقية تفوح منها رائحة البارود مما يدل على أنها استخدمت قبل وقت قصير واتضح أنها بندقية الجندى المتهم بسرقة الشاى فاستدعاه حسن بشير متظاهراً بالعطف عليه وكان ليناً فى مخاطبته. وقال له فى قالب العتاب انه كان يكفيه أن يطلق الرصاص على أبو عبيدة لكى يصيبه بجراح يمكن أن يشفى منها بدلاً من اصابته بجراح قد تودى بحياته. ورد الجندى على ذلك ببرود قائلاً « أنا عاوز أقتله يا جنابك ».

وأمام المحكمة اعترف الجندى بجريمته وصدر الحكم باعدامه رمياً بالرصاص. وعندما سئل عن رغبته الأخيرة قبل اعدامه أجاب بأنه لا يريد شيئاً غير الشاى بعد العشاء ولا يريد أيضاً أن يترك وصية لأمه لأنه لم يتح مثل هذه الفرصة للضابط الذى قتله. ويقف هذا الحادث المعزول دليلاً على أن رواسب سياسة التفرقة العنصرية التى طبقها الحكام البريطانيون عند انشاء قوة الدفاع لم تندثر بأكملها حتى تلك المرحلة وهي السياسة التى وصفها اللواء أحمد عبد الوهاب فى مذكراته بأنها ترمى الى « خلق تنافر بين الضباط اذ خلقت نوعين عرباً وسودانيين وقد لمسنا ذلك عند التحاقنا بالخدمة عام (١٩٣٥) كما فرقت بين الجنود فكان هناك بالهجانة بلوكات عرب وبلوكات نوبة. كما قفلت الاقليم الجنوبى فى وجه الشماليين حتى الضباط ». ومهما يكن من أمر فان رفقة السلاح ومواجهة العدو المشترك خلال الحرب العالمية الثانية قد وثقتا عروة الاخاء بين المقاتلين السودانيين على اختلاف قبائلهم وبالتالى أخذت تتوارى النعرات القبلية والعنصرية ليحل مكانها الشعور بالقومية السودانية. ومن الضباط السودانيين الذين شاركوا فى عملية جالو اليوزباشيان محمد على ادريس (حقوص) وعبد الباقى محمد أحمد والصاغ نصر الزبير والملازمون محمد نصر عثمان وأحمد عبد الله حامد ومحمد أحمد عروة وعبد الحميد خير السيد وعبد الله الأمير اسماعيل وعبد الله حمد

ومن الحقائق الثابتة أن قوة الدفاع السودانية لم يسقط أى من ضباطها السودانيين قتيلاً فى المعارك التى خاضتها فى شرق افريقيا وشمالها ولكنها فقدت خلال مساهمتها فى الزحف تحت راية الجيش الثامن بالاضافة للملازم أبو عبيدة الشيخ الذى أردته « نيران صديقه » ثلاثة ضباط آخرين هم أحمد عبد الله كافى الذى توفى وفاة طبيعية والصاغ عبد القادر أبو سن والملازم جلقام اللذان ماتا اختناقاً بالغاز فى بنغازى وهما من ضباط فرقة العرب الغربية .



(قوة دفاع السودان فى موكب النصر فى طرابلس ١٩٤٥)

الفصل الحادى عشر

دور الجبهة الداخلية في المجهود الحربى

« لا يعجز القـوم إذا تعاونوا وللشدائد يدخر الرجال »

الأهـــداء

إلى القـائد الأعلى والقـائد العام للقوات السودانية المسلحة والضباط والصف والجنود فى الماضى والحاضر والمستقبل أهدى هذه الصفحات من أمجادنا التي كان المقاتل السوداني واسطة العقد فيها .

محمد خير البدوى

بهرت قوة الدفاع السودانية العالم بإنجازاتها التى فاقت الخيال فى ميادين القتال فى قنن الجبال وشعابها فى شرق افريقيا وعلى رمال الصحراء تحت الشمس المحرقة فى شمال القارة ولكن دور السودان الحقيقى فى الحرب العالمية الثانية لا يقف عند هذا الحد وانما شمل آفاقاً أبعد حافلة بالبذل والتضحيات وفيها من المشقة ما ينؤ به أولو العزم . والانتصار فى المعارك يجب أن يسبقه انتصار فى الجبهة الداخلية . وما من جيش مهما بلغت قوته يمكن أن يجابه أعداءه فى ميادين القتال ما لم تكن وراءه جبهة صامدة يستمد منها الثقة وتوفر له إحتياجاته المادية والمعنوية . وقد ظل السودان لمدة عام كامل من نشوب الحرب ضد المانيا الهتلرية يتحمل فى رضا وقناعة تكاليف قوة دفاعه والمشروعات الرامية لتطويرها من قوة متواضعة للمحافظة على الأمن الداخلى إلى قوة ضاربة معاصرة . كما تحمل السودان إلى جانب ذلك تكاليف الخدمات التى ظل يقدمها لجيش الاحتلال والسلاح الجوى البريطانى الذى كانت إدارة الأشغال العامة السودانية مسئولة عن بناء المدارج المسفلتة لطائراته . وقد بلغت تكاليف تلك المدارج فى عام ١٩٤٠ وحده ربع مليون جنيه تكبدتها إدارة الأشغال من مواردها المحدودة . ودفع السودان بين عامى ١٩٤٠ و١٩٤١ هبات مالية للحكومة البريطانية مقدارها ٣٠٠ ألف جنيه كما اشترى ما قيمته ستون ألف جنيه من صكوك الحرب البريطانية . ومن ناحية أخرى تدفقت التبرعات من السودانيين على هيئة الصليب الأحمر وغيرها من الهيئات الخيرية البريطانية بما فى ذلك بلدية لندن التى تلقت فى عام ١٩٣٩ بعد نشوب الحرب مباشرة هبة من السودانيين والبريطانيين العاملين فى السودان تربو على ألف وخمسمائة جنيه . وقد تبدو هذه المبالغ زهيدة حتى بمقاييس ذلك العهد ولكن ينبغى ألا يغيب عن البال أن السودان كان آنذاك قطراً فقيراً للغاية لا يزيد عدد سكانه على ثمانية ملايين نسمة ولا يتعدى بند الإيرادات فى ميزانيته العامة خمسة ملايين جنيه مصرى (٥ ملايين جنيه استرلينى تقريباً) يأتى معظمها من صادرات القطن والصمغ العربى . وبإستثناء مصانع المياه الغازية لا توجد فى السودان آنذاك صناعات ذات بال . وقد كان السودان خاضعاً للإدارة البريطانية ولكنه لم يكن فى عداد المستعمرات البريطانية وترتب على ذلك حرمانه من المعونات المالية التى كانت تقدمها بريطانيا لمستعمراتها . وعندما وافقت الحكومة البريطانية على المساهمة فى نفقات السودان على الحرب اشترطت منحها كل عام نسبة معينة من إيرادات الخزانة السودانية .

ولم يكن من سبيل لاقناع مصر – الطرف الثانى فى الحكم الثنائى – بالمساهمة فى تكاليف الحرب فى السودان بإعتبارها مسئولة عن الدفاع عنه حسب نصوص معاهدة الحكم الثنائى أو تمشياً مع ادعائها بأن السودان جزء تابع لها . وقد آثرت مصر منذ نشوب الحرب فى اوروبا الوقوف بمعزل عنها واستقال الوزراء السعديون فى الحادى والعشرين من سبتمبر ١٩٤٠ من مجلس الوزراء عندما رفض المجلس اقتراحهم بوجوب إعلان مصر الحرب فوراً ضد ايطاليا . والوزراء السعديون المستقيلون

هم محمود النقراشى (المالية) ومحمود غالب (المواصلات) وابراهيم عبد الهادى (التجارة) ووزير الدولة على أيوب وقد رفعوا مع استقالتهم مذكرة لرئيس الوزراء قالوا فيها أن من الأفضل لمصر مواجهة أهوال الحرب بدلاً من دمغها بالجبن . ورد رئيس الوزراء على المذكرة بأن إعلان الحرب قرار خطير وليست هنالك حاجة ملحة للسير فى هذا الطريق .

وتحدث سير دوغلاس نيوبولد (السكرتير الادارى) فى رسالة إلى حكام المديريات بتاريخ ١٨ سبتمبر ١٩٤٠ عن مساهمة السودانيين فى الحرب فقال «أن ولاءهم ليس موضعاً للتساؤل وهم يكرهون الايطاليين وقد فاق تجاوبهم كل التوقعات من حيث الأقبال على التجنيد والمساهمات المالية وتقديم الخدمات المختلفة ووصلت التبرعات لإعتمادات الحرب المختلفة إلى أكثر من ٣٠ ألف جنيه تشمل مساهمات من السودانيين فى طول البلاد وعرضها ابتداءً من شيكات التجار الدسمة وانتهاءً بالقطع المعدنية الصغيرة من عمال المكاتب (المراسلات) . وقام الزعماء الدينيون بدورهم خير قيام كل حسب طريقته من ناحية المساهمات المالية ومحاربة الإشاعات ومباركة الجنود وإقامة الصلوات فى المساجد . وأصدر مفتى الديار السودانية (الشيخ أبو شامة عبد المحمود) فتوى أباح فيها للجنود والعاملين فى قوة الدفاع عدم الإلتزام بالصوم فى شهر رمضان» هذا ما قاله سير دوغلاس نيوبولد عن دور السودانيين فى الحرب العالمية الثانية . وقال سير ريجنالد وينجت سردار الجيش المصرى وحاكم عام السودان (١٨٩٩ - ١٩١٦) «أن أبناء أولئك الشجعان الذين حاربوا فى بسالة واقدام الحكم المصرى السابق (الحكم المصرى التركى) قد ارتموا بكل صدق واخلاص فى الحرب العالمية الثانية إلى جانب الشعوب الحليفة» وأشاد مستر جاكسون - الذى عمل فى السودان حاكماً لمديرية بربر - فى كتابه «المقاتل السودانى» أيضاً بدور السودان قائلاً «أن رابطة الشعوب البريطانية وشعوب العالم الحر بأسره مدينة بفضل كبير للسودانيين لما أظهروه من عطف وعون وولاء» وجاء فى الرسالة التى وجهها حاكم عام السودان بمناسبة يوم النصر فى عام ١٩٤٥ «لقد وقفت قوة دفاع السودان فى بسالة إلى جانب رفيقاتها البريطانية والهندية فى طريق العدو الغازى ثم سارت مع قوات الحلفاء قدماً لتشاركها فى الانتصارات المجيدة التى تحققت فى الحبشة واريتريا وشمال افريقيا وكانت تتوج على الدوام رأس السودان بالفخار» .

وينبغى على المرء عندما يتحدث عن دور السودان فى الحرب العالمية الثانية ووقفته بالإجماع مدافعاً عن الحرية والعدالة أن يذكر أن السودان كان إلى ما قبل خمسين عاماً من نشوب تلك الحرب أشد الأقطار تخلفاً فى القارة الافريقية المظلمة بكل ما يعنى ذلك التخلف من مفهوم . ولم تجد السلطات السودانية صعوبة فى تأمين الجبهة الداخلية طيلة سنوات الحرب وعندما انتقلت فرقة العرب الغربية - مثلاً - من مقرها فى الفاشر إلى جبهة القتال على الحدود الشرقية بقيت دارفور هادئة تنعم بالأمن والاستقرار مع أنها كانت حليفة لألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية وتبرعت قبيلة الميدوب الدارفورية

للمجهود الحربى بقطيع حاشد من الأغنام أتى بها رجال القبيلة سيراً على الأقدام من موطنهم النائى فى دارفور إلى أم درمان فى رحلة شاقة قطعوا خلالها خمسمائة ميل تقريباً. وتبرعت قبيلة الرزيقات الدارفورية أيضاً والتى تصدر فرسانها معارك الثورة المهدية - تبرعت بأكثر من ألف حصان من خيولها العتاق وبألفى رأس من الأغنام. لم تقف دارفور هذه المرة مع حلفائها القدامى الرابضين فى الصحراء الليبية المتاخمة لها مثلما فعلت فى الحرب العالمية الأولى ولم ينقم فرسان الرزيقات على بريطانيا التى قضت فى آخر القرن الماضى على دولة المهدية. ومن مديرية كردفان المتاخمة لدارفور تبرعت قبيلة المسيرية بنحو ألف وخمسمائة رأس من الأبقار للقوات الحليفة. وعلى الحدود الشرقية حيث القبائل المشتركة بين السودان واريتريا واثيوبيا تطوع المواطنون القاطنون على الجانب السودانى فى حماسة منقطعة النظير بالعمل دون أجر فى معظم الأحيان كأعوان لأجهزة المخابرات الحليفة وأسهموا عن طريق المبالغة والإشاعات المحبوكة بحكمة ودهاء فى تضليل العدو وإيهامه بأن «قواتنا أقوى مما هى عليه بالفعل» كما جاء فى التاريخ الرسمى البريطانى للحرب العالمية الثانية.

وفى الجنوب أعربت قبيلة بدائية حديثة عهد بالتداول بالنقد عن إستعدادها لتقديم قرض حسن للامبرطورية البريطانية مقداره ١٠ جنيهات عداً نقداً لتستعين به الامبرطورية فى حربها ضد المحور. وتبرعت قبائل الدينكا فى بحر الغزال بثلاثمائة ثور بينما أرسل زعماء قبيلة جنوبية أخرى إلى مفتش المركز البريطانى زكيبة موسوقة بعملات معدنية من مختلف الفئات ابتداءً من المليم وحتى الريال بلغت فى جملتها سبعين جنيهاً ومع الزكيبة رسالة يقولون فيها أنهم يتركون للحكومة حق الانتفاع بهذا المال على أن ترده إليهم بعد انتهاء الحرب.

ولم تقتصر مساهمات الشعب السودانى الفقير على تلك التبرعات والهدايا التى ظلت تتدفق طيلة فترة الحرب وأنما تقبل أيضاً دون تبرم أو إحتجاج صنوفاً من المعاناة التى فرضتها ظروف الحرب مثل ارتفاع تكاليف المعيشة والإجراءات التموينية وقيود أخرى كثيرة لم يألفها الشعب السودانى من قبل وقد يصعب على أفراده فى بعض الحالات تفهمها وإدراك مغزاها. ولعل أصدق مثال على ذلك المراقبة المشددة على أسعار الصادرات وخاصة القطن الذى يذهب معظمه إلى مصانع النسيج البريطانية وقد بقيت تلك الأسعار على ماكانت عليه تقريباً قبل نشوب الحرب مما حرم المنتج السودانى من جنى الأرباح الطائلة التى يحصل عليها رصفاؤه فى البلاد المجاورة.

وبالرغم من تردد الحكومة البريطانية وسياساتها الحذرة تجاه ايطاليا كما أوضحنا من قبل فأن السلطات فى الخرطوم لم تؤخذ على حين غرة عندما دخلت ايطاليا الحرب ولم تفاجأ وسراويلها متدلية إلى ما تحت ركبتيها. لقد اتجهت السلطات السودانية منذ عام ١٩٣٩ بالإضافة لتطوير قوة الدفاع السودانية إلى تأمين مخزون إحتياطى يكفى لمدة ستة أشهر على الأقل من المحروقات والدقيق والذرة والسكر والسلع الاستهلاكية الأخرى بما فى ذلك علب الثقاب. كما قامت السلطات بتوفير مخزون



شحنة من العناقريب فى الطريق إلى القوات الحليفة
فى جهات القتال فى الشرق الأوسط

سلاح الحدود

إحتياطى من الأدوية والمستلزمات الطبية والبيطرية . وتوفير مثل هذه الأشياء يصبح فى ظروف الحرب أمراً حيوياً لتأمين الجبهة الداخلية وبالتالى كسب الحرب لا سيما فى قطر كالسودان يعتمد فى إحتياجاته على الأسواق الخارجية التى حرم منها من جراء نشوب الحرب . ومع اقتراب شبح الحرب على الحدود الشرقية قامت السلطات السودانية بدعم الإحتياطى بمزيد من المواد الضرورية وكميات هائلة من الأدوات والمعدات التى فرضت ظروف الحرب المتوقعة ادخارها مثل الأقنعة الواقية من الغازات السامة ونصف مليون عارضة خشبية (فلنكة) لتثبيت قضبان الخطوط الحديدية . واستولت السلطات إلى جانب كل ذلك على إحتكار إستيراد العديد من السلع واستعانت بريع أرباحها من هذا الإحتكار على دعم الأسعار وقد بلغت ميزانية هذا الدعم فى عام ١٩٤٤ نحو مليون جنيه . ومن المعروف أن أسعار السلع على اختلافها ترتفع ارتفاعاً فاحشاً خلال الحرب وترتفع تبعاً لذلك تكاليف المعيشة ولكنها فى السودان وبفضل بعد نظر المسئولين آنذاك وسياساتهم الاقتصادية الرشيدة لم ترتفع إلى أكثر من مائة فى المائة بينما أرتفعت فى مصر وفلسطين بمعدل ٣٠٠ فى المائة . غير أن يقظة المسئولين التى خففت كثيراً من ويلات الحرب لم تحل دون وقوع بعض المشاكل والأزمات ولكنها كانت ثانوية فى معظم الأحيان مثل أزمة طوابع البريد التى نشبت عندما قامت الطائرات الالمانية فى أغسطس ١٩٤٠ بتدمير منشئات شركة دى لارو فى لندن وهى الشركة المتعاقدة مع السودان على تزويده بالطوابع ويبدو أن الطائرات الالمانية دمرت فى ما دمرت مخزون الطوابع الجاهزة وأكليشيهاتها ولم يعد فى إمكان الشركة انتاج طوابع جديدة للسودان . وزاد الطين بلة أن السفينة التى كانت تحمل شحنة من الطوابع للسودان غرقت فى عرض البحر . وازاء ذلك قامت دائرة البريد السودانية بتكليف مطبعة فى بومباى بطبع طوابع مؤقتة من فئة ٤ و٣ قروش و١٥ مليماً وبوضع فئات جديدة على طوابع كانت قد تسلمتها من قبل من فئتى ٨ قروش وخمس مليمات .

وقد انتهجت السلطات السودانية سياسة دقيقة ومحكمة لتوزيع المواد التموينية المحلية والمستوردة على المواطنين تحت إشراف الاداريين ورجال الإدارة الأهلية دون تمييز لأحد على آخر مما ضمن لكل مواطن فى المدن والقرى والبوادى نصيباً عادلاً .

وفى أول الأمر ترددت السلطات السودانية فى مباشرة تقييد وتوزيع المواد الغذائية والأقمشة وما اليها على دون مستوى تجار التجزئة وكان من رأيها أن تتولى السلطات بنفسها تسليم كل رب أسرة حصته المقررة . غير ان جو هيلارد مفتش مركز أم درمان أثبت من الناحية العملية امكانية قيام السلطات بمثل هذه المهمة اذ نجح بفضل حسن التنظيم والتحلى بالصبر وبالاعتماد على حفنة قليلة من الموظفين وبينهم متقاعدون بعقود مؤقتة — نجح فى فرض نظام للتموين على أساس الفرد أتاح لكل واحد من سكان المدينة البالغ عددهم آنذاك حوالى مائة ألف نسمة نصيباً منتظماً من الذرة ودقيق القمح والبن والشاى والسكروالكيروسين والمنسوجات القطنية وغير ذلك من السلع الاستهلاكية

الأخرى . وجرى تطبيق هذا النظام تطبيقاً جيداً نال رضاء السكان وخاصة الفقراء منهم . وأصبحت نخبة مختارة من تجار التجزئة فى ظل هذا النظام تجاراً خاضعين للسلطات يقومون بتوزيع تلك السلع على المستهلكين نيابة عنها بمقتضى بطاقات ملونة . وشجع نجاح هذا النظام فى أم درمان – العاصمة الوطنية – السلطات على تطبيقه فى سائر انحاء السودان . ومن المتفق عليه بين المتابعين للأوضاع الاقتصادية فى الشرق الأوسط آنذاك انه خير نظام ابتدع لضمان وصول السلع الاستهلاكية بانتظام وأسعار معقولة الى جمهور المستهلكين . وجرت محاولات لتطبيقه فى بعض بلاد الشرق الأوسط ولكنها باءت بالفشل .

وذكر سيردوغلاس نيوبولد فى احدى رسائله أن نظام التموين المباشر ضرورى نظراً لبساطته وعدالته وفى رأيه أنه يوفر للأغنياء أقل من احتياجاتهم العادية ولكن فى حدود الاكتفاء بينما يوفر للفقراء ما يزيد على احتياجاتهم وقد انخفضت بسبب ذلك معدلات الطلبات الى لجنة مساعدة الفقراء الذين وجدوا دخلاً جديداً ببيع الفائض من احتياجاتهم

وشهدت مدينة بورتسودان فى تلك الأيام أزمة حادة فى مياه الشرب وفكرت السلطات فى ترحيل معظم سكانها الى مواقع أخرى ولكنها استطاعت معالجة الأزمة مؤقتاً بفرض قيود على استهلاك الماء وتوجيه السفن الى أخذ حاجتها من المياه العذبة من عدن بدلاً من بورتسودان. ثم قامت السلطات بعد ذلك بحفر آبار جديدة وبناء مستودعات كبيرة لتخزين المياه واستعانت بفنيين من روديسيا الشمالية (زامبيا الآن) على زيادة امدادات المياه وطاقات تخزينها بمعدل ثلاثة أضعاف وهكذا تمكنت السلطات من اجتياز الأزمة .

ولم يتخل السودان خلال سنوات الحرب عن دوره فى المحيط الاسلامي باعتباره معبراً للحجاج من غرب افريقيا . فعندما تحولت السفن التى كانت تقوم فى الماضى بنقل الحجاج بين جدة وسواكن الى جهات اخرى بسبب الظروف التى أملتها الحرب قامت السلطات السودانية بتأجير سفن من الهند لنقل الحجاج السودانيين والقادمين من غرب افريقيا .

وعند دخول ايطاليا الحرب تحولت معظم الورش التابعة للادارات الحكومية فى السودان (المخازن – الأشغال العامة – الخطوط الحديدية – الرى) الى الاسهام فى المجهود الحربي وأقبلت على انتاج اللوازم والمعدات العسكرية ابتداء من المدرعات وكاسحات الألغام وانتهاء بالملابس الداخلية للممرضات الفرنسيات . وقد قامت ورش الخطوط الحديدية فى اتبرا وبورتسودان آنذاك بصنع قطار مصفح وبتقوية العربات لنقل الدبابات والمعدات الثقيلة وبتحويل اللنشات فى بورتسودان الى كاسحات ألغام اشتركت مع الاسطول البريطانى فى حملة على مرسى تكلاى . وقام العمال السودانيون فى ورش اتبرا بصنع طقم كامل من طبول الحرب النحاسية للعاهل الاثيوبي الامبرطور هيلاسلاسى .

غير أن أعظم تطور فرضته الحرب على الادارات الحكومية المختلفة كان من نصيب ادارة المخازن والمهمات التي أصبحت تعرف باسم دائرة الامدادات الحربية بعد أن أنشئت فيها وحدة عسكرية هي سلاح الخدمة والنقل الميكانيكي وقد ارتبطت تلك الدائرة ارتباطاً وثيقاً مع دائرة المهمات البريطانية . وكانت ادارة المخازن قبل الحرب مؤسسة حكومية مغمورة فى موقعها الحالى فى الخرطوم بحرى بالقرب من جسر النيل الأزرق ولا يتعدى عدد العاملين فيها حينذاك ٤٠٠ شخص من العمال والكتبة وأمناء المخازن . ولكن بحلول عام ١٩٤٢ وصل هذا العدد الى أكثر من ستة آلاف بينهم نسبة من النساء والصبيان الذين لم يبلغوا سن الحلم . وانبثقت من ادارة المخازن تحت اسمها الجديد فروع عديدة فى طول البلاد وعرضها . وكان من المناظر المألوفة فى العاصمة خلال سنوات الحرب مشهد الالآف من العاملين فى الرابعة من صباح كل يوم وهم يتسابقون للحاق بمراكب الترام المحتشدة بركابها كعلب الساردين أو بالقطار فى محطة الخرطوم فى طريقهم الى الورش والمنشئات التى قامت كالنبت الشيطانى فى شجرة غوردون الواقعة على النيل الأبيض جنوبى الخرطوم . وتحتل هذه الورش والمنشئات التى شيدتها دائرة الأمدادات الحربية فى شجرة غوردون دائرة محيطها ١١ ميلاً . وما أكثر ما يعود العاملون الى مساكنهم فى ساعات متأخرة من الليل بعد رحلة مضنية ذهاباً واياباً لم يطعموا فيها الا كفافاً .

ويقول ميجر غاى فولى مدير دائرة الامدادات الحربية فى حديث له من اذاعة أم درمان « أن هؤلاء العاملين قد وفروا لكتيبة كاملة فرصة التفرغ للقتال » وقد قامت الدائرة خلال الأشهر التسعة التى كانت ايطاليا جالسة فيها فوق السياج بتوفير احتياجات قوة الدفاع السودانية والقوات النظامية الأخرى من اللوازم والمعدات بما فى ذلك مدافع البرن التى جرى تطويرها كما أسلفنا من قبل فى ورش الخرطوم بحرى وشارك فى ذلك فنيون وعسكريون سودانيون . وعند وصول طلائع القوات الحليفة الى السودان ابتداء من خريف عام ١٩٤٠ وقع على كاهل دائرة الامدادات الحربية (ادارة المخازن والمهمات سابقاً) تزويد تلك القوات بالملابس والخيام والأثاث والأدوات المكتبية وبتشكيلة واسعة من اللوازم والخدمات وبلغت تكاليف ذلك فى ختام عام ١٩٤٠ مليون جنيه تكبدتها الخزانة السودانية . ولم يكن توفير كل ذلك مهمة سهلة لا بسبب ضآلة امكانيات السودان المالية فحسب وانما بسبب تنوع تلك القوات وتباين لغاتها وطبائعها أيضاً اذ كانت مؤلفة من بريطانيين واثيوبيين وهنود وفرنسيين وافريقيين من المستعمرات الفرنسية والبريطانية .

وعندما يستعرض المرء ماكان يجرى خلال الحرب العالمية الثانية فى ورش الامدادات الحربية فى الخرطوم بحرى وشجرة غوردون يتمنى لو عادت عقارب الساعة الى الوراء وعاد السودان القهقرى الى تلكالسنوات التى بلغ التصنيع الحربى فيها شأواً لا يزال حتى اليوم حلماً عسير المنال لا فى السودان وحده وانما فى معظم البلاد النامية ولعله يضاهى ما وصل التصنيع الحربى اليه فى بعض البلدان

المتقدمة المعاصرة . ففى سنوات الحرب ظل الفنيون فى تلك الورش يقومون بأعمال الصيانة للمركبات العسكرية على اختلافها وللطائرات والأسلحة بما فى ذلك الأسلحة الايطالية والألمانية التى استولت القوات الحليفة عليها فى اريتريا واثيوبيا وتوج أولئك الفنيون انجازاتهم فى مجال الصناعات الحربية بتطوير مدفع البرن التشيكى الأصل بفضل مهاراتهم فأصبح سلاحاً صالحاً للاستخدام فى المناطق الحارة . وخرجت من الورش فى الخرطوم بحرى وشجرة غوردون المدرعات والمصفحات التى تم تصنيعها هناك الى الحدود الشرقية لصد جحافل العدو أولاً ثم اقتحام معاقله الحصينة فى كرن وأمبالاجى وغوندار وغيرها من المواقع . وأنتجت تلك الورش أيضاً كميات هائلة من مشابك القنابل اليدوية وصهاريج الماء وسيارات الاسعاف العسكرية واستخرجت من أشجار السنط أصباغاً لأغراض الكوموفلاج فى ميادين القتال وبينها صبغة استنبطت خصيصاً لكى تطلى بها الجمال البيضاء التى تستخدمها وحدات الهجانة ولكن الجمال رفضت بأباء وشم التخلى عن لونها الأبيض ولو جعلها ذلك هدفاً فى متناول نيران العدو وأدى الى هلاكها عن آخرها . ومن منتجات ورش الامدادات الحربية فى الخرطوم بحرى وشجرة غوردون فى تلك الأيام أيضاً السهام التى استخدمتها القوات الحليفة لاحراق معسكرات العدو ومنشئاته فى اريتريا واثيوبيا .

ان قائمة انجازات دائرة الامدادات الحربية لا تقف عند حد وما من سبيل لحصرها الآن بعد مرور أكثر من خمسين عاماً على الحرب العالمية الثانية فهى الى جانب ما ذكرنا قامت بتزويد القوات الحليفة المتعددة الجنسيات والمواقع بتشكيلة واسعة من المعدات والأدوات والمهمات مثل الأزياء العسكرية والخيام وقطع الاثاث والسروج وملحقاتها والمسلال ومقابض الفؤوس والمطارق والمجارف . وزودت تلك الدائرة المعسكرات الحليفة فى مصر وسوريا والعراق وليبيا وفلسطين بنحو ربع مليون سرير بلدى (عنقريب) يكفى طول الحبال التى استخدمت فى نسجها لتطويق الكرة الأرضية مرة ونصف تقريباً . وكل هذه الأشياء قامت بانتاجها أيد سودانية صرفة وبينهم مئات من الصبيان الذين يمثلون آنذاك سودان الغد . وتكشف لغة الاحصائيات والأرقام أن دائرة الامدادات الحربية استخدمت فى عام واحد كميات من المنسوجات لانتاج الخيام والأزياء العسكرية تكفى لتغطية دار الرياضة (ستاد) فى ام درمان سبعمائة مرة بينما ظلت تستخدم كل اسبوع حمولة قطار كامل من أخشاب السدر والمهوغنى لصنع الأثاث والمقابض وغير ذلك من المصنوعات الخشبية وقد استدعى ذلك مضاعفة انتاج مصنع نشر الأخشاب فى واو عاصمة بحر الغزال الى ٢٢٠ ألف قدم سنوياً . وتكفل هذا المصنع الى جانب ذلك مع مصانع تابعة لدائرة الغابات خلال سنوات الحرب بتوفير الأعمدة الخشبية لخطوط الهاتف والكهرباء نظراً لتعذر استيرادها من الخارج وبتوفير أنابيب خشبية أيضاً بدلاً من الأنابيب المعدنية لأغراض الرى الزراعى .

وقد أنشأت دائرة الغابات مصنعاً لانتاج الكبريت (الثقاب) فى جبال أماتونغ فى جنوب

السودان الذى فيه أيضاً مصنع لانتاج اللحوم والأسماك المقددة . ووضع المسئولون فى اطار المجهود الحربي برنامجاً شاملاً لتجميع الخردة المعدنية التى كان يستغنى عنها فى الماضى وتترك فى العراء فريسة لعوامل البلى وبين الخردة المعدنية التى جرى تجميعها خلال سنوات الحرب معدات وأدوات تم اصلاحها وترميمها للاستعمال من جديد أما ما لا سبيل لاصلاحه أصبح يحول الى المصاهر لاستخدامه فى صناعة المسامير والمفاصل والأبازيم والأقفال وغير ذلك مما كان يستورد فى الماضى من الخارج .

مرة أخرى ليت عقارب الساعة ارتدت الى الوراء خمسين عاماً مما يعدون ! ! وليت السودان عاد القهقرى الى تلك الحقبة التى ازدهرت فيها الصناعات الحربية وغير الحربية فى البلاد . ولو تحقق ذلك لأصبح السودان اليوم وبمقاييس هذا العصر دولة صناعية يشار اليها بالبنان .

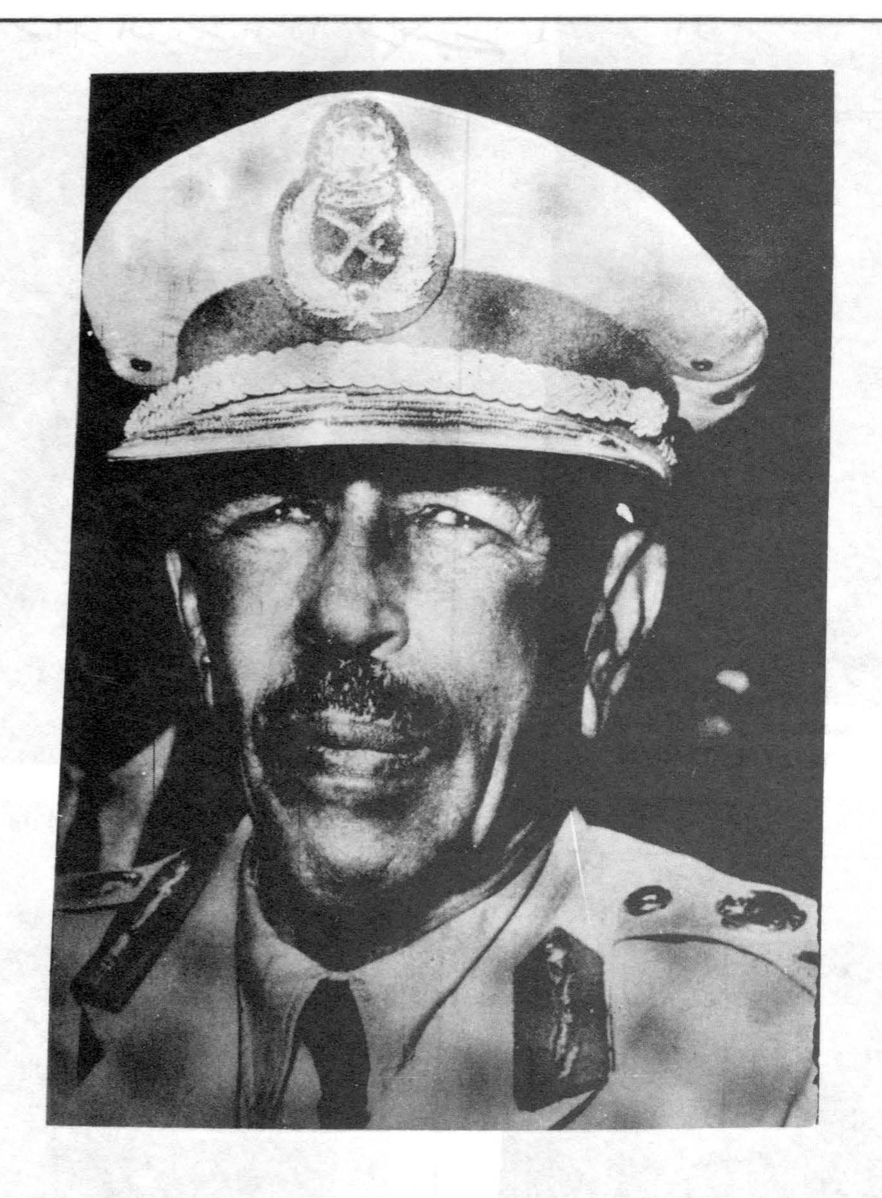
وتولت دائرة الأشغال السودانية خلال سنوات الحرب بناء المعسكرات فى القواعد وجبهات القتال وكذلك الحظائر لأسرى الحرب وعدد من المستشفيات والمستودعات والمدارج لطائرات السلاح الجوى البريطانى . واقتضت ظروف الحرب من السودان بناء محطة كاملة للخطوط الحديدية فى وادى حلفا لخدمة القوات الحليفة فى مصر وشمال أفريقيا والقيام بتوسيع وتطوير المرافق والمنشآت فى ميناء بورتسودان لاستقبال السفن وتفريغها من المؤن والمعدات والعتاد فور وصولها خوفاً من الغارات الجوية . وقد ظلت بورتسودان طيلة سنوات الحرب قاعدة مهمة للاسطول البريطانى توفر له ما يحتاج اليه من خدمات .

وقام السودان وعلى نفقته من موارده المحدودة بترحيل القوات الفرنسية من تشاد والبلجيكية من الكونغو الى جبهات القتال . وعملت السلطات على تشجيع انتاج الفاكهة والخضروات لتغطية احتياجات القوات المحاربة فى شرق افريقيا وشمالها . وتجاوب المزارعون السودانيون مع السلطات فى حماسة بالغة حتى أن معدلات الانتاج فى مزرعة واحدة وصل الى ٢٤٠ طناً من الخضروات فى الشهر و٢٦٠٠ رطلاً من الموز فى الاسبوع . وانتجت أشجار البرتقال فى أحد البساتين خلال موسم واحد ٧٠ ألف برتقالة .

كل هذه الانجازات على صعيد الجبهة الداخلية تمثل صفحة مشرقة ومشرفة من دور السودان فى الحرب العالمية الثانية وتقف على قدم وساق مع انجازات قوة الدفاع فى ميادين القتال . ويتبين مما أوضحنا فى هذا الفصل وغيره أن يقظة المسئولين فى السودان آنذاك وبعد نظرهم أديا الى تخفيف ويلات الحرب على السودان ونجاة أهله من العناء الذى لحق ببلاد كثيرة مجاورة شاركت بصورة مباشرة أو غير مباشرة فى الحرب . كما أديا فى الوقت نفسه الي تلافى الثغرات وأسباب القصور التى تولدت عن سياسات استرضاء موسولينى قبل دخوله الحرب الى جانب ألمانيا النازية . وليس أدل على ذلك من أن القوات الحليفة استخدمت فى زحفها على اريتريا اطارات من مخزون قوة الدفاع

السودانية كما اعتمدت على المركبات العسكرية والشاحنات التى استوردها السودان من الخارج خلال فترة سياسات الاسترضاء أو التى جرى صنعها محلياً بالاضافة للشاحنات التى صادرتها المحاكم فى السودان من أصحابها فى قضايا التهريب والجرائم الأخرى . ويقف وراء هذه الانجازات على صعيد الجبهة الداخلية جهاز « الخدمة المدنية » العتيد بتقاليده الراسخة التى جعلته فى مقام أرقى الأجهزة المماثلة فى البلاد المتقدمة من حيث الكفاءة والفاعلية .

وكان أداء جهاز الخدمة المدنية فى السودان خلال الحرب شاهداً على أن السودانيين تجاوزوا مرحلة الوصاية الى المرحلة التى ينبغى أن يمنحوا فيها حق تقرير مصيرهم وفقاً لميثاق الأطلسى وبالتالى ادارة شئونهم بأنفسهم . وقد اضطرت الادارة البريطانية خلال سنوات الحرب الى الاسراع فى سودنة المناصب فى جهاز الخدمة المدنية ونتيجة لذلك انخفض عدد « غير السودانيين » فيه من ٢٩٠٦ فى عام ١٩٣٠ الى ١٢١٤ موظف خلال سنوات الحرب بينهم ٧٥٦ من البريطانيين بينما وصل عدد الموظفين السودانيين العاملين فى الخدمة المستديمة الى أكثر من خمسة آلاف وخمسمائة موظف بينهم اثنان وخمسون يشغلون درجة (إس) التى أدخلتها الادارة البريطانية على سلم الترقية فى جهاز الخدمة المدنية لتمكين السودانيين من تولى المناصب الادارية والفنية التى يشغلها غير السودانيين وبالذات فى دوائر القضاء والتعليم والأشغال العامة والرى والخطوط الحديدية والادارة والخدمات الطبية .



الفريق أحمد باشا محمد
أول قائد عام سودانى لقوة الدفاع

الضباط الذين تولوا منصب القائد العام



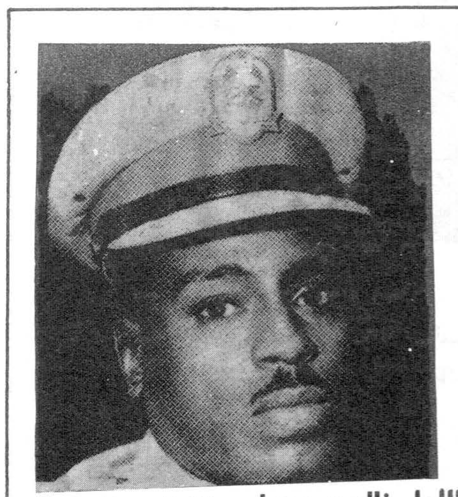
الفريق اول ابراهيم عبود ٦٤/١١/١٤ـ٥٦/٤/٤



الفريق الخواض محمد احمد
٦٩/٥/٢٤ـ٦٤/١١/١٥



اللواء . الفريق اول . المشير جعفر محمد نميري
٧٠/٥/٢٩ـ٦٩/٥/٢٥ ٢/١٠/٦ـ٧٢/٢/١٣
٧٦/٨/٨ـ٧٤/١١/١٨ ٩/٥/٢٧ـ٧٨/٨/٣٠
٨٥/٣/١٥ـ٨٢/١/٢٦



اللواء خالد حسن عباس ٧٢/٢/١٢ـ٧٠/٥/٣٠



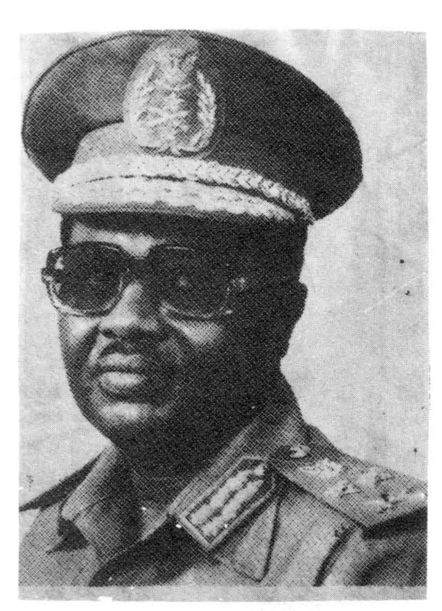
الفريق اول «طيار» عوض خلف الله

٧/١٠/٧٣ ـ ٧/١١/٧٤



الفريق اول بشير محمد على

٩/٨/٧٦ ـ ٢٩/٨/٧٨



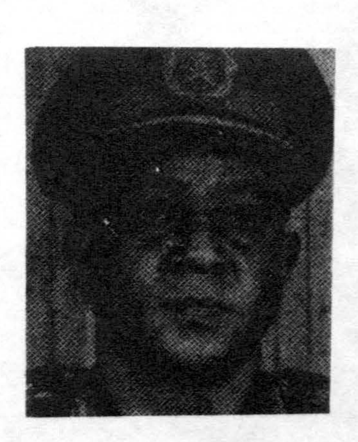
الفريق اول عبدالماجد حامد خليل

٢٨/٥/٧٩ ـ ٢٥/١/٨٢



الفريق اول عبدالرحمن محمد حسن سوار الذهب

٦/٣/٨٥ ـ ٢٥/٤/٨٦

 الفريق اول تاج الحين عبدالله فضل ٨٦/٤/٦ - ٨٦/٩/٣	 الفريق اول فوزى احمد الفاضل ٨٦/٩/٤ - ٨٨/٦/٦
 الفريق اول فتحى احمد على ٨٨/٦/٦ - ٨٩/٦/٢٩	 الفريق عمر حسن احمد البشير ٣٠ يونيو ١٩٨٩م

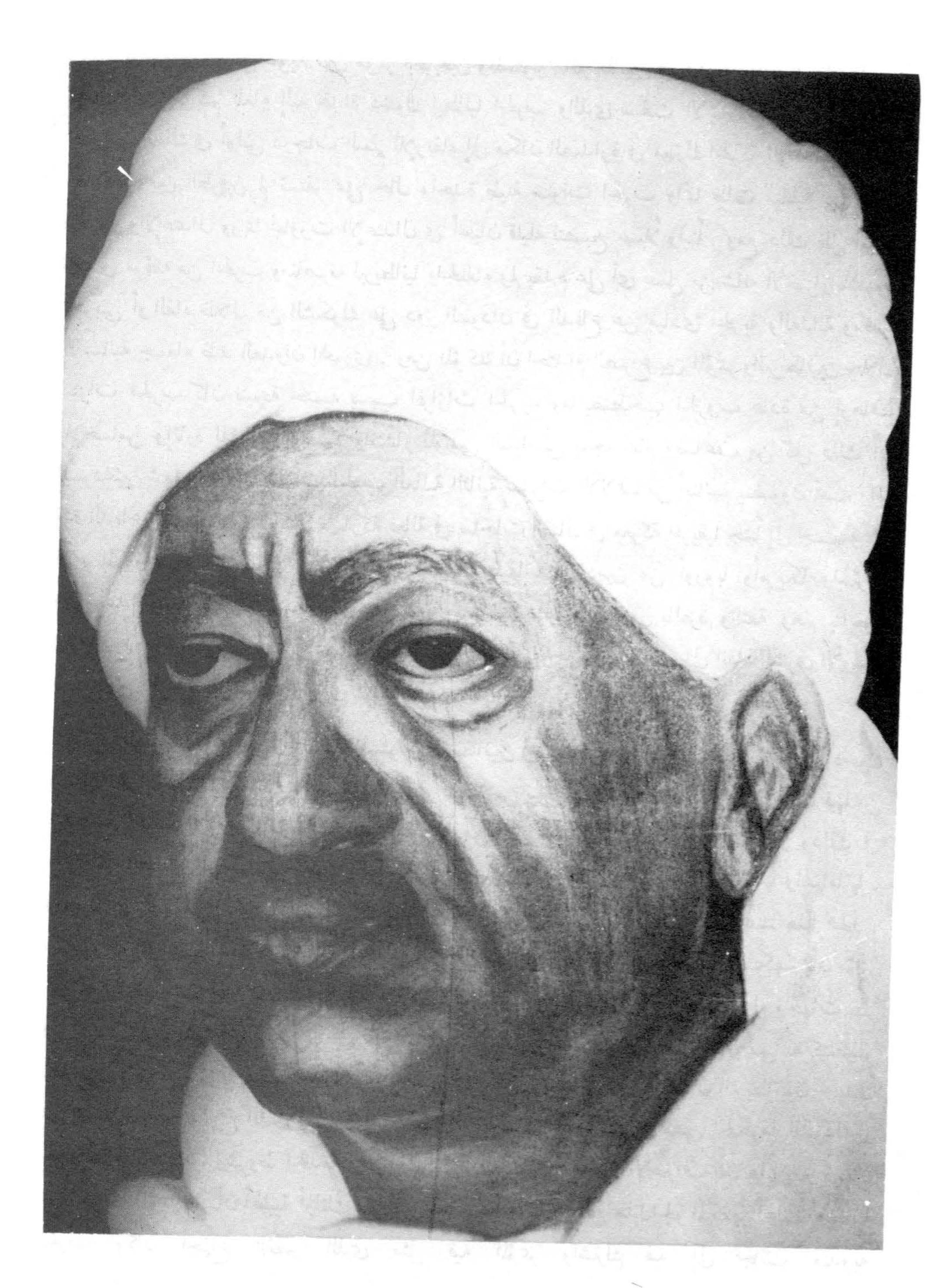
الفصل الثانى عشر

جنى الثمار

ها قد غرسنا خير ما	يوتى أطـــايب الثمر
تسمع من كل فم	المؤتمر. المؤتمر
فـأمضوا على اسم الله	تحدوكم بشائر الظفر
حثوا مطاياكم وكونوا	فى السرى على حـذر
فـإن بـالركب الـذى	أقـلكم ركبان شر

لم يدم شهر العسل طويلاً بين مؤتمر الخريجين والمسئولين البريطانيين فى الخرطوم بعد اجتماع القصر الذى دعا الحاكم العام إليه غداة دخول ايطاليا الحرب والذى سبقت الاشارة إليه . وكان مؤتمر الخريجين آنذاك فى أولى درجات السلم للإرتقاء إلى مكان الصدارة فى معترك الحركة الوطنية . غير أن العلاقات بين الطرفين لم تستقر على حال واحدة طيلة سنوات الحرب وانما ظلت متقلبة بين التوتر والفتور والإعتدال وربما تجاوزت الإعتدال فى أحيان قليلة لتصبح عسلاً ولبناً . ومع ذلك ظل المؤتمر ثابتاً فى موقفه من الحرب ومناصرته لبريطانيا والحلفاء ولم يقدم على أى عمل من شأنه الاضرار بالمجهود الحربى أو القاء ظلال من الشكوك على دور السودان فى الدفاع عن مبادئ الحرية والعدالة ومصير الانسانية جمعاء ضد العدوان المحورى . ومن المؤكد أن احتدام الصراع بين المؤتمر والبريطانيين خلال سنوات الحرب كان نتيجة حتمية بسبب افرازات الحرب وما يصطحب الحروب عادة من إرهاف للإحساس وإثارة للشعور الوطنى وانتشار للوعى السياسى بوجه عام وضاعف من كل ذلك أن السودانيين شهدوا خلال سنوات الحرب العالمية الثانية عشرات الآلاف من أبنائهم ينضوون تحت راية قوة الدفاع السودانية ويشاركون مشاركة فعالة فى ساحات القتال فى معركة افريقيا جنباً إلى جنب وعلى قدم المساواة مع جنود الامبرطورية البريطانية وحليفاتها القادمين من أوروبا وأمريكا واستراليا ونيوزيلندا وشبه القارة الهندية . وامتلأت نفوس السودانيين بالشعور بالعزة والثقة وهم يتابعون ويرصدون دور السودان فى ميادين القتال والمجهود الحربى بوجه عام مما أدى إلى انقاذ الشرق الأوسط بأسره من الوقوع فريسة فى أيدى الأعداء .

وفى الواقع أن المجابهة بين المؤتمر والمسئولين البريطانيين فى الخرطوم بدأت قبل شهر تقريباً من دخول ايطاليا الحرب عندما رفع المؤتمر مذكرة إلى سير دوغلاس نيوبولد (السكرتير الادارى) يطلب فيها من الحكومة إعطاء الأراء والمقترحات التى يقدمها من حين لآخر ما تستحقه من الاعتبار وذلك فى ما يتعلق بالقضايا العامة التى تكون الحكومة طرفاً فيها أو التى تقع ضمن دائرة سياساتها واهتماماتها . ولقيت المذكرة قبولاً لدى المسئولين البريطانيين وكان من الممكن أن يقف الأمر عند هذا الحد . وكفى الله المؤمنين القتال – لولا أن المسئولين البريطانيين أعربوا فى الوقت نفسه عن تمسكهم بأن مؤتمر الخريجين تنظيم شبه عام تقتصر اهتماماته على الشئون الخيرية والعامة ومؤهل لأن تكون له وجهات نظر فى تلك الشئون يعبر عنها ولكن يتعين على المؤتمر ألاّ يسعى للحصول على اعتراف رسمى به كتنظيم سياسى أو يدعى تمثيل وجهات نظر أى أحد بخلاف أعضائه . وأقدم المسئولون البريطانيون – بدلاً من إصلاح هذا الشرخ الذى لا مبرر له – على الدخول فى مجابهة مع موظفى الحكومة السودانيين حول نظام العطلات وشروط الخدمة وأبى المسئولون البريطانيون حتى الاعتراف بأن هذا يقع ضمن صلاحيات المؤتمر مع أن أغلبية أولئك الموظفين أعضاء فيه . وفى ظل هذا الجو المكفهر أعلنت ايطاليا الحرب وكان اجتماع القصر الذى مثل فيه المؤتمر واشترك فيه إلى جانب مندوبه



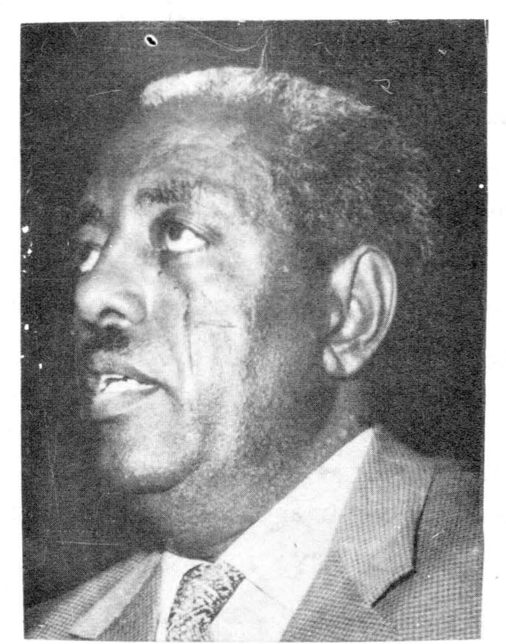
محمد أحمد محجوب

عدد من كبار أعضاء المؤتمر الذين وجهت الدعوة إليهم بحكم مناصبهم الحكومية أو مكانتهم الاجتماعية . وأعرب المجتمعون عن تجاوبهم مع قرار الحاكم العام بإعلان الحرب ضد ايطاليا على نحو ما أسلفنا في فصل سابق . ولكن ظل قائماً الشعور بالامتعاض من رفض المسئولين البريطانيين الاعتراف بحق مؤتمر الخريجين العام في التحدث باسم شعب السودان بأسره مما أسفر في آخر الأمر إلى استقالة لجنة المؤتمر التنفيذية المؤلفة من ١٥ عضواً وحلت مكانها لجنة أخرى أصدرت في أول خطوة اتخذتها قراراً بمنع أعضاء المؤتمر من التعامل مع «اذاعة أم درمان» وأعقب ذلك مقال في جريدة النيل بقلم رئيس تحريرها الأستاذ أحمد يوسف هاشم اقترح فيه امتناع أعضاء المؤتمر عن التطوع للخدمة العسكرية ما لم توافق اللجنة التنفيذية على ذلك كما دعا إلى توسيع قاعدة عضوية المؤتمر لكى تشمل التجار والمزارعين .

ولم يخف البريطانيون انزعاجهم من موقف المؤتمر هذا وإمكانية تطوره إلى موقف سلبى صريح زيادة على ما ينطوى عليه من عوامل يمكن أن يتخذها المحور والعناصر المتعاطفة معه في المنطقة العربية مادة للدعاية المعادية أو وقوداً لأثارة الفتنة داخل السودان . وهكذا سارع السكرتير الادارى في آخر اكتوبر ١٩٤٠ بتوجيه تحذير إلى قيادة مؤتمر الخريجين لافتاً نظرها إلى أن تصرفاتها الأخيرة تعتبر خروجاً على دستور المؤتمر نصاً وروحاً وعلى التفاهم الذى ظل قائماً بين الحكومة والمؤتمر منذ نشأته وذكر السكرتير الادارى – الذى كان يعتبر نفسه صديقاً للمؤتمر – أنه لم يعد في امكانه الاستمرار في تعاطفه مع المؤتمر . وأردف السكرتير الادارى هذا التحذير بمقابلة عاجلة مع الاستاذ إسماعيل الأزهرى الذى أكد له حرص المؤتمر على بذل كل ما في وسعه للإبقاء على عطف الحكومة وتاييدها له في اطار التزام المؤتمر بدستوره نصاً وروحاً .

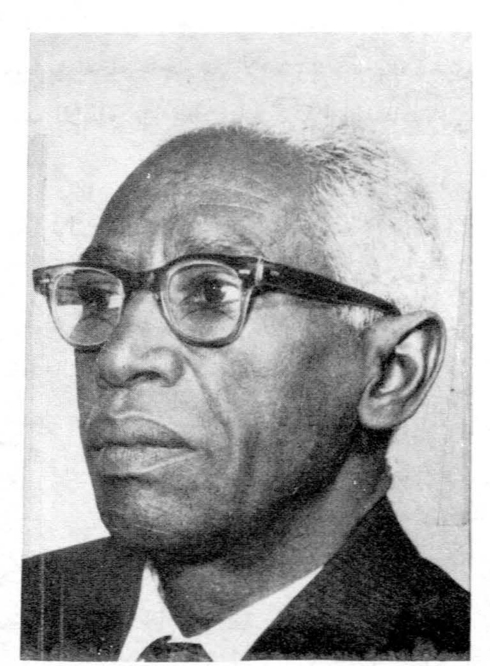
وتنفس المسئولون البريطانيون الصعداء قليلاً عندما تولت قيادة المؤتمر في العام التالى «١٩٤١» لجنة تنفيذية أكثر اعتدالاً من اللجنة السابقة وتبنت هذه اللجنة الجديدة مشروعات إصلاحية في مقدمتها مشروع يوم التعليم لدعم وانشاء المدارس غير الحكومية عن طريق جمع التبرعات العينية والنقدية من المواطنين وتم في عهدها أيضاً الغاء الحظر الذى فرضته اللجنة السابقة على التعامل مع اذاعة أم درمان . ولكن اللجنة الجديدة لم تتراجع عن سياسة توسيع قاعدة العضوية في المؤتمر وسجلت قائمة العضوية بالفعل خلال ذلك العام رقماً قياسياً اذ بلغ عدد الأعضاء المسجلين بحلول العام التالى حوالى ألف وخمسمائة .

ثم تنفس المسئولون البريطانيون مزيداً من الصعداء وهللوا عندما أسفر الاقتراع الدورى في عام ١٩٤٢ عن هزيمة نكراء للعناصر التى قادها تعاطفها مع مصر إلى مناكفة المسئولين البريطانيين . وجاءت هذه المرة لجنة تنفيذية أكثر اعتدالاً من اللجنة التى حلت مكانها وأسند منصب رئيس المؤتمر إلى الاستاذ ابراهيم أحمد وتولى منصب الأمين العام الأستاذ عوض ساتى . ويعزى هذا التحول



خضر حمد رائد الدعوة لأنشاء المؤتمر

أقطاب حزب الإتحاديين جماعة الأبروفيين



إبراهيم يوسف سليمان



عبد الله ميرغنى

الصارخ في قيادة المؤتمر إلى انحياز جماعة الأبروفيين الذين يمثلون طبقة الانتليجنسيا الوطنية داخل المؤتمر إلى المعسكر المناوئ لجماعة الأستاذ الأزهرى التى اشتهرت في ما بعد باسم حزب الاشقاء. ويذكر المعاصرون أن الأستاذ خضر حمد صعد إلى المنبر خلال الحملة الانتخابية في ذلك العام وهتف صائحاً «آمنت برب ابراهيم» ولم يكن الأستاذ خضر حمد زعيماً لجماعة الأبروفيين فحسب وأنما كان أول من طرح فكرة قيام مؤتمر الخريجين. وعلى أية حال لم تطل فرحة المسئولين البريطانيين بالقيادة المعتدلة الجديدة للمؤتمر وغاب عنهم في غمرة فرحتهم أن لله جنوداً منها العسل فقد أوقدت تلك القيادة نار صراع مرير وطويل بين المؤتمر والمسئولين البريطانيين في الخرطوم قضى على أى أمل في قيام علاقات ودية بين الطرفين في المستقبل. ولم يصدر ذلك الصراع عن فراغ وانما تضافرت على اشعاله أحداث وقعت خلال النصف الأخير من عام ١٩٤١ والنصف الأولى من العام التالى أذكت المشاعر الوطنية وفتحت آفاقاً جديدة أمام الفكر السياسى. ففي أغسطس ١٩٤١ أعلن الحلفاء ميثاق الأطلسى الذى كفل للشعوب حق تقرير المصير وحريتها في ممارسته ووقعت على الميثاق في يناير ١٩٤٢ ست وعشرون دولة حليفة بينها دول لا تتعدى مساهمتها في الحرب معشار ما قدمه شعب السودان مادياً ومعنوياً. وفي أبريل عام ١٩٤٢ قام الوزير البريطاني سير ستافورد كريبس بزيارة إلى السودان وأدلى بتصريحات صحفية جاء فيها «أننا نتطلع جميعاً للمستقبل وأن السودان يقوم بدوره في المجهود الحربى خير قيام وسوف يعود عليه ذلك بمكان في العهد الجديد الذى نأمل أن يسود العالم عندما يتحقق لنا القضاء على قوى الشر. وهنالك أشياء كثيرة في انتظار التنفيذ وعلينا أن نقدم على ذلك بخطوات أسرع مما كنا نفعل في الماضي» ونصح سير ستافورد كريبس المسئولين البريطانيين في السودان بالانصراف فوراً إلى أنشاء مجلس استشارى سودانى بدلاً من انتظار الأحداث. وراجت في تلك الأيام أيضاً أنباء تتحدث عن الاتجاه لإرسال قوات سودانية إلى جبهة القتال في شمال افريقيا مما أضفى أبعاداً جديدة على وعى السودانيين وإداركهم لدورهم الفعال في الحرب في إطار استراتيجية الحلفاء.

وفى وسط دوامة هذه الأحداث فى الداخل والخارج وبحافز منها عقدت الهيئة الستينية لمؤتمر الخريجين اجتماعاً عاجلاً حضره واحد وثلاثون من أعضائها وأجاز الاجتماع مذكرة باسم الشعب السودانى الى الحاكم العام بوصفه ممثلاً لدولتى الحكم الثنائى. ومن المتفق عليه بين المعاصرين أن المذكرة صاغها أحمد يوسف هاشم ودكتور عبد الحليم محمد وتضم المذكرة – التى اشتهرت فى تاريخ الحركة الوطنية السودانية باسم مذكرة المؤتمر – اثنى عشر مطلباً نكتفى بتلخيصها فى ما يلي:

١ – اصدار حكومتى مصر وبريطانيا اعلاناً مشتركاً فى أول فرصة ممكنة تتعهدان فيه بمنح السودان بحدوده الجغرافية القائمة حق تقرير المصير بعد انتهاء الحرب مباشرة على أن يشفع ذلك بضمانات تكفل حرية التعبير وحق السودانيين فى تقرير العلاقة بين الشعبين المصرى والسودانى

بمقتضى اتفاقية خاصة بين الطرفين .

٢ – انشاء هيئة من السودانيين لاجازة الميزانية العامة والتشريعات .

٣ – اقامة مجلس للتعليم العالي أغلبيته من السودانيين وتخصيص ١٢ فى المائة على الأقل من الميزانية العامة للتعليم .

٤ – استغلال القضاء عن السلطة التنفيذية .

٥ – الغاء قانون المناطق المقفولة ورفع القيود المفروضة علي التجار وتنقل المواطنين داخل السودان .

٦ – اصدار قانون الجنسية السودانية .

٧ – ايقاف الهجرة الى السودان من غرب افريقيا وغيرها الا فى حدود ما نصت عليه معاهدة الحكم الثنائى بين مصر وبريطانيا .

٨ – الغاء العقد المبرم مع الشركة الزراعية البريطانية (مشروع الجزيرة) عندما ينتهي أمده .

٩ – تحقيق الرفاهية المنصوص عليها فى اتفاقيات الحكم الثنائى وذلك باعطاء السودانيين فرصة المشاركة فى حكم بلادهم وتعيينهم فى المناصب ذات المسئوليات السياسية مع اقتصار التعيين فى الوظائف الحكومية على السودانيين وحدهم ,وفى حالة تعذر وجود السودانيين الأكفاء لملء تلك الوظائف يجرى تعيين أجانب لها ولكن بعقود مؤقتة ريثما يتم تدريب من يخلفهم من السودانيين .

١٠ – تمكين السودانيين من استغلال موارد التجارة والزراعة والصناعة فى بلادهم .

١١ – اصدار قانون يلزم الشركات والمؤسسات التجارية بتخصيص نسبة معقولة من العمل فيها للسودانيين .

١٢ – الغاء الدعم المالي الذى تقدمه الحكومة لمدارس الارساليات المسيحية وتوحيد المناهج الدراسية فى شمال السودان وجنوبه .

وفقد المسئولون البريطانيون فى الخرطوم أعصابهم من جراء هذه المذكرة التى فوجئوا بها وخيبت آمالهم فى الأستاذ ابراهيم أحمد ورفاقه الذين علق البريطانيون عليهم آمالاً عراضاً فى ترويض المؤتمر واخضاعه لمخططاتهم بدلاً من انجرافه وراء القيادة السابقة المتطرفة التى اتسعت دائرة اتصالاتها مع مصر الرسمية والشعبية . وبلغ حنق المسئولين البريطانيين فى الخرطوم حداً لم يكتفوا فيه برفض المذكرة وانما أعادوها الى قيادة المؤتمر كما هى بعد ثلاثة أسابيع من استلامها ومعها رسالة جافة من دوغلاس

نيوبولد (السكرتير الادارى) الى الأستاذ ابراهيم أحمد رئيس المؤتمر أبلغه فيها أن الحاكم العام يرى بعد اطلاعه على المذكرة أن المطالب التى جاءت فيها ترتبط ارتباطاً مباشراً بوضع السودان ودستوره الذى لا سبيل لتعديله الا باجراء مشترك من قبل دولتى الحكم الثنائى، ولكن حكومة السودان تأمل أن تستشير أهل الرأى من السودانيين الذين يقدسون المسئولية اذا قررت مصر وبريطانيا فى المستقبل أعادة النظر فى اتفاقيات الحكم الثنائى . وفى ما عدا ذلك لا تملك حكومة السودان ما يؤهلها لبذل الوعود من عندها أو باسم دولتى الحكم الثنائى لأية مجموعة من الناس أو الدخول معها فى نقاش حول اعادة النظر فى تلك الاتفاقيات .

وجاء فى الرسالة ان مجرد اقدام المؤتمر على تقديم المذكرة فضلاً عن أسلوبها قد أفقده ثقة حكومة السودان ولا سبيل لاستردادها ما لم يسارع المؤتمر باعادة تنظيم ادارته لشئونه على صورة تضمن توجهات الحكومة والالتزام بتحذيراتها . وحملت الرسالة التى دبجها دوغلاس نيوبولد – حسب اعترافه – بتكليف وتوجيه من الحاكم العام تهديداً صريحاً بسحب الاعتراف بالمؤتمر مع تحذيره مرة أخرى من الاستمرار فى ادعائه بأنه تنظيم سياسى ناطق باسم شعب السودان . وأكد نيوبولد فى الرسالة ادراك الحاكم العام ومستشاريه ادراكا كاملا احتياجات السودان وحرص مواطنيه المستنيرين على زيادة مشاركتهم فى حكم بلادهم وتطويرها وادعى بأن هذا ما تسعى له حكومة السودان ولكن يتعين على المثقفين السودانيين أن يظهروا لياقتهم وكفاءتهم لكي يضطلعوا بدورهم فى ادارة شئون بلادهم . وأى تقدم فى هذا المضمار – كما جاء فى الرسالة – سوف يضار ما لم يدرك مؤتمر الخريجين تمسك الحكومة باقتصار نشاطه على شئون السودان الداخلية والمحلية وبتخليه عن أى ادعاء ضمنياً أو سافرا بأنه الناطق باسم السودان بأسره . واختتم نيوبولد رسالته الى الأستاذ ابراهيم أحمد رئيس المؤتمر بالعبارة التالية « يود معالي الحاكم العام أن أقول لكم أنه يشعر بأسف عميق لاعتقادكم بأن من اللائق اقدامكم دون تريث على رفع مثل هذه المذكرة الى معاليه » .

وأثار موقف الحكومة العدائى من مذكرة المؤتمر موجة عارمة من الاستياء بين المواطنين فى طول البلاد وعرضها وخاصة فى أوساط الخريجين وأصبح ذلك موضوع الساعة فى ما يدور من نقاش فى المحلات العامة وأندية الخريجين وفى بيوت الأفراح والمآتم . وتحولت مراكب الترام التى يستقلها الموظفون فى رحلاتهم الى أماكن عملهم فى الخرطوم والعودة منها لام درمان فى نهاية اليوم – تحولت الى ندوات سياسية متنقلة . أما قيادة المؤتمر فقد اعتبرت اعادة المذكرة اليها ورسالة نيوبولد موقفاً سلبياً وغير ودى من جانب حكومة السودان فى الوقت الذى ظل المؤتمر فيه ومنذ مولده يعمل جاهداً على التعاون مع هذه الحكومة وتقديم خدمات كثيرة اعترفت بها فى حينها وكانت موضعاً لتقدير المسئولين البريطانيين فى الخرطوم . ومن الواضح ان الحاكم العام ومستشاريه ارتكبوا خطأ فاحشاً وأوقدوا نار معركة هم فى غنى عنها بدلاً من استقبال المذكرة فى هدوء ورحابة صدر باعتبارها صادرة من مواطنين

سودانيين بدافع من مسئولياتهم تجاه بلادهم الى رأس الادارة المسئولة عن شئون السودان خاصة ان المطالب التى ضمنتها المذكرة تتعلق بقضايا تقع فى اطار مسئوليات تلك الادارة ولا تقتضى – باستثناء المطلب الأول – من قريب أو بعيد اجراء تعديل فى اتفاقيات الحكم الثنائى . وهذا ما أكده رئيس المؤتمر فى رسالته الثانية الى الحاكم العام عن طريق مكتب السكرتير الادارى وذكر فيها بالاضافة الى ذلك ان غرضهم من المطالبة بحق تقرير المصير بعد الحرب هو الاحتفاظ للسودان بالحقوق الطبيعية التى كفلها ميثاق الأطلنطى لسائر الشعوب والتى تضمنتها وعود قادة الديمقراطية وتعهداتهم وأن المؤتمر يعلم أن حكومة السودان لا تملك من الصلاحيات ما يخولها أعادة النظر فى اتفاقيات الحكم الثنائى أو اجراء تعديل فى دستور السودان المستمد منها ولكن فى امكانها رفع مطالبة المؤتمر بتقرير المصير الى دولتى الحكم الثنائى طالما ليس هناك قانون يفرض على السودانيين التقيد باتفاق لم يكونوا طرفاً فيه . وتناول المؤتمر فى هذه المذكرة الثانية التى كانت بتاريخ ١٢ مايو ١٩٣٢ الوضع الدولى فأشار الى ان الأحداث التى وقعت فى العالم منذ عام ١٩٣٨ قد غيرت المعالم والجبهات وانقسم العالم من جرائها الى معسكرين متناحرين فى صراع حول قضية ستقرر مستقبل العالم بطريقة أو أخرى . واتخذ السودان من هذا الصراع موقفاً ينطوى على تضحيات مادية ومعنوية لكى يضمن لنفسه مكاناً فى ظل العهد الجديد . وكل هذه الأشياء – كما جاء فى المذكرة – لابد من ان تكيف موقف الشعوب ازاء الحياة وازاء حقوقهم وتدفع كل فرد فى كل قطر الى التفكير على ضوئها بصورة يتعين معها اجراء تعديل فى الترتيبات القائمة .

ولم يخف المؤتمر دهشته من قيام الحكومة بسحب الثقة منه واستنكارها لنهجه الطبيعي الذى فرضته المتغيرات الدولية على الطبقة المتعلمة من أبناء السودان. وعلى الحكومة أن تكون أعظم ادراكاً من غيرها لمسئوليات تلك الطبقة . وحمل المؤتمر الحكومة مسئولية قطع حبال التعاون الذى كان قائماً بينه وبين الحكومة وأبدى أمتعاضه من اعادة المذكرة اليه لأن ذلك فى حد ذاته يعنى ضمنياً انكار الحكومة لقواعد العدالة وروح الديمقراطية الأصيلة ويكشف عن روحها القاسية المتجهمة التى تنظر من خلالها الى رغبات السودانيين وتطلعاتهم ان لم يكن – على الأقل – الى تنظيم المؤتمر الذى تعترف به الحكومة نفسها كتنظيم يمثل الطبقة المستنيرة . وتساءل المؤتمر فى هذه المذكرة الثانية المرفوعة الى الحاكم العام – تساءل فى تهكم ظاهر : لماذا تحتكر الحكومة الحق فى تقرير شئوننا دون وضع اعتبار لوجهة نظر المؤتمر فى الوقت الذى يدرك فيه الحاكم العام ومستشاروه ادراكاً تاماً احتياجات السودان ورغباته الطبيعية المشروعة التى يدعو لها المؤتمر؟؟ وتناولت المذكرة موضوع الوصاية فأوردت أن للوصاية شروطاً كثيرة بينها ما ينص على وجوب استشارة القاصر عندما يبلغ مرحلة التمييز ثم رفع الوصاية عندما يبلغ سن الرشد وقد وصل السودانيون الى المرحلة الأولى ان لم يكونوا قد بلغوا سن الرشد بعد نصف قرن أمضوه تحت رعاية الحكومة القائمة . ولم يفت على المؤتمر فى هذه المذكرة الثانية والتى تحمل توقيع

رئيسه الاستاذ ابراهيم أحمد – لم يفت عليه لفت نظر الحكومة الى أنها رفضت جميع مطالبه الواردة فى مذكرته الأولى شكلاً وموضوعاً وهكذا لم تقتصر على رفض ما تعتبره مطالب خارجة عن دائرة صلاحياتها . ودافع المؤتمر أيضاً عن تمسكه بتمثيله للبلاد بوجه عام بأن الأحداث أثبتت أن جميع قراراته وتصرفاته قوبلت بالاهتمام والتأييد من جانب سائر الطبقات يضاف الى ذلك أن السودان ليس فيه تنظيم مماثل لمؤتمر الخريجين وما من شك فى أنه فى مثل هذه الظروف يعبر تعبيراً صادقاً عن الرأى العام فى البلاد . وأعرب المؤتمر فى الختام عن عدم اقتناعه بمحتويات الرسالة التى أرفقها دوغلاوس نيوبولد مع المذكرة التى أعيدت اليه وأكد المؤتمر تمسكه بالمطالب العادلة الواردة فى المذكرة التى ربما أساءت الحكومة فهمها – على حد تعبيره – والتى لا يوجد ما يمنع التفاهم بشأنها اذا كانت المصلحة العامة هدفاً مشتركاً بين الجميع وهي فوق ذلك مطالب ظل أبناء السودان ينادون بها منذ عهد طويل وسوف تتحقق فى ظل قضية الديمقراطية التى قام السودان بدوره الفعال فى الدفاع عنها .

وقابل الحاكم العام هذه المذكرة الثانية من المؤتمر بالرفض وقال دوغلاس نيوبولد (السكرتير الادارى) فى رسالة بعث بها الى رئيس المؤتمر بتكليف من الحاكم العام بتاريخ ١٦ يونيو ١٩٤٢ – قال ان معاليه لا يرى ما يدعو الى تغيير موقفه وليس مستعداً لقبول مطالب من قبل المؤتمر تتعلق بدستور السودان ومستقبله السياسى أو ادعاء المؤتمر بأنه الناطق باسم شعب السودان بأسره ولا يحق له باعتباره التنظيم الوحيد للمتعلمين السودانيين أن يحتكر لنفسه الحكمة وتقديم النصح وتمثيل السودان بأسره وعلى أساس ذلك يستنكر معالي الحاكم العام افتراض المؤتمر الذى لا سند له بأن جميع الطبقات فى السودان تؤيده دائماً فى كل تصرفاته . ويرى الحاكم العام من ناحية أخرى – كما جاء فى الرسالة – أن السودانيين مقيدون باتفاقيات الحكم الثنائى وأن أحداث الحرب القائمة أو التيارات الجديدة الناجمة عنها لا تفرض تلقائياً اجراء تعديل فى تلك الاتفاقيات .

ولم يقنع الحاكم العام بالتشديد على موقفه السابق من المؤتمر ومطالبه وانما تمادى في التحدى والاستفزاز فأثار هذه المرة قضية جديدة ما أغناه عن اثارتها لو أنه كان حريصاً حقاً على تجنب المجابهة وجر المؤتمر إلى معركة لا تحمد عقباها . فقد ذكر نيوبولد في الرسالة التى نحن بصددها أن الحاكم العام يود لفت نظر أعضاء مؤتمر الخريجين الذين يشغلون مناصب حكومية إلى الإلتزامات التى تفرضها الوظيفة الحكومية عليهم ولن يكون أمام الحكومة خيار سوى منع موظفيها من الانضواء تحت راية المؤتمر اذا أصر المؤتمر على تحوله إلى تنظيم سياسى وعلى التصدى للقضايا الدستورية أو القضايا التى يمكن أن تتعارض مع سياسات الحكومة . ولا بد من أن كثيرين من السودانيين داخل المؤتمر وخارجه أصابتهم حيرة بالغة من جراء التناقض الظاهر في موقف الحكومة العدائى من المؤتمر فهى من ناحية تؤكد تفهمها وحرصها على تطور السودان ومشاركة أبنائه في حكم بلادهم بينما تعادى من الناحية الأخرى طبقة المتعلمين الذين لا يمكن أن يتم ذلك التطور والمشاركة بدونهم . كما أن انكار الحاكم

العام ومستشاريه البريطانيين للتيارات والمتغيرات الجديدة التى فرضتها ظروف الحروب يكشف عن تجاهلهم المتعمد أوغير المقصود لرياح التحول التى سرعان ما اجتاحت السودان وغيره من المستعمرات البريطانية فور انتهاء الحرب وفوجئ المسئولون البريطانيون ـ وهم على غير استعداد – في كل مكان بصفوف متراصة من حملة الشيكات المتأخرة التى حل يوم سدادها . وليس في موقف حكومة السودان ما يدعو إلى الاستغراب لأن من السهل على حكومة مثلها لا يأتيها حافز من السلطات العليا في لندن أو القاهرة ولا تواجه انتقادات من الصحافة أو على الصعيد غير الرسمى وتحت امرتها شعب ذلول – من السهل على مثل تلك الحكومة الانزلاق إلى عقلية روتينية تنفر من التبديل والتغيير وإلى عدم المبالاة بما يكتنف العالم من تحركات وتيارات .

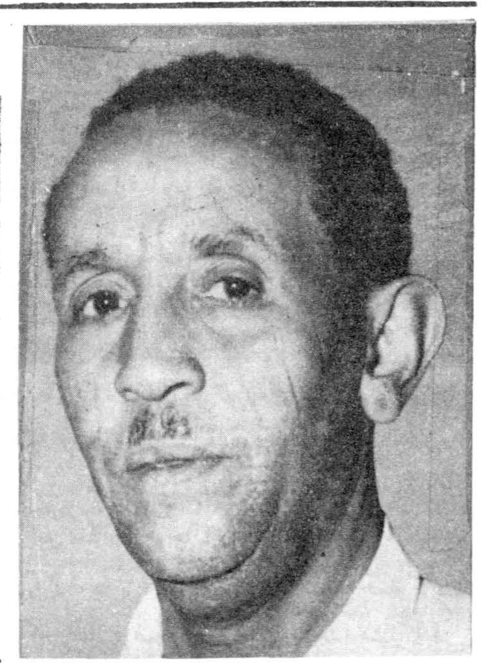
ويبدو أن ما أحدثه موقف الحكومة من ضجة واستياء أفزع المسئولين البريطانيين في الخرطوم مما دفعهم إلى التفكير في إعادة النظر في موقفهم من المؤتمر ومطالبه والعمل على انقاذ ما يمكن انقاذه فاستدعى نيوبولد إلى مكتبه بعد مرور شهر من رسالته الثانية الأستاذ ابراهيم أحمد واثنين من زملائه وأبلغهم أن تطوير السودان وزيادة مشاركة أبنائه في الحكم يمثلان ركناً أساسياً في سياسات الحكومة . واعترف أمامهم بعداء المسئولين البريطانيين للمؤتمر معللاً ذلك بأنه يرجع إلى ما تبديه الصحافة من عداء ضدهم وإلى اصرار المؤتمر على أنه يمثل السودان بأسره واستمراره في تجنيد أعداد كبيرة لعضويته من غير الخريجين غير أن ذلك لا يعنى – كما قال نيوبولد – أن موقف الحكومة الذى أوضحه في رسالتيه الأولى والثانية صادر عن عدائها لطبقة المتعلمين .

وأردف نيوبولد المقابلة في اليوم التالى برسالة إلى الأستاذ ابراهيم أحمد سجل فيها ما قاله في اليوم السابق خلال المقابلة كما أوضح أن الحكومة تقوم باتخاذ خطوات فعالة لتحقيق مشاركة السودانيين في حكم بلادهم وتحميلهم مسئوليات أوسع في هذا المجال وقال عن الاعتراف بالمؤتمر كتنظيم سياسى وإنضمام الموظفين إلى عضويته أنه لا اعتراض على قيام قادة الرأى السودانيين وموظفى الحكومة المسئولين بعرض وجهات نظرهم في الموضوعات السياسية على الحكومة عن طريق الوفود أو الاتصالات الشخصية إلى أن يأتى الوقت الذى تتوفر فيه المؤسسات المؤهلة لتمثيل وجهات النظر السودانية في الشئون السياسية . وأكد نيوبولد في رسالته هذه المرة أن الحكومة لم تمنع على الاطلاق موظفيها من الاشتراك في مناقشات خاصة ومعقولة حول القضايا السياسية ولكن شريطة ألا يعرقل ذلك أو يضير الولاء الذى يتطلبه تنفيذ السياسات الحكومية المعتمدة .

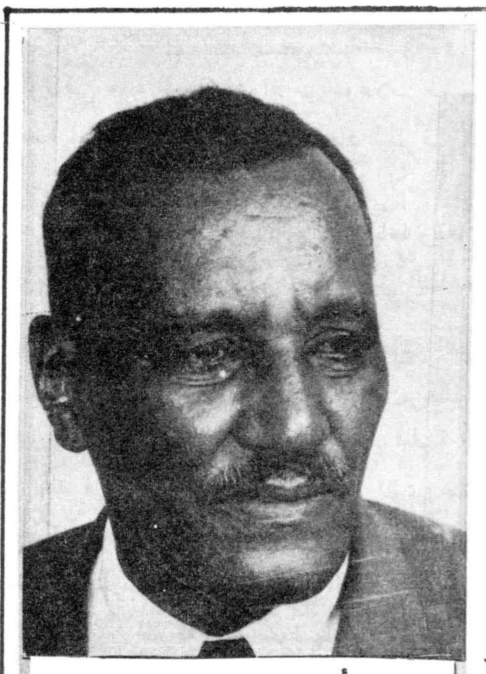
ولقيت هذه الرسالة والتى كانت بتاريخ ١٧ يوليو قبولاً بين أوساط المعتدلين في المؤتمر ولجنته التنفيذية . ووصف الأستاذ ابراهيم أحمد في مذكرته إلى دوغلاس نيوبولد بتاريخ ٢٣ يوليو (١٩٤٢) ما جرى في المقابلة بأنه تأكيد لتعاطف الحكومة مع المؤتمر في آماله وتطلعاته وقال أنه

ليس ثمة خلاف بين الطرفين في ما يتعلق بتقدم السودان ومستقبله . ويبدو أن الأستاذ ابراهيم أحمد انتزع في هذه المرحلة اعترافاً من دوغلاس نيوبولد ومساعده المستر بنى المسئول عن دائرة المخابرات وعداً بإستشارة السودانيين عندما يعاد النظر في المستقبل في اتفاقيات الحكم الثنائى وبانشاء مجلس نيابى إستشارى من السودانيين . وذكر الأستاذ ابراهيم أحمد أيضاً أن المؤتمر سوف ينتظر باهتمام من الحكومة اتخاذ خطوات تثبت حسن نواياها ويأمل صادقاً في استمرار الاتصالات بينه وبين المسئولين البريطانيين في الخرطوم من أجل تحقيق التفاهم بينهما حول المطالب الواردة في مذكرة المؤتمر .

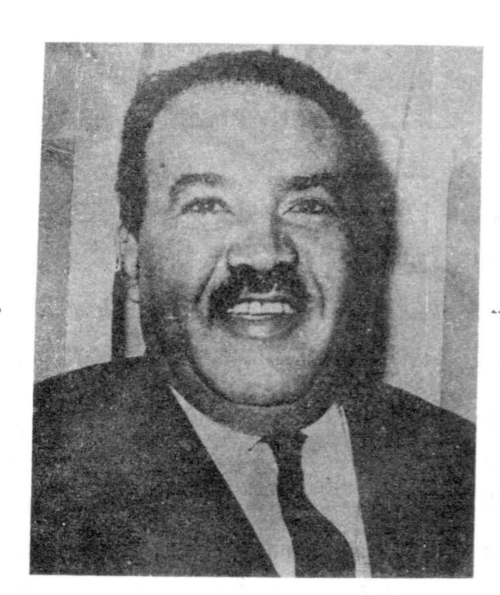
والملاحظة الجديرة بالتسجيل أن المجابهة التى احتدمت بين المؤتمر والحكومة لم تنل من موقف السودان الصامد في الحرب إلى جانب بريطانيا وحليفاتها ولم تقلل من حماسة أبنائه في النهوض بدورهم كاملاً غير منقوص على صعيد الجبهة الداخلية وفي ميادين القتال . وقد أشار دوغلاس نيوبولد في أحدى رسائله إلى رئيس المؤتمر عندما كانت المجابهة في عنفوانها – أشار إلى اعتراف الحاكم العام بولاء السودانيين وما قدموه من عون كبير بالمال والرجال في الدفاع عن السودان ومباشرة الحرب بوجه عام . وفي الواقع أن قيادة المؤتمر الواعية بزعامة الأستاذ ابراهيم أحمد كانت تدرك أن بين المعركة التى تخوضها في الخرطوم والمعركة الدائرة ضد المحور هدفاً واحداً مشتركا في ما يتصل بالسودان وأن التقصير في أية منهما سوف تنعكس آثاره السيئة على الآخر فمستقبل السودان مرتبط بمصير العالم كله ولا سبيل لتحقيق آماله ومطامحه التى عبر عنها مؤتمر الخريجين ما لم تسد مبادئ الحرية والعدالة المجتمع الانسانى بأسره وتصبح قاعدة ومعياراً للتعامل بين الشعوب في مشارق الأرض ومغاربها . وهذه هى المبادئ التى ساقت أبناء السودان في الحضر والبادية إلى مناصرة بريطانيا وحليفاتها في حربها ضد قوى الشر المحورية وتحملوا في سبيل ذلك المشاق والعناء . فكيف لا يلقون بعد كل ذلك سوى جزاء سنمار؟؟ وهل جزاء الاحسان غير الاحسان؟؟ ولعل المسئولين البريطانيين في الخرطوم حسبوا اعتدال الأستاذ ابراهيم أحمد ورفاقه في قيادة المؤتمر تهاوناً في حقوق السودان الوطنية ورضوخاً لهم لا موقفاً أملاه الوعى السياسى القومى وإدراك قادة المؤتمر لمسئولياتهم تجاه بلادهم وتجاه المجتمع الانسانى في الحاضر والمستقبل . وأدى التعليل الخاطئ من جانب المسئولين البريطانيين لموقف قيادة المؤتمر وما ترتب عليه من رفض للمطالب التى حوتها المذكرة بصورة لا تخلو من احتقار وامتهان – أدى إلى اضعاف موقف المعتدلين بقيادة الأستاذ ابراهيم أحمد في صراعهم داخل المؤتمر مع العناصر المتطرفة بقيادة الأستاذ الأزهرى التى نمت صلاتها بمصر على الصعيدين الشعبى والرسمى . وفسرت العناصر المتطرفة اعتدال الطرف الآخر بأنه تهاون في حقوق السودان وإنسياق وراء المخططات البريطانية . وشهد شهر سبتمبر من عام ١٩٤٢ تحولاً كبيراً في سلوك مؤتمر الخريجين رغم المؤشرات التى توحى بإمكانية عودة التفاهم بينه وبين الحكومة التى اقتصرت في اظهار حسن نواياها على وعد بإجراء إصلاحات في الحكم المحلى (المجالس البلدية والريفية)



أحمد يوسف هاشم



ابراهيم أحمد مهندس الحركة الوطنية



مكى عبـاس

وتعيين السودانيين في المناصب التى يشغلها بريطانيون ومصريون وسوريون . كما أقدمت الحكومة على تعيين موظف بريطاني كبير ليكون حلقة اتصال بينها وبين ذوى الرأى السودانيين الذين يقدسون المسئولية من جميع القطاعات . وهكذا أصبح الطريق ممهداً أمام العناصر المتطرفة للسيطرة على المؤتمر مرة أخرى وهى السيطرة التى بقيت في أيديهم منذ ذلك التاريخ وإلى أن لفظ مؤتمر الخريجين أنفاسه الأخيرة . وما من شك في أن هزيمة الأستاذ ابراهيم أحمد وجماعته في انتخابات المؤتمر التى جرت في ذلك العام تعزى في المقام الأول إلى إلتجاء العناصر المتطرفة لتأليب الرأى العام وفي داخل المؤتمر ضد معسكر الأستاذ ابراهيم أحمد مستعينة في ذلك بالصحافة في الخرطوم والقاهرة كما تعزى أيضاً للموقف العدائى الذى اتخذته الحكومة ضد المؤتمر ومطالبه . ولكن ينبغى الاعتراف – للحقيقة والتاريخ – بأن الأستاذ ابراهيم أحمد اختط خلال الفترة القصيرة التى تقلد فيها منصب رئيس المؤتمر الطريق الذى سارت الحركة الوطنية فيه إلى أن حصل السودان على حقه في تقرير مصيره ونال استقلاله كاملاً رغم المحاولات الكثيرة التى بذلت في الداخل والخارج للإنحراف عن ذلك . ولعل يد القدر وحدها هى التى دفعت بالأستاذ ابراهيم أحمد إلى منصب قيادة المؤتمر في ذلك العام لكى يرفع تلك المذكرة التاريخية إلى الحاكم العام التى لم تقتصر على اثارة حفيظة المسئولين البريطانيين وانما أثارت أيضاً وفي الوقت نفسه شعوراً جارفاً بالإرتياب في أوساط القاهرة فى توجهات المؤتمر مما جعل من المشكوك فيه أقدام العناصر المتطرفة بقيادة الأستاذ الأزهرى على توجيه مثل تلك المذكرة لو أنها كانت هى المسيطرة على المؤتمر في ذلك العام . ويكفى أن المذكرة تضمنت المطالبة بحق السودان في تقرير مصيره بعد انتهاء الحرب وهو أمر تنكره مصر المتشبثة بوحدة وادى النيل وقد وصلت علاقاتها مع الأزهرى ومعسكره في تلك المرحلة درجة أصبح كل منهما شديد الاعتماد على الآخر . وهكذا لا يمكن اقدام الأزهرى ومعسكره على خطوة لا ترضاها مصر الرسمية والشعبية . وقد أهلت ابراهيم أحمد للقيام بذلك الدور المصيرى صفاته وسجاياه الممتازة فقد كان عملاقاً في فكره صادقاً في وطنيته ولا تأخذه في الحق لومة لائم ويؤمن كأستاذ في الهندسة تخرج على يديه عشرات المهندسين السودانيين بأن الخط المستقيم أقرب الطرق إلى الهدف . وأعتبره المسئولون البريطانيون في الخرطوم مسئولاً شخصياً عن تصرفات المؤتمر بما في ذلك المذكرة التى تضمنت اثنى عشرة مطلباً وليس أدل على ذلك من أن دوغلاس نيوبولد (السكرتير الادارى) كان حريصاً في رسائله إلى ابراهيم أفندى أحمد – على حد تعبيره– على التأكيد بأنها رسائل شخصية بحتة . وعندما أنشأ السيد عبد الرحمن المهدى بإيعاز من البريطانيين حزب الامة كترياق مضاد للحركة الوطنية نصحه البريطانيون بابعاد ابراهيم أحمد والعناصر الاستقلالية التى ناصرته خلال فترة رئاسته للمؤتمر مثل أحمد يوسف هاشم (أبو الصحف) ودكتور عبد الحليم محمد اللذين أسسا في ما بعد حزب القوميين – ونصر حاج على وعوض ساتى اللذين شاركا في تأسيس ما عرف في ما بعد باسم

حزب الأحرار . غير أن أغلبية معسكر الأستاذ ابراهيم انضموا لإعتبارات طائفية بحتة إلى حزب الأمة الواجهة السياسية لطائفة الأنصار .

ولما أحس المسئولون البريطانيون بأن زمام الأمور يوشك على الافلات منهم بسبب تعنتهم ضد المؤتمر الذى أدى الى هيمنة العناصر المتطرفة على قيادته أعلنوا عن عزمهم على تشكيل مجلس استشارى لشمال السودان مهمته تقديم المشورة الى الحاكم العام فى الأمور التى يعرضها على المجلس وتلقى بيانات وايضاحات عن سياسات الحكومة ونشاطاتها . وفى امكان أعضاء المجلس الى جانب ذلك وبعد موافقة الحاكم العام تقديم استجوابات من عندهم ولكن ذلك لا يشمل موضوعات محظورة بينها الشئون الدفاعية والتزامات الحكومة . وتقرر مبدئياً حينذاك عقد الجلسة الافتتاحية للمجلس الاستشارى قبل نهاية العام التالى (١٩٤٣) وصدر القانون الخاص به بالفعل فى شهر سبتمبر (١٩٤٢) ووصفه المسئولون البريطانيون بأنه أبعد أثراً من أية خطوة اتخذتها حكومة السودان من قبل تنفيذاً لسياساتها الرامية الى اشراك السودانيين فى حكم بلادهم . ولم تتردد وزارة الخارجية البريطانية فى الموافقة على القانون بينما قوبل فى أروقة مؤتمر الخريجين بالاعتراض والانتقاد بحجة أن المجلس بتكوينه وصلاحياته قاصر على شمال السودان وحده دون الجنوب مما يعتبر خطوة فى طريق الانفصال كما أن يد المجلس ستظل مغلولة من جراء القيود الكثيرة المفروضة عليه وسيظل دوره استشارياً حتى فى الأمور التى تتفضل الحكومة بعرضها أو تسمح باثارتها من جانب الأعضاء. أنه مجلس مسلوب الارادة وعديم الاستفادة كما وصفه يومذاك الأستاذ عبد الله ميرغنى أحد أقطاب المؤتمر المعتدلين . وازاء ذلك أصدر المؤتمر قراراً بمقاطعة المجلس الاستشارى وبذلت مساع كثيرة دون جدوى لتنازل المؤتمر عن قراره كما باءت بالفشل المحاولات التى بذلها المسئولون البريطانيون والسيدان على الميرغنى وعبد الرحمن المهدى لاقناع بعض القياديين فى أوساط الخريجين بقبول الاشتراك فى المجلس بصفاتهم الشخصية .

وقد أجازت الهيئة الستينية للمؤتمر قرار المقاطعة بأغلبية ٢٩ مقابل ١٩ صوتاً . ووجه سير دوغلاس نيوبولد خطاباً من اذاعة أمدرمان رد فيه على الانتقادات التى ساقها المؤتمر والصحف فى الخرطوم والقاهرة . وذكر فى رده أن المجلس الاستشارى ليس بالضرورة هيئة دائمة وانما هو مرحلة انتقالية أو مجرد محطة فى طريق التقدم وأن الحكومة لا تعتبره حلاً حقيقياً يشبع الحد الأقصى من آمال السودانيين وتطلعاتهم . وجاء فى الخطاب أيضاً أن قانون المجلس لا ينطوى على سياسات خفية تستهدف فصل جنوب السودان عن شماله وأن الحكومة لم تتخذ مطلقاً قراراً فى هذا الشأن ولا يدخل ذلك ضمن صلاحياتها بمقتضى اتفاقيات الحكم الثنائى وأن اقتصار مهمة المجلس الاستشارى على الشمال يعزى الى أن جنوب السودان لم يحقق لأسباب تاريخية وطبيعية درجة من الوعى والتماسك تمكنه من ايفاد مندوبين أكفاء الى مجلس من هذا القبيل وليس بين السودانيين الشماليين من يمكنه أن يدعى

تمثيل سكان الجنوب .

وعقد المجلس الاستشارى جلسته الافتتاحية فى قصر الحاكم العام بالخرطوم فى الخامس عشر من مايو ١٩٤٤ وكانت الجلسة – على علاتها – أول تعبير ملموس عن بروز السودانيين كشعب الى حيز الوجود منذ اخضاعهم بالقوة لسيطرة الحكم الثنائى . وما من شك فى أنها كانت أيضاً المرة الأولى التى يلتقى فيها تشكيل شبه نيابي معظم أعضائه من السودانيين للتشاور بصفة رسمية مع الحكومة . ولا ينبغي أن يغيب عن البال أن شمال السودان الذى يمثله المجلس الاستشارى حسب ادعاء القائمين على أمره من بريطانيين وسودانيين يضم أربعة ملايين وخمسمائة ألف من جملة سكان السودان البالغ تعدادهم آنذاك ستة ملايين نسمة . ونورد فى ما يلي مقتطفات من رسالة تلقتها صحيفة التايمز البريطانية من مراسلها فى الخرطوم عن الجلسة الافتتاحية للمجلس الاستشارى –

« يأتى المشهد الذى جرت أحداثه فى القصر كأيضاح ملموس لبروز الأمة السودانية الى حيز الوجود على الصورة التى رسمها سير هيوبرت هدلستون باللفظ والكلمات . وجلس الى جانب الحاكم العام والسكرتيريين (الادارى والمالي والقضائى) الزعيمان الدينيان الرئيسيان السير السيد على الميرغنى باشا والسير السيد عبد الرحمن المهدى باشا بصفتهما عضوين فخريين . وثانيهما هو ابن المهدى الذى قتل جنوده الجنرال غوردون وقد ولد بعد وفاة أبيه . ومن المفارقات أن المجلس الاستشارى عقد جلسته الافتتاحية فى القصر فى الخرطوم على مسافة خمس ياردات من الموضع الذى سقط فيه غوردون مضرجاً بدمائه . ويضم المجلس مفتيين سابقين بكسوتيهما الدينيتن الارجوانيتين الى جانب زعماء القبائل العربية فى ثيابهم القرمزية المزركشة باللونين الذهبي والأزرق . وبين هؤلاء الزعماء سلطان دار مساليت الذى نقل على محفة الى قاعة المجلس فى القصر من المستشفى الذى يعالج فيه . وهنالك أيضاً بين أعضاء المجلس نظار قبائل الهدندوة والرزيقات والجوامعة والمسيرية والشكرية بالاضافة الى ملك الفونج واثنين من صغار شيوخ القبائل وثلاثة من زعماء الحكم المحلي وأربعة من الموظفين العاملين أو المتقاعدين وأربعة آخرين من رجال الأعمال وكبير الضباط الوطنيين فى قوة الدفاع السودانية الذى رقى قبل اسبوع الى رتبة أميرالاى وهذه أول مرة يشغل ضابط سودانى فيها مثل هذه الرتبة العسكرية . وقد جند اثنان من زعماء القبائل – هما ناظر دار بكر فى القضارف وناظر الهدندوة – قوتين غير نظاميتين اشتركتا بامتياز فى القتال ضد الايطاليين فى الجبهة الاريترية فى عام ١٩٤٠ . واحدى هاتين القوتين المعروفة باسم (قوة فروستى) والتى عملت مع القوات النظامية الهندية والبريطانية استمدت هذا الاسم من عبارة (الوجه الصقيعي) كنية زعيم الهدندوة (محمد الأمين ترك) ذى اللحية البيضاء الذى احتل اليوم مقعده فى الجلسة وقد ازدان صدره بوسام الامبرطورية البريطانية الى جانب أعضاء المجلس الآخرين من الموظفين والتجار وشيوخ القبائل للتداول حول مشروعات اعادة تعمير السودان بعد الحرب » .

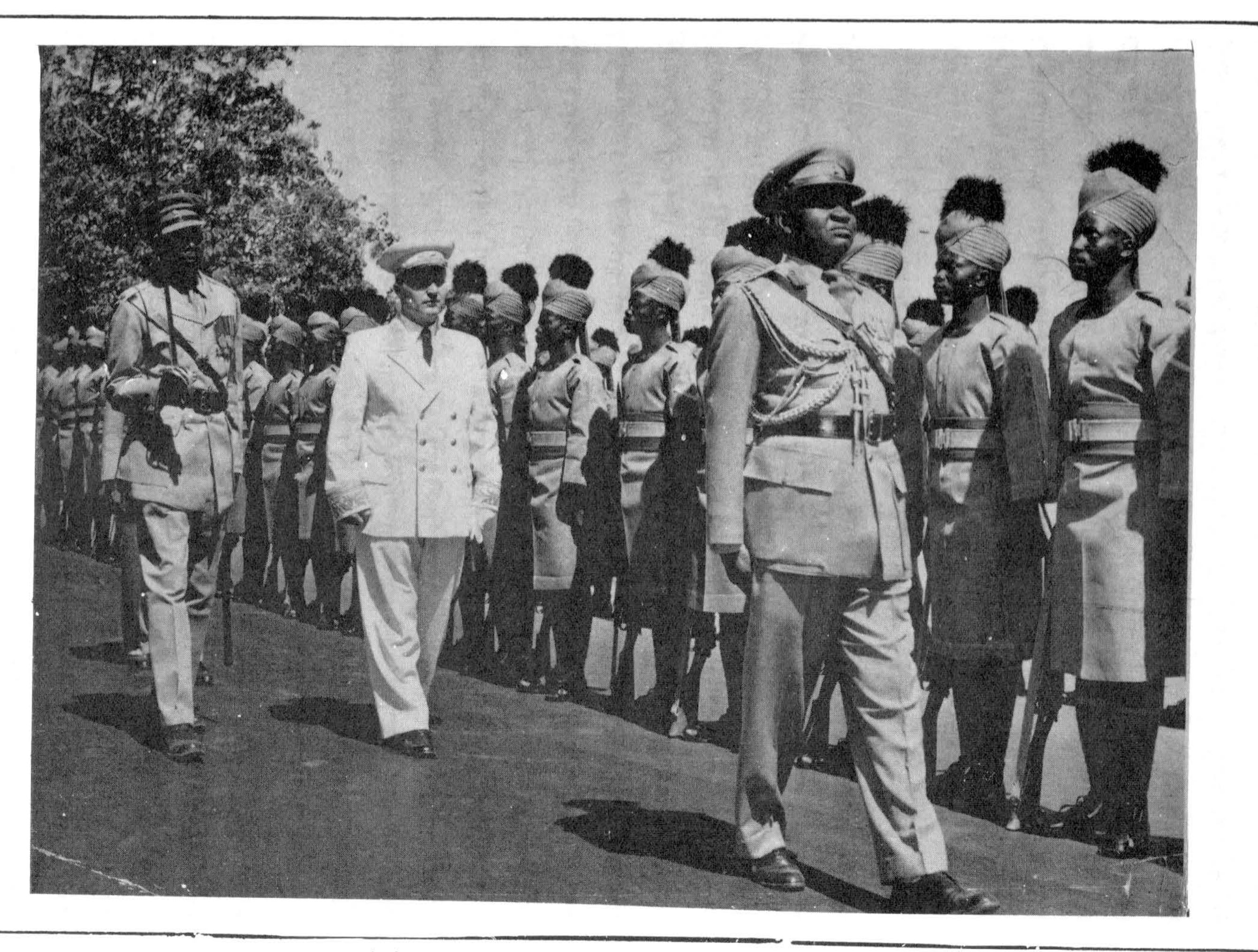
غير أن السيد علي الميرغني الذى حضر الجلسة الافتتاحية بوصفه عضواً فخرياً سرعان ما اتخذ موقفاً سلبياً تجاه المجلس الاستشاري وصل الى حد المقاطعة في نظر المسئولين البريطانيين في الخرطوم . وتذرع السيد الميرغني في موقفه بأن المجلس الاستشارى خطوة سابقة لأوانها لأن السودانيين لم يبلغوا المرحلة التي تؤهلهم لذلك . وربما تضايق المسئولون البريطانيون من جراء مقاطعة السيد الميرغني للمجلس الاستشاري ولكن تبريره لها كان عليهم برداً وسلاماً لأنه يتفق مع رأي معظم المسئولين البريطانيين وخاصة حكام المديريات ويدحض في الوقت نفسه ادعاء المؤتمر بأن المجلس الاستشاري خطوة غير كافية . وفي الحقيقة أن حكام المديريات البريطانيين وأعوانهم من مفتشي المراكز لم يبدوا ارتياحاً لقيام المجلس الاستشاري لنفس الأسباب التي ساقها السيد الميرغني رغم تسليمهم بمبدأ انتقال السلطات تدريجياً الى السودانيين وتوسيع دائرة اشتراكهم في حكم بلادهم . وورد الحاكم العام الذي كان حريصاً على قيام المجلس على أولئك الحكام وأعوانهم بأنهم « لا يستطيعون تدريب الصبي على السباحة في حوض لا ماء فيه » . ومهما كان الأمر فان السيد علي الميرغني – الذي كان خلال الحكم الثنائي من الناحية الرسمية أعلى درجة من غريمه السيد المهدي زعيم الأنصار – كان حريصاً حتى تلك المرحلة على تجنب الدخول في مجابهة مكشوفة ضد البريطانيين وحريصاً أيضاً من الناحية الأخرى على استرضاء مصر حليفته التقليدية التي أخذت شكوكها في نوايا البريطانيين ازاء السودان تزداد وتتجسم آنذاك يوماً بعد يوم وكانت مصر ترى في قيام المجلس الاستشاري بالذات سياسة مبيتة لفصل السودان عنها وتقويض أى أمل في تحقيق وحدة وادي النيل . لقد كان السيد الميرغني في موقف حرج للغاية ولكن من أقدر منه على الاحتفاظ بالبيض والحجارة في سلة واحدة ؟ ؟ لقد أرضي بموقفه الأخير من المجلس الاستشارى الذى كشف عن حنكته ودهائه كل الأطراف المتناقضة التى يهمه أمرها – مصر والبريطانيون ومؤتمر الخريجين .

وتناول المجلس الاستشارى فى نطاق صلاحياته المحدودة تشكيلة كبيرة من القضايا مثل الجنسية السودانية ومستقبل مشروع الجزيرة والتعليم والسودنة (انتقال السلطات) والأوضاع المالية والتنمية الاقتصادية والصناعة والخفاض الفرعوني . وأصدر المجلس قرارات بشأنها رفعت في قالب توصيات إلى الحاكم العام . بعض تلك القضايا تفضلت الحكومة بعرضها على المجلس والبعض الآخر ادرجت فى جدول أعماله بمبادأة من الأعضاء السودانيين . وواضح ان معظمها كان ضمن المطالب الاثنى عشر التى تقدم بها مؤتمر الخريجين فى مذكرته الى الحاكم العام الذي لم يكتف برفضها جملة وتفصيلاً في صلف وعنت وانما رفض حتى مجرد الاحتفاظ بالمذكرة وشنها حرباً شعواء على قيادة المؤتمر وأعضائه . ومهما كانت الأسباب فأن سماح الحاكم العام للمجلس الاستشاري بمناقشة مطالب المؤتمر يعني اقتناع الحكومة – الذى جاء متأخراً – بان تلك المطالب تمثل كما أكد له المؤتمر من قبل تطلعات السودانيين وآمالهم وتحظى بتأييد جميع طبقات الشعب السوداني التي يتحدث المؤتمر باسمها جميعاً . ويضيق

المجال هنا لاستعراض مداولات المجلس الاستشارى حول القضايا التى نوقشت فيه ولكن حسبنا الاشارة الى اثنتين منها كانتا ضمن مطالب المؤتمر الاثنى عشر هما الجنسية السودانية ومستقبل مشروع الجزيرة الذى كانت تديره حتى ذلك العهد شركة بريطانية وتتحكم من خلاله فى التوجهات والسياسات الاقتصادية فى السودان لأن هذا المشروع (مليون فدان) هو عصب الاقتصاد السودانى ويشكل ربع انتاجه من الأقطان ثلثى ايرادات الخزانة العامة . وقررت الحكومة على ضوء توصيات المجلس الاستشارى عدم تجديد الامتياز الممنوح للشركة البريطانية عند انتهاء أمده فى عام ١٩٥٠ وتأميم مشروع الجزيرة ليصبح ملكاً خالصاً للسودان .

أما قضية الجنسية السودانية فقد كانت معقدة للغاية نظراً لارتباطها الوثيق باتفاقيات الحكم الثنائى وقد امتنعت الحكومة فى بادئ الأمر عن السماح لخمسة من أعضاء المجلس الاستشارى السودانيين باثارتها فى المجلس تحسباً من اثارة مخاوف المصريين وتأكيد اتهامهم التقليدى للمسئولين البريطانيين بتشجيع الحركة الانفصالية المناوئة لوحدة وادى النيل فى السودان كما أن أى قرار يتخذه المجلس الاستشارى حتى وان كان فى قالب التوصية يعتبر غير دستورى حسب نصوص اتفاقيات الحكم الثنائى التى تجاهلت عن عمد تحديد الهوية السودانية وحالت فى الوقت نفسه دون اعتبار السودانيين رعايا مصريين أو تابعين للامبرطوية البريطانية . غير أن حكومة السودان سمحت فى النهاية بمناقشة قضية الجنسية فى المجلس الاستشارى خلال دورته الثانية باعتبار المجلس الناطق الدستوري – فى نظر حكومة السودان – باسم السودانيين وقد اهتدت الحكومة عند سن قانون الجنسية السودانية بالآراء التى طرحت خلال مداولات المجلس الاستشارى . ولم تكن تلك المرة الأولى التى تثار قضية الجنسية السودانية فى غير أروقة المجلس الاستشارى فقد كانت ضمن المطالب التى تقدم مؤتمر الخريجين بها فى مذكرته كما أوضحنا من قبل وظلت الصحافة السودانية تتناولها منذ عام ١٩٣٨ ونشرت الصحافة المصرية خلال عامي ١٩٣٩ و١٩٤٠ فى اطار الدعوة لوحدة وادى النيل تعليقات بشأن الجنسية السودانية .

وتنامي الشعور بالقومية السودانية خلال سنوات الحرب العالمية الثانية كنتيجة طبيعية وحتمية لدور السودان فيها . وأسهم في اذكاء ذلك الشعور التشكيل القومى الذى خاضت قوة الدفاع به لأول مرة تلك الحرب داخل السودان وخارجة وهو التشكيل الذى تخلت قوة الدفاع فيه عن الاعتبارات القبلية والجهوية التي ظلت تخضع لها منذ نشأتها والتي ظلت فى واقع الامر تتحكم فى سائر التشكيلات العسكرية التي خاض المقاتل السودانى بها الحروب منذ القدم بما فى ذلك حقبة المهدية وتمسكت الادارة البريطانية بها في عهد الحكم الثنائي حتي الحرب العالمية الثانية تنفيذاً لسياسة « فرق تسد » . وفي ظل ذلك التشكيل القومي الجديد لقوة الدفاع السودانية وحدت رفقة السلاح والمرابطة فى خندق واحد ضد عدو مشترك بين رجالها من مختلف بقاع السودان وكان ذلك تجسيداً صادقاً لروح القومية



طابور شرف من الهجانة لاستقبال أول سفيرسوفياتى إلى الخرطوم

السودانية وحافزاً لتغلغلها فى المدن والأرياف والبادية . وكانت الأغانى الشعبية فى السودان قاصرة – كما ذكرنا من قبل فى فصل سابق – على التغنى بالبطولات القبلية واختفت هذه الظاهرة خلال سنوات الحرب العالمية الثانية وحلت مكانها أغان سودانية قومية . فالى جانب أغنية « رجال الحدود دافعوا عن وطن الجدود » راجت فى تلك الحقبة أغان مماثلة يرددها الكبار والصغار فى الشارع وفى الجلسات الخاصة وبيوت الأفراح مثل :

* « سُودانى الْجُوَّ وجْدانى » التى صاغ كلماتها الأستاذ عبد القادر تلودى من أساتذة كلية غوردون التذكارية .

* « لَىْ غَرَامْ وأَمَانِي فى سموك ومجدك عشت يا سودانى » من كلمات على حامد البدوى من موظفى دائرة البريد والبرق فى الخرطوم .

* « السودان يا بلدنا . نِحْنَ فيكْ اِتْولَدْنا . كَانْ عِرِبْانْ ولْلاَنُوبَةْ . كُلْ ماَ قَامَتْ صُعُوبَةْ . تِتْهَدَّمْ طوبة طوبة » . هذه مقاطع من أغنية مطلعها (طال الليل للمسافر) نظمها المهندس علي نور شاعر المؤتمر .

وهنالك أغان شعبية كثيرة بعضها ظهرت كالنبت الشيطانى لا يعرف ناظموها وأخرى من نظم شعراء الأغانى السودانية التقليديين كابراهيم العبادى وسيد عبد العزيز وعبد الرحمن الريح والصاغ محمود أبو بكر . وكلها أغان تدور حول بطولات رجال قوة الدفاع فى ميادين القتال وتشيد بانتصاراتهم فى آريتريا واثيوبيا والصحراء الليبية .

هذا عن قضية الجنسية السودانية التى طالب بها المؤتمر وناقشها المجلس الاستشارى فى دورته الثانية حيث وضع الأسس التى قام قانون الجنسية عليها بعد انتهاء الحرب . أما حق تقرير المصير الذى كان على رأس مطالب المؤتمر فقد ظل بقرة مقدسة لم تسمح الحكومة للمجلس الاستشارى بمسها من قريب أو بعيد ولم يتغير موقفها الأول الذى عبرت عنه فى رسائلها الى الأستاذ ابراهيم أحمد عندما كان رئيساً لمؤتمر الخريجين وباءت بفشل ذريع المحاولات العديدة التى بذلها أعضاء المجلس السودانيين لادراج ذلك ضمن جدول الأعمال وكانت آخرها المحاولة التى قامت بها مجموعة منهم بزعامة الأستاذ مكي عباس . ويروى دوغلاس نيوبولد السكرتير الادارى ورئيس المجلس الاستشارى أن الاستاذ مكى زاره فى منزله وأبلغه أنه يريد مع زملائه اثارة موضوعين فى المجلس الاستشارى يتعلق أولهما بانتقال السلطات الى السودانيين أما الثانى فقد دارت المحادثة التالية بين الاثنين –

مكي – هل فى امكاننا المطالبة بألا يحسم مستقبل السودان دون استشارة السودانيين ذوى المسئولية ؟

نيوبولد – نعم هذا معقول جداً . ولابد من أن أطالب بما تطالبون اذا كنت فى مكانكم وقد عبرت الحكومة عن موافقتها على ذلك فى رسالة منى الى مؤتمر الخريجين فى عام ١٩٤٢ .

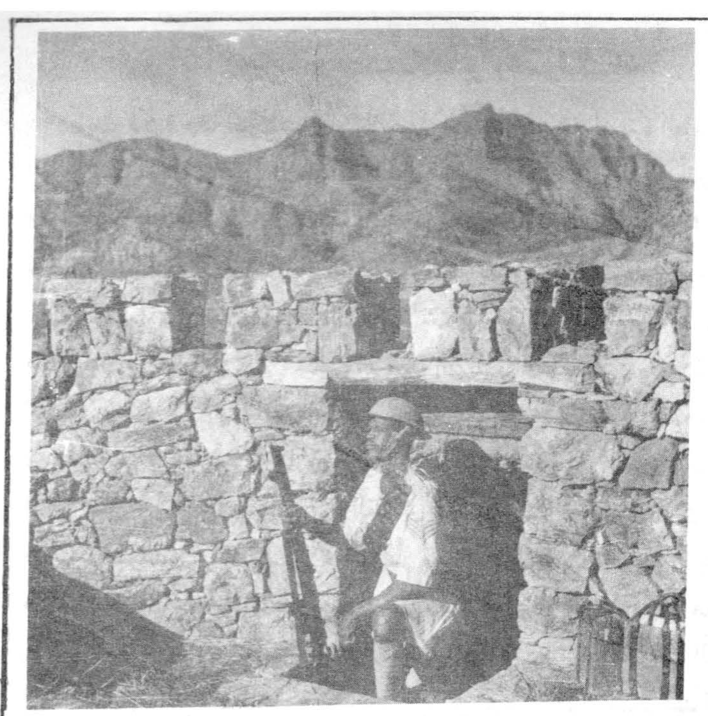
مكي – ذلك كان تأكيداً من حكومة السودان باستشارتنا ونعلم أن هذا موقفكم ولكن هل سوف تستشيركم مصر وبريطانيا فى الوقت المناسب لكي تستشيرونا بدوركم ؟ ؟ اننا نريد ضماناً من دولتى الحكم الثنائى بأنهما لن تتخذا قراراً انفرادياً أو ثنائياً يتعلق بنا قبل اعطائنا الفرصة للتعبير عن آرائنا .

نيوبولد – أنا مدرك لهذا واعترف بأن ثمة خوفاً من امكانية دخول وزارة الخارجية البريطانية نتيجة ضعفها أو انشغالها بأمور أخرى فى اتفاق مع مصر لا نريده سوياً . وأوكد لكم أن هذا ليس غائباً عن بال الحاكم العام وأشاركه فى ذلك وهو واحد من أسباب زيارتنا المزمعة الى لندن فى صيف هذا العام . ولا أعلم إن كان ما تطالبون بعرضه على المجلس الاستشارى يعتبر مناسباً لأن الحاكم العام لا يستطيع اعطاء أى ضمان نيابة عن دولتى الحكم الثنائى . ولكنكم – أيها الشباب – على حق فى المطالبة به واقترح أن تكتبوا رسالة لى بوصفى السكرتير الادارى أو رئيس المجلس تعربون فيها عن مخاوفكم وسأتباحث مع الحاكم العام حول ما نفعله بها . وهذه الرسالة – على أية حال – ستدعم موقفنا فى لندن. وفى الواقع أن بريطانيا غير ميالة للأعتراف بحق السودان فى تقرير مصيره خوفاً من أغضاب المصريين والحرب فى عنفوانها

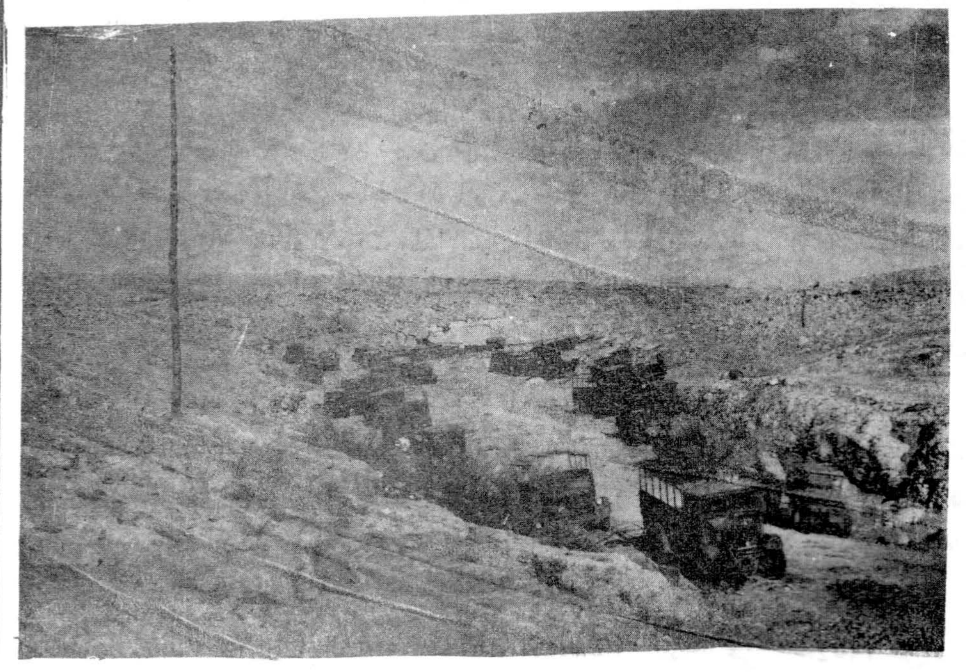
وظل حق السودان فى تقرير مصيره عظمة النزاع بين دولتى الحكم الثنائى والحركة الوطنية بقيادة مؤتمر الخريجين طيلة سنوات الحرب وبقى هذا الوضع الى أن أبرمت الاتفاقية المصرية البريطانية فى فبراير عام ١٩٥٣ وقد سبقتها مشاورات بين الأحزاب السودانية القائمة آنذاك وطرفى الحكم الثنائى وجاء فى مقدمة تلك الاتفاقية –

« لما كانت الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة لبريطانيا وشمال ايرلندا تؤمنان ايماناً راسخاً بحق الشعب السودانى فى تقرير مصيره وممارسته له ممارسة فعلية فى الوقت المناسب وبالضمانات اللازمة اتفقنا على ما يلي .... » واختزلت حكومة الأزهرى بتأييد من المعارضة وموافقة دولتى الحكم الثنائى (مصر وبريطانيا) الاجراءات التى حددتها الاتفاقية لممارسة السودانيين حقهم فى تقرير المصير وأعلنت من داخل برلمان الحكم الذاتى استقلال السودان فى اليوم الأول من يناير ١٩٥٦ . ومنذ ذلك التاريخ أصبح السودان جمهورية مستقلة ذات سيادة بحدودها الجغرافية التى دافع السودانيون عنها وعن جيرانه فى الشرق والشمال بجيشهم وسائر امكانياتهم المادية والمعنوية . وكانت تلك أعظم وألمع حقبة فى تاريخ السودان القديم والمعاصر ومن حقنا أن نفاخر بها على مدى الأجيال والله ولي التوفيق وله الحمد من قبل ومن بعد .

محمد خير البدوى



من المواقع السودانية
في كـرن



وادى القوندوران

شكـــر وعـرفـــان

ظلت فكرة هذا الكتاب تراودنى منذ الأربعينات خلال فترة العامين اللذين قضيتهما سجيناً فى الدامر بسبب دورى فى الأحداث الدامية التى وقعت فى مدينة أتبرا اثر قيام الجمعية التشريعية وكان المركز العام لمؤتمر الخريجين فى أم درمان قد أوفدنى إلى هناك مع المرحوم محمد نور الدين لتنظيم حركة مقاطعة انتخابات الجمعية التشريعية . والتقيت فى السجن بمجموعة من السجانين الذين عملوا فى قوة الدفاع السودانية خلال الحرب العالمية الثانية وشدتنى منذ ذلك التاريخ ذكرياتهم عن المعارك التى خاضوها ضد القوات المحورية فى جبهة شرق افريقيا ثم فى الصحراء الليبية . وأذكر من تلك المجموعة سيد أحمد عمر ضابط السجن والسجانين رمضان نمر وصباح الخير وعطا السيد الرباطابى وجبارة مضوى والسجين حسن على الذى كان يقضى آنذاك فترة السجن المؤبد التى حوكم بها بسبب دوره القيادى فى حادث الإصطدام الذى وقع فى أسمرا بين الأحباش والجنود السودانيين . فالى هؤلاء وغيرهم من أسرة سجن الدامر أتقدم بالشكر والامتنان وكذلك إلى من ساهموا بالتوجيه والتشجيع عندما عقدت العزم على إخراج فكرة هذا الكتاب إلى حيز الوجود ومن بين هؤلاء العميدين المتقاعدين عبد المنعم عبد السلام الخليفة والزين حسن الطيب هاشم واللواء المتقاعد عوض عبد الرحمن صغير واللواء محمد عبد الله عويضة مدير فرع التوجيه المعنوى بالقوات المسلحة السودانية والأساتذة أحمد السيد حمد وبشير محمد سعيد ونصر الدين شلقامى والبروفيسور يوسف بدرى الذى استفدت من مكتبته العامرة وتفضل بكتابة المقدمة .

وقد وردت فى الكتاب أسماء كثيرين من الرجال السودانيين وغير السودانيين الذين أعلم أن بعضهم قد قضوا نحبهم وآخرين – أطال الله أعمارهم – لا يزالون على قيد الحياة ولكن هنالك من لا أعلم أن كانوا من الأحياء أم الأموات ولهذا السبب أغفلت عن عمد وخوفاً من الإلتباس والإحراج وربما من الإخلال بالسرد عبارات الدعاء التقليدية بالرحمة والغفران لذلك أرى لزاماً على الاعتذار داعياً الله العلى القدير أن ينزل شبآبيب رحمته على كل من ورد اسمه ممن فارقوا الحياة وأن يجعل الجنة مثواهم .

وهذا الكتاب هو فى الواقع حصيلة جولة ماراثونية بين العديد من الكتب والوثائق والمدونات المودعة فى مكتبات خاصة أو فى جامعتى ديرام وأوكسفورد والمتحف الحربى البريطانى بالإضافة إلى المعلومات التى أمدنى بها بعض من عاصروا فترة الحرب العالمية الثانية من السودانيين والضباط والاداريين البريطانيين وقد وجدت أعظم عون لى فى المراجع التالية :–

١- كتاب السودانى المقاتل THE FIGHTING SUDANESE الصادر في عام ١٩٥٤ عن دار ماكميلان للنشر ومؤلفه هو المستر جاكسون H.C. JACKSON حاكم مديريتى بربر وحلفا سابقاً .

- كتاب نشأة السودان المعاصر THE MAKING OF THE MODERN SUDAN الصادر عن دار فيبر وفيبر FABER & FABER LTD البريطانية وهو عبارة عن سيرة حياة سير دوغلاس نيوبولد والرسائل المتبادله بينه وبين شخصيات عديدة .

- كتاب قصة قوة الدفاع السودانية THE STORY OF THE SUDAN DEFENCE FORCE الصادر فى عام ١٩٨٦ وهو عبارة عن مجموعة من ذكريات الضباط البريطانيين الذين عملوا فى قوة الدفاع السودانية أشرف على تجميعها الأميرالاى جون أورليبار بك .

- كتاب على مشارف الصحراء الغربية EASTERN APPROACHES بقلم فترروى ماكلين FITZ ROY MACLEAN

- كتيبان من مطبوعات حكومة السودان (مكتب الاتصال العام) أحدهما بعنوان ميليشيا المروج بقلم البمباشى بيتون A.C. BEATON والثانى بعنوان الحرب فى كسلا بقلم كينيدى كوك KENNEDY COOK — KASSALA AT WAR

- التقرير الرسمى البريطانى عن الحرب العالمية الثانية .

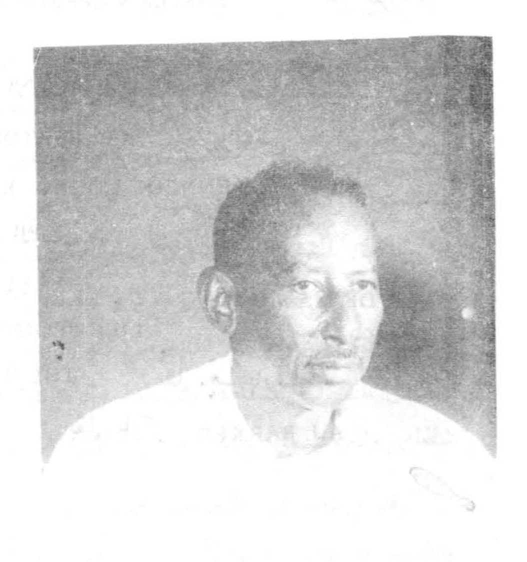
- مجلة سلاح المهندسين البريطانى فى سبتمبر ١٩٤٤ .

- كتاب الحياة تبدأ مبكرة للغاية LIFE BEGINS TOO EARLY بقلم جاك دى مانيو JACK DE MANIO

- كتاب رياح الصباح THE WIND OF MORNING بقلم هيو باوستيد

- كتاب اريتريا ١٩٤١ ERITREA :1941 بقلم باركر A.J. BARKER

تبرعت أسرة مطبعة التمدن المحدودة بالخرطوم بجمع صفحات هذا الكتاب «كومبيوتريا» هدية منها الى الشعب السودانى وصدقة يذهب أجرها لروح كلٍ من المغفور لـه (الحاج أبوزيد خليفة) رائد الطباعة فى السودان وإبنه الشهيد (عمر أبوزيد) رحمه الله الذى حمل راية التجديد فى دنيا الطباعة الى أن عاجلته المنية فسقط كالفارس فى أرض المعركة. فأكرم بهما من فقيد وشهيد خدما الحرف ذروة الأعجاز فى القرآن ومنه «الكلمة» مِركبة العلم والمعرفة والأيمان.



المرحوم
الحاج أبوزيد خليفة



المرحوم
عمر أبوزيد خليفة

تفضل السيد الفريق عمر حسن أحمد البشير (رئيس مجلسىْ الثورة والوزراء والقائد العام) بطبع هذا المؤلَّف على نفقة الدولة بإعتباره تُراثاً قومياً وتسجيلاً لحقبة مضيئة من تاريخ السودان وقواته المسلحة.

وبهذا التوجه الأصيل لثورة الانقاذ الوطنى وهى تدفع بتأصيل التاريخ السودانى وأمجاده لا يسعنى إلا أن أزجى لقائد الثورة الشكر والتقدير والعرفان.

محمد خير البدوى

مواقف وبطولات سودانية
في الحرب العالمية الثانية

محتويات الكتاب